السبك الفريد

شرح

كتاب التوحيد

للإمام المجدد شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(١٣٠٧هـ - ١٣٧٦هـ)

شرحه فضيلة الشيخ العلامة الدكتور

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم الجبرين

(حفظه الله ورعاه)

اعتنى به وعزا آياته وخرج أحاديثه

أبو أنس علي بن حسين بن خليل أبو لوز

الجزء الثاني

دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

السبك الفريد

شرح

كتاب التوحيد

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

مدار الوطن للنشر - الرياض

هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس: ٤٧٢٣٩٤١ ـ ص.ب: ٣٣١٠
فرع السويدي: هاتف: ٤٢٦٧١٧٧ ـ فاكس: ٤٢٦٧٣٧٧

ـ البريد الإلكتروني: Pop@dar-alwatan.com

ـ موقعنا على الإنترنت: www.madar-alwatan.com

[٢٣]

باب:

ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

وقال جابر: الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد.

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وعن جندب مرفوعاً: «حد الساحر: ضربة بالسيف»، رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

وفي صحيح البخاري، عن بجالة بن عبدة، قال: كتب عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

وصح عن حفصة: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت.

وكذا صح عن جندب.

قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

● **فيه مسائل:**

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر فكيف بعده؟

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في السحر

السحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطف سببه.

وفي الشرع: عقد ورقىٰ وتعويذات يتوسل بها إلىٰ الإضرار بالمسحور ونحوه، فمنه ما يقتل، ومنه ما يمرض، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه.

ولا شك أن السحر معروف، وأنه واقع، وذلك لأمور:

أولاً: أن الله أمر بالاستعاذة من شره، بقوله: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ [الفلق: ٤].

ثانياً: أن الله ذكر نوعاً من فعلهم، بقوله: ﴿**مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثالثاً: وقوع ذلك من حيث الأصل، فإنه قد وقع منه قصص مشهورة ومعروفة، لا يسع المجال إلىٰ ذكرها، ومن أراد الاطلاع عليها وجدها في بعض الكتب المطبوعة.

رابعاً: أن عمل السحر أو ضرره لا يخرج عن إرادة الله، لقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٠٢]، والإذن هنا: هو الإذن الكوني القدري، لا الإذن الشرعي؛ لأن الله لم يأذن به شرعاً، ولم يحبه، ولكنه أرداه كوناً وقدراً؛ لأنه لا يكون في الوجود إلا ما يريد سبحانه وتعالىٰ.

وهناك من ينكر وقوع السحر ويدعي أنه خيالات، وتوهيمات، مثل طائفة

من المعتزلة، أو أغلب المعتزلة ينكرون ذلك، وأكثر ما يتشبثون به قصة سحرة موسىٰ، لما ذكر الله نوعاً من عملهم في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، قالوا: فهذا فيه ذكر خيال، ونحوه.

لكن لا مانع إذا كانت أعمال هؤلاء خيالية، أن يكون هناك سحرة يقع سحرهم ظاهراً، ويحدث منه تغيرات أو أضرار، ونحوها.

● ولكن كيف يتمكن الساحر من الإضرار بالمسحور؟ وكيف يصل إليه؛ مع أنه بشر مثلنا، فكيف يعمل هذا العمل؟

نقول: عمل السحر: إنما هو بواسطة الشياطين، فإن الشياطين هم الذين يعلِّمون هؤلاء هذا السحر، ويعينونهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهم الذين يعلِّمونه، ثم فعله إنما هو أيضاً بإعانتهم، وتقويتهم، ومساعدتهم، فهم الذين يعينون الساحر علىٰ الإضرار بذلك المسحور، أو ذلك الإنسان إلىٰ أن يحصل: إما تغيراً في خلقته، وإما تغيراً في جبلته، أو في طبيعته، بأن يبغض محبوبه، أو يزداد في حبه، أو ما أشبه ذلك.

فمن إضرارهم كما أخبر الله تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: أنهم قد يصلون إلىٰ أن يوقعوا الفرقة بين الزوجين، بأن يُبَغِّضُوا كل واحد منهما إلىٰ الآخر، أو يوقعوا بينهم محبة زائدة، وهو ما يسمونه: بالعطف: وهو تحبيب الزوجين أحدهما إلىٰ الآخر، ومنه ما يسمونه: بالتولة: التي هي شيء يصنعه السحرة، يزعمون أنه يحبب المرأة إلىٰ زوجها والرجل إلىٰ امرأته.

والعامل والمؤثر في ذلك هو الشيطان الذي يلابس الإنسان، فإن السحرة

استخدموا الشياطين، فخدمتهم، فصارت هي التي تعمل هذه الأعمال الغريبة العجيبة التي قد يظهر منها أنها مخالفة لقدرة البشر.

والسحرة لا تخدمهم الشياطين إلا بعد أن يطيعوها، فإن الشيطان يخدم من يطيعه؛ لذلك فالسحرة يعبدون الشياطين، ويطيعونهم في معصية الله، حتى تصير الشياطين طوع إشارتهم.

وعبادة الشياطين تتمثل في الذبح لهم؛ لأن كثيراً من السحرة يذبحون باسم الشيطان، إما ظاهراً، وإما خفيّاً، ، وقد يذبحون لهم ذبحة غير شرعية، بأن يذبحوا لهم من الخلف، أي: القفا، أو بطريقة مغايرة للذبح الشرعي، وقد يذبحون كبشاً أو طائراً أو نحو ذلك باسم هؤلاء الشياطين.

وكثير من السحرة لا تطيعه الشياطين إلا إذا عمل أشياء منكرة؛ فلذلك تجده يلابس النجاسات، ويلوث بدنه بالأبوال وبالعذرة، وما أشبه ذلك؛ لأن الشياطين تألف الأقذار ونحوها، فعند ذلك تطيعه، ولو أنه تظاهر بضد ذلك أمام الناس.

وكثير من السحرة يدعو الشياطين فيحفظ أسماءهم، ويدعوهم في مناسبات، وفي خفية؛ إما بقلبه، وإما بلسانه، فالشياطين تخبره بما يريد، إما صرفاً أو عطفاً وإما عقداً أو غير ذلك.

وكذلك ـ أيضاً ـ إذا حفظ أسماءهم طلبهم؛ إما بقلبه، وإما بلسانه، أن يطيعوه، وأن يفعلو لهذا أمراً ما يرضاه، أو يفعلوا ضد هذا أمراً ما يكرهه، أو ما أشبه ذلك.

ومعروف أن الشياطين والجن لهم قدرة على التشكل بصور مختلفة،

فيتشكل ويتمثل الشيطان في صورة وحش، وفي صورة وعل، وفي صورة حمار، وفي صورة حيوانات أخرىٰ، ويتمثل - أيضاً - في صورة جمادات من نخل أو شجر، أو نحو ذلك، فإذا لابس ذلك المسحور ونحوه، وهو بهذه الهيئة وتمكن منه وبقي علىٰ تلك الحال فقد يقلبه مثلاً حماراً أو نحو ذلك، ويبقىٰ علىٰ هذه الهيئة مدة، فنعرف بذلك أن هذا كله بسبب أنهم خدموا الشياطين فأطاعتهم، وما أطاعتهم إلا لما أشركوا بالله وعصوه.

وكثير من السحرة أيضاً لا تطيعه الشياطين إلا إذا ترك العبادات، وإذا أكل الحرام، وترك الصلوات وهجرها، وعكف علىٰ المحرمات، فعند ذلك تعرف الشياطين أنه من أوليائها وأنه ولي الشياطين، وليس بولي للرحمن.

● **ولكن كيف نتحصن من السحرة، ومن أعمالهم؟**

نقول: التحصن منهم إنما يكون بالعبادات، ويكون بطاعة الله وبتلاوة كتابه، وبالإكثار من ذكره، وبنحو ذلك.

فأولاً: قراءة السور الخاصة، كالمعوذتين، وسورة الإخلاص، وآية الكرسي، وأول سورة البقرة، وآخرها، وأول سورة آل عمران، وآخر سورة الحشر، وما أشبهها، وتكون قراءة هذه الآيات عن عقيدة وعن معرفة وتصديق.

وثانياً: الأدعية النبوية المأثورة، ولابد أيضاً مع ذلك من العمل بها، فلا تكفي مجرد قراءتها، بل لابد من العمل بها، وتطبيقها، ولابد أيضاً من العقيدة الصحيحة؛ والاعتقاد بصحة ما جاء به هذا الرسول ﷺ، وتطبيق ذلك في الأقوال والأعمال.

وبذلك يكون العبد مع هذه الأشياء من الذين حصنوا أنفسهم فلا يؤثر فيه

سحر السحرة، ولا شعوذة المشعوذين، ونحو ذلك؛ لأن الشياطين تنفر من ذكر الله، بل ربما تحترق من ذكر الله تعالىٰ.

فلو أن هؤلاء الضعفاء تحصنوا بالذكر من الأصل لما وصل إليهم ضرر هؤلاء المشعوذين والسحرة، ونحوهم، ولكن ما أصابهم شرهم وكيدهم إلا أنهم غفلوا عن الله، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، وسلط عليهم أعداءهم.

فهذا ونحوه من الأسباب التي تحصن الإنسان من أعمال الكفرة والسحرة، والله تعالىٰ أعلم.

وبعد هذه المقدمة نأتي على شرح الآيات والآثار في هذا الباب.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾** [البقرة: ١٠٢]]:

الضمير في قوله: **﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾** يعود علىٰ السحر الذي يتعلمونه، ومعنىٰ: **﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾**؛ أي: من استبدله، أو من تحصل عليه، وعبر بالشراء كأن ذلك الذي يحصل عليه أو يتعلمه، كأنه باع به دينه وحظه؛ ولهذا قال: **﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾**، كأنه اشتراه بثمن، وذلك الثمن هو دينه، فاشترىٰ ذلك السحر بدينه، واشتراه بحظه من الآخرة، واشتراه بنصيبه، ولهذا قال: **﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾**؛ أي: ليس له حظ ولا نصيب.

وهذا دليل علىٰ أن السحرة خاسرون في الأصل، ولو حصلوا من الدنيا علىٰ أوفر نصيب، ولكن الخسران هو خسران الدين، فقد خسروا آخرتهم، وخسروا عبادتهم، وخسروا ديانتهم، وذلك هو الخسران المبين.

■ **قوله: [وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾** [النساء: ٥١].

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان[١].

وقال جابر: (الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد)[٢]]:

هذه من صفات اليهود؛ فاليهود هم الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت، وقد تقدم تعريف الجبت بأنه: السحر، أو الشيء الردئ الذي لا حقيقة له، والطاغوت: الشيطان، أو الكاهن، أو المعبود من دون الله.

وقد جاء تعريف الجبت والطاغوت عن عمر رضي الله عنه فقال: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

وإطلاق الجبت على السحر من إطلاق الكل على البعض، لأنه بعض منه، لا أنه كله؛ يعني: الجبت يدخل فيه أشياء غير السحر، ولكن جله وأكبره هو السحر.

والذين يؤمنون بالجبت والطاغوت هؤلاء معذبون، كما في الآية: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾** [النساء: ٥١، ٥٢]، فهذا جزاء هؤلاء الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت.

* وأما كلام جابر رضي الله عنه: (الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد).

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣/ ١٣، ٥/ ٨٣)، وابن أبي حاتم وأبو القاسم والبغوي، كما في تفسير ابن كثير (١/ ٣١١)، وعلقه البخاري بصيغة الجزم، وقال ابن حجر في الفتح (٨/ ١٠٠): إسناده قوي.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/ ١٣). وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير (١/ ٥١٢)، والدر المنثور (٢/ ٢٢)، وفتح الباري (٨/ ١٠٠)، وعلقه البخاري (٨/ ٢٥١).

يريد أن العرب قبل الإسلام كانوا يسمون الطاغوت: كاهناً، وعرافاً، وعارفاً، ونحو ذلك، وهو في الحقيقة طاغوت، أو كاهن، أو ما أشبه ذلك.

* **ثم ذكر المصنف عدة أحاديث:**

■ **الحديث الأول**: قوله: [**وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»**(١)]:

قوله: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، أي: ابتعدوا عنها، وهو أبلغ من قوله: اتركوا، والسبع: هي الكبائر السبع، والموبقة، أي: المهلكة، والإيباق: الإهلاك؛ أَوْبَقَتِ الشيء؛ أي: أهلكته، وأوبقتهم سيئاتهم، أي: أهلكتهم، وأوبقه كفره، يعني: أهلكه.

فالسبع الموبقات، يعني: المهلكات، وهي: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

● **وهذه السبع لا شك أنها من كبائر الذنوب:**

فأولاً: «الشرك بالله»:

بدأ ﷺ بذكر أول هذه الكبائر وهو: الشرك بالله؛ لأنه أكبر الكبائر، وهو الذنب الذي لا يغفر، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ١١٦]؛ ويعم الشرك كبيره وصغيره، خفيه وجليه، فإنه كله لا يُغفر، يعني: لا يغفر الله أن يُشرك به بشيء صغير أو كبير.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٦٦)، ومسلم برقم (٨٩).

أما الدليل على أن الشرك بالله ذنب كبير، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثانياً: «والسحر»:

ذكرنا فيما مضى أن السحر من عمل الشيطان، وعرفنا أيضاً أن الساحر لابد أن يكون مشركاً؛ لأنه يعبد الشيطان ويتقرب إليه ويدعوه من دون الله، ونحو ذلك؛ لكن خصّه مع كونه داخلاً في الشرك؛ لأنه كان مشهوراً فنبه عليه، كأنه قال: إن الشرك هو ما تعرفونه من جعلكم لله شركاء، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ [الأنعام: ١٣٦]، فكان الشرك عندهم اسماً لما يقربونه إلى أوثانهم، وجعلهم شركاء لله، وكأن السحر عندهم هم هؤلاء السحرة الذين يتقربون إلى الشياطين، ويرون أن عملهم ظاهراً لا شيء فيه، ولكن هم في الباطن مشركون.

والدليل على أن السحر ذنب كبير هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثالثاً: «وقتل النفس»:

ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]؛ حيث توعد الله القاتل بهذه الخصال:

أولاً: بالخلود في النار.

ثانياً: باللعن.

ثالثاً: بالغضب.

رابعاً: بالعذاب العظيم.

وهذا وعيد شديد.

ومن أجل هذه الآية ذهب بعض السلف إلىٰ أن القاتل في النار، وأنه لا تقبل توبته.

ولكن الصحيح: أنه تقبل توبته إذا تاب توبة صادقة نصوحاً، وإنما هذا في حق المستحل، أو من لم يتب، أو نحو ذلك.

وذكر بعض العلماء أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله، وحق للمقتول، وحق لأولياء المقتول.

فأما حق الأولياء: فيسقط بالعفو، أو بأخذ الدية، أو بالقصاص.

وأما حق الله: فيسقط بالتوبة الصادقة.

ويبقى حق المقتول: فإن هذا القاتل اعتدىٰ علىٰ إنسان معصوم الدم، فأراق دمه، وأزهق روحه بغير حق، ولا شك أن له حقّاً علىٰ قاتله، كما ورد في بعض الأحاديث أنه يؤتىٰ بالمقتول فيتعلق بالقاتل يوم القيامة، ويقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟[1]، وأخبر النبي ﷺ أن أول ما يقضىٰ بين الناس يوم القيامة في الدماء[2].

فحق المقتول إذا تاب العبد توبة صادقة، فإن الله تعالىٰ يتحمله عن عبده

---

(١) أخرجه النسائي برقم (٤٠٠٩)، عن جندب عن فلان ـ صحابي ـ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي برقم (٣٧٣٢، ٣٧٣٣).

وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه الترمذي برقم (٣٠٢٩)، والنسائي برقم (٤٠١٠)، و(٤٨٨١)، وابن ماجه برقم (٢٦٢١)، وغيرهما.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٣)، ومسلم برقم (١٦٧٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

التائب، ويرضي ذلك المقتول، ويدخل ذلك القاتل تحت واسع رحمته.

ومما يدل على أنه تقبل توبته، قول الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]؛ فدل على أن من تاب من الثلاثة قبلت توبته.

رابعاً: «أكل الربا»:

فالربا من المحرمات شرعاً، المجمع عليها، المعلومة من الدين بالضرورة.

والربا عبارة عن: الزيادة في المعاملات على ما هو معروف، وقد دل على تحريمه القرآن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]. فهذا نهي عما كانوا يتعاطونه من مضاعفة الأموال على المدين، ونحوه.

ومما يدل على تحريمه، وعقوبة آكله، قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ... إلى قوله: فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ إلى آخر الآيات [البقرة: ٢٧٥-٢٧٩]، فدل هذا على عظم ذنب آكل الربا.

خامساً: «وأكل مال اليتيم»:

وقد دل على تحريمه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، ولكن يجوز خلط أموالهم مع غيرهم إذا كان ذلك المخالط يقصد إصلاحاً، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ولما نزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، عزل الصحابة أموال اليتامي، وصار اليتيم يأكل وحده، ويشترون له طعاماً وحده، ويصلحون له طعاماً وحده، فإذا بقي شيء من طعامه تركوه له حتىٰ يأكله مرة أخرىٰ أو يفسد، فشق ذلك عليهم، فسألوا، فقال الله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

سادساً: «والتولي يوم الزحف»:

وهذا خاص بالقتال، عندما يتقابل الصفان: المؤمنون والكافرون في القتال يجب الثبوت، ويحرم الانهزام، والذي يتولىٰ في أرض القتال يعاقبه الله بأن يغضب عليه، ويجعل مأواه النار، وبئس المصير، كما في قوله تعالىٰ في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦]، وذلك لأنه إذا انهزم وهرب، وفر من أرض المعركة، كان سبباً في هزيمة المؤمنين، وسبباً لوقوع الخلل في صفوف المسلمين، وسبباً لتمكين الكفار، وازدياد شوكتهم، فيتجرؤون علىٰ القتال والاقدام، ويقع فيما بين المسلمين الاختلاف والاختلال؛ فمن أجل ذلك يجب الثبوت عند تقابل الصفين.

سابعاً: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»:

وهذه أيضاً من الخصال التي توعد الله عليها بوعيد شديد في سورة النور، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣،٢٥]، فهذا وعيد شديد، والمراد بالمحصنات: العفيفات، فالمحصنة هي: العفيفة، والمراد بقذفها: رميها بالفاحشة وارتكاب جريمة الزنا، وهي بريئة محصنة عفيفة شريفة.

وهذا ليس خاصاً بالإناث، بل يدخل فيه أيضاً قذف الرجل، فالذي يرمي بريئاً بأنه قد فعل الفاحشة، وأنه زانٍ أو لوطي، أو متظاهر بالفحش، أو ما أشبه ذلك، أو يرميه بالفحش في أهله، أو بأنه ديوث، أو بأن امرأته مثلاً زانية، أو ما أشبه ذلك، فمثل هذا إذا كان كاذباً فهو معرض لهذا الوعيد، وله عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

أما عقوبته في الدنيا فهو الجلد إذا طالب المقذوف بحقه من القاذف، أي: للمقذوف الحق في طلب إقامة الحد على القاذف بعد أن يُشهد على كلامه، والحد الشرعي مقرر في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]؛ فله أن يقيم عليه الحد، فإذا لم يطالب فلا يقام الحد، لأن الحد حق للمقذوف؛ سواء كان المقذوف رجلاً أو امرأة.

وعلى كل حال هذه من السبع الموبقات المهلكات التي توقع في الإثم، وهي من كبائر الذنوب، وكبائر الذنوب هي: الذنوب التي توعد الله عليها بلعنة، أو بغضب، أو بعذاب، أو نحو ذلك.

■ **الحديث الثاني: قوله: [وعن جندب مرفوعاً: «حد الساحر: ضربة بالسيف»**[(١)]، **رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف]**:

الحدود: هي العقوبات التي شرعت على الذنوب زجراً لمن اقترفها، كحد الزنا الذي هو الرجم أو الجلد، وحد القذف، وهو رد الشهادة مع الجلد، وحد السرقة، وما أشبهه.

وكذلك حد المرتد في قوله ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[(٢)].

وكذلك حد الساحر، أي: عقوبة الساحر، فالساحر: له حد، ويدخل في الساحر كل من يتعاطى علم الغيب، من الكهنة والعرّافين والمنجمين، ونحوهم؛ لأن عملهم هذا يتوقف على الطاعة، واستخدام الشياطين، والشياطين لا

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٤٦٠)، والدارقطني في السنن (٣/ ١١٤)، والطبراني في «الكبير» (١٦٦٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٦٠)، والبيهقي (٨/ ١٣٦).
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وإن كان الشيخان قد تركا حديث إسماعيل بن مسلم، فإنه غريب صحح. أ. هـ. ووافقه الذهبي، وقال ابن العربي في عارضة الأحوذي (٦/ ٢٤٦): حديث ضعيف، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٢٣٦): ففي سنده ضعف، فلو ثبت لخص منه من له عهد. وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن المكي يضعف في الحديث، وإسماعيل بن مسلم البصري؛ قال وكيع: هو ثقة، ويروى عن الحسن ـ أيضاً ـ، والصحيح عن جندب موقوفاً. أ. هـ. وقال الذهبي في «الكبائر» (٤٦): والصحيح أنه من قول جندب. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢٦٩٨)، وفي الضعيفة (١٤٤٦).
وقد ثبت قتل السحرة عن جماعة من الصحابة، قال الشنقيطي رحمه الله بعد أن أورد جملة من الآثار، قال: (فهذه الآثار التي لم يُعلم أن أحداً من الصحابة أنكرها، مع اعتضادها بالحديث المرفوع المذكور، هي حجة من قال بقتله مطلقاً، والآثار المذكورة والحديث فيهما الدلالة على أنه يقتل، ولو لم يبلغ به سحره الكفر؛ لأن الساحر الذي قتله جندب رضي الله عنه كان سحره من نوع الشعوذة، والأخذ بالعيون، حتى أنه يخيل إليهم أنه أبان رأس الرجل، والواقع بخلاف ذلك. وقول عمر: «اقتلوا كل ساحر». يدل على ذلك لصيغة العموم). أ. هـ.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٠١٧). عن ابن عباس رضي الله عنهما.

تخدمهم إلا إذا تقربوا إليها بالعبادة، والسجود، والذبح، وغير ذلك، فأصبحوا بذلك كفاراً عقوبتهم القتل.

وفي هذا الحديث أن جندب بن كعب رضي الله عنه دخل على الوليد بن عقبة فوجد بين يديه ساحر يعبث، وهذا الساحر كأنه يخيل إلى أعين الناس، فعمد إلى إنسان وقطع رأسه، والناس ينظرون، ثم أعاده كما كان في موضعه، فتعجبوا، وقالوا: كيف أماته ثم أحياه، فعرف جندب أنه ساحر، فعند ذلك دخل مرة أخرى، ومعه السيف قد أخفاه في ثوبه، أو في ردائه، فلما قرب منه ضربه بالسيف فقطع رأسه، وقال: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»، ثم قال له: «**أحيي نفسك إن كنت صادقاً**»[1]؛ حيث إنهم يقولون: إنه قتل أو قطع رأس إنسان ثم رده، وإنما ذلك خيال، أو أنه شيطان تمثل له في صورة إنسان ليقطع رأسه، وليس هذا حقيقة، فعلى كل تقدير هذا صحابي لا يقدم على قتل إنسان إلا وعنده دليل على أنه يجب قتله.

أما قوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»، إما أن يكون موقوفاً من كلام جندب، أو مرفوعاً، وإذا كان موقوفاً فله حكم الرفع؛ لأنه لا يتجرأ أن يقوله من قبل نفسه، ولا يتجرأ على أن يهرق دم إنسان بغير دليل، فلابد أن عنده إيقاف من الرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) هذه القصة رواها البخاري في تاريخه (٢/ ٢٢٢)، عن أبي عمثان النهدي، عن جندب، قال: كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه، فعجبنا، فأعاد رأسه، فجاء جندب الأزدي فقتله.
وقد روى القصة بتمامها البيهقي (٨/ ١٣٦)، ولها طرق كثيرة. ورواها الطبراني في الكبير برقم (١٧٢٥)، وعبدالرزاق في المصنف (١٠/ ١٨٢)، وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣): إسناده صحيح.
وقد صحح المصنف رحمه الله هذه القصة بقوله: وكذا صح عن جندب.

■ **الحديث الثالث: قوله: [وفي صحيح البخاري، عن بجالة بن عبدة، قال: كتب عمر بن الخطاب: (أن اقتلوا كل ساحر وساحرة)، قال: (فقتلنا ثلاث سواحر)[١]]:**

عمر بن الخطاب هو الخليفة الراشد، وهو ثاني الخلفاء، وقد أمر بقتل السواحر، حيث كتب إلى بجالة بن عبدة: **(أن اقتلوا كل ساحر وساحرة)**، وكان بجالة على بعض الولايات، فتتبعوا السحرة، يقول بجالة: **(فقتلنا ثلاث سواحر)**، أي: بأمر عمر رضي الله عنه.

■ **الحديث الرابع: [وصح عن حفصة: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت[٢]].**

وكذا صح عن جندب[٣].

---

(١) أصل الحديث: أخرجه البخاري برقم (٣١٥٦)، وأخرج الحديث بتمامه أبو داود برقم (٣٠٤٣)، وأحمد في «المسند» (١/ ١٩٠، ١٩١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ١٣٦)، والبيهقي (٨/ ١٣٦)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٠/ ١٧٩، ١٨٠، ١٨١) رقم (١٨٧٤٦)، وعبدالله في مسائل الإمام أحمد (١٥٤٢).
قال أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٦٥٧): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٧١)، كتاب العقول، باب: (١٩)، عن محمد بن عبدالرحمن بن سعد الأزدي.
وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ١٨٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٤١٦، ١٠/ ١٣٦)، وعبد الله في «مسائل الإمام أحمد» برقم (١٧٧٩) والبيهقي (٨/ ١٣٦)، وأخرجه الطبراني، كما في المجمع (٦/ ٢٨٠، ٢٨١). عن ابن عمر رضي الله عنهما..
قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٨٠، ٢٨١): رواه الطبراني من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين وهي ضعيفة وبقية رجاله ثقات. أ.هـ.
وصححه المصنف رحمه الله بقوله: «وصح عن حفصة...».

(٣) يشير المصنف رحمه الله إلى القصة التي رويت عن جندب بأنه قتل ساحراً كان عند الوليد بن عقبة، وانظر تخريج هذه القصة ص ٢٨.
كذلك رُوي عن جندب قوله: «**حد الساحر: ضربة بالسيف**». وقد سبق تخريجه ص ٢٧.

قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ[1]]:

كذلك أيضاً صح عن حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فَقُتِلتْ، وكانت قد دبرتها؛ أي: علقت عتقها بموتها، قالت: (إذا مت فجاريتي هذه - يعني: مملوكتها - حرّة)، فكأن تلك الجارية استبطأت موتها، فعملت لها عملاً شيطانياً تريد أن تميتها، فاطلعت عليها حفصة وعلى عملها فأمرت بها فقلت، فدل ذلك على أنه متفق على هذا الأمر عند الصحابة، أن قتل الساحر لازم لكونه من المفسدين في الأرض، ولكونه من المشركين.

ولم يُذكر أنهم يستتيبونهم، وأنهم كلما قبضوا على ساحر قالوا له: إما أن تتوب، وإلا قتلناك؛ بل يقتلونه متى عرفوا أنه ساحر، ولو أظهر الندم والتوبة، وذلك لأنه يظهر دائماً أنه مع المسلمين، وأنه ليس من عمله ما يخفى، فهو يُظهر دائماً خلاف ما يُبطن، ولو قيل له: تب، لأظهر التوبة، ولكن يظهرها ثم يعود إلى ما كان عليه، فلا تقبل توبتة ظاهراً، ولا يستتاب؛ بل يقتل بكل حال، وهذا هو قول جمهور الأمة، ولا حاجة إلى أن يؤخذ الساحر ويستتاب، ولا يقال له: صف لنا سحرك، وما أشبه ذلك، بل يحكم بكفره.

وعلى كل حال؛ حيث قد تبين أن حكمه الكفر، وأن حده القتل، فإن على المسلم أن يحذر من القرب من أولئك المشعوذين، والسحرة، ولا ينخدع بأقوالهم، وإفكهم، وما يظهرونه من البهرج ومن الخيالات، فإنها كلها أعمال شيطانية، نسأل الله أن يعيذنا والمسلمين من الشرور كلها، خفيها وجليِّها. والله أعلم.

---

(١) قال في «فتح المجيد» (٢ / ٤٧٦): أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، يعني: عمر، وحفصة، وجندباً.

[٢٤]

باب:
بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف ، حدثنا حيّان بن العلاء ، حدثنا قَطَن بن قبيصة ، عن أبيه : أنه سمع النبي ﷺ قال : «إن العيافة ، والطَّرق ، والطيّرة من الجبت» .

قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطَّرق : الخط يخط في الأرض ، والجبت : قال الحسن : رنة الشيطان . إسناده جيد .

ولأبي داود ، والنسائي ، وابن حبان في صحيحه : المسند منه .

وعن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من اقتبس شعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد» ، رواه أبو داود ، بإسناد صحيح .

وللنسائي ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلَّق شيئاً وكل إليه» .

وعن ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : «ألا أنبئكم ما العضة ؟ هي النميمة : القالة بين الناس» ، رواه مسلم .

ولهما ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن من البيان لسحراً» .

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطَّرْق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر.

الرابعة: أن العقد مع النفث من ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
بيان شيء من أنواع السحر

هذا الباب عقده المؤلف من أجل بيان بعض أنواع السحر، وهذه الأنواع: منها ما هو سحر عملي، ومنها ما هو اعتقادي، ومنها ما هو من السحر اللغوي، ومنها ما هو سحر من أصل السحر، الذي هو السحر الشيطاني، ومنها ما هو من أعمال السحرة، ومنها ما يسمى سحراً، أو يقرب من السحر من غير أن يكون سحراً في الحقيقة.

إذا تبين أن أصل السحر هو استخدام الكفرة للشياطين حتى تعطيهم مطلبهم، عُلم أن هذا هو أصل السحر، فإذاً هذه الأشياء التي في هذا الباب سميت سحراً لكونها من أعمال السحرة.

لكن للسحرة علامات، ومنها هذه الأشياء، فالسحر يطلق عليه الجبت، كما في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وقد تقدم قول عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

فإذا كان الجبت اسماً للسحر فإن الذين يعملونه، أو يؤمنون به، يعملون له كثيراً من المقدمات، ويعملون كثيراً من الأعمال التي تدخل فيه أو يعرفون بها.

■ **قوله : [قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف ، حدثنا حيّان بن العلاء ، حدثنا قطن بن قبيصة ، عن أبيه : أنه سمع النبي ﷺ قال : «إن العيافة ، والطَّرق ، والطيّرة من الجبت» .**

قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطَّرق : الخط يخط في الأرض ، والجبت : قال الحسن : رنة الشيطان . إسناده جيد .

ولأبي داود ، والنسائي ، وابن حبان في صحيحه : المسند منه[1]] :

هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد فيه ثلاثة أنواع : العيافة ، والطرق ، والطيرة ، وهي من أنواع السحر .

وقد أورد المؤلف الحديث بالسند ، وذلك بسبب التشكيك في أحد الرواة .

● **الراوي الأول :** محمد بن جعفر ، ويقال له : غندر ، عالم مشهور ، أكثر روايته عن شعبة بن الحجاج العالم المشهور .

● **الراوي الثاني :** عوف ، ويقال له : ابن أبي جميلة ، ويعرف : بعوف الأعرابي ، وكان عالماً باللغة ، وبغرائبها ، ومفرداتها .

---

(١) أخرجه أحمد (٣ / ٤٧٧) ، (٥ / ٦٠) ، وأبو داود برقم (٣٩٠٧ ، ٣٩٠٨) ، والنسائي في «الكبرى» (٨/ ٢٧٥) ، وابن حبان برقم (١٤٢٦) ، وعبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٩٥٠٢) ، وابن أبي شيبة في مصنفه» رقم (٦٤٥٤) ، والطبراني في «الكبير» رقم (٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٥) . وأورده البغوي في «شرح السنة» (١٢ / ١٧٧) ، والبيهقي (٨ / ١٣٩) .
والحديث صححه ابن حبان ، وقال شيخ الإسلام في «المجموع» (٣٥ / ١٩٢) : إسناده حسن ، وحسنه النووي في «رياض الصالحين» برقم (١٦٧٠) ، وقال المصنف : إسناده جيد ، وقال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣ / ٣٦٧) : إسناده جيد ، وضعفه الألباني في «تخريج رياض الصالحين» رقم (١٦٦٨) ، وفي غاية المرام (٣٠١) ، وقال الأرناؤوط في «تخريج شرح السنة» (١٢ / ١٧٧) : وحيان هو ابن العلاء ، لم يوثقه غير ابن حبان ، وباقي رجاله ثقات ، وقد حسنه النووي .

● **الراوي الثالث**: حيان بن العلاء، ويقال: بن المخارق أبو العلاء، ذكره ابن حبان في الثقات، وهو تابعي ثقة مشهور.

● **الراوي الرابع**: قطن بن قبيصة، تابعي صدوق، وأبوه قبيصة بن المخارق صحابي مشهور.

قال المؤلف: إن إسناد الحديث جيد.

ثم فسر عوف - لكونه عارفاً باللغة - أصل معنىٰ هذه الكلمات التي وردت في الحديث، فقال: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط في الأرض، ولم يفسر الطيرة؛ لأنها مشهورة.

* **وقوله «العيافة»: قال عوف معناها: زجر الطير، وزجر الطير**: من أنواع الطيرة؛ لأن معناه إشارة إلىٰ الطير حتىٰ يطير ليتشاءم به أو يتفاءل به، فعندما يريد أحدهم أن يفعل فعلاً فإنه يذهب إلىٰ طيور علىٰ الأرض ثم يزجرها حتىٰ تطير، فإذا طارت فإن مرت عن يمينه تفاءل وفرح وفعل ما عزم عليه، ، وإن مرت عن يساره تشاءم وحزن وترك ما عزم عليه اعتماداً علىٰ هذه الطيور، هكذا أوحىٰ إليهم الشيطان.

وقد قرأت في بعض الحكايات أن بعض الأعراب القدماء كان ولده مسافراً، ولما رجع إليه أخذ يسأله ماذا فعلت؟ فقال: في أثناء الطريق طار طائر، فقال لولده: ارمه وإلا فلست بابني، قال: نعم رميته، أي: عرف من ملامحه أنه رماه، وفي أثناء المكان الفلاني طار طائر، فقال لولده: اتركه وإلا فلست بابني، قال: نعم تركته، فمن الذي أخبره قبل أن يقص عليه ابنه أنه رمىٰ هذا وترك هذا؟!

الجواب: أن هذا من زجر الطير، ومما يتشاءمون به أو يتفاءلون به. فإنهم متىٰ زجروا الطير وحصل طيرانه من هنا أو من هنا عرفوا من واقع الحال أن هذا

حق وهذا خير، ويقع ذلك موافقاً كثيراً، فينخدعون بهذه الموافقات. ومن أجل ذلك يعتمدون هذا الزجر.

نقول: إذا كان هناك شيء من الموافقات فإنه من وحي الشيطان، من أجل ذلك حَسُنَ إلحاق زجر الطير بالسحر، وإلا فله باب مستقل سوف يأتي إن شاء الله.

فالحاصل أن زجر الطير ليس من أنواع السحر، بل من الطيرة، لكن لما كانوا يعتمدون على ذلك أصبح كأنه سحر.

* وقوله: «**الطرق**»: **وقد فسر عوف الطرق**: بأنه الخط يخط في الأرض، وهذا أيضاً نوع من الكهانة.

والكهنة من السحرة، إلا أن الكاهن يعتمد الإخبار بالأمور المستقبلة، ويدعي علم الغيب، ويخبر بما في الضمير، ويدعي أنه يعلم الأمور المستقبلة قبل حدوثها، وما أشبه ذلك.

وإذا قدر إصابته فإن ذلك على وجه المصادفة، أو بسبب وحي شياطينه الذين يخدمهم.

وفي هذا الكتاب ـ كتاب التوحيد ـ باب مستقل يأتينا إن شاء الله في الكهان وحكمهم، وتقدم لنا حديث يتعلق بهم في باب: قول الله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ...**﴾ الآية [سبأ: ٢٣].

والخط: معناه أن الإنسان يأتي ذلك العراف، ويقول له: أخبرني بصفتك تعلم الغيب، أو بصفتك عرافاً: هل سفري هذا مفيد أو غير مفيد؟ أو هل شرائي هذا أو بيعي هذا فيه خير أم لا؟! أو هل انتقالي إلى كذا أو فعلي كذا هل فيه مصلحة أم لا؟! وغير ذلك.

والحاصل أن العرّاف يأتي إلى أرض رملية، ويخط فيها بعصا خطوطاً كثيرة سريعة، حتى لا يدري كم عددها، ثم يرجع إليها يمحوها اثنين اثنين، حتى ينظر كم بقي، فإن بقي واحد من الآخرِ تفاءل، وقال: افعل، وإن بقي اثنان من الآخر تشاءم، وقال: لا تفعل، أو بالعكس، فكأنه يعتمد على هذا الخط الذي يخط بالأرض، وهذا نوع من عمل الكهنة.

ومثله ـ أيضاً ـ الضرب بالحصى، فعندما يأتي أحد إلى عرّاف أو كاهن ويستشيرهم يكون عندهم حصى كثير، فيأخذ العراف الحصى ويلقيه بسرعة في زاوية، حتى يكثر ذلك الحصى، ثم بعد ذلك يرجع فيأخذه اثنتين اثنتين حتى ينتهي، فيتفاءل بالواحدة ويتشاءم بالاثنتين إذا بقيتا، أو بالعكس.

وهذا إذا أصاب فهو من وحي الشيطان، والغالب أنه يخطئ، فكثيراً ما يقول: افعل، ويكون ذلك الفعل غير مفيد، وكثيراً ما يقول: لا تفعل، ويستفيد لو فعل، أو افعل، ويستفيد لو لم يفعل.

فدل على أنهم يظنون ظناً، وإذا قدرت إصابتهم فهي من استخدامهم للشياطين التي قد تخبرهم بالأشياء التي تطلع عليها، بينما هم لا يطلعون.

* **وقوله «الطيرة»**: سوف يأتي إن شاء الله الكلام على الطيرة في باب مستقل[1].

* **وقوله: «الجبت»**: وقد سبق أن تكلمنا على معنى الجبت بأنه: السحر، وقد فسره الحسن في هذا الحديث بأنه: رنة الشيطان، وكأنه يريد وحي الشيطان، أو عمل الشيطان، فإن الجبت هو السحر، والسحر هو من عمل الشيطان، فقوله: رنته، أي: صوته، ورنينه، ووسوسته، ووحيه إلى أوليائه، كل ذلك من الجبت.

---

(١) سيأتي إن شاء الله الكلام على الطيرة في باب (٢٧): ما جاء في التطير.

ديث في المسند[١] : قال الحسن : إنه الشيطان ؛ أي : إن الجبت هو الشيطان ، ولكن نقله ابن كثير في التفسير عند قوله تعالىٰ : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ، بلفظ : رنة الشيطان ولعله تصحيف .

■ **قوله : [وعن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من اقتبس شعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد»[٢] ، رواه أبو داود ، بإسناد صحيح .] :**

هذا الحديث يتعلق بالتنجيم ، وللتنجيم باب في هذا الكتاب يأتينا إن شاء الله تعالىٰ[٣] ، أورد فيه المصنف آثاراً ولم يورد هذا الأثر ؛ لأنه قد سبق .

وإنما أراد هنا أن التنجيم نوع من السحر ؛ لأنه قال : «**فقد اقتبس شعبة من السحر**» ، والاقتباس : الاقتطاع ، **من اقتبس** ؛ أي : من اقتطع وتعلم وأخذ .

والشعبة : البعض ، و«**شعبة من النجوم**» ؛ أي : بعضاً وقطعة من علوم النجوم ، والمراد به : علم التأثير .

ويأتينا إن شاء الله أن التنجيم قسمان : علم التأثير وعلم التسيير ، والممنوع هو : علم التأثير ، وهوالاعتقاد في النجوم أنها تؤثر في الكون أو في الأرض ، أو الاستدلال بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الأرضية ، فيستدلون بالنظر في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند برقم (٥/ ٦٠) .

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٩٠٥) ، وأحمد (١/ ٢٧٧ ، ٣١١) ، وابن ماجه برقم (٣٧٢٦) ، وابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٦٠٢) ، والطبراني في «الكبير» رقم (١١٢٧٨) ، والبيهقي (٨/ ١٣٨) .
والحديث صححه النووي في «رياض الصالحين» رقم (٦٣٧) ، والذهبي في «الكبائر» (١٢٣) ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥/ ١٩٣) : إسناده صحيح ، وقال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٣٤) : إسناده جيد . وصححه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ١١٧) .
وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (٨٤١) : إسناده صحيح . وصححه المصنف رحمه الله .
وصححه الألباني في السلسلة رقم (٧٩٣) .

(٣) سيأتي إن شاء الله تعالىٰ الكلام علىٰ التنجيم في باب رقم (٢٨) : باب ما جاء في التنجيم .

النجوم على ما يحدث في الأرض، هذا هو التنجيم.

ولاشك أنه نوع من السحر، لأن النجوم مسيرات ومسخرات، ولا تدل على شيء من علم الغيب، والمنجمون الذين يزعمون أنهم يعرفون بطلوع النجم الفلاني في وقت كذا، أو بخروجه في وقت كذا، أنه يحدث: كذا وكذا، يخطئون كثيراً، وأكثر إصابتهم على وجه المصادفة.

والشاهد أنهم عدوا التنجيم سحراً، أي: أن من أخذ بعضاً من علم النجوم فقد شارك في السحر، وأصبح من جملة السحرة، ولو لم يأخذ إلا قليلاً، ولكنه كلما ازداد تعلمه بالتنجيم ازداد حظه من السحر، هذا معنى قوله: **«زاد ما زاد»**؛ أي: كلما زاد من التنجيم زاد من السحر، وإذا توغل فيه أصبح اسمه ساحراً، ويطلق عليه هذا الاسم، ويستحق حد الساحر وهو الضرب بالسيف كما تقدم.

■ قوله: [**وللنسائي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه»**[1]]:

في هذا الحديث ثلاثة أمور:

الأمر الأول: قوله: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر»:

النفث في العقد من عمل السحرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ١١٢) رقم (٤٠٩٠)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٣٨)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢/ ٦٥٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ١٧)، وأخرجه ابن مردويه في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٢٨٠) رقم (١٤٩٢). لكن بدون قوله: «**ومن تعلق شيئاً وُكل إليه**».

وحسنه ابن مفلح، كما في قرة عيون الموحدين ص(١٣٧)، وفتح المجيد» ص(٤٠٢)، وفي «الآداب الشرعية (٣/ ٧٨)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٣٢): رواه النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة، ولم يسمع منه عند الجمهور. أ.هـ.

وقال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٣٧٨): هذا حديث لا يصح للين عباد وانقطاعه، وضعفه =

فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، فإن الساحر عندما تستحضر نفسه الشيطانية، ويلابسه شيطانه، يأخذ حبلاً أو خيطاً ويجعل فيه عقدة، ثم ينفث في تلك العقدة من ريقه ذلك الذي لابسه الشيطان الرجيم، فيخرج من ريقه أو من نَفَسِهِ نَفَسٌ شرير ملتبس بهذا الأمر الشيطاني، ويحدث منه الإضرار بالمسحور بإذن الله الكوني القدري، لا الديني الشرعي.

فالحاصل من عقد عقدة ثم نفث فيها قبل أن يحكمها، ثم أحكمها عقداً فقد أشبه السحرة، وأصبح ساحراً، لأن النفث في العقد خصيصة السحرة، وإن كان الساحر يعقد فيها على وجه خاص، وهو تلفظاته وتكلماته بكلمات ظاهرة في إضراره لمن يريد، كأن يقول ـ مثلاً حال نفثه: احكم بكذا، أو يا شيطان افعل كذا، أو أريد منك أن تطيعني في كذا، وما أشبه ذلك، يقول ذلك بالفعل واللفظ، أو يعزم عليه بالقلب فيحصل ما يحصل، فمن عقد تلك العقد ونفث فيها بريقه الشيطاني فقد سحر.

الأمر الثاني: قوله: «ومن سحر فقد أشرك»:

وهذا ظاهر فإن السحر عمل شيطاني، والذي يعمل عمل الشيطان يشرك،

= الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٥٧١٤).

وأما الجملة الأخيرة منه وهي قوله: «ومن تعلق شيئاً وكل إليه». فيشهد لها حديث عبد الله بن عكيم. أخرجه أحمد (٤ / ٣١٠، ٣١١)، والترمذي (٢٠٧٣)، والحاكم (٤ / ٤١٦). وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨ / ١٣). والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩ / ٣٥١).

قال الترمذي: حديث عبدالله بن عكيم إنما نعرفه من حديث أبي ليلى. أ. هـ. وقال ابن البنا في «الفتح الرباني» (١٧ / ١٨٨). قلت: هذا الحديث لا يقل درجته عن الحسن، لا سيما وله شواهد تؤيده. وقال الألباني في «غاية المرام» رقم (٢٩٧): حسن، وذكر أن له شاهداً عن الحسن البصري مرسلاً، أخرجه ابن وهب في «الجامع» ص١١٣: أخبرني جرير بن حازم أنه سمع الحسن يقول: فذكره مرفوعاً، وهذا إسناد مرسل صحيح.

وقد سبق تخريجه وشرحه في الباب السابع (باب ما جاء في الرقى والتمائم).

فالساحر لا يطيعه شيطانه إلا بعد ما يتقرب إليه بعبادته، وبمعصية الرحمن بأي نوع من أنواع المعصية التي يفعلها طاعة لذلك الشيطان، فيكون قد أطاع الشيطان، وعصى الرحمن، وذلك غاية الشرك، وقد سبق أن عبادة الشيطان واقعة لكل مشرك: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس٦٠].

وقد تبين أن كل من عبد غير الله فما عبد إلا الشيطان منذ وسوس له، لكن هؤلاء السحرة عبدوه مباشرة، وأولئك عبدوه حقيقة؛ أي: في نفس الأمر، وإن لم يظهر منهم مباشرة عبادتهم، لكن هؤلاء السحرة لما تقربوا إليه بأنواع القربات أصبحوا بذلك كأنهم يعبدونه، فصاروا بذلك مشركين.

الأمر الثالث: قوله: «ومن تعلق شيئاً وكل إليه»:

فقد تقدم الكلام على التعاليق والحكم عليها في باب: (ما جاء في الرقى و التمائم).

ويبقى الكلام على موضوعين في هذا الباب لهما صلة بمعنى السحر، وسوف نتكلم عليهما من حيث العموم، ثم من حيث الخصوص.

الموضوع الأول: النميمة:

■ **قوله: [وعن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم ما العضة؟ هي: النميمة: القالة بين الناس»[1]، رواه مسلم.]:**

أولاً: من حيث العموم:

يقول ﷺ: «**ألا أنبئكم ما العضة؟ هي: النميمة: القالة بين الناس**»، فسمى النميمة في هذا الحديث بالعضة.

والعضة من أسماء السحر، وشبهها به لكون النميمة سبباً في الفتن، وسبباً

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٠٦).

في الشرور والوقائع والخلافات والاضطرابات ونحوها.

والنميمة هي: التحريش بين الناس، ولهذا ذكر أنها: «**القالة بين الناس**»، والقالة: يعني: المقال، والقول الذي يكون بين هذا وهذا.

وقد ورد في النمام وعيد شديد، ففي حديث حذيفة أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة نمام**»[(١)].

ويسمى النمام ـ أيضاً ـ: قتاتاً، كما في رواية أخرى: «**لا يدخل الجنة قتات**»[(٢)].

والنمام: هو الذي ينقل الكلام من هذا إلى هذا على وجه التحريش والإفساد، ويحرص على أن يعبر بعبارة يفهم منها الشر أو سوء الظن بالمنقول عنه، فإذا سمع من شخص مقالاً في شخص، ولو لم يكن جارحاً نقله إليه، وعبر بعبارة من عنده تكون جارحة لشعوره، ومثيرة لغضبه، وقد يكذب ويقول ما لم يقل، ويقول على الإنسان ما لم يفعل. فمن أجل ذلك تقع بين الناس العداوات والشحناء، ونحو ذلك؛ بسبب هذه النميمة.

وفي الحديث المشهور أنه ﷺ أخبر بأن النميمة من أسباب عذاب القبر، ففي الصحيح لما مر بقبرين وقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، بلى أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله**»[(٣)]، فجعل النميمة من أسباب عذاب القبر، كما جعلها شبيهة بالسحر في هذا الحديث، لأنها تفسد الإخاء بين الناس، وتوقع بينهم الشحناء، ونحو ذلك، حتى قال بعضهم: (يفسد النمام في الساعة ما لا يفسد الساحر في السنة).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٥)ـ(١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠٥٦). ومسلم رقم (١٠٥)ـ١٦٩، ١٧٠. عن حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢١٦)، ومسلم برقم (٢٩٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ووقائع النمامين وما ينتج بسببهم كثيرة، فمن ذلك ما حكاه الذهبي في الكبائر وغيره: أن رجلاً رأىٰ غلاماً مملوكاً يباع فقال للمشترىٰ: إن فيه عيباً، إنه نمام ولكن المشتري اشتراه، وقال: لا أغتر بنميمته، ثم إنه لما مكث عند ذلك المشتري أياماً أوقع بينه وبين زوجته العداوة، وذلك أنه ذكر لها كذباً أن زوجك سيتزوج عليك، وأنه يريد فراقك، وقد ضجر منك وكل ذلك كذب، ثم قال لها: إذا كنت تريدين أن تتحققي فخذي من شعر حلقه شعرات، واستقري بها، ثم جاء إلىٰ زوجها وقال له: إن زوجتك قد اتخذت خلاً، وقد مقتتك، وما تريد إلا أن تقتلك، فقال له: ليس بيني وبينها عداوة، قال: بلىٰ، إن كنت تريد أن تتحقق فتناوم لها، فلما تناوم وأظهر أنه نام، جاءت بموسىٰ معها؛ لتحلق من شعر حلقه، فلما رآها أقبلت بالموسىٰ اعتقد صدق ذلك النمام، فوثب إليها وقتلها.

ثم جاء ذلك النمام إلىٰ أهلها ووشىٰ عندهم، وقال: إنه قتلها ظلماً بغير حق، فجاءوا فقتلوه فتشاور الحيان فوقع بينهم معارك عظيمة؛ بسبب هذه النميمة.

وهناك أمثلة مثل هذه كثيرة في أن النمام يحصل منه إثارة للفتن وقتل وقتال، هذا من حيث العموم.

ثانياً: من حيث الخصوص:

فالساحر يقلب الحقائق ويقلب الأمور عن ظاهرها، وعن ماهياتها، كما تقدم أن السحرة يشعوذون ويموهون على الأعين، ويجعلونها خيالات أمام الناظرين، كما حكىٰ الله عن سحرة موسىٰ بقوله: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ**﴾ [طه: ٦٦]، وبقوله: ﴿**فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ**﴾ [الشعراء: ٤٤]، يعني: أن

الحبال والعصي انقلبت في نظر الناس إلىٰ حيات، وكل ذلك من الشعوذة.

فإذا عرفت أن الساحر يشعوذ علىٰ الأعين ويخيل ما ليس بحقيقة، فكذلك النمام يخيل ما ليس بحقيقة، ويجعل الوهم يقيناً، أو يجعل الظن حقّاً، ويصور ما لم يكن، ويهم أشياء غريبة ليست حقيقة، فبذلك أشبه الساحر في فعله، فأخبر النبي ﷺ بأنه ملحق بالسحرة، من حيث الشبه لا من حيث الحكم، **وأما من حيث الحكم فلا.**

وقد تبين فيما سبق أن الساحر حده القتل، لحديث: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»، ولأن الصحابة قتلوا السحرة، فقتل جندب ساحراً، وعمر أمر بقتل السواحر، فقتل ثلاثة سواحر، وحفصة أمرت بقتل جارية سحرتها فقتلت، لكن النمام لا يصل إلىٰ هذا الحد إلا إذا تسبب في قتل مسلم معصوم فإنه يقتل قصاصاً؛ لأن المتسبب له حكم المباشر، كما أن الساحر مشرك؛ لأنه يسجد لشيطانه، ويدعوه ويتقرب إليه، ويعصي الله طواعية لشيطانه، فأصبح مشركاً، وليس كذلك النمام، ولكن النمام يفعل هذا الذنب الكبير، فمن أجل ذلك ورد فيه الوعيد، وجعل ملحقاً بالسحر من حيث الفعل، ومن حيث الشبه المقارب.

الموضوع الثاني: الفصاحة والبيان:

■ **قوله**: [**ولهما، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال**: «**إن من البيان لسحراً**»(١)]:

هذا جزء من حديث، لفظه: «**إن من البيان سحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥١٤٦، ٥٧٦٧)، عن ابن عمر رضي الله عنها.
وأخرجه مسلم برقم (٨٦٩)، عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما، ولم أجده عند مسلم من حديث ابن عمر كما ذكر المصنف.

الشعر حكماً، وإن من القول عيالاً»[١].

وسببه: أن رجلين وفدا إلىٰ المدينة فتكلما، فعجب الناس من بيانهما، فقال النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً».

والبيان: هو الفصاحة والبلاغة وحسن التعبير، وصياغة الكلمات بأسلوب بليغ جذاب للسامع.

وقد اختلف في هذا الحديث هل هو مدح للبيان أو ذم له؟

فالذين رأوا أنه مدح، قالوا: إن البيان نعمة عظيمة؛ لأن الله امتن به علىٰ الإنسان، في قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ. عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]، فما يمتن الله إلا بما فيه فضل وخير، فيكون هذا من حاله، وكونه سحراً، بمعنىٰ: أنه مباح وحلال ولهذا يسمون البلاغة السحر الحلال.

ولكن الصحيح أن الحديث ورد في الذم، وذلك لأن السحر ليس فيه ممدوح ولا محبوب، بل كلمة السحر كلمة ممقوتة ومبغضة في لسان الشرع، فليس فيه شيء ممدوح.

وإذاً فالبيان الذي ذكر في هذا الحديث ليس هو كل البيان؛ لأن الرسول ﷺ لم يعمم، إنما خصص، بقوله: «إن من البيان»، ولم يقل: إن البيان كله، فإذا كان البيان والكلام في إيضاح الحق وتبيينه وإظهاره حتىٰ يفهم، والدعوة إليه، واجتذاب الناس إليه، فهذا بيان ممدوح، وليس من السحر المذموم، وإذا كان بضد ذلك فهو مذموم.

فمن المذموم أن يكون صاحب البيان يستعمل بيانه وبلاغته لأخذ حقوق الناس، كما يقع ذلك عند الخصوم، عندما يكون الخصم لسناً، معبراً تعبيراً

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥٠١٢). عن بريدة رضي الله عنه.

قوياً، يجتذب القاضي إليه، ويموه عليه، فيعتقد أن الحق في جانبه، وقد أخبر النبي ﷺ عن شيء من ذلك، بقوله: «**إنكم تختصمون إلي فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار، فليأخذها أو ليدعها**»[1]؛ فجعل الفصاحة، ولحن القول، وقوة التعبير، سبباً في ميل أو في توهم القاضي، أن الحق في جانب الذي صارت قوة بيانه أبلغ.

فإذا كان البيان يستعمله صاحبه في بيان حقه، وإيضاحه، وأنه مستحقه، ويعلم ذلك من نفسه فهذا ليس من السحر المذموم، وأما إذا كان يعلم من نفسه أنه مبطل فيستعمل ذلك البيان ليوهم القضاة ونحوهم أن الحق في جانبه، فيقضون على نحوٍ من كلامه، فهذا بيان مذموم، وهو شبيه بالسحر الذي يخدع من يراه إذا كان السحر فيه تلبيس على من يرى، وفيه إظهار للأشياء على غير حقائقها، فكذلك هذا البيان فيه إظهار للخصومة على غير حقيقتها، وكذلك أيضاً إذا استعمله ذلك الفصيح من أجل جعل الباطل حقّاً، والدعوة إلى المنكر وتسويته وتحبيبه، وإظهاره بمظر لائق، مع كونه باطلاً، كالذين يدعون للمعاصي بأنواعها، والذين يزينون للناس نوعاً من الذنوب، وينشرون الباطل والفحش لكي يوقعوا الناس فيما وقعوا فيه من المعاصي، ونحوها، وهؤلاء ممن استعملوا البيان والتلاعب بالألفاظ والمحسنات البديعية، فيدخلون في هذا الوعيد؛ يعني: أنهم من أهل السحر.

ونحن نقول: إن هذا من حيث الإسم؛ لا من حيث الحكم؛ أي: لا نحكم على من كان هكذا بأنه ساحر، فيعطى حكم الساحر بقتله أو تكفيره، أو ما أشبه

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٨٠). ومسلم برقم (١٧١٣)، عن أم سلمة رضي الله عنها.

ذلك، وإنما نقول: مثلاً إذا لبس على القضاة استحق عقوبة وتعزيزاً في الدنيا، وإثماً وعذاباً في الآخرة، وكذلك إذا دعا إلى الباطل والمعاصي وسول للناس أنه على حق، وأنه لم يقصد إلا حقّاً، كالذين يدعون إلى عبادة القبور، والأموات ونحوها، ودعائهم من دون الله، والذين يدعون إلى تعظيم المشاهد، وتشييد البناء عليها ورفعها، ويوردون كلاماً ينخدع به سامعه، ويزهدون الناس في العبادات الشرعية، ويتكلمون بعبارات شيقة جذابة سحرية، فهؤلاء لاشك أنهم داخلون في هذا الوعيد، ولكن لا نقول: إنهم سحرة يقتلون بهذا الفعل، إنما يقتلون بعمل آخر، إذا أشركوا وكفروا قتلوا بسبب الكفر، كذلك إذا دعوا إلى الكفر، كفروا بذلك، فنحكم بكفرهم بمجرد الدعوة أو استحلال الكفر، لا لمجرد الكلام الفصيح البليغ الذي يشبه السحر، هذا من وجه الخصوص.

وبالجملة: فإن أنواع السحر منها ما هو سحر حقيقي، كما تقدم في النفث في العقد، وفي تعلم النجوم من أجل التأثير ونحو ذلك، ومنها ما هو ملحق به في الاسم فقط، لا في الحكم، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٢٥]

باب
ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء ـ فصدقه بما يقول ـ، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً ـ فصدقة بما يقول ـ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»، رواه أبو داود.

وللأربعة، والحاكم ـ وقال: صحيح على شرطهما ـ، عن ...[١]: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

ولأبي يعلى ـ بسند جيد ـ، عن ابن مسعود مثله موقوفاً.

وعن عمران بن حصين، مرفرعاً: «ليس منا من تَطيَّر أو تُطيِّر له، أو تَكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له. ومن أتى كاهناً ـ فصدقه بما يقول ـ؛ فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ، رواه البزار بإسناد جيد.

ورواه الطبراني بإسناد حسن، من حديث ابن عباس، دون قوله: «ومن أتى كاهناً ...» إلى آخره.

---

(١) قال الدكتور الوليد بن عبدالرحمن الفريان، محقق كتاب فتح المجيد: بياض في جميع الأصول الخطية التي اطلعت عليها من كتاب التوحيد وشروحه.

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدِّمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العرّاف: اسم للكاهن والمنجم والرمال، ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

وقال ابن عباس ـ في قوم يكتبون (أبا جاد)، وينظرون في النجوم ـ: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاقٍ.

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكهن له.

الرابعة: ذكر من تُطيِّر له.

الخامسة: ذكر من سُحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
ما جاء في الكهان ونحوهم

من أنواع الشرك: تعاطي الكهانة، وسبب كونها شركاً أن الكاهن يعبد غير الله، أي: يعبد الجن والشياطين.

وقد يقول قائل: كيف يعبدهم؟

نقول: يعبدهم بأن يتقرب إليهم بأنواع القربات التي لا تصلح إلا لله: إما أن يطيعهم في معصية الله، أو يتقرب إليهم بشيء من حق الله، كالذبح أو الدعاء، أو طلب المدد والعون فيما لا يقدر عليه إلا الله، فيكون بذلك معظماً لهم. وقد يدعو الشيطاين، أو مردة الجن بأسمائهم.

ومن المعلوم أن الكاهن إنسان من البشر، ومع ذلك قد يتكلم بكلام ليس مثل كلامهم، أو قد يخبر عن شيء غائب لا يعرفه جنس الإنسان أو ما أشبه ذلك.

فكيف وصل إليه هذا العلم الذي هو من علم الغيب؟

نقول: وصل إليه بوحي الشياطين، فالشياطين قد تخبر وتوسوس لأوليائها، يقول الله تعالى: **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾** [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٣]، وقد مر بنا حديث أبي هريرة في مسترقي السمع[1]؛ حيث أخبر النبي ﷺ أن الملائكة يتكلمون بالأمر

(١) سبق تخريجه في الباب الخامس عشر، باب: (قول الله تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾).

الذي يكون، والذي يقدره الله في السماء، فيسمعه مسترقو السمع، ومسترق السمع وصفه سفيان بكفه، فحرفها، وبدد أصابعه، فيسمع الكلمة ثم يلقيها إلىٰ من تحته، ويلقيها الآخر إلىٰ من تحته، حتىٰ يلقيها علىٰ لسان الساحر أو الكاهن، فدل علىٰ أن السحرة والكهنة يتلقون من الشياطين وحيهم.

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]؛ فالكهنة أولياء الشياطين، والشياطين توحي إليهم، وتوسوس لهم؛ لأن الشيطان قد يرىٰ ما لا يراه الإنسان، فيرىٰ الشيء البعيد ويوسوس إلىٰ وليه من الإنس بأن فلاناً سيقدم بعد يوم أو بعد أيام، وهو الآن في المكان الفلاني، أو يأتيه إنسان ويقول: ناقتي ضلت فأين هي؟ فيوسوس إليه شيطانه بأنها في الوادي الفلاني؛ لأن الشيطان له جولات لا تحصل للإنسان فيعرفها.

وإخبار الكاهن بمثل هذه الأمور الغيبية هو من وحي الشيطان، والشيطان لا يوحي إليه ولا يوسوس له إلا إذا تولاّه، وصار من حزبه وأتباعه.

ولكن متى يكون الإنسان من أولياء الشيطان؟

الجواب: يكون من أولياء الشيطان إذا عبده، فإن بعض الإنس يعبدون الجن، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠].

وعبادة الشيطان قد تكون بالقربات، بأن يذبح باسم الشيطان، أو يدعو الشيطان، أو يطلب المدد والعون من الشيطان، ونحو ذلك.

وقد تكون عبادة الشيطان بترك بعض العبادات، فتراه يترك الصلوات أياماً معدودة حتىٰ تخدمهم الشياطين وحتىٰ تلابسهم، وتقدم لهم المعونات والمساعدة، وتوحي لهم ببعض المغيبات.

وبعضهم يعبد الشيطان بأكل النجاسات والأقذار، وتلطيخ ثيابهم وأجسادهم بها؛ لأن الشياطين تحب النجاسات والأقذار.

والكاهن حكمه في الشرع أنه كافر، وكذلك من يصدقه فهو كافر، كما في هذه الأحاديث التي ذكرها المصنف رحمه الله.

■ **قوله: [روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء ـ فصدقه بما يقول ـ، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»**[1] **]:**

يقول عليه الصلاة والسلام: في هذا الحديث: **«من أتى عرّافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول»**؛ يعني: صدقه في ذلك الشيء أو في تلك المسألة: **«لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»**، وإذا كان هذا في حق السائل الذي صدق العرّاف في كلمة واحدة، فكيف بحال المسئول؟ فالمسئول يكون ذنبه أكبر، وإثمه أعظم؛ لأنه مشرك، ولأنه عبد غير الله، فهو عبد للشياطين ومردة الجن، ثم إن عدم قبول الصلاة بمعنى: عدم الثواب عليها، لكن لا يؤمر بالإعادة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣٠)، وقوله: «فصدقه بما يقول» ليست عند مسلم، وإنما هي عند أحمد (٤ / ٦٨)، (٥ / ٣٨٠).

■ قـوله : [وعن أبي هـريرة رضـي الله عنه ، عـن النبي ﷺ قـال : «من أتى كـاهناً ـ فصدقة بما يقول ـ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» ، رواه أبو داود[١] .

وللأربعـة ،[٢] والحـاكم[٣] ـ وقال : صحيح على شرطهما ـ، عن ...[٤] : «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول ؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» .

ولأبي يعلى ـ بسند جيد ـ، عن ابن مسعود مثله موقوفاً[٥]] :

هذا الحديث أفـاد بأن من أتىٰ عرّافاً أو كـاهناً فسأله عن شيء فـصدقه فـحكمه أنه كافر ؛ لأنه صدقه فيما يقـول ، وبكل ما يقول ، واعتبر كـلامه كله حقّاً ، فقال عن هذا الكاهن : مكاشف ، أو هذا عـارف ، أو لا يقـول إلا حـقّاً ، أو هـذا علىٰ حق ، أو هذا علىٰ برهان ، أو هذا علىٰ صـواب ، فـيمـدح الكاهن ، ويثني عليه ،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٩٠٤) . والترمذي برقم (١٣٥) . وابن ماجه برقم (٦٣٩) ، وأحمد في «المسند» (٢ / ٤٠٨ ، ٤٧٦) ، والدارمي رقم (١١٤٣) ، والبيهقي (٧ / ١٩٨) .
وصححه أحمد شاكر برقم (٩٢٧٥) ، وصححه الألباني في «الإرواء» رقم (٢٠٠٦) .

(٢) عزا المصنف ـ رحمه الله ـ هذه الرواية للأربعة وهي ليس كذلك ، فلم يخرجها من أصحاب السنن الأربعة أحد .

(٣) أخرجه الحاكم (١ / ٨) ، وصححه علىٰ شرطهما ووافقه الذهبي ، وقال الذهبي في «الكبائر» (١٢٣) : إسناده صحيح .
وأخرجه أحمد (٢ / ٤٢٩) ، والبيهقي (٨ / ١٣٥) ، وصححه الألباني في «الإرواء» (٧ / ٦٩) .

(٤) قال الدكتور الوليد بن عبدالرحمن الفريان ، محقق كتاب فتح المجيد : بياض في جميع الأصول الخطية التي اطلعت عليها من كتاب التوحيد وشروحه .

(٥) أخرجه أبو يعلىٰ في «المسند» رقم (٥٤٠٨) . وعبد الرزاق في «المنصف» (١١ / ٢١٠) ، والبزار كما في «كشف الأستار» (٢ / ٤٤٣) ، والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٠٠٥) .
قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤ / ٣٦) : رواه البزار وأبو يعلىٰ بإسناد جيد موقوفاً .
وقال الهيثمي في «المجمع» (٥ / ١١٨) : رواه الطبراني في «الكبير والأوسط» والبزار ، ورجال الكبير والبزار ثقات . أ . هـ . وقال الحافظ في «الفتح» (١٠ / ٢١٧) : إسناده جيد ، وقال : مثله لا يقال بالرأي .

فإذا أقرّه ومدحه فقد ضاد الله وحادّه، وخالف الرسول ﷺ، وخالف الشريعة؛ فيكون بذلك قد كفر بما أنزل على محمد ﷺ كفراً مطلقاً أو مقيداً بما أنزل في شأن الكهان وعلم الغيب ونحوه، وهذا في من كان عارفاً بأن هذا كاهن، وأنه كذاب، وأنه موهم، وأنه موسوس، وأنه عابد للشيطان ومتقرب إليه، ومع ذلك يصدقه في ما يقول، فإنه يعتبر كافراً.

ثم إنه من المعلوم أن الكثير مما يقوله الكهنة ليس بحقيقة، لذلك فهم يظنون ظنّاً ويتخرصون تخرصاً، فإذا أخطأ أحدهم لم يلمه الناس، وقالوا: إنه قد أصاب في غير ذلك، كما في الحديث أنه يكذب مع الكلمة التي يلقيها إليه الشيطان مائة كذبة.[1]

فائدة: ما واجب المسلم تجاه هؤلاء الكهنة وهؤلاء العرافين وأفعالهم؟

الواجب: أن نوقن بأن الغيب لا يعلمه إلا الله، حتى الرسل لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: **﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾** [الأعراف: ١٨٨]؛ فالرسول يقول: **﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾**؛ فإذا كانت الرسل لا يعلمون الغيب، فكيف يعلمها هذا الكاذب؟ وهذا الكاهن الكافر؟

كذلك يقول تعالى: **﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾** [النمل: ٦٥].

وقد يطلع الله بعضاً من خلقه على شيء من غيبه، أو على جزئيات، كما في قوله تعالى: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٠١). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، كالذي أخبر به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الأمور الغيبية التي كانت مما أطلعه الله عليه ومما أوحاه الله إليه، فإخبار الرسل بالغيب هو من جملة الوحي الذي أوحي إليهم، ولا يعلمون كل شيء، ولا يعلمون ما في غد، ولهذا يقول النبي ﷺ لما سئل عن الأمور المغيبة، قال: «**خمس لا يعلمهن إلا الله**»[(١)]، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: ٣٤].

فتبين بذلك أن هؤلاء كهنة، ولا يجوز تصديقهم، ولا إقرارهم على ما يقولون، وإذا عرفنا حكم من يسألهم أنه كافر، فكذلك حكمهم بطريق الأولى أنهم كفرة، وتقدم أن الساحر حده القتل، فهؤلاء سحرة مثله، فحدهم كحده أن يقتلوا ويقام عليهم الحد.

وإنما واجبنا نحن أن نحذر طريقتهم، فلا نتعلم سحرهم، ولا كهانتهم، ولا نأتي بشيء من أعمالهم التي يعملون بها، حيث عرفنا أنهم كاذبون، وأنهم كافرون.

وعلينا كذلك: أن نبتعد عنهم، فإذا عرفنا أن هذا أو هذه يتكهن، أو يدعي علم الغيب، أو ما أشبه ذلك، فلا نأتي إليهم حذراً من أن نوصف بما ورد في هذه الأحاديث التي فيها هذا الوعيد، مثل: عدم قبول الصلاة، والحكم بالكفر.

كذلك: أن نحذِّر الناس منهم، ومن شرهم، وتلبيسهم، وتضليلهم، وكفرهم، وأن نبين للناس أنهم كاذبون، وأنهم كهنة وكفرة ماردون، وأن من جاءهم وصدقهم؛ فإنه متوعد بهذا الوعيد، ولو لم يكن إلا هذا الوعيد «**فقد كفر**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠)، ومسلم برقم (٩). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بما أنزل على محمد ﷺ» لكفى ذلك.

فالواجب الاقتصار على الشرع، والاقتصار على الوحي، وعلى الكتاب والسنة، وما جاء فيهما، وقد أنزل على نبيه أن الإنسان لا يعلم الغيب والمستقبل، ولا يعرف ما في الأمور المستقبلة، فإذا صدق هؤلاء الكهنة والعرافين، فقد كذب بما أخبر الله به في كتابه، وما أخبر به عنه رسوله ﷺ.

فالمسلم يحرص على إكمال دينه، ويبتعد عما ينقص دينه، أو يخل بإسلامه، أو يقدح في عقيدته.

■ **وقوله: [وعن عمران بن حصين، مرفوعاً: «ليس منا من تَطيَّر أو تُطيِّر له، أو تَكهَّن أو تُكهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له. ومن أتى كاهناً ـ فصدقه بما يقول ـ؛ فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ»، رواه البزار بإسناد جيد** (١).

ورواه الطبراني بإسناد حسن، من حديث ابن عباس، دون قوله: «ومن أتى كاهناً...» إلى آخره. (٢)]:

الطيرة هي: التشاؤم بالطيور والوحوش ونحوها.

---

(١) أخرجه البزار رقم (٢٠٦٧)، والهيثمي في «المجمع» (٥ / ١١٧).

قال المنذري في «الترغيب» (٤ / ٣٦): «رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفاً»، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، خلا اسحق بن الربيع وهو ثقة: أ. هـ. وقال الحافظ في «الفتح» (١٨ / ١٦٢): إسناده جيد.

(٢) أخرجه البزار (٣/ ٣٩٩). و الطبراني في «الأوسط» كما في «الترغيب» (٤ / ٣٣). والهيثمي في «المجمع» (٥ / ١١٧).

قال البزار: لا نعلمه روي عن النبي إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد. وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في «الأوسط»، وفيه زمعة بن صالح وهو ضعيف. وقال المنذري (٤ / ٣٣): إسناده حسن. وهو يتقوى بالحديث الذي قبله.

والكهانة هي: ادعاء معرفة المغيبات.

والسحر: هو الشعوذة ونحوها من المعاملات الشيطانية السحرية.

يخبر النبي ﷺ في هذا الحديث بأن من فعل هذه الأشياء فإنه (**ليس منا**)؛ أي: ليس من أهل ديننا، أو ليس من أهل شرعنا، وهذا وعيد شديد بأنه خارج عن حظيرة الإسلام، ووصف المسلمين.

فتوعد في هذا الحديث: (**من تطيَّر**) وهو الذي يتشاءم بنفس الطير، أو يثيره لأجل أن يتشاءم به، ومن (**تُطيِّر له**) هو الذي يرسل غيره ليزجر الطير ونحوه، وهذا متوعد بهذا الوعيد الشديد وهو قوله: «**ليس منا**».

ثم توعد في هذا الحديث الكاهن والمتكهن له على السواء، والفرق بينهما: **أن المتكهن له**: هو الذي يأتي إلى الكاهن، ويطلب منه أن يتكهن له، فيقول: تكهن لي وأخبرني بمكان الضالة، أو تكهن لي وأخبرني بكذا وكذا من أمور حدثت له، وما أشبه ذلك، وقد يكون هذا أيضاً مع السحرة، كأن يأتي إليه، ويقول: أخبرني بمن سحرني، ونحو ذلك، فالسائل والمسؤول كلاهما متوعد، فقال: «**ليس منا من تَكهَّن أو تُكهِّن له**»؛ فالكاهن متوعد؛ لأنه كما تقدم يستوحي من الشياطين، والشياطين لا توحي إليه إلا إذا تقرب إليها وعبدها من دون الله، وأما المتكهن له فهو أيضاً متوعد؛ لأنه أقر هذا الكاهن على كهانته، وشهد له بالحق وصدَّقه.

ثم قال: «**أو سَحَر أو سُحِر له**»، وقد سبق لنا أن تكلمنا على السحر وأنواعه وحكمه، وحكم من أتى السحرة ونحو ذلك في باب: (ما جاء في السحر)، فليرجع إليه.

والحاصل: أنه ﷺ توعدهم في هذا الحديث بهذا الوعيد الشديد بقوله: «ليس منا»؛ أي: لا يكون من المسلمين، وليس من أهل الشريعة، بل هم من أعدائها، ومن الخارجين عليها المبدلين لها، الناقمين عليها، فهو من أحاديث الوعيد تجرىٰ علىٰ ظاهرها.

ثم ذكر في الحديث، قوله: «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**». وقد ذكرنا أن معنىٰ قوله: «**فصدقه بما يقول**»، يعني: صدق الكاهن في كل ما يدّعيه، وفي كل ما يأتي به، أو في كل ما يزعم به من التكهنات والخوارق ونحو ذلك. وهو يعرف أنه عرّاف وكاهن، أي: يرىٰ أنه عارف وأنه علىٰ حق وأنه مصيب، فمثل هذا يكون والعياذ بالله متوعد بخروجه من الملة.

وقوله: «**كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»:

قيل: المراد كَفَرَ بكل الشرع الذي أنزل علىٰ محمد ﷺ، فيكون كافراً كفراً مطلقاً.

وقيل: كفر بما أنزل عليه من تكذيب الكهنة، كقول الله تعالىٰ: **﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾**، إلىٰ قوله: **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾** [الشعراء: ٢١٠، ٢٢٣].

فإذا عَرَفَ أن مما أنزل علىٰ محمد ﷺ تكذيب الكهنة، والإخبار بأنهم توحي إليهم الشياطين، بقوله تعالىٰ: **﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾** [الأنعام: ١٢١]، ثم أقرهم وصدقهم، فذلك تكذيب بما أنزل علىٰ محمد ﷺ، في مثل هذه الآيات.

■ وقوله: [قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدَّمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك[١].

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العرّاف: اسم للكاهن والمنجم والرمال، ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق[٢].]:

أورد المصنف ـ رحمه الله ـ هذه الأقوال، وهي قول البغوي وقول شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريف العرّاف.

* **والعراف**: مشتق من العُرف، كأنه عارف، وكأنه يعرف، وكأنه ذو معرفة، فيسمونه عرّافاً، فيقولون: أتينا العراف، وذهبنا إلىٰ العراف.

فالعراف هو: اسم لمن يدعي معرفة الأمور الغيبية، ويدعي هذا بمقدمات، تلك المقدمات إما أنها أشياء أمام أعين الناس؛ كالضرب بالحصىٰ؛ أي: يجمع حصىٰ ثم يضرب ويجمع إلىٰ أن يكوِّن كومة حجارة، ثم يأخذها حجرين حجرين حتىٰ ينظر الباقي، هذا يقال له: الضارب بالحصىٰ، وكالخط في الرمل؛ أي: يخط خطوطاً كثيرة، ثم يرجع إليها فيمحوها اثنتين اثنتين، حتىٰ ينظر الباقي، فهذه من المقدمات.

وقد تكون تلك المقدمات خطوط في أوراق ونحوها، وقد تكون تلك المقدمات أسماء ينطق بها حتىٰ يستحضر بها الشياطين.

فالحاصل أن هذه المقدمات هي أمور يستعملها ليستدل بها في نظره علىٰ

---

(١) انظر «شرح السنة» للبغوي (٢/ ١٨٢).

(٢) انظر مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥/ ١٧٣).

المسروق أو على الغائب ونحو ذلك .

وقيل: أن العراف هو : الكاهن .

والكاهن هو: الذي يدعي معرفة المغيبات .

وقيل: هو الذي يعلم ما في الضمير ، فيقول لك مثلاً : أنت تحدّث نفسك بكذا ، أو يقول : سيحدث بعد يوم كذا وكذا ، أو سينزل كذا أو ما أشبه ذلك ، أو سيموت فلان بعد يوم أو بعد أيام ، هذه كلها من الخرافات ، ومن الأكاذيب المفتراة التي ما أنزل الله بها من سلطان .

وقد يكون منها ما يسمى بقراءة الكف ؛ فينظر في كفه ويقول : قرأت في كفك أنه يحصل لك كذا ، وما أشبهه ، وهذا كله من الأمور التي لا أصل لها .

وبهذا قد تبين أن الوعيد الذي في هذه الأحاديث واقع لهؤلاء الكهنة ، والسحرة ، والعرّافين ، وأهل الضرب بالحصى ، والخطاطين الذين يخطون في الرمل ، وما أشبه ذلك ، توعدوا جميعاً بهذا الوعيد ، في قوله : «**ليس منا**» ، وفي قوله : «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول ؛ فقد كفر بما أنزل على محمد**» ، وإذا كان الذي يصدقه كافراً ، فكيف بالكاهن نفسه؟ فإنه أولى بأن يكون كافراً .

■ **قوله : [وقال ابن عباس ـ في قوم يكتبون (أبا جاد) ، وينظرون في النجوم ـ: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاقٍ**[1] **.]** :

ومن الوعيد أيضاً ما في هذا الأثر الذي ذُكر عن ابن عباس رضي الله عنه ،

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس مرفوعاً رقم (١٠٩٨٠) .
قال الهيثمي في «المجمع» (٥ / ١١٧) : وفيه خالد بن زيد العمري وهو كذاب ، وقال في فتح المجيد (ص : ٣٣٩) : هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً ، وإسناده ضعيف .
وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١١ / ٢٦) ، والبيهقي (٨ / ١٣٩) ، وابن عبد البر في «الجامع» (٢٥ / ٣٩) ، عن ابن عباس موقوفاً ، وسنده صحيح .

فقد سئل عن قوم يكتبون حروف (أبي جاد)، وينظرون في النجوم؟ فقال: ما أرىٰ من يفعل ذلك له عند الله من خلاق.

فهؤلاء يكتبون هذه الحروف ليستدلوا بها علىٰ الأمور الغيبية ونحوها، ويقولون: إذا اجتمع حرف فاء وحرف جيم، في كلمة مثلاً أو في شخص؛ فإنه يستنتج منه أنه يكون خُلُقه كذا، أو يصير إلىٰ كذا، أو يمرض بكذا، وهذا استدلال خاطئ ليس له أصل، فمن فعل ذلك فليس له عند الله من خلاق.

وكذلك الذين ينظرون في النجوم، أي: الذين يستدلون بالنجوم، **وتعريف التنجيم**: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الأرضية، وسيأتينا تفصيل ذلك في بابه إن شاء الله[1]، وقد تقدم قوله ﷺ: «**من اقتبس شعبة النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»[2].

وقوله: «**ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق**»، أي: الذي يتعاطىٰ مثل هذه الأشياء، فيكتب (أبا جاد)، أو ينظر في النجوم، ليس له عند الله من خلاق؛ أي: ليس له حظ ولا نصيب عند الله تعالىٰ.

أما تعلم حروف (أبا جاد) من أجل الحساب، أي: حساب الجمل أو نحو ذلك، فهذا لا بأس به، فإذا استعمل للحساب مثلاً أن الألف للواحد، والباء للاثنين، والجيم للثلاثة، والدال للأربعة إلىٰ آخره، فهذا حساب.

وأما استعماله وتركيب حرف كذا، وحرف كذا، ليدل علىٰ شؤم، أو ليدل علىٰ نحس، أو ليدل علىٰ بؤس، أو علىٰ مرض، أو ما أشبه ذلك، كما يفعله قوم؛ فهذا هو المحرم، الذي لا أصل له في الشرع.

---

(١) في باب رقم (٢٨): باب ما جاء في التنجيم.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٨.

فإذاعرفنا أن الكهانة وما يتصل بها من الأسباب التي تؤدي إليها كفر، فإن علينا أن نتجنب تلك الأسباب، ونمقت أهلها.

وقد يوجد بكثرة في البراري وفي البلاد من يتعاطون علم الكهانة وعلم الشعوذة ونحوهم، ويتوافد إليهم الخلق الكثير، يصدقون بعض قولهم أو كله، ولا يعتبرون بمثل هذه الأحاديث التي فيها الوعيد الشديد، ولا يعتبرون أن من صدقهم وأتاهم أو استعمل ما أعطوه أنه متوعد بهذا الوعيد.

فالمسلم يحرص على أن يحفظ عليه عقيدته، ويحذر الذين يراهم يذهبون إلى الكهنة، ويأخذون منهم من المسلمين، ويبين لهم أنهم كذبة مشعوذون، وأن ما يصدقون فيه فهو من وحي الشياطين، أو مما يأتي مصادفاً ليس حقيقة، ففي ذلك يكون قد حفظ إخوانه المسلمين مما حفظ به نفسه.

نسأل الله أن يحفظ علينا عقيدتنا وتوحيدنا، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٢٦]

باب:
ما جاء في النُشرة

عن جابر، أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان»، رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

وللبخاري، عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب، أو يؤخذ عن امرأته، أيُحلّ عنه أو يُنشَّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع لم ينه عنه.

ويروى عن الحسن، أنه قال: لا يَحُلُّ السحر إلا ساحر.

قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية، والتعوذات، والأدوية، والدعوات المباحة، فهذا جائز.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه، والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب
ما جاء في النُشرة

عرفنا أن السحر من عمل الشيطان، وأن السحرة يتقربون إلى الشياطين حتى تعينهم على عمل السحر الذي هو الإضرار بالمسحور ونحوه، فلا يحصل لهم التأثير في المسحور إلا بمساعدة الشياطين.

■ قوله: [**عن جابر: أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان»**(١)**، رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.**]:

النشرة: معناها حل السحر عن المسحور، وقد أخبر في هذا الحديث ـ حديث جابر ـ أن النبي ﷺ سئل عن النشرة، فقال: «**هي من عمل الشيطان**»، يعني: إذا كان الأصل وهو السحر من عمل الشيطان، فإن حلها المعروف من عمل الشيطان ـ أيضاً ـ؛ كما ذكره ابن القيم، فإذا وقع إنسان في سحر، أي: عمل له سحر ووقع فيه، فلا يجوز له أن يذهب إلى سحرة آخرين، ويقول لهم: حلوا عني السحر الذي أنا فيه، لأن ذلك يعد إقراراً لهم على شركهم، وأعمالهم السيئة،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤)، وأبو داود برقم (٣٨٦٨)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢/ ٩٤٨)، والبيهقي (٩/ ٣٥١).
قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٢٣٣): إسناده حسن. وقال ابن مفلح في «الآداب» (٣/ ٧٣): إسناده جيد.
وله شاهد عن أنس أخرجه البزار رقم (٣٠٣٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤١٨). والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٢).
وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: ورجال البزار رجال الصحيح.

وذلك لأنهم لا يحلونه إلا بعد ما يستخدمون الشياطين.

فأصل السحر من عمل الشيطان، وحله على هذه الصفة من عمل الشيطان.

ولمّا روى هذا الحديث أبو داود ذكر أن الإمام أحمد سئل عنه، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله، يعني: ينهى عنه، وابن مسعود صحابي جليل عالم من علماء الصحابة، فلا يكرهه إلا وقد علم بالدليل أنه محرّم، وأنه لا يجوز.

وحيث علمنا أن الساحر كافر، وأن حده ضربة بالسيف، فكيف مع ذلك نقره ونشهد بصحة ما يأتي به؟ وكيف نأتي إليه ونطلب منه حل السحر عن هذا الشخص الذي سحره، أو نذهب إلى ساحر آخر، ونقول له: حل عن هذا الرجل السحر الذي قد أصابه؟!

بل متى عرفنا أن هذا الشخص يتعاطى السحر قتلناه بلا هوادة، فكيف مع ذلك نقره؟ ونقول له: عالج هذا الشخص، فالواجب ألا نقره، بل نحكم بقتله، كما بين رسول الله ﷺ حده، بقوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»[1].

■ قوله: [**وللبخاري، عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب، أو يُؤَخَّذُ عن امرأته، أيُحلّ عنه أو يُنشَّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع لم ينه عنه**[2].]:

هذا الأثر ظاهره أنه يبيح علاج المسحور، وقد رواه قتادة، أنه قال لابن المسيب: رجل به طب، أو يُؤَخَّذُ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشرّ؟ قال: (لا بأس

---

(١) سبق تخريجه في الباب الثالث والعشرون: (باب ما جاء في السحر).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم، انظر فتح الباري» (١٠ / ٢٣٢) في الطب، باب: هل يستخرج السحر.

ووصله ابن جرير الطبري في «التهذيب»، والأثرم في «السنن» كما في تعليق التعليق» (٥ / ٤٩).

به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه)؛ فهذا ابن المسيب تابعي جليل أباح علاج المسحور، ولكن يحمل كلامه على أن المراد النشرة الدينية، والعلاج الرحماني.

* وقوله: **(رجل به طب)**؛ أي: سِحْرٌ، فقد كانوا يسمون المسحور مطبوباً، تفاؤلاً بالطب، أو تفاؤلاً بالطيب.

* وقوله: **(أو يُؤَخَّذُ عن امرأته)**؛ يعني: يحال بينه وبينها، أو لا يقدر على وطئها، وهذا يسمى المعقود، ويسمى المحبوس، وهو أيضاً من عمل السحرة، حيث إن السحرة والمشعوذين ونحوهم يعملون أعمالاً يتقربون بها إلى الشيطان فيحولون بين ذلك الرجل وبين امرأته، بحيث إذا قرب منها بطلت همته، وبردت حركته، وذهبت شهوته، ولم يتمكن من إتيانها، وإذا بعد عنها تحركت فيه الهمة والشهوة، فهذا هو المعقود.

ومراد ابن المسيب كما قلنا أنه يُحلُّ عنه بالجائز من النشرة، فيجوز الحل بالرقية المباحة، ويجوز علاج المطبوب، وعلاج المعقود بالعلاجات الشرعية.

■ **قوله: [ويروى عن الحسن، أنه قال: لا يَحُلُّ السحر إلا ساحر**[1]]:

والحسن هو البصري، تابعي جليل من أجلاء التابعين، وقد قال: (لا يحل السحر إلا ساحر)؛ أي: إذا كنا نعرف أن هذا سحر من عمل الشيطان؛ فلا يحله على الهيئة المعروفة إلا ساحر مثله، فيحمل كلامه على أن المراد العلاج الشيطاني، وهو علاج السحرة ونحوهم.

والساحر لا يجوز إقراره، بل لا يجوز سؤاله أو الإتيان إليه كما تقدم، وقد

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «التهذيب»، كما في «فتح الباري» لابن حجر (١٠ / ٢٣٣).

مرَّ بنا قول النبي ﷺ: «**ليس منا من تكهن، أو تكهن له، أو تطير، أو تطير له، أو سحر، أو سحر له**».

والحاصل: هذه ثلاثة آثار، وهي: كلام ابن مسعود، وأثر ابن المسيب، وقول الحسن في النشرة.

■ **قوله: [قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:**

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية، والتعوذات، والأدوية، والدعوات المباحة، فهذا جائز(١).]:

أورد المصنف رحمه الله كلام ابن القيم في بيان حكم النشرة، فيقول ابن القيم: (**النشرة: حل السحر عن المسحور**)، يعني: كأن المسحور بعد ما كان مقيداً ومحتبساً، ينتشر ويطبب بعد ما كان مريضاً؛ فمن أجل ذلك سموه نشرة، كأنه ذهب يتنشر أو ينتشر، أي: يتعالج عند من ينشّره أو يطببه، وهو معنىٰ قول قتادة لابن المسيب: أيحل عنه أو ينشر، يعني: أيأتي إلىٰ من يعالجه بالنشرة.

ثم فصّل ابن القيم، فقال: إن حل السحر عن المسحور نوعان:

الأول: حلٌّ بسحرٍ مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر بما يجب، فيبطل عمله عن المسحور.

وهذه هي النشرة المحرمة وهي حل السحر بسحر مثله، وهو من عمل الشيطان، كما في حديث جابر: «**هي من عمل الشيطان**»، وعليه يحمل قول

---

(١) انظر «زاد المعاد» لابن القيم (٤/ ١٢٤، ١٨١)، والآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٧٧).

الحسن: «لا يحل السحر إلا ساحر»؛ أي: المراد لا يحله بمثله إلا ساحر، فهذا النوع حرام؛ لأن فيه إقرار السحرة على كفرهم.

الثاني: النشرة بالرقية، والتعوذات، والأدعية، والدعوات المباحة، فهذا جائز.

وهذه تسمى النشرة الجائزة، وتكون بالرقي والأدوية والتعوذات وما أشبهها، وعليه يحمل كلام ابن المسيب؛ على أن المراد النشرة الدينية، والعلاج الرحماني، وذلك لأن الله تعالى أعطى الإنسان علاجاً يبطل به كيد الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

فالمسحور مثلاً لو تحصن من الشيطان بالأدعية والعبادات ما ضرته أعمال السحرة، ولا قدروا عليه، وذلك لأن الأدعية والعبادات حصن حصين يمنع من وصول الضرر، ولكن لما وجد الشيطان منه فرجة دخل منها، فأوصل إليه ذلك العمل الشيطاني.

فلا يبطل هذا السحر إلا بالأذكار وبالأدعية، فعليهم أن يذهبوا للرقية إلى إنسان عابد، قارئ، مخلص، موحد، تقي، نقي، بعيد عن الشبهات، بعيد عن أكل الحرام ونحوه، فإذا عالجه بالقرآن، وبالأدعية المأثورة؛ فإن عمل الشيطان يبطل ـ بإذن الله ـ، فإذا نفث عليه ولو مرة أو ساعة أو نصف ساعة، بطل عمل الشيطان في تلك اللحظة، وهذا مشاهد ومجرب، يقرأ الرجل التقي النقي آية من كتاب الله، فيبطل بها عمل الشيطان، ويبطل كل ما يتصل بالشيطان.

وهناك أدعية وآيات كثيرة مجربة لإبطال هذا العمل الشيطاني، ومنها مثلاً آيات السحر الثلاث، إذا قرأها الإنسان على المسحور بقلب صادق مخلص

نفعت ـ بإذن الله تعالى ـ.

وآيات السحر الثلاث، هي:

الآية الأولى: قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧، ١٢٢].

الآية الثانية: في سورة يونس، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١، ٨٢].

الآية الثالثة: قوله تعالى في سورة طه: ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩].

ومثلها الآيات التي فيها إحقاق الحق وإبطال الباطل، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وكقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، وما أشبهها.

وكذلك قراءة سورتي المعوذتين، فإن فيهما تعوذ من الشيطان، فإنه الوسواس الخناس، وكذلك فيهما تعوذ من السحرة، فإنهم النفاثات: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

وكذلك سورتي الإخلاص، فإن فيهما تحقيق العبادة، والتوحيد لله، فـ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فيها تحقيق العبادة، و: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها تحقيق العقيدة.

كذلك آية الكرسي، فإنها جامعة شاملة لأنواع من التوحيد.

فإذا قرأ هذه الآيات مع إخلاصه، ومع عبادته، ومع ورعه وتقواه، ومع زهده وتقشفه، ومع تقلله من الشهوات، ومع بعده عن المحرمات، فإنه بإذن الله يقبل الله منه، ويحل ذلك السحر، ويبطل عمل الشيطان؛ لأن الشيطان لا يبقى له عمل مع الحق، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■



[٢٧]

باب:
ما جاء في التطير

وقول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر»، أخرجاه، زاد مسلم: «ولا نوء، ولا غول».

ولهما، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة».

ولأبي داود ـ بسند صحيح ـ، عن عقبة[1] بن عامر، قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ، فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وعن ابن مسعود، مرفوعاً: «الطيرة شرك، الطيرة شرك» وما منا إلا!، ولكن الله يذهبه بالتوكل. رواه أبو داود، والترمذي، وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

ولأحمد، من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

وله، من حديث الفضل بن عباس: «إنما الطيرة ما أمضاك أوردك».

---

(١) قال في فتح المجيد (١/ ٥٢٠): هكذا وقع في نسخ التوحيد، وصوابه: عن عروة بن عامر، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وسيأتي تخريجه قريباً.

● **فيه مسائل:**

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، مع قوله: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

الثانية: نفي العدوى.

الثالثة: نفي الطيرة.

الرابعة: نفي الهامة.

الخمسة: نفي الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب.

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في التطير

من الأمور الشركية التي كانت فاشية قبل الإسلام، وبقي لها بقية الآن، ما يسمىٰ بالتطير، وهو عبارة عن التشاؤم بالمرئي، أبو بالمسموع، واعتقاد الشؤم فيها، وقلة البركة، واعتقاد أنها تجلب السوء والفشل والمشكلات، فقد كان الأولون يتشاءمون بالطيور وبالوحوش، والمتأخرون يتشاءمون بالأشخاص ويتشاءمون بالأوطان ونحوها.

والأولون كانوا إذا أرادوا سفراً أو أمراً ذهب أحدهم يزجر الطير حتىٰ تطير، فإذا طارت نظر: هل تمر عن يمينه أم عن شماله؟ فإذا مرت عن يمينه فرح بذلك وتفاءل، وقال هذا سفر مبارك، ومضىٰ فيه، أما إذا مرت عن يساره فإنه يتشاءم، ويعتقدها فشلاً وشراً، ويترك ما قد عزم عليه من الفعل.

وكأن تلك الوحوش أو تلك الطيور هي التي تدله علىٰ الغيب، وهي التي تخبره بالأمور الخفية، وهي التي لها يمتثل ويترك، فيكون بذلك قد عظم هذه الوحوش، وقد ادعىٰ أن مرورها هذا دليل علىٰ العلم الخفي، أو علىٰ أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

هكذا كان الأولون يفعلون، ويسمون ما مر عن اليمين سانحاً، وما مر عن الشمال بارحاً، وما ذهب أماماً يسمونه ناطحاً، وما مر من الخلف يسمونه قعيداً، هكذا كانت عاداتهم السيئة، سواء كانت مع الطيور، أو مع الوحوش كالظباء، والوعول ونحوها، إذا أثاروها نظروا أين تذهب يميناً أو يساراً، فيتفاءلون أو يتشاءمون، فهذه من أفعالهم السيئة.

ويشبهها في هذه الأزمنة تشاؤم كثير من الناس بالأشخاص، بأن يكون أحدهم كما حُكي لنا كثيراً إذا رأىٰ إنساناً معيباً أو ناقص الخلقة لم يقبل معاملته، فإذا رأىٰ مثلاً أعمىٰ أو أعور أو أعرج أو مشلولاً أو ناقص عضو من الأعضاء، قال: هذا فأل شؤم، أو هذا شيء غير مبارك، فلا يقبل معاملته، ولا يقبل البيع له، أو الشراء منه، أو نحو ذلك، يعتقد أن فيه فشلاً وشراً وخسراناً. وهذا من آثار أهل الجاهلية.

كذلك أيضاً يتشاءمون بالمساكن، فإذا سكن في دار أو في بلدة ثم أصيب بمرض، أو بموت أحد من أهل بيته في تلك الدار، أو في تلك البلاد، أو خسرت تجارته، أو نحو ذلك، نسب ذلك إلىٰ البلد أو إلىٰ البيت، وقال: هذا منزل شؤم ولا خير فيه، منذ أن أتيناه ونحن في شر وما أشبه ذلك، فيتشاءم بتلك الأماكن، أو بتلك البقع التي لا ذنب لها، والأمر والتصرف كله بيد الله تعالىٰ فهذا هو التطير.

وسموه تطيراً لأنه اعتماد علىٰ الطيور غالباً، ويسمون فعله زجر الطير، وقد تقدم لنا تسميته بالعيافة، والعيافة: زجر الطير حتىٰ يثور، وينظر في مسيره، وبعضهم ـ أيضاً ـ يتشاءمون بأصوات الطيور، فإذا نعق الغراب عندهم فإنهم يُجيبونه بأن يقولوا: خير، وحكي عن طاووس أن رجلاً خرج معه في سفر، فمر غرابٌ ينعق، فقال: خير، فقال: لا تصحبني، أي خير عند هذا الطائر؟[1]

وكذلك كانوا إذا سمعوا من يقول خيراً، قالوا: لا خير ولا شر، كما نقل عن ابن عباس، أي: إنما هو طائر مسخر، فماذا يدل عليه طيرانه أو نعيقه؟ لا يدل علىٰ خير ولا علىٰ شر، إنما هو مسير ومسخر، ومتصرف فيه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠ / ٤٠٦).

وهذا التطير قديم كان في الأمم السابقة، حكاه الله تعالىٰ عن قوم صالح، وحكاه عن أصحاب ياسين، وحكاه عن آل فرعون، كما سيأتي.

■ **قوله**: [وقول الله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ١٣١]]:

هذا حكاه الله عن آل فرعون، قال تعالىٰ: ﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ١٣١]. فكانوا إذا أصابتهم الحسنة، وهي الخير والخصب، وكثرة الأموال، وسعة الرزق، قالوا: هذا بحظنا، وهذا بأفعالنا وجدهنا وفضلنا، وهذا لنا، وهذا ما نستحقه، و هذا فألنا. فإذا أصيبوا بجدب أو بمرض أو بقلة مطر أو بقلة رزق أو بضيق في المعيشة، قالوا: هذا بشؤم موسىٰ وقومه، هذا بشؤمهم وبقلة بركتهم، فمنذ أن جاءنا موسىٰ ومن معه، ونحن في شر، وفي ضيق، ولم يأتنا بخير، فيتطيرون بموسىٰ ومن معه، يقول الله تعالىٰ: ﴿**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ**﴾، أي: شؤمهم وما أصابهم من الله، وبسبب أفعالهم.

والحق أن ما أصابهم هو بسبب ذنوبهم لا بسبب موسىٰ، فموسىٰ عليه السلام ما جاء إلا برسالة ربه، وما جاء إلا بالخير، وإنما هذا من قبل أنفسهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ**﴾، أيْ: ألا إن ما أصابهم هو من عند الله، فالجدب والخصب كله من الله، والصحة والمرض كله من الله، والسعة والضيق والغنىٰ والفقر كل ذلك تسخير وتدبير الله، لا تصرف لأحد فيه البتة، فهذا هو المراد من كونه عند الله: ﴿**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ**﴾.

* أما ما حكىٰ الله عن قوم صالح؛ فذكر الله أنهم تطيروا بصالح، قال تعالىٰ: ﴿**قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ**﴾ [النمل: ٤٧]؛ أي: أنهم لما

أصابهم ما أصابهم قالوا لصالح : تطيرنا بك أنت ، ما جئتنا إلا بشر ، فمنذ أن قدمت علينا وأظهرت أنك نبي ونحن مصابون بأمراض وبعاهات ، وبفقر وبضيق في العيش ، ونكد في الحياة ، وبكذا وكذا ، فنحن متطيرون بك ، ولكنه أجابهم بأن : ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ ؛ أي : ما أصابكم ، وما أنتم فيه فهو من الله لا مني ، فلا تتطيروا بفعلي ولا بمجيئي لكم .

■ **قوله** : [وقوله : **﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾** [يس : ١٩]] :

وهذا ما حكاه الله عن أصحاب ياسين ؛ حيث حكىٰ عن الرسل الذين أرسلهم إلىٰ تلك القرية ، بقوله : **﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾** ، إلىٰ قوله : **﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾** [يس : ١٣، ١٩] طائركم ؛ أي : شؤمكم بسبب أفعالكم ، وما أصابكم الذي أصابكم إلا بكفركم ، وبسيئاتكم وبذنوبكم ، فلا تدّعوا كذباً وزوراً أن ما أصابكم بسببنا نحن ، ما أيتناكم إلا بخير فكيف تنيطون بنا هذا الفعل السيء القبيح .

فهذا ونحوه من التطير المذموم الذي دل علىٰ أنه سنة قبيحة ، وعادة قديمة ورثت من الأزمان القديمة ، وتناقلتها الأجيال تلو الأجيال في غياب شرائع السماء .

■ **قوله** : [**عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر»**[1] **أخرجاه ، زاد مسلم : «ولا نوء ، ولا غول»**[2]] :

يقول النبي ﷺ في هذا الحديث : «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**» ، وفي

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٥٧) ، ومسلم برقم (٢٢٢٠) .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٢٠)(١٠٦) ، من حديث أبي هريرة ، بزيادة : «ولا نوء» .
وأخرجه مسلم برقم (٢٢٢٠)(١٠٧) ، من حديث جابر ، بزيادة : «ولا غول» .

رواية: «ولا نوء ولا غول».

لقد اختلف في المراد بهذا الحديث، أهو لنفي هذه الأشياء أو للنهي عنها؟

فالقول الأول: إنه للنهي، والذين قالوا بهذا، قالوا: معنىٰ قوله: «**لا عدوى ولا طيرة**»؛ أي: لا تعتقدوا العدوىٰ، ولا تفعلوا الطيرة، وكذلك لا تفعلوا النوء والغول، ولا الهامة والصفر.

والقول الثاني: وهو الصحيح أنها للنفي، والنفي يدل علىٰ الإبطال، فالتقدير: ليس هناك عدوىٰ، وليس هناك طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول، فلا حقيقة لهذه الأشياء، إنما هي خيالات وأوهام يظنها الجهال، ويتأثرون بها ويعتقدون فيها.

● وقوله: «**لا عدوى**»:

العدوىٰ معناها: انتقال المرض من المريض إلىٰ السليم، وقد كان الجاهليون يعتقدون أن الأمراض تنتقل بطبيعتها لا بتقدير الله، فبين النبي ﷺ: أنها من الله تعالىٰ لا تنتقل إلا بإذن الله، والله تعالىٰ هو الذي أحدث وخلق هذه الأمراض، وهو الذي يمرض السليم، ويصح المريض، وليس للمرض نفسه طبيعة في انتقاله أبداً، أو تأثير في الناس بمعزل عن قدر الله وأمره.

فمن أجل ذلك قال: «**لا عدوى**»؛ أي: ليس هناك عدوىٰ حقيقية، وإنما مرض السليم من الله تعالىٰ، كما أنه سبحانه هو الذي أمرض الأول.

روي أن أعرابياً سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يعدي شيء، قالها ثلاثاً**»، فقال الأعرابي: يا رسول الله، إن النّقبة[1] من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فمن أجرب الأول؟ لا عدوى**

---

(١) النُقبة: أول شيء من الجرب؛ لأنها تنقب الجلد، أي: تخرقه.

ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها»[١].

هذا الأول الذي هو مصاب بالجرب من الذي أعداه ومن أين جاءه؟ أليس من الله تعالىٰ؟ هو الذي أنزل المرض بهذا، وهو الذي أنزل بالأول والآخر، فإذاً الحكم كله بخلق الله تعالىٰ وتقديره، لكن من حكمته تعالىٰ أن جعل مقاربة المريض والأجرب ونحوه سبباً في انتقاله، لا أنه هو السبب الرئيس، أو تنتقل بطبعها وبخلقتها، بل الله تعالىٰ هو الذي جعل المقاربة سبباً لخلق هذا المرض.

ودليل ذلك أنه ﷺ نهىٰ عن مقاربة المرضىٰ، فقال: **«فرّ من المجذوم فرارك من الأسد»**[٢]، لأن الجذام مرض شديد، وهو عبارة عن قروح تكون في الأنف، وفي الوجه، ومن ثم تكون مقاربة المجذوم بإذن الله سبباً في انتشار المرض، وانتقاله إلىٰ غيره، ولكنه بإذن الله، لذلك قال: **«فر من المجذوم فرارك من الأسد»**،

---

(١) أخرجه أحمد (١ / ٤٤٠)، والترمذي برقم (٢١٤٣)، وأبو يعلىٰ في «المسند» برقم(٥١٨٢). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٤١٩٨): إسناده ضعيف، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣ / ١٤٣).

وأخرجه أحمد في «المسند» (٢ / ٣٢٧)، وابن جرير الطبري في «تهذيب الآثار» رقم (٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال أحمد شاكر في المسند (٨٣٢٥): إسناده صحيح.

قال الشيخ ابن جبرين حفظه الله: وأصله في البخاري في «الطب» في مواضع برقم (٥٧١٧، ٥٧٧٠، ٥٧٧٥)، ومسلم في السلام برقم (٢٢٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً، رقم (٥٧٠٧)، في «كتاب الطب» ووصله أحمد في «المسند» (٢ / ٤٤٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩ / ٤٤)، وابن جرير الطبري في «الآثار» رقم (٣٨،٣٩).

وله شاهد من حديث عائشة عند ابن خزيمة في «كتاب التوكل» كما في «فتح الباري» (١٠ / ١٥٩).

ومع ذلك متىٰ قوي التوكل جاز أن يقارب المجذوم ويجالسه، فإنه قد ثبت أنه ﷺ أخذ بيد مجذوم وألقاها ودلاّها في القصعة، وقال: «**كل بسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه**»[1]، فأكل ﷺ مع المجذوم، ولكن النبي ﷺ خاف علىٰ الناس أن تكون نفوسهم ضعيفة، فإذا خالطوا المجذوم، وأصابهم الجذام، اعتقدوا اعتقاداً سيئاً في أن الأمراض تنتقل بطبعها، فمن أجل ذلك نهىٰ عن مقاربتها، حتىٰ لا يتطرق إليه هذا الظن السيء.

وكذلك في الإبل نهىٰ أن يورد الممرض علىٰ المصح[2]، والممرض هو صاحب الإبل المريضة، نهىٰ أن يورد علىٰ المصح؛ أي: علىٰ صاحب الإبل الصحيحة، مخافة أن تحتك الإبل المريضة بالإبل الصحيحة فتصاب الصحيحة بالجرب، ويعتقدون أن المرض ينتقل بطبيعته، لا أنه بتقدير الله تعالىٰ، وهذا اعتقاد خطأ، فإن كل أمر يحدث كبيراً كان أو صغيراً فهو بقضاء الله وبقدره، لا بطبع المرض ولا بنفسه.

والحاصل: فقد عرفنا أن العدوىٰ وهو انتقال المرض من المريض إلىٰ السليم، هو في الأصل من الله تعالىٰ، ولكن هناك أسباب، وهي أن مقاربة المريض سبب في انتقال المرض، قد يخلقه الله تعالىٰ فيمرض، وقد يتخلف ولا يمرض، وكثيراً

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٩٢٥)، والترمذي برقم (١٨١٨). وابن ماجه برقم (٣٥٤٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٣١٨)، وأبو يعلىٰ في «المسند» رقم (١٨٢٢). وابن حبان (٧/ ٦٤١). والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٣٦).
وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ١٦٠): فيه نظر، وقال ابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ١٥٣): لا يثبت ولا يصح، وقد روي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر وسلمان رضي الله عنهم، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٢٠٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٢١)، ولفظه: «**لا يورد ممرض على مصح**». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما يحصل الاختلاط بين الصحيح والمريض ولا يمرض الصحيح، وكثيراً ما يمرض الإنسان وهو بعيد عن المرضى، وقد يتحفظ الإنسان كثيراً ويتوقى ويتجنب أسباب المرض، ومع ذلك يصاب بالمرض، وهكذا.

إلا أن الله تعالى أمر بفعل الأسباب التي تكون سبباً في الوقاية، فمثلاً الطاعون نُهي عن أن يُقدم عليه في بلده، قال الرسول ﷺ: «**إذا سمعتم بالطاعون في بلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم ببلد فلا تهربوا فراراً منه**»[1].

وذلك أن الله تعالى جعل هذا المرض وهذا الوباء الذي هو عبارة عن طعن في الكف أو غيره يفشو في البلد بإذن الله، فإذا سمع به إنسان بعيد وقدم فكأنه يدفع نفسه إلى الموت بنفسه ويخاطر بها، لكن متى وقع في البلد وهو فيها فهرب فكأنه يعتقد أن هربه وفراره سبب في نجاته، وليس كذلك بل هذا إلى الله تعالى، فهذا معنى قوله: «**لا عدوى**». فالشاهد أنه عليه السلام نفى أو نهى عن العدوى.

● **أما قوله: «ولا طيرة»**:

وهذا نهي من النبي ﷺ عن الطيرة التي هي: التشاؤم بالطيور وبالوحوش ونحوها، وأبطل ما كان عليه الجاهليون من الاعتقاد من أنها تدل على شيء أو تفيد شيئاً، وما كان عليه ورثتهم في غير الطيور ـ أيضاً ـ؛ سواء في الأشخاص أو نحوهم، وقد سبق الكلام على الطيرة في أول الباب.

فينبغي ألا يعتقد الإنسان أشياء من هذه الأمور التي تخل بعقيدته، والتي تنقص توحيده، فإنه متى اعتقد أن الطيرة ذات تأثير فقد جعل المخلوق سبباً في التأثير، والأسباب كلها من الله.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٢٨)، ومسلم برقم (٢٢١٨)، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

● **أما قوله: «ولاهامة»:**

الهامة فيها خلاف، ، والراجح أنها اسم لنوع من الطيور، ويزعم العرب أنه يجلس على قبر المقتول ظلماً حتى ينتصر له، فإذا قتل شخص ظلماً زعموا أن الهامة تقف على قبره، وتقول: اسقوني، اسقوني، حتى يقتل القاتل، وهذا لا حقيقة له، وقد ذكروا هذا في شعرهم، وكان مشهوراً بينهم أن الهامة تشبه البومة أو هو البومة، ومتى وقعت على بيت أحد قالوا: نعت إليه نفسه، ولا حقيقة لذلك.

وقد قال بعضهم:

يا عمرو إلا تدع سبي ومنقصتي

أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

● **وقوله: «ولا صفر»:**

صفر، **قيل**: إنه شهر صفر، وكانوا يتشاءمون بشهر صفر، فلا يسافرون فيه، ولا يتزوجون، ولا يتاجرون فيه، ويقولون: إنه شهر شؤم، وبعضهم يعتقد أنه في شهر صفر تنزل الأمراض والعاهات فيتحفظون فيه ويبالغون في التحفظ خوفاً من المرض، وكل ذلك لا حقيقة له، وهو شهر كسائر الشهور.

ومنهم من يقول: إن المراد ما يفعلونه من النسيء القديم، فقد كان أهل الجاهلية في موسم الحج يقولون: إنا قد أحللنا المحرم وحرمنا بدله صفراً، ويسمونه نسيئاً، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا**﴾ [التوبة: ٣٧]؛ فالنسيء أبطله الإسلام، وأخبر بأنه زيادة في الكفر.

وهناك قول ثالث: وهو أن المراد بصفر مرض، وليس هو الشهر المعروف، ويكون منه صفرة في البدن، ويزعمون أنه أعدىٰ من الجرب.

ومنهم من يقول: إن الصفر هو حية تكون في البطن، وأنها تسبب مرضاً وتكون سبباً في انتقال مرضها أو المرض الناشئ عنها إلىٰ الأصحاء.

ولقد أبطل الإسلام تلك الاعتقادات الفاسدة، والخرافات الجاهلية، وبين أنه لا حقيقة لشيء من ذلك، هذا معنىٰ هذه الأشياء الأربعة.

● **أما قوله: «ولا نوء»:**

فالنوء: واحد الأنواء، وهي النجوم التي تطلع وتغرب، ناء النجم من هنا؛ أي: طلع، وناء من هنا؛ أي: غرب، ناء: أي: طلع أو غرب.

فقد كانوا يزعمون أنه إذا ناء النجم الفلاني حصل الغيث والخصب، أو قد يحصل جدب وقحط إذا ناء نجم آخر، أو إذا ناء النجم الفلاني في المنزل الفلاني، أو في الساعة الفلانية، كان سبباً لكذا أو كذا، وما أشبه ذلك، وهذا مما أبطله الإسلام، وسوف يأتينا باب حول هذا الموضوع إن شاء الله اسمه باب: (الاستسقاء بالأنواء)[1].

● **أما قوله: «ولا غول»:**

الغول: هو واحد الغيلان، والغيلان هي: السعالي، جمع سعلاة، وهي: متشيطنة الجن، وقد ورد إثبات أن الجن تتشكل في صور حيوانات ويسمونها السعلاة، ويسمون الجن إذا ظهروا في صور أشخاص غيلان، ويزعمون أنها تتمكن من إضلال هذا، وهداية هذا، وتخاطب هذا وتخاطب هذا، وهذا ليس بحقيقة، ولكن ليس ببعيد أنها تتشكل، فقد ورد ما يدل علىٰ ذلك، ففي الحديث

---

(١) انظر باب رقم (٢٩).

أنه ﷺ قال: «إذا تغوَّلت الغيلان فنادوا بالأذان»(١)، لأنهم شياطين الجن، والشياطين يهربون من الأذان(٢).

فالحاصل أن الغيلان موجودون، وقد رآهم الناس، ولكن كونهم مثلاً يتمكنون مما تزعمه الجاهلية من إضلال وهداية ومخاطبة الناس، وما أشبه ذلك، فهذا كله ليس بصحيح، بل يتمكنون من الإضرار أحياناً، ويطردهم ذكر الله تعالى.

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٢، ٣٠٥، ٣٨١، ٣٨٢)، وأبو يعلى في «المسند» رقم (٢٢١٩)، وابن خزيمة رقم (٢٥٤٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٥٥) من حديث جابر رضي الله عنه.
قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢١٣): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.
وله شاهد من حديث سعد بن وقاص أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ١٦٣)، والبزار في «المسند» رقم (٣١٢٩).
قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٣٤): رواه البزار ورجاله ثقات إلا أن الحسن البصري لم يسمع من سعد فيما أحسب أ. هـ.
وله شاهد آخر من حدث أبي هريرة أخرجه ابن خزيمة رقم (٢٥٤٩)، والطبراني في «الدعاء» رقم (٢٠٠٩).
وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ١٦٠). عن الحسن مرفوعاً، وأصله عند مسلم رقم (١٩٢٦)، دون اللفظ المذكور.
وضعف الألباني حديث جابر الذي رواه أحمد في «ضعيف الجامع» رقم (٥٣٥).
قال الشيخ ابن جبرين معقباً على تضعيف الألباني: لأنه من رواية الحسن البصري عن جابر، وهو لم يلقه، لكنه أدركه وأدرك تلامذته، وجزم بالرواية عنه، وصرح بالتحديث عنه، مما يدل على تأكده لما رواه عنه.

(٢) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: **«إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان، حتى إذا قضى التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: أذكر كذا، أذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى»**. أخرجه البخاري برقم (٦٠٨)، ومسلم برقم (٣٨٩).
وفي الباب عن جابر رضي الله عنه عند مسلم برقم (٣٨٨).

ومن المعلوم أن الجان الذين هم مشيطنة الجن لا يجرأون على من هو شجاع القلب، أما شجاع البدن ونحو ذلك فإن هذا لا يتأثرون به، فإذا أفزعوه وخوفوه وبقي ثابتاً شجاعاً، لا يتزعزع ولا يخاف ولا يفزع، واطمأن وذكر اسم الله، فهذا هو الذي لا يقدرون أن يفعلوا معه شيئاً.

وقد بالغ بعض العلماء في نفي وجود الغيلان اعتماداً على الحس والمشاهدة، وقال: ليس للغيلان حقيقة، كما يقول بعضهم:

فعلى عقولكم العفاء فإنكم

ثلثتم العنقاء والغيلانا

ويقول بعضهم:

الجود والغول والعنقاء ثالثة

أسماء أشياء لم توجد ولم تكن

فالصحيح أن الغول موجودون، ولكن لا يتمكنون من الإضلال والإضرار الذي تزعمه العرب إلا بإذن الله تعالى.

■ قوله: [**ولهما، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»**[1]]:

سبق الكلام على العدوى والطيرة في الحديث السابق، وبقي الكلام على الفأل في هذا الحديث.

الفأل هو: التفاؤل بالكلمات الحسنة التي يحصل بها ثبات القلب وقوته،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٧٦)، ومسلم برقم (٢٢٢٤).

والفأل الذي يحبه النبي ﷺ، والذي يعجبه، هو التفاؤل بالأسماء الحسنة، ويكره الأسماء القبيحة، وكذلك الأفعال ونحوهما.

فالنفوس مجبولة على حب الأسماء الطيبة، والمحبوبات ونحوها، فتحب أن تسمع السلامة والتهنئة والخير والرزق والفلاح والفوز والصلاح، ونحو ذلك، وتحب أن تسمع اسم سالم وصالح وسعد أو سعيد وما أشبه ذلك من الأسماء الطيبة، وتكره أن تسمع أضدادها كشقي وفاسد، وما أشبه ذلك، لكن السماع لهذا إنما هو مجرد تقوية، والتفاؤل بالأسماء الطيبة تقوية للنفس، ولهذا كان النبي ﷺ يحب الأسماء الحسنة، وينهى أو يغير الأسماء القبيحة ونحوها، فثبت عنه أنه قال: «**أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها: حارث وهمام، وأقبحها: حرب ومرة**»[١].

ولما أمر مرة بحلب شاة فجاءه شخص ليحلبها، فقال: «**ما أسمك؟**» فقال: مُرَّة، فقال له: «**اجلس**»، وجاء آخر فقال له: «**ما اسمك؟**»، فقال: حرب، قال: «**اجلس**»، وجاء آخر قال: «**ما أسمك؟**» قال: يعيش، فقال: «**احلب**»[٢].

وكذلك غير كثيراً من الأسماء القبيحة، فقد غير اسم العاص، وعتلة،

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (٨١٤)، وأحمد (٤/ ٤٤٥)، وأبو داود برقم (٤٩٥٠)، عن أبي وهب الجشمي رضي الله عنه.
وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٤٠)، و«الإرواء» (١١٧٨)، و«صحيح الأدب المفرد» (٦٢٥).
والشطر الأول من الحديث أخرجه مسلم برقم (٢١٣٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» مرسلاً (٢/ ٩٧٣).
قال المحقق: وصله ابن عبد البر من طريق ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن عبد الرحمن ابن جبير عن يعيش الغفاري.

وشيطان، والحكم، وغراب، وحباب، وما أشبهها، وذلك لكونها أسماء قبيحة، ينفر الطبع منها، ولكن مع ذلك لا يُعتقد أن كل مسمى فإنه يتأثر باسمه، سواء كان صالحاً أو غير ذلك، فليس كل من سمي صالحاً يكون من أهل الصلاح، ولا كل من سمي زاهداً يكون من أهل الزهد، وليس كل من سمي سعيداً يسعد في الدنيا أو الآخرة، وبضد ذلك أيضاً الأسماء التي ليست كهذه الحال.

هذا معنى قوله: «**ويعجبني الفأل**»؛ أي: الكلمة الطيبة، كأن تسمع كلمة سالم فتتفاءل بالسلامة، أو تسمع كلمة واجد فتتفاءل بوجدان ما أنت تطلبه، أو ما أشبه ذلك، ولكنك لاتعتقد ذلك يقيناً، بل إنما هو مجرد تقوية ومجرد جبر للقلب ونحوه، وهذا لا يكون من الطيرة المذمومة؛ فالطيرة كما ذكر في آخر الباب هي قول: «**ما أمضاك أو ردك**»؛ ومعناه: أنك إذا كنت ماضياً في السير فجاءك مثلاً وحش أو طير فمر عن يسارك فرجعت بعد ما كنت سائراً من أجل هذا الوحش أو هذا الطائر، فهذا ردك فتطيرت بذلك، أو كنت متوقفاً وعازماً على الرجوع فمر عن يمينك طائر أو نحوه، فمضيت من أجل ذلك الطير، واعتمدت على خبر أو فعل هذا الطائر.

فالحاصل إذا مضيت من أجل هذا الطير أو هذا الوحش، أو رجعت من أجل هذا الطير أو هذا الوحش؛ فأنت بهذا قد تطيرت، ووقعت في الطيرة الشركية.

■ قوله: [ولأبي داود ـ بسند صحيح ـ، عن عقبة[١] بن عامر، قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ، فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[٢]]:

كأنهم ذكروا الطيرة وشأنها، فقال: «**أحسنها الفأل**»؛ يعني: إنما يستحسن منها ويباح الفأل، الذي هو التفاؤل بالكلمة أو بالاسم الحسن أو نحو ذلك.

وقوله: «ولا ترد مسلماً»:

دل على أن من ردته الطيرة عن حاجته وقصده فإنه قد نقص اتصافه بالإسلام، فيكون عاصياً أو مشركاً أو كافراً، أو نحو ذلك، على حسب ما يقوم بقلبه، وهذا معنى قوله: «**ولا ترد مسلماً**»، بل المسلم ولو رأى ما يكره، ولو رأى الطير قد برح عن يساره لا يرده ذلك، بل يمضي قدماً، فيعتمد على الله، وإذا رأى ما يكره من مرور هذه الطيور، أو الوحوش، ونحوها اعتمد على الله، ودعا بمثل هذا الدعاء: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولاحول ولا قوة إلا بك**»، فإنه دعاء في غاية المناسبة.

---

(١) قال في «فتح المجيد» (١/ ٥٢٠): هكذا وقع في «نسخ التوحيد»، وصوابه: عن عروة بن عامر، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وسيأتي تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٧١٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» برقم (٦٤٤٣، ٩٥٩٠، ٩٥٩١)، والبيهقي (٨/ ١٣٩).

قال النووي في «رياض الصالحين» (٦٣٩): رواه أبو داود بإسناد صحيح، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (١٩٩).

وله شاهد مرسل من طريق عبد الرحمن بن سابط الجمحي به، أخرجه أبو داود في المراسيل رقم (٥٣٩).

وشاهد آخر عن الأعمش به، أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٤٠٦).

وقوله: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت**»:

الحسنات: هي الخيرات، ويدخل في الحسنات، الأرزاق الحسنة، يعني: لا يأتي بالرزق إلا أنت، ولا يأتي بالصحة غيرك، ولا يأتي بالفتح والنصر إلا أنت، ولا يأتي بالتقوية إلا أنت، فكل الحسنات المحبوبة إنما هي من الله تعالىٰ، والطيور والوحوش والخلق ليس إليهم شيء من ذلك، وقد يدخل في الحسنات الأعمال الصالحة؛ يعني: لا يوفق للأعمال الحسنة إلا أنت، أنت الذي تعيننا علىٰ أن نفعل الحسنات، وعلىٰ أن نكثر من الأعمال الصالحة.

وقوله: «**ولا يدفع السيئات إلا أنت**»:

والسيئات: هي المصائب والشرور والعاهات، يعني: لا يدفع الفقر غيرك، ولا يدفع المصيبة إلا أنت، فأنت القادر علىٰ أن تدفع عنا المصائب والعاهات، وأنت القادر علىٰ أن تدفع عنا الأعداء، وكيدهم، وأنت القادر وحدك علىٰ أن تدفع الشرور والأمراض، ونحوها، وأنت القادر علىٰ أن تدفع عنا كيد كل كائد، فلا يدفع السيئات إلا أنت.

وقد يراد بالسيئات الأعمال السيئة، كالمعاصي والذنوب والكفر والشرك، يعني: لا يحمينا من الذنوب غيرك، فنحن نستعيذ بك من السيئات، ونسألك الحفظ منها، فهذا دعاء في غاية المناسبة، كأنه يقول: نحن معتمدون علىٰ تصرفك لنا يارب؛ فإنك الذي تأتي بالخير، وتدفع الشر وحدك.

وقوله: «**ولا حول ولا قوة إلا بك**»:

الحول: هو التحول من حال إلىٰ حال، ليس لنا استطاعة علىٰ أن ننتقل من حال إلىٰ حال إلا بتقويتك، وإمدادك، لا نقدر أن نتحول من صحة إلىٰ مرض إلا بفضلك، ولا نقدر علىٰ أن نتحول من فقر إلىٰ غنىٰ إلا بعطائك، ولا نقدر

علىٰ أن نتحول من ذل إلىٰ عز إلا بعطائك وإعزازك، وهكذا لا حول ولاقوة إلا بك.

وهذه الكلمة كلمة عظيمة: **(لا حول ولا قوة إلا بالله)**، وهي كنز من كنوز العرش[1]، وفيها الدلالة علىٰ الاعتماد علىٰ الله، وفيها الدلالة علىٰ أن الله وحده هو الكافي عباده، وأنهم لا يقدرون علىٰ أن يصلحوا من أحوالهم ولا من أمورهم شيئاً إلا بتدبير الله وتوفيقه، وعطاءه وإمداده.

■ **قوله: [وعن ابن مسعود، مرفوعاً: «الطيرة شرك، الطيرة شرك»، وما منا إلا!، ولكن الله يذهبه بالتوكل[2]. رواه أبو داود، والترمذي، وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.]**:

ومعنىٰ كونها شركاً: أن الذي يتطير كأنه يعتمد علىٰ خبر الطيور

(١) كما ثبت ذلك في الحديث عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟» قلت: بلىٰ، قال: «لاحول ولا قوة إلا بالله»**.
أخرجه أحمد (٥ / ١٥٦). وابن ماجه برقم (٣٨٢٤، ٣٨٢٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٣٩). وابن السني رقم (٤٤). والطبراني في «الكبير» رقم (١٦٤٢).
وقد ثبت ذلك أيضاً في حديث أبي موسىٰ الأشعرىٰ رضي الله عنه، أخرجه البخاري برقم (٤٢٠٥)، ومسلم برقم (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٩١٠)، والترمذي برقم (١٦١٤)، وابن ماجه برقم (٣٥٣٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٩)، وأحمد في «المسند» (١ / ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠)، وابن حبان (١٤٢٧)، والحاكم (١ / ١٧، ١٨)، والبيهقي (٨ / ١٣٩)، وأورده البغوي في «شرح السنة» (١٢ / ١٧٧، ١٧٨).
قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. قال أحمد شاكر في المسند (٣٦٨٧): إسناده صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٦٩٨). وفي «السلسلة الصحيحة» رقم (٤٢٩).
وأخرجه أبو يعلىٰ في «المسند» برقم (٤٣٠، ٤٣١)، من حديث علي رضي الله عنه.
وأخرجه أبو يعلىٰ أيضاً برقم (٢٨٧٠)، من حديث أنس رضي الله عنه. =

والوحوش؛ وكأنه يعترف بأن هذا الطير هو الذي أمره، أو نهاه، وهو الذي دله وهداه، وهو الذي أرشده إلىٰ ما يقول أو يفعل، فقد جعل للطير تصرفاً، ومن ثم فقد جعل مع الله متصرفاً، وبذلك يكون شركاً.

ثم قال: «وما منا إلا»، وهذا من كلام ابن مسعود رضي الله عنه، يعني: ما منا إلا من وقع في قلبه شيء من الوحشة عندما يرىٰ سانحاً أو بارحاً، أو من سمعه أو لقيه مما يكره أو نحو ذلك.

ثم قال: «**ولكن الله يذهبه بالتوكل**»؛ والتوكل: هو الاعتماد على الله؛ يعني: إنما يقع في القلب من ارتجاف عندما يري شيئاً يكرهه، يزول ويذهب إذا مضىٰ وتوكل علىٰ الله، والتوكل هو: التفويض والاعتماد؛ تفويض الأمور إلىٰ الله والاعتماد بالقلب عليه، والرضىٰ به حسيباً ووكيلاً، فإذا توكل علىٰ الله، ووثق بطلبه، فإنه سيذهب ما في قلبه من ذلك التطير ونحوه، ويكفِّر الله عنه ما وقع فيه.

■ **قوله: [ولأحمد، من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»**(١)**.]:**

بمعنىٰ أنه جعل الطائر متصرفاً، فجعل له نوعاً من علم الغيب أو التدبير،

= وأخرجه أيضاً أبو يعلىٰ برقم (٧٦٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
وزيادة: «وما منا إلا...إلخ» مدرجة، كما نص علىٰ ذلك البخاري وغيره، وهي من كلام ابن مسعود، راجع «الترغيب والترهيب» (٤ / ٦٤)، والترمذي (٥ / ٣٣٧)، و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٢ / ٢٣٤)، و«موارد الضمآن» (ص٣٤٥)، و«فتح الباري» (١٠ / ٢١٣).

(١) أخرجه أحمد (٢ / ٢٢٠)، والطبراني كما في «المجمع» (٥ / ١٠٥)، وابن السني في «عمل =

فيكون قد وقع في الشرك.

فمثلاً من كان سائراً في طريقة، ثم مر به سانح أو بارح من الطيور فرجع، وردته عن حاجته التي كان يقصدها فقد أشرك، ووقع فيما هو شرك واضح أو خفي، فسألوا النبي ﷺ: إذا خافوا أو رأوا ما يخيفهم ماذا يقولون؟ فأرشدهم إلى هذا الدعاء العظيم، بأن يقول أحدهم: «**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**»، وهذا ـ أيضاً ـ دعاء شاف كاف.

وقوله: «**ولا خير إلا خيرك**»؛ يعني: أنت الذي تعين على الخير، وأنت الذي تدل عليه، وترشد إليه، فالخير خيرك، وأنت الذي تخلقه، وأنت الذي تيسر أسبابه، وليس الطير بمتصرف، وليس منه خير، ولا شر؛ ولهذا كان كثير من العرب إذا سمعوا الطائر ينعق، يقول أحدهم: خير خير، أو يقول: خير يا طير، وهذا خطأ، ولذلك لما سمع بعض الصحابة، كابن عباس قائلاً يقول: خير، قال: وأي خير عند هذا الطائر، لا خير ولا شر، الخير خير الله:

وقوله: «**ولا طير إلا طيرك**»، هذا الطير، وهذا الوحش، وهذا المار ونحوه السانح والبارح ليس يملك من نفسه شيئاً، إنما هو مدبر، بل هو مملوك لله تعالى، فإن الله هو الذي يحرك هذه الطيور؛ فهو سبحانه متصرف فيها، وهي لا تتصرف في شيء من أمر نفسها، فضلاً عن أمر غيرها، كما أن الإنسان لا يتصرف من

= اليوم والليلة» (٢٩٣).

قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٥): فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

وله شاهد من حديث بريدة، أخرجه الطبراني في الدعاء رقم (١٢٧٠)، والبزار في «المسند» برقم (٣٠٢٨).

وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده في تعليقه على المسند رقم (٧٠٤٥)، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٠٦٥).

قبل نفسه، بل الله تعالىٰ هو الذي يصرف القلوب ويصرف الأعمال.

وقوله: «ولا إله غيرك»، وهذه كلمة التوحيد، فيها تجديد التوحيد، كأنه يقول: أخاف أن ما بنفسي، أو بما وقع في قلبي، أنني قد أخللت بشيء من توحيد الإلهية، فأنا أحب أن أجدد التوحيد، فيقول: «ولا إله غيرك».

ففي هذا ونحوه بيان حقيقة التوكل، وكل ما ينافي التوحيد، وأن له كفارة، وهي مراجعة التوحيد، وتجديد العبودية لله تعالىٰ، وتجديد الإيمان، حتىٰ يكون بذلك العبد محافظاً علىٰ ما يكون سبباً في بقاء توحيده، ومحافظاً علىٰ عقيدته.

ولا شك أن عقيدة السلف الصالح هي الاعتماد علىٰ الله تعالىٰ، والرضىٰ به رباً ومدبراً ومتصرفاً، فينبغي أن تكون هذه عقيدة كل مسلم، وأن مما ينافيها أو ينقصها اعتقاده أن لبعض المخلوقات شيئاً من التصرف، أو شيئاً من علم الغيب، الذي هو من خصائص علم الرب تعالىٰ، وذلك كله مما ينافي التوحيد، أو مما ينافي كماله، أو مما ينقصه، فإذا شعر الإنسان بأنه فعل شيئاً من ذلك، أو قارب شيئاً منه، فعليه أن يبادر بتجديد عقيدته، ويجتهد فيما يكون سبباً لإزالة ذلك الذي عرض بقلبه، حتىٰ تبقىٰ له عقيدته صافية خالصة.

فمن ذلك: الطيرة التي هي التشاؤم من رؤية بعض الطيور أو رؤية بعض الناس، أو من أصواتها، أو ما أشبه ذلك، فإنها كما ذكر في هذا الباب شرك، وإن كان من الشرك الأصغر.

لكن الشرك الأصغر قد يكون أكبر؛ إذا اعتمد الإنسان عليه، واعتقد فيه، أو جعل له شيئاً من التصرف الخاص بالله تعالىٰ، فإنه يرتقي إلىٰ الشرك الأكبر حسب الاعتقاد، ولكن الشرك الأكبر والشرك الأصغر يكفرهما التوحيد، ودعاء الله تعالىٰ بما يزيل ذلك النقص الذي حصل في التوحيد، والله تعالىٰ أعلم.

■ **قوله: [وله، من حديث الفضل بن عباس: «إنما الطيرة ما أمضاك أوردك»**[(١)]]:

هذا الحديث رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٨٢٤) وفي إسناده انقطاع ضعفه به المحقق، وذكر أنه لم يجده في موضع آخر، وقد ساقه الشارح بإسناده، وفيه قصة.

ومعناه: أن حقيقة التطير المنهي عنه والذي هو شرك هو ما مضيت لأجله، أو رجعت بسببه، وذلك أن العرب كانوا يتشاءمون بالطير والوحوش، فيمضي أحدهم إذا سنح له طائر أو ظبي ونحوه، ويرجع إذا برح له ذلك، فهذا هو التطير الذي هو من الشرك، فأخبر في هذا الحديث أن حقيقة الطيرة الشركية ما أمضاك وسرت من أجله بعد أن كنت متردداً، أو ردك فرجعت من أجله بعد أن كنت سائراً؛ فإن ذلك اعتقاد أن هذا الطائر أو الوحش يعلم الغيب، ويخبر بما في هذا المسير من فائدة أو مصيبة، وذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالىٰ، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) أخرجه أحمد (١ / ٢١٣).

قال ابن مفلح في «الآداب» (٣ / ٣٦١): في إسناده انقطاع، وقال في «فتح المجيد»: إسناده ضعيف، وكذا ضعفه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» رقم (١٨٢٤).

وأخرجه أبو يعلىٰ كما في «المطالب العالية» (٢ / ٣٥٤) من حديث أبي أمامة.



[٢٨]

باب:
ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل: أحمد، وإسحاق.

وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدق بالسحر»، رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه.

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ما جاء في التنجيم

التنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، هكذا عرفه شيخ الإسلام ابن تيمية.

والمراد **بالأحوال الفكلية**: دوران الشمس والقمر، وكذلك سائر النجوم، طلوعاً وغروباً، واجتماعاً، وافتراقاً، والاستدلال بذلك على الحوادث الأرضية هذا هو التنجيم.

والمنجم: هو الذي يقول: باجتماع هذا النجم وهذا النجم يحصل في الأرض كذا وكذا، وبطلوع هذا النجم متأخراً سيحدث ريح فيها كذا، وسيحدث عواصف فيها كذا، أو مثلاً بطلوع هذا النجم في الشتاء أو في الصيف أو ما أشبه ذلك سيحدث في الأرض وباء، أو يحدث خصب أو جدب وقحط، أو ما أشبه ذلك، هذا هو التنجيم.

والتنجيم بلا شك تدخل في علم الغيب؛ لأن علم الغيب لا يعلمه إلا الله: **﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾** [النمل: ٦٥]، وفي الحديث: **«خمس لا يعلمهن إلا الله»**(١)، أي: مفاتح الغيب المذكورة في قوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [لقمان: ٣٤] الآية.

فالذي يدعي معرفة الحوادث بالنجوم يكون قد تدخل في علم الغيب،

---

(١) سبق تخريجه في الباب الخامس والعشرين، (باب ما جاء في الكهان ونحوهم).

فيكون بذلك منازع لله فيما هو خاص به، فيحدث بذلك النقص في توحيده، وهذا هو سبب إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد.

فالذي يدعي علم الغيب قد ادعىٰ أن هذا يصلح له ولو ادعىٰ ذلك بتلك القرائن، وبتلك الأحوال الفلكية، مع أنها لا تدل علىٰ ذلك، ولكنه يتخرص، أو يستوحي من الشيطان، أو نحو ذلك.

نقول بعد ذلك: كيف نعامل المنجمون؟ وماذا نعمل معهم؟

نقول: إما أن يكون ما يقولونه وقع صدفة، وظنوا ذلك مجرد الظن، فصادف ما قالواه، وحدث كما أخبروا، وذلك لا يدل علىٰ صدقهم، أو علىٰ صحة ما يقولونه.

وإما أن نقول: إنهم يستوحون من الشيطان شيئاً من الأمور التي يطلع عليها، ويقولون استدللنا عليه بالنجم الفلاني، أو بالحال الفلانية، أو ما أشبه ذلك، وهم كاذبون وإنما استدلوا عليه باسم الشيطان، فيكونون مثل الكهان الذين توحي إليهم الشياطين؛ قال تعالىٰ: **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾** [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٣]، وهذا هو الموقف منهم.

وبالجملة فإن الاستدلال بعلم النجوم، وسيرها واجتماعها وافتراقها علىٰ أنه يحدث كذا وكذا، هذا لا نعتقده، لأن في اعتقاده إبطالاً للحكمة، وحكمة الله أنه هو سبحانه الذي يتصرف في العباد، قال تعالىٰ: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾** [الإسراء: ٤١]؛ أي: يعني: قد صرفنا بينهم المطر، فيكون تارة عند هؤلاء، وتارة يكون عند أولئك، وتارة يكون علىٰ هذه البلاد، وتارة علىٰ تلك، فهو تصرف من الله، فلو أسندنا إلىٰ هذه النجوم وهؤلاء المنجمين الأمطار

والقحط والجدب لبطلت بذلك حكمة الله وتصريفه، وأدىٰ بذلك الاعتقاد إلىٰ أن الأفلاك هي التي تنشيء السحاب، وهي التي تثير الرياح، وهي التي تنزل المطر، وأدىٰ الأمر بعد ذلك إلىٰ أنه طبيعة، وليس لله تصرف في شيء من ذلك، وهذه هي عقيدة الكفرة والطبائعيين، وهذا هو السبب في إنكار السلف، وحملهم بشدة علىٰ أن ينكروا الانكار الشديد علىٰ من ادعىٰ علم الغيب بواسطة التنجيم.

أما ما يقال عن الأرصاد الجوية الفلكية؛ فهي عبارة عن أدوات كهربائية تحدث إشارات تدل علىٰ اتجاهات هبوب الرياح جنوباً أو شمالاً، شرقاً أو غرباً، فمثلاً إذا قاسوها وقالوا: هبوب الرياح تكون كذا وكذا فهو حساب تقريبي قد يقع كما قالوا وقد لا يقع.

فالحاصل أن علم الغيب في الأمور المستقبلة خاص بالله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، فكذلك إثارة السحب وإنزال المطر وما أشبه ذلك، هذا علمه عند الله، ولو مثلاً قال أحدهم: بالآلآت التي تسمىٰ الأرصاد الجوية التي يعرف بإشاراتها، أو برموز فيها، بأنه يكون غداً أمطار أو كذا وكذا، فإنها لا تدل يقيناً ومطابقة علىٰ ذلك، إنما هو حساب تقريبي، بل الله تعالىٰ هو الذي يرسل الرياح وينزل الغيث ونحو ذلك.

وقد تقدم لنا حديث في باب: شيء من أنواع السحر، وهو قوله ﷺ: «**من اقتبس شبعة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»[١]، ومعنىٰ اقتبس: يعني تعلم وأخذ، كأنه من القبس، والقبس: هو النار الصغيرة التي تؤخذ ليوقد بها نار أخرىٰ، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

---

(١) سبق تخريجه في الباب الرابع والعشرين (باب شيء من أنواع السحر).

تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠] فالقبس: هو ما يستضاء به، أو ما يوقد به.

فقوله: «اقتبس»، يعني: أخذ قبساً وقطعة فأخذ شيئاً منه، والشعبة: القطعة، **فمن اقتبس شعبة**، يعني: من أخذ وتعلم شعبة وقطعة من النجوم، يعني: من علم التنجيم، فقد اقتبس شعبة من السحر، «**زاد ما زاد**»، أي: كلما زاد المنجم فقد زاد حظه من السحر.

وقد مر بنا قول ابن عباس في المنجمين: «**ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق**»(١)، والمنجمون يستدلون بالنجوم علىٰ الأمور الغيبية، فينظرون في النجوم نظراً يستدلون به علىٰ الأمور المستقبلة، فيكونون بذلك مشركين وكهنة، وليس لهم عند الله من خلاق، فابن عباس أراد الذين تدخلوا في علم الغيب بالنظر في النجوم، وبكتابة أبي جاد، كقولهم: إذا اجتمع الحرف هذا مع الحرف هذا دل علىٰ كذا وكذا، كأن يدل علىٰ شقائه، أو يدل علىٰ سعادته، أو يدل علىٰ ملك، أو يدل علىٰ سلب، أو ما أشبهه، فهؤلاء ليس لهم عند الله من خلاق، وشبههم بالسحرة، وقد وصفهم الله بأنهم لاخلاق لهم في الآخرة في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢].

فمن هذا نعرف أن التنجيم نوع من التدخل في علم الغيب يلحق بالكهانة، وإذا تظاهر بعلم الغيب فإنه يكفر بذلك، فالإنسان الذي يصدق الكاهن بما يقول قد كفر، فكذلك المدعي الذي يتعاطىٰ الكهانة أولىٰ أن يلحق به.

---

(١) في البالب الخامس والعشرين (باب ما جاء في الكهان ونحوهم).

وقد كثر المنجمون في القرون الوسطى، القرن الثالث والرابع والخامس في العصر العباسي، وصاروا مقربين من الملوك، وصار الملوك يسترشدون بهم ويستشيرونهم، فإذ أراد أحدهم أمراً سأل منجمه هل هذا الأمر ليّ أم عليّ؟ هل فيه خير لي أم لا؟ والمنجم يجيبه بكذا وكذا، ويعمل الملك بما يقوله المنجم، فتارة يصيبون من باب المصادفة وكثيراً ما يخطئون، ولكن الملوك وعوام الناس لا يعتبرون بأخطائهم، ومع الأسف أن حكاياتهم تنشر كثيراً في كتب التأريخ والقصص والتراجم، فتجد أن الملك فلان يقول له منجمه: إنك تحصل على كذا، أو سيحصل في هذه السنة غرق كغرق نوح ونحو ذلك.

وهذا دليل على أن المؤرخين يحشدون في كتبهم كل ما يجدون من حكايات وقصص وروايات غالبها قائم على التنجيم، ويعتمد على أقوال المنجمين دون تمحيص وتدقيق، فيكون فيها الكذب والتلبيس والتدليس.

لكن ابن القيم رحمه الله في كتابه مفتاح دار ا لسعادة تعرض لذلك في الجزء الأخير، وبين أكاذيبهم، ووقائعهم، وسرد شيئاً من الحكايات التي قالوها ووقع بخلافها، مما يدل على أنهم كاذبون أفاكون، وأنهم يظنون ظناً، وليسوا على يقين.

فمن هذا نعرف أن المنجمين ليس عندهم يقين، وليس لديهم أثارة من علم؛ بل هم تعلموا من أساتذتهم وسحرتهم أن اجتماع النجم الفلاني مع النجم الفلان، أو طلوع حمرة على النجم الفلاني يحدث به ويحصل به كذا وكذا، وتعلموا من كتب أكثر ما فيها ضلالات وجهالات عكفوا عليها فاعتقدوها يقيناً وواقعاً، فكان ذلك السبب في معرفتهم تلك التخرصات التي لا تسمن ولا تغني

من جوع؛ بل ثمرتها وبال وعار ونار عليهم يوم القيامة، يوم تبلى السرائر، وينكشف الغطاء، ويبرزون لله الواحد القهار.

■ قوله: [**قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»**[1]]:

قتادة؛ هو ابن دعامة، عالم مشهور من سادة التابعين، ومن تلامذة الصحابة، ولد أعمى، ولكن كان فهمه حاداً، وذاكرته قوية، فإذا سمع من صحابي وحدثه بحديث، حفظ ما حدثه به؛ حيث رزقه الله ذاكرة حادة، وقد ذكروا أن قتادة تتلمذ على أحد الصحابة أياماً قليلة، فقال بعد ذلك الصحابي: نزفت ما عندي يا أعمى.

وهذه الثلاثة التي ذكرها قتادة استنبطها من القرآن؛ لأن الله تعالى ذكر الحكمة في خلق النجوم في عدة آيات، تعود تلك الحكم والمصالح إلى ثلاثة أشياء:

أولاً: زينة للسماء: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[الملك: ٥]، والمصابيح: هي هذه النجوم، وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: ١٢]، فأخبر أنه جعلها زينة للسماء الدنيا التي تلينا، فإذا كانت الليلة مظلمة ليس فيها قمر، وظهرت هذه النجوم في السماء كان ذلك زينة لها.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب بدء الخلق، باب في النجوم (٦ / ٢٩٥).
وأخرجه عبد الرزاق في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٣ / ٣٢٨)، وعبد بن حميد في «التغليق» (٣ / ٤٨٩) موصولاً. و ابن جرير الطبري في «التفسير» (١ / ٩١، ٢٩ / ٣)، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٣ / ٣٢٨) مطولاً.

ولاشك أنها مركبة، كل نجم مركب في فلك يسير به ذلك الفلك، أو يسير وهو معلق بذلك الفلك، كما يشاء الله تعالىٰ، خلافاً لمن يزعم أن النجوم ثابتة ولا تتحرك، وأن الأرض هي التي تتحرك، فإن هذا خلاف ما هو مشاهد؛ لأننا نشاهد نجوماً ثوابت، لا تتزعزع، ولا تتحرك، فنجم الجدي الذي هو القطب ثابت، كما ثبته الله في مكانه، فلو كانت الأرض هي التي تدور بأهلها لغاب عنا هذا النجم في وقت من الأوقات، فإنا نشاهده أول الليل وآخره في موضعه.

كذلك أيضاً النجوم السُّبَّع، والتي تسمىٰ بنات نعش، هذه أيضاً تدور حول ذلك النجم، ولكنها دورة خاصة، ولا تغيب عن البلاد الشمالية، فأهل البلاد الشمالية يشاهدونها تدور، ولا تغيب أول الليل ولا آخر الليل، فلو كانت الأرض هي التي تدور لغابت عنهم وخفيت.

كذلك النجمان اللذان يسميان بالفرقدين لا يغيبان عنا، ويدوران حول نجم الجدي، ويسمىٰ الجميع القطب، والقطب بمعنىٰ: أنه ثابت في موضعه.

وكذلك أيضاً من النجوم الخنس التي ذكرها الله بقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، هذه الخنس هي خمس نجوم، وهي عطارد وزحل والمشتري والمريخ والزهرة، هذه النجوم الخنس سميت بذلك لأنها لا تتوسط السماء، بل تخرج في المشرق ثم ترتفع، يعني: في أول الشهر تجد نجم المريخ يطلع مع الفجر، ولكن بعد شهر أو بعد شهر ونصف تجده وقت الفجر قد ارتفع، أي: طلع قبل الفجر بثلاث ساعات، ثم يبدأ في التأخر حتىٰ يغيب، يعني: يبدأ يطلع قبل الفجر بساعتين إلا دقيقتين مثلاً، ثم ساعتين إلا أربع دقائق، ثم ساعتين إلا ست دقائق، إلىٰ أن يطلع مع الفجر، ثم يطلع بعد الفجر، إلىٰ أن يغيب.

وهذا دليل علىٰ أن جهته خاصة، ولهذا فهو ليس كالنجوم الأخرىٰ، فكل

نجم يتقدم غالباً، فنجم الثريا إذا طلع في هذا اليوم مع الفجر يطلع غداً قبل الفجر بخمس دقائق، ويطلع في اليوم الثالث قبل الفجر بعشر دقائق، وهكذا إلىٰ أن يطلع قبل الفجر بساعة، ثم بساعات، وربما يطلع وقت المغرب، وربما يطلع وقت العصر، ويطلع وقت الظهر، ونحو ذلك، كل يوم يتقدم.

وهذا دليل علىٰ أنها تسير، وأن سيرها أسرع من سير الشمس، فالشمس تقطع هذا الفلك في أربع وعشرين ساعة، وهذا النجم يسبقها فيقطعها في أربع وعشرين إلا خمس دقائق، فدل علىٰ أنها كلها سائرة وسيرها يختلف إسراعاً وتأخيراً، فبعضها يطلع من الجانب الأيمن، وبعضها من الجانب الأيسر.

فهذا كله دليل علىٰ أنها في أفلاك، قال تعالىٰ: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس: ٤٠].

ثانياً: رجوماً للشياطين؛ أي: ترجم بها الشياطين، فهذه الشهب التي نشاهدها والتي تسمىٰ النيازك هي التي ترجم بها الشياطين، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ**﴾ [الحجر: ١٦ـ١٨]، وهذا دليل علىٰ أن الشياطين تصعد إلىٰ السماء لاستراق السمع، ولكن تتبعها هذه الشهب التي هي النيازك، وترجم بها فتحرقها.

وقال تعالىٰ: ﴿**لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾ [الصافات: ٨ـ١٠]، فدل علىٰ أنهم يحرصون علىٰ استراق السمع، ولكن يرجمون بهذه الشهب التي تحرقهم أو تبعدهم حراسة للسماء من هذه الشياطين المسترقة، وذلك لكي لا يلتبس الحق بالباطل، ولكي لا يكثر الدجالون، ومع ذلك فإن الشيطان قد يوصل

ما استرقه إلىٰ وليه من الإنس، سواء كان ساحراً أو كاهناً، فيفشي تلك الكلمة التي سمعت من السماء كما تقدم فيكذب معها كذباً كثيراً.

فالحاصل أن من الحكم في خلق النجوم كونها رجوماً للشياطين.

ثالثاً: علامات يهتدى بها: فيستدل بها المسافرون في الليل، فإنها علامات واضحة، قال تعالىٰ: **﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾** [النحل: ١٥، ١٦]، فجعل النجم من جملة ما يهتدون به، يعني: مما يستدلون به في سيرهم، وهي فائدة عظيمة، يستدلون بها في البر وفي البحر وفي الجو.

وكذلك قول الله تعالىٰ: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾** [الانعام: ٩٧]، فدلنا علىٰ أن هذه النجوم خلقت لفوائد عظيمة، ومنها كونهم يستدلون بها علىٰ جهة سيرهم حتىٰ لا يضلوا الطرق.

فأما إذا استدل بها مُستدلٌ علىٰ الحوادث، وعلىٰ الوقائع التي تقع في الأرض، أو علىٰ أنه سيحدث في نجم كذا قحط، أو موت، أو طوفان، أو ما أشبه ذلك، فإن هذا خطأ وضلال مبين، ومن تأول فيها غير ذلك، واعتقد أنها دالة علىٰ علم الغيب أخطأ، وأضاع نصيبه من العلم، وأضاع حياته، وأضاع نصيبه من الدين، وتكلف ما لا علم له به، أي: تدخل فيما لا يعنيه، فإن هذا مما لا يعلمه إلا الله: **﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾** [النمل: ٦٥]، أما إذا كان ذلك الاستدلال بأجهزة وبأدوات محسوسة فإن هذا يدخل فيما يدرك بالاحساس.

■ **قوله: [وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل: أحمد، وإسحاق**[(١)]]:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[يونس: ٥].

وقد ذكر الشارح في تيسير العزيز الحميد أن علم التنجيم **ثلاثة أقسام**:

فالأول: القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة علىٰ تأثير الكواكب والروحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة، قال: وهذا كفر بإجماع المسلمين.

الثاني: الاستدلال علىٰ الحوادث الأرضية بمسير الكواكب، واجتماعها وافتراقها، ونحو ذلك، ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته، ولا ريب في تحريم ذلك، واختلف المتأخرون في تكفير القائل به، وينبغي أن يقطع بكفره، لأنه دعوىٰ لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالىٰ بعلمه بما لا يدل عليه.

إلىٰ أن قال بعد ذكر كلام الماتن في علم المنازل: **هذا هو القسم الثالث من علم التنجيم**: وهو تعلم منازل الشمس والقمر للاستدلال بذلك علىٰ القبلة، وأوقات الصلاة، والفصول... إلخ.

وقد أخبر الله تعالىٰ أنه جعل القمر منازل، وهي التي ينزل فيها كل ليلة من الشهر، وبين الحكمة، وهي العلم بعدد السنين والحساب، وهذا العلم بحاجة إلىٰ تعلم.

وقد ذكر أهل الحساب أن المنازل أربعة فصول وهي: الشتاء، والربيع،

---

(١) ذكره ابن رجب في «كتاب فضل علم السلف علىٰ الخلف» (٣١، ٣٢).

والصيف، والخريف، ولكل فصل سبعة أنجم، وأيام كل نجم ثلاثة عشر يوماً، ومجموع أيام السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً، مقسمة على اثني عشر برجاً، جمعها بعضهم بقوله:

حمل الثور جوزة السرطان
ورعى الليث سنبلة الميزان
ورمت عقرب بالقوس جدياً
وارتوى الدلو من بركة الحيتان

وإذا كان قتادة وهو من أئمة التابعين كره تعلمها، ولم يرخص فيه الإمام سفيان بن عيينة، فإن ذلك دليل على كراهة السلف لكل ما يقرب من علم التنجيم الذي هو علم التأثير، و هو اعتقاد تأثير النجوم في العالم السفلي، فكرهوا علم التسيير، وهو تعلم سير القمر والنجوم، مع ما فيه من الفائدة التي هي معرفة القبلة، والمواقيت للصلوات ونحوها، وكذلك معرفة أوقات البذور والحصاد والغراس الذي يحتاج إليه الفلاحون، فلذلك رخص الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية فيه، وهما قدوة في الدين، ومن الأئمة المشهورين، فمن تعلم المنازل لمعرفة الحساب والمواقيت، والجهات في السير، فهو جائز، لقوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]. أي: أن للقمر منازل، وهذه المنازل ثمانية وعشرون منزلاً، وسميت: منازل؛ لأن القمر ينزل في كل ليلة في واحدة حتى يتم ثمانية وعشرون ليلة، ثم يستتر ليلة إذا كان الشهر ناقصاً، أو يستتر ليلتين إذا كان الشهر كاملاً.

وهذه النجوم الثمانية والعشرون مقسمة على أربعة فصول، لكل فصل سبعة أنجم:

فالشتاء: سبعة أنجم، وهي: الإكليل، والقلب، والشولة، والنعايم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع.

والربيع: سبعة أنجم، وهي: سعد السعود، وسعد الأخبية، والمقدم، والمؤخر، والرشا، والشرطين، والبطين.

والصيف: سبعة أنجم، وهي: الثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف.

والخريف: سبعة أنجم، وهي: الجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزبانا.

■ قوله: [**وعن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدق بالسحر»**(١)**، رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه**]:

وهذا وعيد شديد لهؤلاء بأنهم لا يدخلون الجنة جزاء لهم، وعقوبة لهم، وإذا لم يدخلوا الجنة، فإنهم من أهل النار، إما دائماً وإما مؤقتاً.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٩)، وابن حبان (١٣٨٠، ١٣٨١)، وأبو يعلى في «المسند» رقم (٧٢٤٨)، والطبراني كما في «المجمع» (٥/ ٧٤)، والحاكم (٤/ ١٤٦).
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رواة أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢٥٩٧).
ويشهد له حديث ابن عمرو، أخرجه النسائي (٨/ ٣١٨)، وابن حبان (١٣٨٣).
ويشهد له أيضاً حديث أبي سعيد الخدري، أخرجه أحمد (٣/ ١٤، ٨٣)، والبزار كما في «المجمع» (٥/ ٧٤).
والحديث حسن بمجموع الطرق والشواهد.

أولهم: **مدمن الخمر**، يعني: المستمر على شربها، والخمر هي كل ما يخمر العقل، أي: يغطيه من الأشربة التي تشرب للتلذذ بها، وهي محرمة شرعاً، والعقوبة عليها كما شرع الله على لسان رسوله ﷺ أنه قال: «**إذا شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب الرابعة فاقتلوه**»[1].

إذا لم يتأثر الإنسان بالجلد ويترك شرب الخمر فإنه يقتل، وذلك لأنه قد ألف هذا المنكر وصار عادة وطبعاً له يصعب جداً أن يتخلص منها، فالراحة أن يقتل هذا المدمن حتى ترتاح منه البشرية، وذلك لأنه قد يفسد على الناس حياتهم، لأنه بتعاطيه لهذا الشراب يزول عقله، وبزوال عقله يحصل منه أضرار ومفاسد على نفسه، وعلى المجتمع.

الثاني: **قاطع الرحم**، والرحم هم القرابة، وقطعهم معناه هجرانهم، يعني: مقاطعتهم من السلام والزيارة والكلام والحقوق، وما أشبه ذلك، سواء كانوا من أقارب الأب، أو من أقارب الأم، سواء كانوا من الأصول، أو الفروع، من الأجداد، أو من الأبناء أو البنات، أو أولادهم، أو نحو ذلك.

هؤلاء لهم حق القرابة، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ**﴾ [الإسراء: ٢٦]، فالذي لا يؤتيهم حقهم، ويزيد على ذلك، أنه يسيء إليهم ويسبهم،

---

(١) أخرجه أحمد (٤ / ٩٣)، والترمذي برقم (١٤٦٩)، وأبو داود برقم (٤٣١٧)، وابن ماجة برقم (٢٥٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٣٠٩).

قال الشيخ ابن جبرين: وله طرق وشواهد ذكرها الشيخ أحمد محمد شاكر في «تحقيق المسند» برقم (٦١٩٧)، ثم طبعه في رسالة مفردة.

وأكثر العلماء على أن القتل نسخ، وروى أبو داود برقم (٤٣٢٠)، من حديث قبيصة بن ذؤيب أن النبي ﷺ أتي بالشارب في المرة الرابعة فلم يقتله.

والحديث مرسل كما ذكر الحافظ في «الفتح»، ورجال الحديث ثقات.

قال الشيخ ابن جبرين: والصحيح عدم النسخ، لكثرة طرق الحديث وشواهده.

ويوصل إليهم أضراراً، متوعد بهذا الوعيد، أنه لا يدخل الجنة، كما في هذا الحديث.

الثالث: وهو الشاهد هنا مصدق بالسحر: ولم يقل: ساحر، بل قال: مصدق بالسحر، وإذا كان هذا حال المصدق فكيف بالمتعاطي؟ لاشك أن ذنبه أكبر، فإن الذي يفعل نفس السحر ويتعاطاه ذنبه أكبر من الذي يصدقه، فالذي يصدقه هو الذي يصوب حال هذا الساحر، ويقول هذا صادق، وهذا محق، وهذا على صواب، ونحو ذلك، وهو متوعد بهذا الوعيد، ويدخل في السحرة المنجمون، فإنهم من السحرة.

والدليل على أن المنجم ساحر، الحديث الذي تقدم، قوله ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»[1]، فإن الساحر يعم المنجم الذي يتعاطى علم التنجيم كذلك، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) سبق تخريجه في الباب الرابع والعشرين (باب بيان شيء من أنواع السحر).

[٢٩]

باب:
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة: ٨٢].

وعن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والعطن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة».

وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»، رواه مسلم.

ولهما، عن زيد بن خالد، قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

ولهما، من حديث ابن عباس، معناه. وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٨٢].

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة.

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: لقد صدق نوء كذا وكذا.

التاسعة: إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها، لقوله: **«أتدرون ماذا قال ربكم؟»**.

العاشرة: وعيد النائحة.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

ليس هناك فرق بين هذا الباب والباب الماضي، فهذا الباب هو باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء، والباب الماضي هو باب: ما جاء في التنجيم، والتنجيم هو: النظر في النجوم، والأنواء هي: مطالع النجوم ومغاربها، فلماذا لم يجعلها باباً واحداً؟!

والجواب: أن الباب الماضي في الذين يستدلون بسير النجوم اجتماعاً وافتراقاً على الحوادث، فيتدخلون في علم الغيب، وهذا الباب في الذين ينسبون نزول المطر إلى النوء الفلاني، طلوعاً أو غروباً، إما أنهم ينسبون إليه إحداث المطر، أو أنهم يستدلون بطلوعه على وجوب نزول المطر أو نحو ذلك.

وعلى كلٍ فالأصل أن بين البابين فرقاً يسيراً، و هو اعتقادهم أن طلوع هذا النجم أو غروبه يستدل به على حدوث مطر، ومنهم من ينسب إليه المطر بأنه الذي أثار الرياح وأثار السحب، وأنزل المطر، فالله تعالى هو المتصرف، وهو الذي ينشئ السحب، وهو الذي ينزل المطر، وهو الذي ينبت النبات، فليس للنجوم أثر، وإنما النجوم مسيَّرة، والأنواء مسخَّرة، ليس لها تأثير، ولو اعتقد فيها من اعتقد.

وقد ذكرنا أن علم التنجيم، يعني: الاستدلال بالنجوم مشتهر منذ القدم قبل الإسلام، وأن أهله الذين يعتمدونه يُسمون: المنجمين، وأنهم متمكنون قبل الإسلام، حتى في الأمم السابقة، كقوم إبراهيم فقد كانوا حزائين، والحزاء: هو

الذي ينظر في النجوم ليستدل بها، وإبراهيم خالفهم في ذلك إلا أنه وافقهم مرة حيلة، وقد حكىٰ الله عنه شيئاً من ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٩].

فيذكرون أنه نظر في النجوم، فقال: إن هذا النجم دل علىٰ أنه سيصيبني سقم، أو استدللت علىٰ أنه سيصيبني سقم؛ أي: مرض، وذلك بقرب مناسبة خروجهم فتأخر بعض الوقت ليكسر أصنامهم، بعذر أنه سقيم، فهو لم ينظر في النجوم إلا مجاراة لهم، أو حيلة.

وأما نظره في النجوم مرة أخرىٰ، فهو من باب المناظرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦، ٧٨]، فنظره هذا في هذه الكواكب من باب المناظرة، كأنه قال: انظروا إذا كنتم مثلاً تنظرون في النجوم وتستدلون بها، انظروا هذا النجم، هل يبقىٰ؟ فلما أفل، قال: هذا لا يصلح، وكذلك القمر أفل؛ يعني: غاب، وكذلك الشمس لما أفلت، أعلمهم أن هذه الأشياء التي تغيب لا تصلح أن تكون معبودة، فعند ذلك قامت عليهم الحجة، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٧٨، ٧٩].

فإذا كان النظر في النجوم من أجل الاستدلال علىٰ مطالعها ومغاربها، ومعرفتها لكي يُهتدىٰ بها في السير، ولكي يعرف الغروب والشروق، وتعرف

نجوم الشتاء، ونجوم الصيف، ونجوم الربيع، ونجوم الخريف، ولكي يعرف بذلك أوقات الشتاء والصيف والخريف والربيع، وأوقات إنبات البذور، وأوقات غرس الأشجار، وما أشبهه، فهذا لا بأس به.

فأما إن كان النظر فيها نظر استدلال بها على أمور مستقبلة فهذا تدخل في علم الغيب، مثل الاستدلال بها على نزول أمطار، أو الاستسقاء بها، فإن اعتقد أن النجم نفسه هو الذي يثير السحب فقد جعل مع الله متصرفاً، وقدجعل مع الله مدبراً ورازقاً، فيكون ذلك شركاً في الربوبية يستدعي الشرك في الإلهية، وكذلك إن اعتقد أن طلوع هذا النجم أو غروبه دلالة وأمارة على أمور مستقبلة؛ فذلك أيضاً تدخل في علم الغيب، وهو لا يجوز: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [النمل: ٦٥].

وبذلك نكون قد عرفنا الفرق بين البابين.

ولما كان هناك أناس يتعلمون النجوم للاستدلال بها على الحوادث صاروا منجمين، وهناك أيضاً أناس يستسقون بالأنواء، وليس معناه أنهم يقولون للنجم: اسقنا، أو يطلبون من النوء أو النجم أن يسقيهم، ولكن ينسبون السقيا إليه، فيقولون: هذا المطر بسبب النجم الفلاني، أو النوء الفلاني، كما في حديث ابن عباس الذي سيأتينا في هذا الباب حيث جاء فيه: «**لقد صدق نوء كذا وكذا**»(١)، وكذلك في حديث زيد بن خالد الذي سيأتينا في هذا الباب أيضاً، وقد جاء فيه: «**وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(٢). فدل هذا على أنهم ينسبون السقيا إلى الكوكب، فيقولون: صدق

(١) سيأتي تخريجه قريباً في هذا الباب.
(٢) سيأتي تخريجه قريباً في هذا الباب.

نوء كذا، وهذا بسبب نوء كذا، أو ظننا في نوء كذا أنه سيثير مطراً فصدق ظننا.

والأنـواء: واحدها نوء، وهو النجم إذا طلع أو إذا غرب، وتسمىٰ الأنواء، لأنه كلما غرب واحد ناء واحد مقابله، فإذا غرب هذا في الفجر طلع هذا في الفجر، والطلوع يسمىٰ نوءاً، ناء النجم؛ يعني: طلع؛ أي: بدا وظهر، فلذلك سميت أنواء، من ناء؛ يعني: ظهر وبرز، ثم بعد ذلك أطلق علىٰ واحد النجوم: نوء.

وقد جاء في حديث أبي هريرة: «**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**»[(١)]، وفي رواية: «**ولا نواء، ولا غول**»[(٢)]، يعني: ليس للنوء حقيقة، وليس للنوء تأثير، وليس للاعتقاد أن الأنواء تثير الرياح وتثير السحب أصل أبداً، إنما هو من خرافات الجاهلين وتخرصاتهم.

والاستسقاء بالأنواء أو نسبة المطر إلىٰ الأنواء لا يزال باقياً، كما في حديث أبي مالك الذي سيأتينا في هذا الباب؛ حيث أخبر النبي ﷺ بأن من جملة ما يبقىٰ في أمته ولا ينقطع الاستسقاء بالأنواء.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾** [الواقعة: ٨٢]]:

ذكر في حديث ابن عباس[(٣)] أن هذه الآية نزلت في المشركين الذين ينسبون الرزق إلىٰ الأنواء، وينسون أنها من الله تعالىٰ، فأنكر الله تعالىٰ عليهم، حيث بدلوا نعمة الله كفراً، وجعلوا جزاء الخير والرزق من السماء التكذيب، والإنكار لفضل الله تعالىٰ.

---

(١) سبق تخريجه، ص.

(٢) سبق تخريجه، ص.

(٣) حديث ابن عباس أورده المصنف في آخر هذا الباب وسيأتينا تخريجه.

والمعنى: أنكم تجعلون شكر الرزق الذي هو المطر والغيث من الله تعالىٰ أنكم تكذبون بكونه من رزق الله وتيسيره، ثم تنسبونه إلىٰ المخلوقات، وتقولون: لقد صدق نوء كذا وكذا. أو: مطرنا بنوء كذا وكذا، مع أن الأنواء مخلوقة مدبرة، ليست هي التي تنزل المطر، ولا قدرة لها علىٰ إنشاء غيم، أو إرسال ريح، أو إحداث مطر، بل المدبر لذلك كله هو الله وحده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] فهذه الأنواء من صنع الله، فلا تقدر علىٰ إرسال الرياح، ولا إنشاء السحب، ولا إنزال المطر، بل الذي يخلق ذلك كله هو الله وحده، فمن ادعىٰ أن الأنواء التي هي النجوم تحدث هذا المطر فقد كفرت نعمة الله، وأشرك به حيث جعل لغير الله شيئاً من التصرف والتدبير، والله أعلم.

■ **قوله: [وعن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة».**

وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»[1]، رواه مسلم]:

أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث عن أمور سوف تقع في أمته، وقد وقعت كما أخبر، ويمكن أنها موجودة من أول الإسلام، فأخبر بأن الأمة لا تتركها.

والمراد بالأمة: أمة الإجابة، وهم الذين صدقوه وشهدوا له بالرسالة، فهذه الأمور ونحوها مما نهىٰ عنه النبي ﷺ في دين الإسلام.

وقد أخبر أنها من أمور الجاهلية التي هي ما قبل الإسلام، وسموا جاهليين

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٣٤).

لكثرة جهلهم، أو لأن أعمالهم كلها صادرة عن جهل، وقد علم بأن وصف الجهل وصف ذم وعيب، فكل ما أضيف إلى الجاهلية من الأخلاق فهو منهي عنه، كقوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

وقد جمع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى مسائل الجاهلية المذمومة في جزء، فبلغت نحو مائة وثلاثين مسألة، وهي بحاجة إلى شرح وإيضاح أوسع وأوفق من شرح الألوسي.

* ومنها: **الفخر بالأحساب**، الذي هو ذكر مآثر الآباء والأجداد، والتمدح بما لهم من: شجاعة، وكرم، وشهرة، و مناقب مذكورة؛ سواء تتعلق بالدين أو بالدنيا، كالعلم، والزهد، والعبادة، والكرم، والجود، والسخاء، والأخلاق والآداب، والشيم الحسنة، والعفو، والصفح، والبر والصلة، إلخ.

وقد علم أن هذه الأخلاق إنما يدمح بها من تحلى بها، ولا يتعدى أثرها إلى الفروع والذرية، وإنما يفتخر الإنسان بأفعاله وأعماله، ولا ينفعه شرف الآباء والأجداد، كما قال الشاعر:

إذا افتخرت بأقوام لهم شرف

قلنا صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقد ورد في الحديث عنه ﷺ قال: «**إن الله أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»، رواه مسلم[1].

وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٦٥)ـ(٦٤)، عن عياض المجاشعي رضي الله عنه.

«**لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا... أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس كلهم بنوا آدم، وآدم من تراب**»(١)، قال الترمذي حديث حسن.

* **وأما الطعن في الأنساب**: فيراد به عيب الرجل واتهامه بأنه ليس من القبيلة الفلانية، أو ذكر مساوئ آباء الرجل وأجداده ومثالبهم، والتنويه بالمساوئ والنقائص.

ولا شك أن ذلك يؤذي الإنسان ولو كان صحيحاً، فإن كانوا من الكفار فأمرهم إلى الله تعالى، ولا يضر أولادهم المسلمين كفرهم ولا نقصهم، وإن كانوا من المسلمين فلا يجوز ذكر مساوئهم بعد موتهم، لقوله ﷺ: «**لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء**»(٢)، رواه الترمذي، وقوله: «**لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**»(٣)، رواه البخاري، وفي الصحيح قوله ﷺ لأبي ذر: «**أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية**»(٤)، فلا يجوز الطعن في نسب أحد، أو تعييره بما في غيره.

* **وأما الاستسقاء بالنجوم**: فيراد به: نسبة المطر إلى النجم، فإن كان باعتقاد أن النجوم هي المؤثرة في إحداث المطر وهي تنشيء السحب، وتنزل الماء منها،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥١١٦)، والترمذي برقم (٣٩٥٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وحسنه الأرناؤوط في تحقيق «شرح السنة» (١٣/ ١٢٤). وانظر «صحيح سنن الترمذي» (٣١٠٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٥٢)، والترمذي برقم (١٩٨٢)، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٣٩٣)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٠). ومسلم برقم (١٦٦١). عن أبي ذر رضي الله عنه.

فهو كفر صريح، لأن الله تعالىٰ هو الخالق لذلك والمحدث له، وذلك باعتراف مشركي العرب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

أما إذا كان الاستسقاء بالنجوم هو نسبته إلىٰ طلوع النجم، أو غروبه، وأنه مجرد زمن أجرىٰ الله العادة فيه بنزول المطر، فهذا قد يدخل في المنهي عنه من أمر الجاهلية، و هو معنىٰ قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا، أي: أنه زمنه، ولا شك أن الأزمنة والأنواء لا تأثير لها، ولا اختصاص لشيء منها بنزول المطر، بل الله تعالىٰ ينزل المطر متىٰ شاء.

والمشاهد أن البلاد تختلف، فبعضها ينزل فيه المطر كل وقت، وبعضها لا ينزل إلا في الشتاء، أو الربيع، وبعضها ينزل في الصيف، وهذه سنة الله تعالىٰ في خلقه.

* **وأما النياحة**: فالمراد بها ما يحصل من بعض النساء أو الرجال من الندب والصياح عند المصيبة، بذكر محاسن الميت بصوت رفيع، كقولهم: وامطعماه، واكاسياه، واكفلاه، أو بذكر قرابته بقولهم: واأبواه، واأخواه، واولداه، أو بذكراسمه كقولهم: واسعداه، وا زيداه، واخالداه.

ويدخل في ذلك شق الجيوب، ونتف الشعر، ونحو ذلك، وكله من أمر الجاهلية، مع أنه لا يرد فائتاً بل يفوب به أجر الصبر علىٰ المصيبة، الذي ذكره الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، والله أعلم.

ثم ذكر عقوبة النياحة في الدار الآخرة، فقال ﷺ: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها: سربال من قطران، ودرع من جرب**»:

وخص بالذكر النائحة؛ لأن الأكثر في النياحة وقوعها من النساء، وقد

تستأجر لذلك، وإن كانت أجنبية من أهل المصيبة لأجل أن تنوح وتنعى ذلك الميت لاعتيادها ومعرفتها بالنياحة، وإن وقع من الرجال دخلوا في الوعيد.

ثم ذكر أنها إن تابت قبل الموت قبلت توبتها كسائر الذنوب، فإن التوبه تمحو الذنب، وكذا تقبل توبة الكافر، والمشرك، والقاتل، ونحوهم بشروطها المعروفة.

وقوله: «**تقام يوم القيامة... إلخ**»: ظاهره أنها تبعث من القبر في الآخرة على هذه الحالة، ويمكن أنها تبقى وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب، طوال زمن الحساب، حتى يُقضى بين الناس، فيرى سبيلها، إما إلى الجنة، وإما إلى النار، ويمكن أن المراد أنها تبقى بهذا اللباس، وتدخل النار كذلك، سواء كانت مخلدة، أو دخولاً مؤقتاً إلى أن يكفر عنها ما اقترفت من الذنب.

والصحيح أن مثل النياحة لا يحصل به الكفر والخروج من الدين إلا مع الاستحلال، وإنكار النصوص الصحيحة في تحريم ذلك، مع أن هذا الحديث من نصوص الوعيد التي تجرى على ظاهرها ليكون أبلغ في الزجر عن المحرمات، مع اعتقاد أن أهل التوحيد لا يخلدون في النار.

وقد ذكر الله تعالى هذا النوع من عذاب الكفار، فقال تعالى: ﴿**سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ**﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وهو مادة شديدة الحرارة، تطلى به الإبل من جربها، فينسلخ منه شعر الجلد، من شدة حرارته.

وقد روي عن ابن عباس أن المراد به النحاس المذاب(١)، وقد علم أنه لا يذوب إلا بعد أن ينصهر بالنار، فيكون شديد الحرارة؛ بحيث يمزق ما مسه من اللحم والجلد.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٤٥).

والأصل أن السربال هو اللباس الذي يستر البدن، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١] أي: لباساً يقي من الحر والبرد ونحوه، فالمعنى: أنها تبعث وعليها شبه اللباس الذي يعم البدن، ولكن حرارته شديدة كالقطران.

وأما قوله: «ودرع من جرب»: فإن الدرع هو أيضاً ما يلبس في الحرب ليقي من وقع السلاح، والمعنى: أنها تبعث وعليها ما يلتصق ببدنها من جنس الدروع، ولكنه جرب، أي: مرض وحكة شديدة، والجرب معروف، وهو: المرض الذي يكون في الإبل، بحيث يمزق الجلد، ويحصل منه موتها والألم الشديد، والله أعلم.

■ **قوله: [ولهما، عن زيد بن خالد، قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»**[1]]:

في هذا الحديث - وهو حديث زيد بن خالد - ذكر هذه القصة التي وقعت في الحديبية، وكانت سنة ست من الهجرة؛ حيث نزلوا بها وهم محرمون بالعمرة، ينتظرون أن يأذن لهم أهل مكة في إكمال عمرتهم، فذات يوم نزل في الليلة قبله مطر، فلما صلى بهم النبي ﷺ صلاة الصبح، ذكر لهم من شَكَرَ الله تعالى بعد هذا المطر ومن كَفَرَهُ، وحكى لهم كلام الله تعالى بعد نزول مثل ذلك المطر، حيث أخبر بأن من اعترف بأنه فضل الله ورحمته، أنعم به على عباده، وأقر بأن الخلق

(١) أخرجه البخاري برقم (١٠٣٨). ومسلم برقم (٧١).

محتاجون دائماً إلى عطاء ربهم ومنِّه وكَرَمِهِ، ولا غنى بهم عن ربهم طرفة عين، وأن المخلوقات لا تأثير لها في إنزال الغيث سواء الكواكب أو غيرها، فهؤلاء هم المؤمنون بالله وحده، المصدقون بكمال تصرفه، الكافرون بما سواه من النجوم والأفلاك ونحوها.

أما من نسب ذلك المطر إلى الكواكب واعتقد أنها هي المؤثرة في إحداثه، أو أن لها سبب في إنزاله، فهذا قد كفر بالله وآمن بالكواكب، واعتقد أنها تتصرف في الكون بدون إذن الله.

فقوله في الحديث: «صلى لنا»، أي: صلى بنا صلاة الصبح، أو صلى معلماً لنا، ومذكراً لنا.

والحديبية بتخفيف الياء الثانية، وقيل: بتشديدها، وهو موضع قرب مكة، خارج عن حدود الحرم، ويعرف الآن بالشميسي، وفيه وقعت بيعة الرضوان، والصلح مع أهل مكة المعروف بصلح الحديبية.

وقوله: «على إثر سماء كانت من الليل»؛ أي: على إثر مطر وقع في الليلة الماضية، ويطلق على المطر (السماء) لنزوله من السماء.

وقوله: «فلما انصرف»، أي: سلم من الصلاة أو انحرف وأقبل على المصلين بوجهه، فقال: **«أتدرون... إلخ»**، وفيه إلقاء السؤال على المخاطبين حتى ينتبهوا للجواب.

والمعنى: هل تدرون بما قاله ربنا تعالى بعد هذه المناسبة؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فردوا العلم إلى عالمه، ثم أخبرهم بكلام الله تعالى، وهو من الأحاديث القدسية، والأقرب أنها نزلت على النبي ﷺ بالمعنى، بواسطة الملك أو بالإلهام، ولذلك لا يكون لها حكم القرآن في التعبد بتلاوتها، ولاتصح الصلاة بقراءتها.

وقوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**»، المراد بالعباد جنس البشر، فكلهم عبيد الله، أي: ملكه وخلقه، وتحت تصرفه وتقديره، فيدخل فيهم المؤمن والكافر، وأما قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فالمراد المؤمنون الذين عبدوا الله طوعاً واختياراً.

وقوله: «**فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب**»، أي: من اعترف بأن الغيث فضل من الله تعالى، ورحمة لعباده، ورزق منه، تفضل به عليهم، ولا تأثير لغيره فيه، بل هو وحده الذي أنشأه، وأنزله لحاجة العباد، ودفع ضرورتهم، فهذا قد أقر لله تعالى بالمن والعطاء، وآمن بتصرفه وحده، وكفر بما سواه، فهو موحد لله، مخلص له في عبادته، وكافر بالكواكب والأفلاك؛ لأنها مخلوقة لله، لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا تحدث خلقاً ولا أمراً.

وقوله: «**وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**»، أي: من نسب المطر إلى الأنواء وهي الكواكب، واعتقد أنها هي المؤثرة في إنشاء السحب، وإنزال الماء من السماء، فهذا قد كفر بالله تعالى، وآمن بالكوكب، حيث جعله خالقاً ومتصرفاً، مع أنه مخلوق مسير، لا صنع له ولا تدبير، وهذا يدل على كفر من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فإن اعتقد أن النوء هو الخالق للمطر والمنزل له، فهذا كفر أكبر، وشرك بالله تعالى، سواء نطق به، أو اعتقد ذلك ولم يتكلم به، فإن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فالرياح مخلوقة لله تعالى، وكذا السحب، والماء الذي تحمله، وهو الذي يصرفه كيف يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠].

أما إن اعتقد أن الكوكب وقت وزمان لنزوله، أو أن الله أجرىٰ العادة في هذا النوء أن ينزل فيه المطر من غير اعتقاد أن الكوكب له تأثير، وإنما يحصل بالتجربة نزول المطر في هذا الوقت، فهذا لا يصير كفراً، ولكن لا ينبغي التلفظ به، بل يقول مثلاً: هذا فضل الله ورحمته، أنزله في وقت كذا وكذا، حتىٰ لا يشبه مقالة الكفار، سواء كان كفرهم شركاً أو كفر نعمة.

وموقف المسلم أن يعتقد أن الله عز وجل هو مصرف أمر الكون، وأمر الكائنات، ولا يقع شيء في الكون إلا من بعد إذنه وتدبيره، فلا تهب الرياح، ولا يسقط مطر، ولا يأفل نجم، ولا يبزغ نجم إلا بعلمه وقدره سبحانه، وإذا وقع وحدث ما قالوه فهو مجرد مصادفة لا أقل ولا أكثر، والله أعلم.

فائدة:

جاء في حديث زيد قوله ﷺ: «**وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**».

فهل الكفر هنا هو كفر مخرج من الملة، أم أنه كفر نعمة؟

الجواب: قيل: أنه كفر مخرج من الملة، وقيل: أنه كفر نعمة، فقوله: «**كافر بي**»، قد يكون كفراً مخرجاً من الملة، وقد يكون كفر نعمة، وذلك حسب القائل.

فإذا كان القائل يعتقد متيقناً أن هذا الكوكب هو سبب إثارة الرياح، أي: جعل النوء أو النجم منشئاً، ومثيراً ومسبباً، فهذا قد كفر كفراً مخرجاً من الملة.

أما إذا كان القائل لا يعتقد ذلك؛ بل جعله آية ودليلاً وعلامة، فهذا كفر نعمة، منقص للتوحيد، وليس مخرجاً من الملة.

■ **قوله: [ولهما، من حديث ابن عباس، معناه. وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1]** [الواقعة: ٧٥، ٨٢]]:

حديث ابن عباس المشار إليه: رواه مسلم وحده في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، ولفظه قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا**»، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، حتى بلغ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢].

والظاهر أن هذه قصة قديمة؛ لأن الآيات المذكورة من سورة الواقعة وهي مكية، ويمكن أن المراد الاستشهاد بها.

وفي هذه الآيات أن الله تعالى أقسم بمواقع النجوم، أي: مطالعها ومغاربها وأفلاكها، وهي خلقه وإبداعه، والله تعالى يقسم من خلقه بما يشاء، فهذه النجوم من آيات الله تعالى، فهو الذي يسيرها ويدبرها، كما قال تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢].

وقد أخبر بأن هذا قسم عظيم، يدل على أهمية المقسم عليه، وهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]؛ أي: هذا القرآن المنزل على قلب النبي ﷺ كريم وشريف، وله مكانته وفضله، لأنه كلام الله تعالى، فهو أفضل الكتب، والمهيمن عليها.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧١)، وهذا الحديث ليس عند البخاري كما عزاه المؤلف هنا بقوله: (ولهما).

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨]، أي: في اللوح المحفوظ، ثم في صحف الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٥]؛ ثم كتب في المصاحف التي بأيدي البشر.

وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، خبر عن الكتاب المكنون، أو عن الصحف المكرمة، ثم عن ما نسخ من القرآن، وكتب في مصاحف المسلمين؛ أي: لا يسمه إلا الملائكة السفرة، وهكذا يجب أن لا يمسه إلا المؤمنون، الذين طهروا أنفسهم بالإيمان، وكذا ينبغي أن لا يمسه، إلا المتطهرون من الأحداث والأخباث، لشرفه ومكانته، ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]؛ أي: أن هذا القرآن الذي لا يمسه إلا المطهرون هو منزل من الله تعالى، فيجب احترامه والعمل به.

ثم قال: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾، أي: بهذا القرآن أو بخبر الله عنه.

والإدهان: المداراة والمداهنة، وكتمان الحق خوفاً على ا لنفس أو المال، أي: الواجب الصدع بالحق، وترك المداهنة في دين الله؛ سواء في أمر القرآن، أو في ما اشتمل عليه من الأحكام والعقائد، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■



[٣٠]

باب:

قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من: ولده، ووالده، والناس أجمعين»، أخرجاه.

ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»، وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى...» إلى آخره.

وعن ابن عباس، قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»، رواه ابن جرير.

وقال ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦]، قال: المودة.

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس، والأهل، والمال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان، وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعة: فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:

قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

هذا الباب معقود للمحبة؛ أي: أن من الشرك: الشرك في المحبة، وذلك كأن يحب غير الله مثل محبة الله.

يقول ابن القيم في نونيته:

والشرك فاحذره: فشرك ظاهر

ذا القسم ليس بمقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمن أيّاً

كان من حَجَرٍ ومن إنسان

يدعوه أو يرجوه، ثم يخافه

ويحبه كمحبة الديان

فدل على أن هناك شرك في المحبة، والمحبة عمل القلب، فهي شيء خفي، ولا يظهر للناس إلا أثر هذا الشيء الذي في القلب، فلابد وأن تظهر آثاره على البدن، أو على اللسان، ولكن لما كان من الأعمال القلبية وكل فيه الأمر إلى الشخص، وأمر بأن يُخلص محبته التي في قلبه ويجعلها لله.

وفي الحقيقة أن هذا باب عظيم يستحق أن يولى عناية ويفهم، وذلك لكثرة

الأخطاء التي يقع كثير من الناس فيها في موضوع هذا الباب، فقد ذكر لي بعض الإخوة: أن بعض المدرسين ـ الذين لا يقومون بحق العلم ـ اعترف أمام الطلاب بأنه لا يصلي، ولكنه يحب الله، قال: أنا لا أصلي، ولكني أحب الله، أي: إذا كنت أحبه فيكفي ما في قلبي من المحبة.

نقول له: كذبت، لست تحب الله، وإن كنت تحبه فمحبة مزورة، ومحبة كاذبة، فإن المحبة التي في القلب تظهر آثارها على البدن، فكيف تعصي الله وأنت تحبه؟!

يقول بعض الشعراء:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه

هذا لعمري في الخصال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته

إن المحب لمن يحب مطيع

فالذي يحب، تنطلق أعضاؤه وجوارحه لما يحبه مولاه.

ونقول لهذا وأمثاله: الله يحب منك أن تعبده، فلماذا لا تعبده؟

الله يحب منك أن تترك معاصيه، فلماذا ترتكبها؟

الله يحب منك أن تتبع شريعته، فلماذا لا تحبها ولا تتبعها؟

فإذا كنت صادقاً في أنك تحب الله، فمحبة الله التي في القلب تظهر آثارها على البدن.

وقد جعل الله لها علامة ظاهرة، كما حكى الله عن اليهود والنصارى أنهم ادعوا محبة الله في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾

[المائدة: ١٨]، فقد كذبهم الله، وأنزل آية تسمىٰ: آية المحبة، وهي قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

فالذي يحب الرسول يتبعه، والذي يحب الله يطيعه، والذي يكون صادقاً في محبة الله يتبع شرع الله، وذلك هو الأصل، فأما إذا لم يكن كذلك فلا تنفعه هذه الدعاوىٰ، بل هي دعاوىٰ كاذبة.

روي عن بعض السلف أنه قيل له: متىٰ أحب ربي؟ قال: إذا كان ما يبغضه أمرّ عندك من الصبر، كان ما يحبه أحلىٰ من العسل.

وقال ذو النون المصري وهو أحد العباد: من ادعىٰ محبة الله ولم يوافقه فدعواه كاذبة باطلة.

ومن علامات محبة الله بغض ما يبغضه الله، فلابد وأن يكون الإنسان مبغضاً لمعاصي الله، وتكون المعاصي عنده مرة بشعة حتىٰ ولو كانت النفوس تميل إليها أو تهواها، فلا تكون المحبة صادقة إلا إذا أبغض تلك المعاصي واستبشعها.

ومن علامات محبة الله بغض الكفرة والمشركين ونحوهم؛ لأن الله يبغضهم، فلا يكون الإنسان محباً لله إلا إذا أبغض الكفرة ونحوهم، وإلا كيف يكون الإنسان محباً لله وهو مع ذلك يحبهم؟

يقول ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي
حباً له ما ذاك في إمكان

حب الكتاب وحب ألحان الغناء
في قلب عبد ليس يجتمعان

أعداء الحبيب، أي: أعداء الله الذين أنت تحبهم، فلا تحبهم؛ بل أبغضهم، فإن من أحب ما يبغضه المحبوب لم يوافق المحبوب، أما الذين يحبهم المحبوب فمحبتهم من محبته، محبوب المحبوب محبوب، ومحبوب المبغض مبغض.

فكيف تدعي محبة الله، وأنت تحب أعداءه؟

وكيف تحب كلامه، وتحب ضد كلامه؟

وضد كلامه مثل الأغاني والملاهي ونحوها، فلهذا يقول ابن القيم: حب الكتاب، يعني: القرآن، وحب ألحان الغناء في قلب عبد ليس يجتمعان، لابد أن يكون أحدهما هو الغالب، وأن يُخرج الغالب المغلوب.

فبذلك تبين أن محبة الله أمر قلبي، ولكن يظهر أثرها على الجوارح، فإذا لم يظهر فهي دعوىٰ باطلة.

فهذه المحبة لها آثار، ولهذا أسباب، وقد ورد في الحديث القدسي سبب من أسباب محبة الله للعبد، وهو كثرة النوافل، ففي صحيح البخاري يقول الله تعالىٰ: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»[1] فجعل من أسباب محبة الله تعالىٰ للعبد أن يكثر من النوافل، ومعلوم أن الذي يكثر من النوافل والقربات لم يكثر منها إلا بعد ما أحب الله، والله تعالىٰ يحب من أحبه، وهي خصلة شريفة عظيمة، أي: حصول محبة الله تعالىٰ للعبد.

ومن علامات محبة الله للعبد اتباع الرسول ﷺ كما في آية المحبة[2].

ومن آثار محبة الله للعبد توفيقه، بأن تكون حركاته كلها لله وبالله، كما في

---

(١) جزء من حديث الأولياء، أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها»[1]، بمعنىٰ: أن حركاته كلها تكون لله، وفي مرضاة الله، فلا ينظر إلا إلىٰ ما يحبه الله، ولا يجتمع إلا إلىٰ ما يحبه، ولا يمد يده إلا إلىٰ شيء محبوب، ولا يحرك قدميه إلا إلىٰ طاعة الله، فيحفظ الله تعالىٰ في جوارحه، هذا من فوائد محبة الله للعبد.

والمحبة قسمان: محبة طبيعية، ومحبة فطرية قلبية.

والمحبة التي قصدت في هذا الباب هي المحبة القلبية، أي: محبة السر، فإنها التي لا يجوز أن يُحبَّ فيها مخلوق مع الله.

ومحبة السّر هي: المحبة القلبية الخفية التي تحمل القلب علىٰ أن يذل، وأن يتبعه بالذل سائر البدن وسائر الجوارح.

ومعلوم أن من أحب شيئاً ـ كما يقولون ـ أكثر من ذكره؛ فمن أحب شخصاً أطاعه وعظّمه، ومن أحب طاعة أكثر من فعلها، فمن أحب الصلاة أَلِفَها، وخشع وتواضع فيها، وتمنىٰ طولها ونحو ذلك، وكذلك من أحب القرآن ـ يعني: محبة سرّية ـ أحب تلاوته والْتَذَّ به، ومن أحب الله أحب ذكره، وأحب شكره ودعائه، وجعله دائماً علىٰ لسانه، فهذه كلها وغيرها محبة سرِّيَّة، علاماتها الاتباع، وهذا هو ضابط المحبة السرية.

فإذا رأيت إنساناً يحب شخصاً استدللت علىٰ محبته بأفعاله؛ لكونه مثلاً يكثر من زيارته، ويكثر من إعطائه وإيوائه وإيثاره علىٰ نفسه، ويتعصب له في غيبته، ويحامي عنه، ويذب عنه كل من يؤذيه، وما أشبه ذلك، فيستدل من ذلك

---

(١) جزء من حديث الأولياء الذي سبق تخريجه.

على محبته له، فإذا وصلت به هذه المحبة إلى أن يجعل سيئاته حسنات وحسناته سيئات؛ فإن تلك محبة زائدة لا تصلح.

وهكذا إذا أحب شخصاً غير الله؛ كميت أو ولي ـ كما يزعم ـ، أو قبر أو حجر أو شجر، ووصلت به محبة هذا المخلوق إلى أن خشع عند قبره وذل، وأطرق برأسه وأخبت له وأناب، أو وصلت به محبته إلى أن يهتف باسمه، ويدعوه مع الله أو من دون الله أو ما أشبه ذلك، فهذه محبة شركية أوقعته فيما لا يجوز، أي: أوقعته في أن دعا هذا المخلوق مع الله، أو عظّمه كتعظيم الله، أو حلف به، أو ما أشبه ذلك.

أما المحبة الطبيعية فهذه غريزة في القلب، فقد جعل الله في غريزة الإنسان أنه يحب أولاده، وأنه يحب أهله وأقاربه، ونحو ذلك، ويحب أيضاً بعض المتاع، ولا يلام على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، والخير هو كل ما فيه منفعة: إما عاجلة أو آجلة، وعبر به هنا عن المال ونحوه، فقد جعل الله ذلك غريزة، فمثل هذا لا يلام إلا إذا وصلت تلك المحبة الطبيعية إلى حال يُؤْثِرُ فيها محبة هذا العرض العاجل على محبة الله، فمثلاً إذا أطاع قريباً له من أجل محبته، وعصى الله، أو حملته محبة المال على كسبه من محرم، أو حملته محبة الأولاد ونحوهم على ترك شيء من الواجبات، أو حمله حب المال على أن يخل بالواجبات كالزكوات والنذور ونحو ذلك، أو حملته محبة أهله، ومحبة أمواله، ومحبة أولاده على ترك بعض الواجبات، كالجهاد وكالنفقة في سبيل الله وما أشبه ذلك، فمثل هذه محبة مذمومة؛ حيث أنها أدت إلى ما هو مذموم أو ما هو محرم.

فالمحبة الطبيعية التي لا يلام عليها هي حب الإنسان المتاع محبة لا تصل به إلىٰ شيء يوقعه في الحرام، أو في ترك الواجب، فمثلاً عند النفقة فإنه يؤثر ولده علىٰ ولد غيره، وينفق علىٰ أهله دون أهل غيره، وينصر أقاربه ويؤويهم دون غيرهم، ويفرح بزيارتهم دون غيرهم، وما أشبه ذلك، ويجمع ماله ويحرزه دون مال غيره، وهكذا، فذلك لا يلام عليه إذا لم تصل به هذه المحبة إلىٰ شيء يوقعه في سخط الله.

علامات من يحبهم الله:

لا شك أن محبة من يحبهم الله واجبة، كمحبة أولياء الله ومحبة عباده الصالحين، ومحبة الرسل، والملائكة، والأنبياء، والصحابة، ونحوهم.

وعلامة محبتهم أن نتبعهم ونقتدي بهم، فإذا كنت تحب الرسول فاتبعه، وإذا كنت تحب الصحابة فاقتدي بهم وقلدهم، وإذا كنت تحب الصالحين فأصلح نفسك لتكون صالحاً مثلهم، وإذا كنت تحب أهل الخير فاعمل الخير حتىٰ تكون منهم، وهكذا.

ولا شك أن هذه المحبة هي المحبة الصادقة، أما من يقول: أنا أحبهم ومع ذلك لا يعمل مثل عملهم؛ بل يخالفهم، فإن هذه المحبة لا تفيده، وإن كانت هذه المحبة يُرجىٰ بها الخير، ولذلك يروىٰ عن الشافعي رحمه الله أنه قال:

أحب الصالحين ولستُ منهم

وأرجو أن أنال بهم شفاعة

وأبغض من بضاعته المعاصي

ولو كنت من أهل تلك البضاعة

فقال له الإمام أحمد رحمه الله:

تحب الصالحين وأنت منهم
وحبهم يلحق بالجماعة
وتبغض من بضاعته المعاصي
وحاشاك من تلك البضاعة

وقول الشافعي رحمه الله: (ولستُ منهم): من باب التواضع، وإلا فهو من الصالحين، وسيرته رحمه الله تدل على صلاحه، ومحبته للصالحين دفعته بلاشك إلى إصلاح نفسه، لذا فقد أُثر عنه من الأعمال الصالحة التي جعلته من الصالحين ومن الأئمة في الدين.

وقد استبشر الصحابة رضي الله عنهم لما جاء رجل يسأل عن الأعمال الخيرية، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: متى الساعة؟ قال: «**وما أعددت للساعة؟**»، قال: حب الله ورسوله، قال: «**أنت مع من أحببت**»[1].

فاستبشر الصحابة لما سمعوا هذا الحديث، لذلك قال أنس في تمام هذا الحديث: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قول النبي ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**».

وقال أيضاً ـ أي: أنس ـ: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم.

وجاء في حديث آخر: «**المرء مع من أحب**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٨٨)، ومسلم برقم (٢٦٣٩)ـ(١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦١٦٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٠). من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وفي حديث آخر: «من أحب قوماً حشر معهم»[1].

ولا شك أن محبتهم - أي: محبة الأنبياء والصحابة والصالحين - تحمل على العمل مثل عملهم، فالذي يعمل مثل عملهم صادق في أنه يحبهم، فأما من لم يكن كذلك فليس بصادق - كما ذكرنا -، فبذلك نعرف أن محبة الله واجبة، وأنها تستدعي محبة ما يحبه.

وليس من علامات محبة الصالحين تعظيمهم أو الاعتقاد فيهم بما ليس من خصائصهم، بل هو من خصائص الله، فمن فعل ذلك فإنه قد غلى، وقد أشرك، يعني: من جعل محبتهم لا تتم إلا بدعائهم، أو بالحلف بهم، أو بتعظيمهم؛ فقد أشرك، وهذا ما يعيب به المشركون من ينهى عن ذلك.

فإذا قيل لهم: لا تتوسلوا بالصالحين، ولا تدعوا الرسول، ولا تدعو فلاناً ولا فلاناً، قالوا: أنت لا تحب الرسول!! أنت لا تحب الصحابة!! أنت لا تحب الأولياء!! أنت لا تحب السادة!! فكأنهم جعلوا الذي ينهى عن إعطائهم حق الله مبغضاً لهم! وجعلوا الذي يعظمهم إلى أن يعطيهم حق الله محباً لهم.

ولا شك أن الصالحين أنفسهم رحمهم الله ما كانوا يوصلون أنفسهم مرتبة يزاحمون بها الله أبداً في شيء من خصائصه، بل هم بأنفسهم يبكون ويخافون الله خوفاً شديداً، ويحتقرون أنفسهم ويحتقرون أعمالهم ونحو ذلك، فإذا كان كذلك دل على أنهم أعرف بالله من هؤلاء الذين جعلوا علامة محبتهم ودعائهم مع الله.

مسألة:

معلوم أنه لا يجوز محبة معاصي الله، ولكن ما حكم الرجل الذي يحب

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤)، وانظر كشف الخفاء للعجلوني (٢/ ٣٨٠).

نوعاً من المعاصي، ولكنه لا يفعلها، أي: يميل إليها فقط؟ فهل يقع في المحبة الشركية؟

الجواب:

نقول: مثل هذا الرجل إن شاء الله لا يدخل تحت هذه المحبة ما دام أنه قهر نفسه وغلبها وجاهدها لما وجد من نفسه ميلاً للمعاصي، بل له أجر المجاهد، فإن جهاد النفس أبلغ من جهاد الأعداء.

ومعروف أن النفس أمارة بالسوء، وميالة إلىٰ البطالة وإلىٰ الكسل، وإلىٰ حب الشهوات المحرمة ونحوها، ولكن إذا قهرها وغلبها كان مثاباً علىٰ هذا العمل إن شاء الله.

ولأهمية هذا الباب فقد أورد المصنف رحمه الله فيه آيتين، ثم ذكر حديثين عن أنس، ثم ذكر حديثين وأثرين عن ابن عباس.

■ **قوله**: [**قول الله تعالى**: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥]]:

هذه الآية قد تقدمت في (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)، وأوردها هنا كدليل علىٰ أن المحبة عبادة من أجل العبادات وأفضلها، فمن عرف نعمة الله عليه وما مَنّ به عليه من الهداية والتوفيق، واستحضر أن فضل الله عليه لا ينقطع من بدء خلقه إلىٰ نهايته، فإنه يحب ربه تعالىٰ بكل قلبه حتىٰ يهديه ويسدده، ويعينه علىٰ طاعته، أما إذا صرف هذه المحبة للأنداد والأصنام، وعلق قلبه بغير ربه، وعظم المخلوق الذي يحبه، وخافه ورجاه، واعتقد أنه ينفعه ويفيده، فإنه قد اتخذه نداً لله، حيث أخبر تعالىٰ بأن من الناس من يجعل لله أنداداً يسوىٰ بينهم وبين الله تعالىٰ في المحبة، وأخبر بأن محبة المؤمنين لربهم أقوىٰ من محبة أولئك لأندادهم، أو من محبتهم لله تعالىٰ، حيث أن أندادهم قد أخذت

جزءاً من محبتهم، فضعفت محبتهم لله تعالىٰ، بخلاف المؤمنين فإن محبتهم لله تعالىٰ خالصة، والمحبة الخالصة أقوىٰ من المحبة المشتركة.

والأنداد واحدها (ند) وهو: الشبيه والنظير، فالمعنىٰ: أنهم يجعلون أندادهم وأوثانهم ومعبوداتهم تستحق من المحبة ما يستحق الله تعالىٰ، أو شبيهة لله تعالىٰ في وجوب المحبة والتعظيم، مع اعترافهم أنها مخلوقة مربوبة، يأتي عليها الفناء والعدم، ولكن أكثرهم لا يعلمون، والله أعلم.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** [التوبة: ٢٤]]:

وردت هذه الآية في سياق الإنكار على الذين يوالون الكفار ويحبونهم ويقربونهم، ويقدمون رضاهم علىٰ رضا الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، فأمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يخاطب المؤمنين ويلقي عليهم هذا السؤال، فإن المؤمنين حقاً يقدمون محبة ربهم ودينهم علىٰ محبة كل شيء علىٰ وجه الأرض.

فالآباء والأجداد وإن علوا لهم حق البر والإحسان والمحبة والطاعة والاحترام.

وكذا الأبناء والذرية لهم حق الحنان والحب والإنفاق، والتعليم والشفقة والعطف، والدفاع عنهم.

وللإخوان حق القرابة والصلة والمودة والإحسان والتودد والإكرام.

وهكذا للأزواج ذكوراً وإناثاً حق العشرة، وحسن الصحبة، والقيام بالخدمة، والوداد والطاعة.

وللعشيرة الذين هم الأقارب من قبل الأب والأم حق الرحم والنصرة، والتأييد والتقوية، والمواساة والإحسان، وليس لأحد منهم الطاعة في معصية الله مهما كانت قرابتهم، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق(١)، ولا يجوز تقديم رضاهم على رضى الله، ولا تترك الواجبات والفرائض التماساً لرضاهم، فإن من أمر بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة.

فمتى كان أقارب المسلم من أعداء الله تعالى، أو من الكفار المعادين للدين، والمحاربين لأهل الإسلام، فإن عليه أن يقاطعهم ويتبرأ منهم بعد أن يدعوهم إلى الإسلام، ويرغبهم فيه، ويحرص على تقريبهم، فإن أبوا وعاندوا وجب عليه هجرهم والبعد عنهم، كما حكى الله عن إبراهيم الخليل ومن معه أنهم: **﴿قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾** [الممتحنة: ٤].

وأما الأموال المكتسبة والتجارة التي يخشى كسادها، والخسارة فيها، والمساكن

---

(١) جاء في الحديث عن النواس بن سمعان، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**.

أورده البغوي في «شرح السنة» (١ / ٤٤)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢ / ١٧٧)، وإسناده ضعيف. ولكن للحديث شواهد:

فعن علي عن النبي ﷺ قال: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل»**.

أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (١ / ١٣١)، وهو من زيادات ابنه عبد الله، وصححه أحمد شاكر (١٠٩٥).

وشاهد آخر عن عمران بن حصين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا طاعة لأحد في معصية الله تبارك وتعالى»**.

أخرجه الإمام أحمد (٥ / ٦٦)، والطيالسي (٨٥٦)، وصححه الحاكم (٢ / ٤٤٣)، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٩).

وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنهما قال: **«لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»**.

أخرجه البخاري برقم (٤٣٤٠)، ومسلم برقم (١٨٤٠).

التي يرضونها فهي من متاع الدنيا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فلا يقدم الاشتغال بها على طاعة الله تعالى، والجهاد في سبيله.

ففي هذه الآية الكريمة أن الله خاطب المؤمنين على لسان رسوله ﷺ أنهم إذا كان أقاربهم وأموالهم أحب إليهم من الله ورسوله، ومن الجهاد في سبيل الله، فليتربصوا وينتظروا ما يحل بهم من العذاب، وما يأتيهم مما يأمر الله به.

وأخبر بأن الله لا يهدي القوم الفاسقين، وهو إشعار بأن من قدم محبة أقاربه أو ماله أو ولده على محبة الله تعالى، ورسوله ﷺ، والجهاد في سيبل الله فهو مهدد بالعذاب، وهو من الفاسقين؛ حيث أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق(١)، والله أعلم.

■ **قوله: [وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من: ولده، ووالده، والناس أجمعين»(٢)، أخرجاه]:**

هذا الحديث يدل على وجوب محبة الرسول ﷺ، فإنه ﷺ أكد ذلك بنفي الإيمان عن من لم يفعله، فقال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من: ولده، ووالده، والناس أجمعين**».

وقد ذكروا أن عمر رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: «**والله لأنت أحب إلي من كل شيء، إلا من نفسي**»، فقال: «**لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال: والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال: «**الآن يا عمر**»(٣).

هكذا صدق الصحابة رضي الله عنهم، وهكذا قالوا، فإنهم لما أحبوا الله،

---

(١) انظر التخريج السابق.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٥)، ومسلم برقم (٤٤).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٦٣٢)، من حديث عبدالله بن هشام رضي الله عنه.

وأحبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، التمسوا رضىٰ الله، والتمسوا ما جاء به رسوله ﷺ، وصدقوا في ذلك، فكان هذا هو العلامة الصادقة لمحبتهم لما يحبه الله، فالذي لا يقدم محبة الرسول يكون ناقص الإيمان، أو لا يؤمن؛ أي: لا يكون مؤمناً صادقاً في إيمانه، أو لا يكون مؤمناً كامل الإيمان، أو لا يكون معه أصل الإيمان، بل يكون إيمانه ضعيفاً إذا لم يقدم محبة الرسول ﷺ علىٰ محبة المال، وعلىٰ محبة النفس، وعلىٰ محبة الولد، وعلىٰ محبة أي شخص من الناس.

ومحبة الرسول عليه الصلاة والسلام محبة قلبية، ولكن من آثارها اتباعه، فإذا كان المسلم يحب الرسول ﷺ فإن عليه أن يتبعه، وليس كما يزعم القبوريون أن محبته هي دعاؤه، أو محبته هي الحلف به، أو محبته هي التمسح بجدار حجرته، أو محبته هي السفر إليه، أو ما أشبه ذلك.

بل محبته: هي اتباع سنته، ومحبته: هي اتباع شريعته التي جاء بها، ومحبته: هي الحرص علىٰ موافقته، ومحبته: هي طاعته أتم الطاعة والرضىٰ بشريعته، وتحكيمه في كل شيء.

من حقوق الرسول ﷺ الواجبة على المسلم:

وقد ذكر الله تعالىٰ بعض الحقوق الواجبة للرسول ﷺ علىٰ كل مسلم، فمن ذلك:

* **الإيمان به**، قال تعالىٰ: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ [التغابن: ٨]، آمنوا به؛ أي: صدقوا به أنه مرسل من ربه.

* **وكذلك ذكر من حقوقه اتباعه في قوله تعالىٰ**: ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ولا يتم اتباعه

حقاً إلا بالسير على طريقته، فالذي يحبه هو الذي يسير على سنته، وهو الذي يتبعه بالأعمال، وليس بالأقوال، فيحرص على أن يعمل مثل عمله، ويقتدي به في كل أمر، فهذا هو علامة محبته.

* **وكذلك طاعته التي أمر الله بها**، ورتب عليها الثواب، ورتب على معصيته العقاب، قال تعالى: **﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ...﴾**، إلى قوله: **﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا﴾** [النساء: ١٣، ١٤].

وجعل الله أيضاً من علامة محبته التأسي به واتخاذه أسوة في الأفعال، قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾** [الأحزاب: ٢١]، فالأسوة: هي القدوة؛ أي: تتأسون وتقتدون به.

فإذا كان الإنسان صادقاً في محبته للرسول فعليه أن يأتي بمثل هذه الأشياء: طاعته، واتباعه، وتقبل كل ما جاء به، وما أشبه ذلك.

* **وكان في حياته ﷺ له حقوق خاصة**، وهي أيضاً من علامة محبته، فكان الصحابة رضي الله عنهم يحبون الرسول ﷺ، وكانوا يحرصون على القرب منه، ويتبركون بكل ما جاء عنه، وذلك شيء خاص به في حياته، ولم يفعلوه بعد مماته.

فمن ذلك: أنهم إذا خاطبوه خفضوا أصواتهم، وذلك من محبته، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** [الحجرات: ٣].

ومن ذلك: أنهم لا يذهبون إلا بعد إذنه، قال تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن**

شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢].

ومن حقوقه ﷺ ما أمر الله به في قوله: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾** [الفتح: ٨، ٩]. قيل: إن التعزيز والتوقير للرسول ﷺ، والتسبيح لله تعالىٰ، وتعزير الرسول ﷺ وتوقيره هو احترامه.

وإذا كانت هذه الأشياء خاصة بحياته، فإنها تمتد لِسُنَّتِهِ بعد وفاته، فإذا كان المسلم يحب الرسول ﷺ فعليه أن يحترم سنته، واحترامها هو عدم تقديم شيء عليها: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** [الحجرات: ١]، فلا يقدم علىٰ سنته سنة فلان أو علان، ولا يقدم علىٰ سيرته أو مما جاء عنه، أو علىٰ شريعته أية شريعة تهواها نفسه، فإذا كان كذلك، فإنه من أهل الإيمان الذين وصفهم في هذا الحديث بقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من: ولده، ووالده، والناس أجمعين**»؛ أي: من قدم محبة الرسول عليه الصلاة والسلام علىٰ هوىٰ نفسه فإنه من أهل الإيمان، أما الذي إذا هويت نفسه شيئاً مع كراهة الله تعالىٰ والرسول له فهذا قد خدش إيمانه، وقد نقص إيمانه، وقد نقصت محبته لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

كذلك الذي رأىٰ شيئاً عليه الناس وقد أَلِفُوهُ، وكان مخالفاً لسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقدم موافقة الناس، وقدم محبة الناس علىٰ ما يحبه الرسول عليه الصلاة والسلام، أو علىٰ ما يأمر به، أو مثلاً خاف من الناس إذا عيروه أو عابوه بأمر كان مقتدياً فيه بالرسول عليه الصلاة والسلام، كإعفاء اللحية، مثلاً، أو أمر من الأمور التي يعرف أنها من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

فنقول لهؤلاء ولكل من يخالف سنة ﷺ: ألست تحب الرسول عليه الصلاة

والسلام؟ فكيف لا توافقه؟ ألست مأموراً بأن تمقت الناس في محبة الله والرسول، وأن تقدم محبة الرسول على محبة كل الناس؟ فكيف توافق الناس إذا عيروك مثلاً أو إذا لمزوك أو همزوك فتطيعهم، وتخالف أمر الله، وتخالف الرسول عليه الصلاة والسلام؟! لقد نقصت محبتك، ولم تصدق في هذه المحبة.

فهذا أو نحوه دليل على أن محبة الرسول لها أمارات وعلامات، وكل واحد يختبر نفسه، ويعرف من نفسه هل هو مطبق لهذه المحبة، أم ليس مطبقاً لها؟ فأما مجرد الدعوى فلا تقبل إلا إذا كانت عليها بينات.

■ **قوله: [ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»[(١)]، وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى...»[(٢)] إلى آخره]:**

هذا الحديث فيه أسباب حلاوة الإيمان، وأسباب ذوق حلاوة الإيمان، وقد ورد بلفظ الحلاوة، وورد بلفظ الطعم، أي: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان...»**.

وهذا يدل على أن للإيمان حلاوة، وأن للإيمان طعماً.

واختلف في هذه الحلاوة: هل هي حلاوة محسوسة، أو حلاوة معنوية؟:

فالقول الأول: وعليه الأكثرون أنها حلاوة معنوية، لأن الحلاوة الحسية هي ما يذاق بالفم الذي يكون طعمه لذيذاً كالطعام الحلو، فالعسل مثلاً والتمر ونحوه هذا هو الذي يكون عادة له حلاوة، فيقول هؤلاء: الإيمان أعمال وليست تذاق

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٦)، ومسلم برقم (٤٣).

(٢) أخرجها البخاري برقم (٦٠٤١).

بالفم، وليست طعمها يحس بالريق، فالحلاوة في الحديث حلاوة معنوية.

والقول الثاني: أنها حلاوة حسية، ولعل هذا أقوىٰ القولين: أن للإيمان حلاوة حسية، وقد يقال: ما كيفية تلك الحلاوة الحسية؟ فنقول: وجدان نشوة في الجسم، ووجدان أريحية وفرح واستبشار وسرور بمثل هذه الأعمال، حيث يجد الإنسان في بدنه كله ارتياحاً والْتذاذاً، وقوة وحلاوة بالأعمال، ويبتهج بالأعمال الصالحة أعظم من الملذات الدنيوية.

ومن المعلوم أن هناك ملذات دنيوية يلْتذ بها أهلها الذين يركنون إليها، وقدتكون معنوية، فمثلاً الأصوات قد تكون منبوذة، ومع ذلك قد تكون حلوة ولذيذة في مسامع كثير من الناس، فمن الناس من يرتاح لسماع الملاهي والأغاني والأصوات الموسيقية ونحوها، فيجد في نفسه نشاطاً، ويجد في قلبه إقبالاً، ويجد في بدنه قوة، ويجد من نفسه إقبالاً كلياً عليها، فيكون ذلك هو أثر هذه الحلاوة؛ أي: ذاق أو ارتاح لطعم حلاوة هذه الأصوات.

ومن الناس من يكون ارتياحه والْتذاذه بالأصوات الشيقة الطيبة، فيرتاح مثلاً لسماع آيات الله، ولسماع كلامه، ولسماع كلام نبيه ﷺ، ويجد في سمعه التذاذاً وارتياحاً، فيكون هذا حلاوة سمعية؛ أي: يلْتذ السمع بالصوت كما يلْتذ الفم بالطعم، فيلتذ تارة بالخير والأصوات الطيبة، وتارة بالشر والأصوات الخبيثة، كأن يستحسنها ويلْتذ بها ولو كانت محرمة.

وكذلك هناك أناس يلْتذون بالبصر، أي: يلْتذون برؤية الأشياء، سواء في الدين أو في الدنيا أو في الشهوات أو نحو ذلك.

فمن الناس من يلْتذ برؤية الصور المحرمة، ويلْتذ بالنظر إلىٰ النساء الأجنبيات، ويجد في قلبه ارتياحاً وفرحاً وسروراً متىٰ نظر إليها وقلَّب أحداقه

فيها .

وهكذا قد يلْتذ في أمور دنياه التي متعه الله بها ، فيلْتذ مثلاً بالنظر إلى بساتينه وقصوره وتجاراته ونحو ذلك .

وقد يلْتذ بالمباحات التي رُزِقَها فيلْتذ مثلاً بالنظر إلى زوجه التي أبيحت له ، كما جاء في الحديث : «**إن نظر إليها سرّته، وإن غاب عنها حفظته**»[1] . فيجد لذلك إلْتذاذاً وسروراً .

وهناك أمور إذا نظر إليها والْتذ بها كان له بذلك أجر ومثوبة ، فمثلاً النظر في كتاب الله وكتب العلم ، فإذا قرأ فيها ابتهج وسرَّ بذلك وقوي قلبه ، وكذلك إذا نظر في آيات الله الكونية وفي ملكوته وفي العالم العلوي والسفلي نظر تدبر واعتبار قوي قلبه بذلك وزاد إيمانه ، وذاق حلاوته ، فدل على أن للإيمان حلاوة حسية .

وكذلك هناك أناس يلْتذون بالكلام ، فبعضهم يلتذ بالكلمة التي يقولها ، فإن كان خيراً حمد عقباها ، وإن كانت شراً فيذم عقباها ، يقول أحدهم : إنه يستحلي الكلمة التي يسب بها أو يشتم أو يلعن أو يقذف بها ، ويجد في ذلك حلاوة .

---

(١) جزء من حديث أخرجه بهذا اللفظ أبي داود برقم (١٦٦٤)، عن ابن عباس .
وأخرجه ابن ماجه بلفظ قريب برقم (١٨٥٧) عن أبي أمامة .
وأخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٥١) عن أبي هريرة .
قال محقق سنن ابن ماجه الشيخ محمد فؤاد عبدالباقي معلقاً على حديث أبي أمامة : قال في الزوائد : في إسناده علي بن يزيد ، قال البخاري : منكر الحديث . وعثمان بن أبي العاتكة مختلف فيه ، والحديث رواه النسائي من حديث أبي هريرة ، وسكت عليه ، وله شاهد من حديث عبدالله بن عمر .
وقال أحمد شاكر في تعليقه على حديث أبي هريرة برقم (٧٤١٥) : إسناده صحيح .

وضد ذلك أهل الخير الذين متىٰ ذكروا الله أو قرأوا كلامه أو دعوه أو أمروا بخير أو نهوا عن شر؛ فإنهم يسرّون بذلك، ويجدون لذلك حلاوة ولذة وابتهاجاً ونشاطاً في قلوبهم وأبدانهم.

وهكذا الأعمال نفسهاكثيراً ما يحصل فيها التفاوت، فتجد مثلاً الفسقة يلْتذون بتناول أو بعمل المحرمات، فيلْتذون بشرب الخمور مثلاً، ويلْتذون بالزنا أو اللواط وما أشبهه، ويلْتذون باختلاس الأموال وانتهابها، وأكل المال بغير حق، والاغتصاب، ويلْتذون بغير ذلك.

ذكروا أن الحجاج بن يوسف المشهور كان أعظم ما يلْتذ به وأعظم ما يبتهج به ويطرب له إذا رأىٰ الدماء تراق، وإذا رأىٰ هذا يقتل أمامه، ولو كان مظلوماً، فيجد لذلك ابتهاجاً وسروراً في قلبه، لذلك زين له وحبب إليه هذا العمل، ولو كان محرماً.

كذلك أهل الطاعة يلْتذون بالطاعة، روي عن بعض السلف رحمهم الله أنه قال: (أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم)، والمراد بأهل الليل: أهل التهجد، وأهل الصلاة طوال الليل؛ بمعنىٰ: أنهم يقطعون ليلهم في قيام وقعود وركوع وسجود، وتضرع وتواضع وخشوع بين يدي ربهم، فهم في غاية اللذة، وفي غاية السرور ينشطون فيها كما ينشط أهل اللهو في لهوهم أو أشد، وقدوتهم في ذلك نبيهم ﷺ الذي يقول لبلال: «**أرحنا يا بلال بالصلاة**»[1]، فدل علىٰ أنه يحس في الصلاة براحة متىٰ دخلها، فيحس كأنه ارتاح بدنه، ويحس

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٨٥)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣٦٤)، عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

وأخرجه أبو داود برقم (٤٩٨٦)، عن عبدالله بن محمد بن الحنفية رضي الله عنه.

قال الأرناؤوط في «تحقيق جامع الأصول» (٦/ ٢٦٣)، رقم (٤٣٨٥): إسناده صحيح.

كأنه فرح ومسرور، ويحس كأن بدنه قد قوي، ويحس لذلك لذة وإقبالاً؛ لأنها عبادة محبوبة للنفس المطمئنة وللنفس المؤمنة.

وكذلك قوله ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(١)، فإنها إذا كانت قرة عينه دلّ على أن للصلاة لذة وحلاوة وراحة.

والإيمان له نتائج وله ثمرات، وهي الأعمال، فالذي يتلذذ بالأعمال الصالحة هو الذي يذوق حلاوة الإيمان، هذا معنى قوله: «**وجد بهن حلاوة الإيمان**»، **وكفى بهذه الثلاثة، أي: الثلاثة خصال**:

فالخصلة الأولى: قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»:

وقد ذكرنا أن محبة الله ومحبة رسوله يجب تقديمها على كل شيء، كما في قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من: ولده، ووالده، والناس أجمعين**»(٢)، وفي رواية: «**ونفسه**»(٣)، وأن لذلك علامة، وليست بمجرد الدعاوى؛ بل لابد للدعوى من بينة.

يقول بعضهم:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها

بينات أصحابها أدعياء

فإذاً نقول لمن يقول: أنا أحب الله وأحب رسوله: أقم على ما تقوله البينة، والبينة ما يبين الحق ويظهره؛ فالبينة على هذا هي مبادرتك أيها المحب إلى طاعة محبوبك، وابتعادك أيها المحب عن معاصي محبوبك، فإذا كنت كذلك فإنك

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٦١) رقم (٣٩٤٩)، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢)، (٣) سبق تخريجه في هذا الباب.

صادق المحبة، وإلا فهذه الدعوىٰ لا حقيقة لها.

* **الخصلة الثانية: قوله: «وأن يحب المرء إلا يحبه لا لله»:**

وهذا أيضاً قد تقدم معناه، وعرفنا أن المحب لشيء يحب كل ما يحبه، ومن أحب شخصاً أحب محبوبات ذلك الشخص، ومن أحب الله أحب ما يحبه الله من الأقوال والأعمال والأشخاص؛ فإذا كنت صادقاً بأنك تحب الله فإنك تحب من يحبه، وتحب ما يحبه.

فالله تعالىٰ يحب الخير، والله يحب الأعمال الصالحة، والله يحب الحسنات والإكثار منها، والله يحب الإيمان وخصال الإيمان، فإن كنت صادقاً فإنك تحب هذا الذي يحبه الله، والله يحب المؤمنين، ويحب المتقين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المحسنين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، ونحو ذلك.

فإذا كان الله يحبهم فإنك تحبهم؛ لأن الله يحبهم، فمحب المحبوب محبوب، تحبهم أولاً لصلاحهم، وتحبهم لأنهم يحبون الله، وتحبهم لأن الله تعالىٰ يحبهم.

والناس في محبة الصالحين ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يحبونهم، ولا يفعلون شيئاً من أفعالهم، فيقولون: نحن نحب الصالحين، ونحن نحب المؤمنين، وأفعالهم تخالف أقوالهم تلك، فهؤلاء ليسوا بصادقين.

القسم الثاني: اعتقدوا أن من تمام محبتهم الاستشفاع بهم، ودعاءهم والتوسل بهم، وقالوا: إذا كنا نحبهم والله يحبهم فمن آثار محبتنا أن نعظمهم، ونذبح لهم، وننذر لهم، ونحلف بهم، وندعوهم، ونتوجه إليهم، ونتوسل بهم

وما أشبه ذلك، فهؤلاء أفسدوا محبتهم، حيث إنهم زادوا وغلوا وأعطوهم ما لا يستحقون.

القسم الثالث: الذين لما أحبوهم اقتدوا بهم، وهؤلاء هم الناجون، فإن محبتهم الصحيحة تحمل على أن تبحث عن الأسباب التي كانوا بها صالحين، وكانوا بها مؤمنين ومستقيمين فتفعلها، فإذا فعلتها كنت منهم، فإذا فعلت ما كانوا فيه من الصلاح؛ أصلحت نفسك وأصلحت أعمالك، وإذا فعلت أسباب التقوى التي تحبهم من أجلها كنت من المتقين، وإذا فعلت أسباب الإحسان كنت من المحسنين، وهكذا فتحملك محبتهم على أن تقتدي بهم، وهذا هو الحب النافع.

وضد ذلك لابد منه، لابد أن تبغض من يبغضه المحبوب، فإذا أحببت من يحبه الله، وأحببت ما يحبه الله، فلابد أن تبغض من يبغضه الله، وتبغض ما يبغضه الله.

فالله تعالى يحب الطاعات، ويبغض المعاصي، ويحب الواجبات والمستحبات ويبغض المحرمات؛ فلابد أن تبغض المعاصي، وتبغض سائر المحرمات، وبغضك لها أن تبتعد عنها، وأن تتركها وتتجنبها حتى تكون محبتك صادقة.

أما من يقول: أنا أبغض المعاصي، وهو مع ذلك يعصي الله، فيشرب الخمر، أو يشرب الدخان، أو يزني، أو يسرق، أو يقتل، أو ما أشبه ذلك؛ فذلك لم يصدق في قوله: أبغض ما يبغض الله.

كذلك أيضاً يبغض في الله، فالله يبغض الكافرين، ويبغض المنافقين، والعصاة والمارقين، والملحدين، والزنادقة، والمكذبين، ونحوهم؛ فلابد أن

تكون مبغضاً لهم، كما أن مولاك مبغض لهم.

ويقع هذا حتى في الأمور الدنيوية، فإذا أحب إنسان إنساناً لأمر دنيوي فإننا نراه يحب أحبابه ويبغض أعداءه، ويعادي من عاداه، ويوالي من والاه.

وكذلك أيضاً يحرص على أن يعمل كأعماله خيراً أو شراً، فتراه يقلده ويتبعه حتى إنه قد يسير مثله في مشيته، ويفعل كما يفعل من معصية أو طاعة، ذلك لأن قدره في قلبه عظيم.

فإذا كان هذا مشاهداً محسوساً في الأحوال الدنيوية فإنه بطريق الأولى يكون في محبة الله تعالى.

ويقع هذا أيضاً فيمن يحبون شخصاً على أمر غير جائز، ذكر بعض أهل الكتب: أن رجلاً أحب امرأة محبة عشق، ولما أحبها رآها وقد اشترت ثوباً مخططاً فاشتاق إليها، ونظر إليها وهي تحمل ذلك الثوب المخطط، ولم يرها إلا في ذلك الوقت، ولم يرها بعد ذلك، فكان كلما رأى ثوباً مخططاً تذكرها واشتراه، حتى أنه لما مات وجدوا عنده أكثر من سبعين ثوباً من ذلك اللون، ذلك لأنه أحب ما تحب تلك المرأة، فدل على أن من أحب شخصاً أحب ما يحبه.

*** الخصلة الثالثة: قوله: «أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»:**

هذه الخصلة مكملة للخصلة التي قبلها؛ لأن من أحب الله وأحب أولياء الله أبغض ما يبغضه الله، والله تعالى يبغض لعباده الكفر: قال تعالى: ﴿**إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾ [الزمر: ٧]، فإذا كان الله لا يرضى لعبده الكفر، فإنه من الضروري أن يبغض الكفر أشد البغض، ويبتعد عنه أشد

الابتعاد، ويمقته ويمقت أهله، ويبتعد بكل ما يستطيع، ويصبر على الأذى ولو عذب وناله ما ناله؛ فإنه يؤثر ذلك على أن يعصي بكلمة تسخط مولاه، وهذا قد وقع محسوساً لكثير ممن وقر الإيمان في قلوبهم قديماً وحديثاً.

فمن الأقدمين من عذب في ذات الله، ذكر النبي ﷺ: أن بعضاً من الأمم قبلنا من أهل الإيمان، من كان يشق نصفين من مفرق رأسه حتى يشق نصفين على أن يكفر فلا يكفر، وكان يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، أي: يمشط بأمشاط لها رؤوس محدبة يغرزونها في لحمه على أن يكفر، ولا يصده ذلك عن إيمانه ولا يكفر[1]، وكل ذلك لأنهم قد ذاقوا حلاوة الإيمان واستطعموه، فلا يصدهم عنه صاد ولا يردهم عنه راد.

وذكر النبي ﷺ قصة أصحاب الأخدود في حديث صهيب الذي في صحيح مسلم[2]، وأن أصحاب الأخدود عذبوا المؤمنين، فأولاً عذب الملك جليساً له كان أعمى فرد الله عليه بصره بواسطة دعاء ذلك الغلام، فقيل له: ارجع عن دينك فلم يرجع، فشق نصفين بالمنشار ولم يرجع.

وكذلك عذب الراهب الذي كان سبباً في إيمان ذلك الغلام، فلما أحضروه قالوا له: ارجع عن دينك، فلم يرجع، فشقوه ـ أيضاً ـ نصفين فصبر، ولم يرجع

---

(١) جاء ذلك في حديث خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».
أخرجه البخاري برقم (٦٩٤٣).

(٢) قصة أصحاب الأخدود أخرجها مسلم بطولها برقم (٣٠٠٥).

عن دينه .

وهكذا أيضاً عذبوا ذلك الغلام فحاولوا إلقاءه في البحر فأنجاه الله ، وحاولوا إلقاءه من شاهق جبل فلم يضره ذلك وأنجاه الله ، فقال لهم : ارموني حتىٰ تقتلوني بعدما تقولون : بسم الله رب الغلام ، فرموه بسهم ، وقالوا : بسم الله رب الغلام ، فمات وآثر الموت ، ولكن كان من آثار ذلك أن آمن الحاضرون كلهم ، وقالوا : آمنا برب الغلام .

ولذلك شق الملك أخدوداً وأوقد فيه ناراً ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج : ١ ـ ٧] ، وجعلوا كلما جاءهم شخص قالوا له : ارجع عن دينك وإلا قذفناك في هذه النار فيصبر ، فصبروا حتىٰ أُلقوا جميعاً في النار وما صدهم ذلك عن دينهم .

كذلك أيضاً وقع مثل هذا في هذه الأمة ، ويَعْرفُ ذلك من تتبع التاريخ ، فخلق كثير من هذه الأمة قديماً وحديثاً عذبوا وأوذوا علىٰ يد بعض الملوك عندما ظفروا بهم ، فآذوهم وأحرقوهم ، وما صدهم ذلك عن دينهم .

ذلك كله لأنهم عرفوا أنهم علىٰ الحق ، وصبروا علىٰ ما هم عليه ؛ وكرهوا العودة إلىٰ الكفر ، كما في قوله ﷺ : **«أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار»** ، أي : نار الدنيا ؛ لأنه يعرف أنه إذا تخلص من نار الدنيا وكفر ما نجىٰ من نار الآخرة .

■ **قوله: [وعن ابن عباس، قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»[1] رواه ابن جرير]:**

يحث هذا الحديث على أن تكون المحبة لله، والبغض لله، وكذلك الذي يتبع المحبة من الموالاة، والذي يتبع البغض من المعاداة، فإن من أحب شخصاً والاه، ومن أبغض شخصاً عاداه.

فالموالاة: هي اتخاذ وليٍّ والقرب منه ومؤازرته وزيارته ومؤانسته ومجالسته

---

(١) لم أجده عند ابن جرير كما ذكر المصنف.

وقد أخرجه ابن المبارك في الزهد رقم (٣٥٣)، عن ابن عباس موقوفاً، والطبراني في «الكبير» رقم (١٣٥٣٧)، عن ابن عمر موقوفاً، وأبو نعيم في «الحلية» (١ / ٣١٢)، عن ابن عمر مرفوعاً.

والحديث مداره على ليث ابن أبي سليم وهو ضعيف مختلط كما في «تهذيب التهذيب» (٨ / ٤٦٧)، و«تقريب التهذيب» (٢ / ١٣٨).

والحديث له شاهدان وهما:

الشاهد الأول: عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من أحب في الله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، استكمل الإيمان»**.

أخرجه أبو داود برقم (٤٦٨). والطبراني في «الكبير» رقم (٧٦١٣، ٧٧٣٧، ٧٧٣٨)، والبيهقي في «السنن» (٣ / ١١)، وأورده البغوي في «شرح السنة» (١٣ / ٥٤).

وصححه الألباني في «صحيح أبي داود، وحسنه الأرناؤوط في «تحقيق شرح السنة».

الشاهد الثاني: عن معاذ ابن أنس الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أعطى لله تعالى، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله، فقد استكمل إيمانه»**.

أخرجه أحمد في «المسند» (٣ / ٤٣٨، ٤٤٠)، والترمذي رقم (٢٥٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٢ / ١٦٤).

قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

ومواساته وإعطاؤه، وما أشبه ذلك، هذا من آثار محبته، فمن آثار المحبة الصادقة الموالاة؛ هذا معنى قوله: أحب في الله، ووالى في الله.

والمعاداة: هي المقاطعة، تعادي فلاناً، أي: تتخذه عدواً، وتهجره، وتمقته، وتبغضه، وتبتعد عنه، وتحذره ولا تقترب منه، لأنه عدوٌ لك، ومعلوم أنه إذا أبغض إنسان شخصاً فإنه عادة يقاطعه،

فيجب أن تكون محبة المسلم لله، فلا يحب إلا الشخص الذي يحبه الله، ولا يحبه إلا لله وفي الله، ويحبه من أجل ديانته، ويحبه من أجل صلاحه، ويحبه من أجل تقواه وإيمانه، ويحبه من أجل أن الله يحبه، ويحبه لأنه يحب الله.

كذلك إذا أحبه اقترب منه، فيخبره بأنه يحبه لذات الله، روي أن رجلاً مر بإنسان عند النبي ﷺ، فقال ذلك الجالس: إني أحب هذا لله، فقال النبي ﷺ: «هل أخبرته؟» قال: لا، قال: «أخبره»، فقام فقال له: إني أحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له[1]، دعا له بهذه الدعوة الصالحة؛ لأنه أحبه لله.

هذا معنى قوله: «**من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله**».

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥١٢٥)، وأحمد (٣/ ١٤٠، ١٤١، ١٥٠)، وابن حبان بترتيب ابن بلبان (٢/ ٣٣٠) رقم (٥٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٧١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٦٧)، من طرق عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسن إسناده الأرناووط في «تحقيق صحيح ابن حبان» (٢/ ٣٣١)، وفي «تحقيق شرح السنة» (١٣/ ٦٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٧٧٨)، رقم (٤١٨)، وقال: وهذا سند صحيح على شرط مسلم.

ويشهد له حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه**».

أخرجه أبو داود برقم (٥١٢٤)، والترمذي برقم (٢٣٩٣). وأحمد (٤/ ١٣٠). والبخاري =

وأما قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك»، ولاية الله، يعني: أن يكون الشخص من أولياء الله، وأولياء الله هم أحبابه، وأولياء الله هم الأتقياء، وأولياء الله هم المؤمنون، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من هم؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فإذا أراد المسلم أن يكون من أولياء الله فما عليه إلا أن يحب من يحبه الله، ويوالي من يواليه الله، ويبغض من يبغضه الله، ويعادي من يعاديه الله؛ ليكون من أولياء الله؛ فتنال بذلك ولاية الله.

ثم قال: «**ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك**»، يعني: أن من أسباب وجود طعم الإيمان هذه الأشياء التي ذكرت في الحديث، وهي: الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله.

وقد ذكرنا أن للإسلام وللإيمان طعم ولذة، وحلاوة حسية فيشعر بها

= في «الأدب المفرد» (٥٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦ / ٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤ / ١٧١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٠٦)، وابن السني (١٩٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣ / ٦٧).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «الأدب المفرد» برقم (٤٢١)، وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٤١٧)، وصححه الأرناؤوط في «شرح السنة» (١٣ / ٦٧).

* وفي الباب عن أبي ذر رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٥ / ١٤٥، ١٤٧).

قال الهيثمي (١٠/ ٢٨١، ٢٨٢): رواه أحمد وإسناده حسن. وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٤١٧): وهو كما قال، أي: الهيثمي أو أعلى، وصحح إسناده الأرناؤوط في «شرح السنة» (١٣ / ٦٧).

* وعن أبي عمر أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٣٦١)، وفي الأوسط (٤٩١)، وابن حبان بترتيب ابن بلبان (٥٦٩)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٢٨٢): ورجالهما رجال الصحيح. وصححه الأرناؤوط في «تحقيق صحيح ابن حبان».

* وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٣)، وصححه الألباني في الأدب المفرد برقم (٤٢٢)، وفي «السلسلة الصحيحة» رقم (٤١٨).

الإنسان، أي: يشعر بنشوة وبلذة وبقوة في بدنه، وأن ذلك مرتبط بالأعمال الصالحة، فكل عمل صالح يعمله الإنسان يظهر له فيه الْتذاذ وفرح، روي عن بعض الصالحين أنه قال: «إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً، أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب». تلك الأوقات التي يرقص فيها القلب طرباً هي التي يجد فيها لذة الطاعة، ويجد الارتياح للطاعة، والأنس بالله تعالى.

كذلك الالتزام بالأعمال الصالحة، ولاشك أن الأعمال الصالحة تؤثر على البدن نشاطاً، كما أن الأعمال السيئة تؤثر عليه كسلاً، وقد أثر عن ابن مسعود أنه قال: (إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وقوة في الجسم، وسعة في المعيشة، ومحبة في قلوب الناس، وإن للسيئة ظلمة في الوجه، وسواداً في القلب ووهناً في الجسم، وضنكاً في المعيشة، وبغضاً في قلوب الناس).

وقال بعضهم: (ليتق الله أحدكم، أن تلعنه قلوب الناس، وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله في قلوبهم له البغضاء).

فإذاً طعم الإيمان ولذته إنما يحصل بكونه يحب أولياء الله، ويبغض أعداء الله، ويوالي من يواليهم الله، ويعادي من عاداه الله، هذا هو الذي يجد به المسلم لذة الإيمان وطعمه.

وأما من لم يكن كذلك؛ فإنه لا يجد للإيمان طعماً، ولو كثرت صلاته وصومه، ولو كان يكثر التنفلات من الصلوات، ـ مثلاً ـ وهو يتهجد في الليل، ويصلي الضحى، ويصلي النوافل، ويحافظ على الفرائض، ويؤدي الرواتب، ويخشع في صلاته حيث أنه لا يحب من يحبه الله، ولا يبغض من يبغضه الله، ولا يقترب من أولياء الله، ولا يبتعد من أعداء الله؛ فإنه لايجد للإيمان حلاوة، ولايظهر للإيمان في قلبه لذة وارتياح.

ثم يقول ابن عباس: «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»:

والمواخاة معناها: المصافاة والمصادقة والمحبة والموالاة، يقول ابن عباس في زمانه: إن المؤاخاة على أمر الدنيا، فكيف لو رأى زماننا؟ زماننا هذا أهله إلا ما شاء الله أشد حبّاً للدنيا، وأشد مؤاخاة لأهلها، وقرباً لأهلها، وتهالكاً عليها، فإنا نشاهد أن أغلب الناس يتحابون، فنجد اثنين متحابين برهة من الزمان، فكل منهما صَالَحَ لنفسه، ثم نجدهم بعد مدة متباغضين متماقتين، وكل منهما قد عادى الثاني وفارقه.

وإذا سألت عن الأسباب وجدتها أموراً دنيوية، بأنه كان يقرضه، أو كان يهدي إليه، أو كان ينفعه، أو كان يعطيه، أو كان، أو كان، أو ما أشبه ذلك، ولما قطع عنه مصلحة، أو قطع عنه منفعة، مقته وأبغضه، وعاداه وقاطعه؛ فيكون أصل محبته من أجل الدنيا، وأصل بغضه ومعاداته من أجل الدنيا، فخليت تلك المحبة من أصلها النافع، وخلي البغض أيضاً من أصله النافع.

لذا قال رضي الله عنه: «**لا يجدي على أهله شيئاً**»، أي: لا يبقى؛ بل يضمحل وتنقطع آثاره.

■ **قوله:** [**وقال ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾** [البقرة: ١٦٦]، **قال: المودة**(١)]:

وهذا تفسير قوله تعالى: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾**، أي: أن هناك في الدنيا أتباعاً، وهناك متبوعين.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢ / ٤٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢ / ٢٧٢)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١ / ٤٠٢)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

والأتباع هم: عامة الناس وهم الضعفاء؛ الذين كانوا يتبعون رؤساءهم وأكابرهم؛ لأن أولئك الكبراء كانوا يؤوونهم ويعطونهم، ويكرمونهم، ويضيفونهم، وينصرونهم، ويواسونهم، ويهدون لهم، لكنهم لا ينصحونهم في ذات الله، ولا يرشدونهم إلىٰ الخير، ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، بل ربما يوقعونهم في المنكر، فإذا فعل الرؤساء المنكر فإنهم يتبعونهم فيه ويطيعونهم فيه، فإذا جاء يوم القيامة فإن السادة والكبراء يتبرءون منهم، ويقولون: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وفي يوم القيامة، كل منهم يتبرأ من الآخر، يتبرأ المتبوع من التابع، يقول المتبوع (الرئيس): إني بريء منك، فإني لم أضلك، ولم أَدْعُكَ، ولم أوقعك في الباطل، ويقول التابع: بل أنت الذي أوقعتني، وأنت الذي زينته لي، وأنت الذي أرديتني، و لكن لا يفيد كل منهم الآخر، وتتقطع بينهم الأسباب، وتتبدل المحبة والمودة بالبغضاء، ويمقت كل منهم الآخر، كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، فإذاً في يوم القيامة تتقطع المودة حتىٰ لو كانت مودة نسب.

فمودة النسب ومودة السبب إذا لم تكن مودة في ذات الله تتقطع يوم القيامة، والمودة في ذات الله والمحبة في الله هي التي تبقىٰ، قال تعالىٰ: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

الأخلاء: هم المتخالون، بمعنىٰ: المتحابين، كما في قوله ﷺ: «المرء على دين

خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[١]، فالخلة هي المحبة، والخليل بمعنى: الحبيب، يقول: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ**﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿**بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾، كل منهم يسب الثاني ويتبرأ منه، ﴿**إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾.

كذلك ـ أيضاً ـ الأقارب، فالأقارب كل منهم يفر من قريبه، كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ**﴾ [المؤمنون: ١٠١]، أي: ليس بينهم قرابات، وكما في قوله: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ**﴾ إلى آخره [عبس: ٣٤، ٣٦].

فتتقطع بينهم المودة، ولا ينفع أحد منهم الآخر، وكل منهم يتبرأ من الآخر، لكن أهل الإيمان تبقى مودتهم ﴿**إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾، فالمتقون هم الذين يبقون، لأنهم تحابوا في ذات الله على غير أرحام بينهم، فبقي أثر هذه المحبة، فهم في الجنة يتزاورون، ويتذاكرون حالهم في الدنيا، ويتذاكرون ما كان منهم، وكلما ذكروا ذلك ازدادوا غبطة، وازدادوا شكراً لربهم، وازدادوا اعترافاً بفضله وهكذا، فهؤلاء هم المتحابون في الله.

وفي قوله ﷺ: يقول الله تعالى: «**وجبت محبتي: للمتحابين في، وللمتزاورين في، والمتباذلين في**»[٢]، فهذا ونحوه يحملنا على أن تكون محبتنا لله، ولمن يحبه

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٣٣)، والترمذي برقم (٢٣٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٧١)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٨٠١٥): إسناده صحيح، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٢/ ٦٣٤)، رقم (٩٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٩، ٣٢٨)، ومالك في الموطأ في الشعر رقم (١٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٥٠)، وابن حبان بترتيب ابن بلبان (٢/ ٣٣٤)، رقم (٥٧٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٥٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٦٨، ١٦٩)، وأورده المنذري في «الترغيب والترهيب» رقم (٤٤٢١)، من طرق كلهم عن معاذ بن جبل =

الله، وألا نحب من أجل أمور دنيوية عاجلة لا بقاء لها، لأن الأمور الدنيوية زائلة، ولا ينافي هذا أن نعترف بفضل من تفضل علينا، ولكن لانحبه مع فساده.

فلو أن إنساناً أسدىٰ إليك معروفاً، أو نفعك بنفع دنيوي، مع أنه فاسق، فلا تحبه، ولكن تعترف بفضله وبعطائه، مع بغضك له علىٰ معصيته، وتنصحه بأن يتوب من تلك المعصية، فإن لم يرجع فلا مؤاخاة، ولا مصاحبة، ولا موالاة.

وأيضاً لو أن إنساناً صالحاً رفض أن يعطي شخصاً مالاً أو منفعة معينة لم يكن واجباً عليه أن يفعلها فلا يشنع عليه، ولا يذم علىٰ ذلك، بل يوالىٰ ويؤاخىٰ لصلاحه، فالمدح والذم لا يكون علىٰ الأمور الدنيوية، ولا يكون إلا في الله، كما أن الحب لا يكون إلا لله.

■ ■ ■ ■ ■

= رضي الله عنه.

وصححه الحاكم علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الأرناؤوط في تحقيق ابن حبان (٢ / ٢٣٥)، رقم (٥٧٥)، وقال في تحقيق «شرح السنة» (١٣ / ٥٠): إسناده صحيح، وقال ابن عبد البر: هذا إسناد صحيح. وقال المنذري: رواه مالك بإسناد صحيح، وابن حبان في صحيحه.

[٣١]

باب:

قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

قوله الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

عن أبي سعيد مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين: أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره».

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»، رواه ابن حبان في صحيحه.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوىٰ.

الخامسة: علامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:

قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

هذا الباب معقود لبيان أن الخوف عبادة، وأنه لا يصلح إلا لله، وأنه يحصل الشرك بالخوف، كما يحصل الشرك بالدعاء، ويحصل بالرجاء، ويحصل في المحبة كما تقدم في الباب الذي قبله، كذلك يحصل شرك في الخوف.

والخوف: عبادة قلبية، ولكن تظهر على البدن آثارها.

والخوف أصله الوجل والحذر، وقد ورد في مواضع عديدة في القرآن الكريم وبألفاظ عديدة، فورد بلفظ الخوف في مواضع عديدة في القرآن، كما في هذه الآية، وورد بمعنى الخشية في مواضع عديدة أيضاً، كما في قوله تعالى: **﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾** [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: **﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾** [النساء: ٧٧]، وورد أيضاً بمعنى الرهبة في مواضع كثيرة، كما في قوله تعالى: **﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾** [البقرة: ٤٠]، وقوله: **﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾** [الأنبياء: ٩٠].

وحيث أن الخوف عبادة قلبية، فإنه سرٌّ بين العبد وبين ربه، فلا يطلع على ما في قلب العبد من الخوف إلا الله.

والخوف يجب أن يكون من الله وحده، ولذلك أسباب:

* **فمن ذلك**: تذكر عظمة الله، فإن من تذكر عظمة الله خافه.

* **ومن ذلك**: تذكر عقوباته التي وقعت للأمم قبلنا، فمن تذكرها خاف من الله أن يعاقبه.

* **ومن ذلك أيضاً**: تذكر عذابه الأخروي، وما في الآخرة من العذاب بعد الموت إلىٰ دخول النار ونحوه، فإن من تذكر ذلك حصل له أيضاً خوف كبير.

وغير ذلك مما هو موسع في موضعه.

والخوف تارة يكون من الله أصلاً؛ أو ما له صلة به، فتارة يقال لك: خف الله، وتارة يقال لك: خف النار، وتارة يقال لك: خف العذاب، والأصل واحد، فالمسلم يخاف الله؛ لأنه يحصل منه العذاب لمن عصاه، ولأنه الذي يعذب بالنار من يستحق التعذيب، فالمرجع واحد، سواءً قيل: خف الله، أو خف عذاب الله، أو خف ناره، أو ما أشبه ذلك.

وقد اختلف هل على الإنسان أن يُغلِّب جانب الخوف أو يغلِّب الرجاء؟ أم على الإنسان في الدنيا أن يسوي بينهما؟

والصحيح: أنه يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء، ويكون الخوف والرجاء له كجناحي الطائر، متىٰ كان أحدهما ناقصاً اختل الطيران، فيكون الخوف والرجاء متساويين، وهذا قول كثير من العلماء.

ومنهم من يقول: بل علىٰ الإنسان في الصحة أن يُغلِّب جانب الخوف حتىٰ لا يحتقر النعمة ويزدريها، ويستكثر من الطاعة، فيقول: أنا ماذا قدمت! إنَّ عذاب الله شديد، وأعمالي قليلة، لا تساوي أصغر نعمة من نعم الله علي، فكيف مع ذلك آمن؟ وكيف مع ذلك أغترُّ بها وأفتخر؟ ينبغي أن أتشبه بفلان وفلان من الصالحين المجدّين، وما أشبه ذلك، فتنظر إلىٰ الذين هم أشد منك اجتهاداً، وأكثر منك عملاً، فتحتقر عملك عندهم، ويحملك ذلك علىٰ أن تخاف من تقصيرك، فهذا حال وقت الصحة.

أمـا عند المرض والخوف من الموت فإنه يُغلِّب جانب الرجاء، ويكون واثقاً متذكراً سعة رحمة الله، وسعة فضله، حتىٰ يقدم عليه وهو محسن الظن به، لما ورد في الحديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»[1]، فمن أجل ذلك يكون هذا التفريق.

وعلىٰ كل حال فالإنسان مأمور بأن يخاف الله ويرجوه، فالذين غلّبوا جانب الرجاء فتحوا لأنفسهم أبواب الشهوات، وتساهلوا في المنافسة في الطاعات، فانهمكوا في المعاصي ووقعوا في المحرمات التي يجر بعضها بعضاً، وتراهم واثقين، يقول أحدهم: أنا ليس عندي عمل إلا رحمة الله، فالله يرحمنا، إن الله غفور رحيم وهكذا.

نقول لهم: لا تتعلقوا بالرحمة، الرحمة واسعة، والله تعالىٰ يرحم عباده، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ولكن ائتوا بأسباب الرحمة.

وأسبابها هي الأعمال الصالحة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

فانظر كيف جعل هؤلاء هم الذين تكتب لهم الرحمة التي كتبها الله علىٰ نفسه في قوله تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وأما إذا كان الإنسان منهمكٌ في الذنوب، ومتوسعٌ فيها، ثم يقول: (اللهم ارحمني، أنا متعلق بهذه الرحمة)، وما أشبه ذلك؛ فإن هذا قد لا يستحقها؛ لأنه يعتبر متهاوناً بنظر الله، ومتهاوناً بعقوبته، ومتهاوناً بآثار معصيته.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رضي الله عنه.

والله تعالىٰ حين يذكر الرحمة في آية ما فإنه يتبعها بآية فيها عذاب، كما في قوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وكما جمعهما في آية واحدة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وكقوله تعالىٰ: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وأشباه ذلك كثير، فجمع بين الرحمة والعذاب في موضع واحد ليكون الإنسان خائفاً راجياً.

فلا يغلّب جانب الخوف، ولا يغلب جانب الرجاء، بل يكون خائفاً راجياً، فمن غلب جانب الخوف وصل به الأمر إلىٰ اليأس والقنوط، كما في الباب الذي بعده، ومن غلب جانب الرجاء وصل به إلىٰ الأمن من مكر الله الذي قال الله فيه: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والحاصل أن الخوف عبادة قلبية من أرفع العبادات التي أمر الله بها.

■ **قوله: [قوله الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** آل عمران: ١٧٥]]:

هذه الآية نزلت في قصة غزوة حمراء الأسد، فقد ذُكر أن النبي ﷺ لما رجع من أحد، وأقام في المدينة بعدما رجع المشركون إلىٰ مكة، بعد ذلك أمر أصحابه الذين رجعوا من أحد أن يخرجوا في أثر المشركين ليوقع الرعب في قلوبهم، فخرج معه من خرج علىٰ ما به من الجراح والمصائب حتىٰ بلغ حمراء الأسد، ثم ذُكر له أن المشركين فاتوهم فرجعوا، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ - أي: خافوهم - فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ

اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٥].

والمعنىٰ: أن الشيطان يخوفكم بأوليائه، فيعظمهم في نفوسكم، ويقول: إنهم أكثر منكم عدداً، وأقوىٰ منكم عدة، وأجرأ منكم وأشجع، يريد بذلك تخذيل المؤمنين. ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فالذي يخافهم ولا يخاف من الله لا يكون مؤمناً، بل يكون ناقص الإيمان، وكذلك الذي يخافهم ويخاف الله علىٰ حد سواء يكون قد أشرك، وقد جعل خوفه مشتركاً، بعضه لله وبعضه لغير الله، فيجب أن يكون الخوف من الله وحده.

والمراد هنا: خوف السر، لأن هناك خوفٌ طبيعيٌ فطري جُبِلَ الإنسان عليه لا يؤاخذ به، فإذا خاف سَبُعاً مثلاً تحصن منه، أو خاف من عدو له ضرر شديد، وعنده عدة وقوة، تحصن منه وتحرز، فمثل هذا خوف طبيعي لا يلامُ عليه.

إنما المراد خوف القلب السري الذي يكون خفيّاً، هذا الذي ينبغي ألا يكون إلا من الله تعالىٰ.

فعرفنا بهذا أن الخوف من أجلِّ العبادات، فعلىٰ الإنسان أن يكون عارفاً بأسبابه، حتىٰ يحصل له الخوف من الله، وعدم التساهل بحقوقه وبحرماته، وعدم الجرأة علىٰ محارمه.

والحاصل أن الشاهد من قوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أن الله اشترط في الإيمان الخوف من الله وحده، وَتَرْكِ الخوف من غيره، وأفاد أن الخوف عبادة، وأن خوفَ غير الله نقص في الإيمان ينافي كمال الإيمان، أو ينافي أصل الإيمان.

فإن كان الخوف خوفاً من المخلوق، فيخاف منه كما يخاف من الله، ويعتقد

فيه أنه يضر وينفع، ويعاقب وينتقم، فهو خوف يبطل التوحيد.

وإن كان الخوف خوفاً قلبيّاً، ولكن لم يصل إلىٰ تعظيم المخلوق واعتقاد انتقامه، فهو ينافي كمال التوحيد.

فمثلاً: إذا خاف من ميتٍ ما، واعتقد أنه إذا حلف به وحنث فإنه سينتقم منه، وسيعاقبه هذا الولي، لذلك خاف منه هذا الخوف، وقد عظمه ورفع قدره، وهذا واقع في كثير من المشركين، فإذا قيل لأحدهم: احلف بالله وهو كاذب حلف عشرات الأيمان، ولم يخف من الله أن ينتقم منه، أما إذا قيل له: احلف بالولي فلان لم يحلف إلا وهو صادق؛ لأنه يظن أنه إذا حلف به وهو كاذب أن ذلك الولي ينتقم منه ويعاقبه، فبهذا يكون قد خاف من غير الله أشد من خوفه من الله.

كذلك إذا اعتقد أن المخلوق إذا لم يتقرب إليه غضب وثار، فكثير من الناس يعتقدون في الأموات أو في الأولياء أنهم إذا لم يقربوا إليه، أو لم يذبحوا له، أو لم ينذروا له، أو لم يهريقوا دماً علىٰ قبره، سيغضب عليهم، أو يمرضهم، أو يصرف قلوبهم، أو يتلف مالهم، فتراهم يخافون من أولئك الأولياء، ويحملهم خوفهم علىٰ أن يرفعوهم ويعظموهم أشد التعظيم.

فمثل هذا ـ أيضاً ـ يعتبر قد خاف المخلوق أشد من خوف الله، فيكون منافياً لأصل التوحيد.

■ **قوله: [وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾** [التوبة: ١٨]]:

فكما نهىٰ الله تعالىٰ عن خوف الناس، وكذلك نهىٰ عن خشيتهم، والخوف والخشية بمعنىٰ واحد، وقد تقدم أن الخوف عبادة قلبية، وأن من أسماء الخوف: الخشية. والخشية هي: شدة الخوف، أي: الخوف الشديد.

والخشية من أجلّ العبادات التي يتعبد بها المؤمنون، بل إنما يتقرب بها العارفون بالله، الذين عرفوا الله، وعرفوا حدوده وحقوقه، وعلموا ما لهم وما عليهم، هؤلاء هم حقاً الذين يخشون الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: العلماء بالله، والعلماء بحقوقه وحدوده، وما يجب له.

وقد جعل الله الخشية أيضاً عبادة لا تصلح إلا له، لقوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فأفاد أن خشية الناس لا تجوز، وأن الخشية حقٌ لله لا تصلح لغيره.

فالآية فيها دليل على أن الخشية عبادة، وهي قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وعمارة المسجد تكون بالطاعة والعبادة والذكر ونحوه، هذه هي العمارة الحقيقية، وليست التشييد والرفع ونحوه مع تعطيلها من العبادة، إنما يعمرها من اتصف بهذه الصفات:

أولاً: الإيمان بالله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾.

ثانياً: الإيمان والتصديق باليوم الآخر، والاستعداد له: ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

ثالثاً: إقامة الصلاة: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾.

رابعاً: إيتاء الزكاة: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

خامساً: الخشية من الله وحده: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾.

وهذا هو الشاهد، أي: خشي الله وحده، ولم يخش غيره، فدل على أن خشية غير الله تُنقص الإيمان وتنقص حقيقة الأعمال.

وقد ذكرنا أن خشية الله إنما تحصل لأهل الإيمان، ولأهل المعرفة بالله، ودليله

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: لا يخشاه حقّاً إلا العلماء، أي: العارفون بالله، وما يجب له، والعارفون بعظمته وكبريائه وجلاله، والعارفون بحقوقه وحدوده، والعارفون بأسمائه وصفاته، والعارفون بوعده ووعيده، هؤلاء تحملهم المعرفة علىٰ أن يخشوه.

ومتىٰ خشوه فإن لهم الأجر الكبير الذي هو الجنة وما فيها، ولا يحصل ذلك إلا لهم، ودليله قوله تعالىٰ: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]، أي: هذا الجزاء كله ليس إلا لأهل الخشية.

■ **قوله: [وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾** [العنكبوت: ١٠]]:

هذه الآية تدل علىٰ أن هناك من يخاف من الناس كما يخاف من الله، فتحمله مخافة الناس علىٰ أن يترك حق الله، ويعصي الله، ويطيع غيره.

وهذه الآية نزلت في أناس آمنوا إيماناً ضعيفاً، فلما آذاهم المشركون بأنواع من الأذىٰ تركوا الإيمان، ورجعوا إلىٰ الكفر، ويخافون من الناس كما يخافون من الله، يجعلون فتنة الناس كعذاب الله، وربما أشد؛ حيث إنهم لم يتصوروا عذاب الله؛ ولأجل ذلك تهاونوا به، فقالوا: نطيع الناس علىٰ ما أمروا، ونسير معهم كيفما أرادوا، وهذا لا يجوز؛ بل هو مداهنة في حقوق الله، وتهاون فيها، وتهاون بعذابه.

فالواجب علىٰ المؤمن في مثل هذا أن يصبر علىٰ الأذىٰ في الله، والصبر علىٰ الأذىٰ في الله من خصال المؤمنين، وقد ذكر الله أن أهل الإيمان حقّاً لابد أن يبتلوا، وهذه الابتلاءات التي تصيبهم اختبار وامتحان ليظهر من يصبر ممن

يجزع، وليظهر من يكون خوفه من الله شديداً؛ ولا يخاف من الناس، أو خوفه من الناس أشد من خوفه من الله.

يقول الله تعالىٰ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ [آل عمران: ١٨٦]، أخبر تعالىٰ بأنكم إذا آمنتم فلا بد وأن تبتلوا بأي شي، إما بالفقر والفاقة والحاجة، وإما بالأذىٰ من الناس؛ والضرب والسجن؛ ونحو ذلك، وإما بالاستهزاء والتنقص لحالاتكم وما أشبه ذلك.

هذا الابتلاء وتسلط هؤلاء الأعداء ليظهر صادق الإيمان الذي يعرف أنه متىٰ صبر زاد أجره عند الله، وازداد حظه في الآخرة، ومتىٰ جزع ما زاده جزعه إلا بعداً عن الله ولو عمل ما عمل.

ولو أن الإنسان داهن الناس في حق الله، وأعطاهم ما أرادوا فرضوا عنه، وأعطوه مالاً، أو أخرجوه من السجن مثلاً، أو سلم من السخرية والاستهزاء؛ فإنه خاسر والحال هذه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ولما وصف الله أهل النجاة، وصفهم بالتواصي بالصبر في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، أي: أوصىٰ بعضهم بعضاً، وعلموا أنه من صدق في إيمانه وأعماله لابد أن يناله أذىً فلا يكون كمن ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، وفتنة الناس ابتلاؤهم وامتحانهم.

ومن الناس من لا يصبر، ويداهن الناس ليسلم من الأذىٰ، ومنهم من لا يزيده استهزاء الناس إلا صلابة وقوة في الحق، ومضياً وثباتاً، كما في هذه الآية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فمن فتنة الناس هذه الأمور الثلاثة؛ أي: حرمان الإنسان من المصالح الدنيوية مثلاً إذا أسلم، فعلىٰ سبيل المثال كثير من العمال يسلمون وهم نصارىٰ أصلاً، فإذا أسلم العامل من هؤلاء حرمه من العمل زملاؤه وشركاؤه، أو طردوه، فهذا من الابتلاء.

أو إذا كان لهم استطاعة - مثلاً - أو لهم عليه ولاية، ولهم عليه سيطرة ضرّوه، أو استهزءوا به، وانتقصوا من حال ديانته، أو من صلاته وركوعه وسجوده.

والتنقص بحاله ولباسه وهيئته من الابتلاء، فبعض الناس لا يصبر، فيقول: لا أستطيع أن أترك نفسي للناس يستهزءون بي، فيمشي مع الناس، ويعطيهم ما طلبوا، وهذا داخل في هذه الآية: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

ومن الناس من يكون إيمانه قوياً، فلا يزيده ذلك إلا صلابة، ولا يضره هذا الأمر منهم.

والله تعالىٰ قد يبتلي العبد ليقوي إيمانه، أو ليظهر للناس ضعف إيمانه، فبعض الناس إذا كانوا في رخاء وسعة لم يتبين لنا من هو صادق الإيمان ممن هو كاذب، ومن هو مؤمن ممن هو منافق.

ولكن إذا جاءت المحن والفتن والابتلاءات من الله تبين لنا ذلك، والله عالم بالقلوب، وعالم بضعيف الإيمان وقوي الإيمان، لكن ليتبين لنا نحن حتىٰ نوالي الصادق، ونعادي الكاذب.

والدليل علىٰ ذلك قصة الأحزاب، فقبل وقعة الأحزاب التي تحزبت علىٰ

أهل المدينة كان المنافقون مختفون بين المؤمنين، وبعض الناس يعدونهم من المؤمنين، ويعتقدون أنهم إخوانهم، وأنهم معهم يجاهدون ويقاتلون، ولكن بعد أن وقعت تلك الواقعة تبين الصادق من المنافق، قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

لكنهم ثبتوا، كما أخبر تعالى عنهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أما المنافقون فإنهم ذُعِروا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣].

فالابتلاء من الله يكون تارة بتسليط الأعداء، وتارة يكون بتسليط الأمراض والعاهات البدنية؛ وتارة يكون الابتلاء من الله بالفقر وقلة ذات اليد والإعواز، ليظهر من يصبر ممن يجزع، وكل ذلك ابتلاء من الله، فمن صبر نال الأجر، ومن جزع وارتد خسر.

ومن الأدلة على ذلك - أيضاً - من القرآن، قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

فمن يعبد الله على حرف، إن أصابه خير اطمأن به، فمتى كان في صحة ورفاهية ونعمة وثروة، ومال وولد، اطمأن ولم يعلم به الناس.

وإن أصابه ضر ومرض وفتنة انقلبت على وجهه، وأخذ يسب الدين، ويقول: منذ دخلت في الإسلام، وأنا مصاب بكذا وكذا، هذا دين لا خير فيه، أصابني فيه الفقر، وأصابتني فيه العاهة، وأصابتني فيه الشدة، منذ فارقت ديني الأول، وأنا مبتلى بكذا وكذا، ما حصلت على كذا؛ لا على رفاهية، ولا على خير ونحو ذلك.

فيتبين للناس أنه يعبد الله على حرف؛ ولم يكن مطمئن القلب بالإيمان، فهذا ونحوه داخل في هذه الآية: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**﴾ [العنكبوت: ١٠]، فليس هذا مؤمناً حقاً، فالمؤمن هو الذي لا يخاف إلا من الله، ولا يراقب إلا الله؛ ويجعل فتنة الناس ابتلاءً من الله فيصبر، ويزيده ثباتاً في أمره.

وقد استثني من ذلك المكره على كلمة الكفر مع اطمئنان قلبه بالإيمان، فإن مثل هذا يجوز فعله، لقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾ [النحل: ١٠٦]، فإذا أوذي المسلم، وحبس، واضطهد، وظن أن في إعطائه للكفار ما يطلبونه سبباً في تخليصه، مع أن قلبه مطمئن بالإيمان، جاز أن يعطيهم طُلبتهم.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في عمّار لما أكرهه المشركون على سب الرسول ﷺ حتى يخلصوه، فقال ما يكره أو ما يحبون، فقال النبي ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**»، قال: مطمئناً بالإيمان، قال: «**إن عادوا فعد**»، أو كما قال[1].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره، ونقله عنه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٨٧)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١١٤، ١٣٢)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٠٨) رقم (١٦٦٧٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٩) رقم (٣٣٦٢)، عن محمد بن عمار بن ياسر وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

■ **قوله: [عن أبي سعيد مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»[(١)]:**

هذا حديث عظيم، يدل على أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم، والحكم الجامعة المانعة.

واليقين هو: الإيمان القلبي، وضده الشرك.

والموقن هو: الذي أيقن بالآخرة، وبما فيها، وأيقن بالله وبوعد الله، وبأمره ونهيه، أي: تيقن ذلك وصدق به، وليس يتطرق إلى قلبه شك ولا ريب.

وهذا اليقين قد يضعف، وقد يتلاشى ويضمحل، حتى لا يبقى منه شيء، ومن أسباب ضعفه **هذه الخصال الثلاث**:

الخصلة الأولى: أن ترضي الناس بسخط الله:

وهذا عام في كل شيء يسخط الله، فالله تعالى حرم عليك المعصية، فلا ترض الناس بمعصية الله، ولو رضي عنك الناس في زمن أو فترة من الفترات، فإن رضى الناس لا يقابل أدنى شيء من سخط الله؛ لأنهم يرضون فترة ثم يسخطون.

لكن متى علم المرء أن القصد الأصلي هو رضى الله؛ فقصد رضاه، واستقام

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٦)، (١٠/ ٤١)، والبيهقي في الشعب (١/ ١٥١، ١٥٢) رقم (٢٠٣). وضعفه الألباني في ضعف الجامع برقم (٢٠٠٧).

قال الشيخ ابن جبرين: ولكن يشهد لمعناه الحديث الذي بعده الذي أورده المصنف.

وقال الشيخ سليمان بن محمد في فتح المجيد (٢/ ٥٨٠): والحديث وإن كان في إسناده من ذكر، فمعناه صحيح.

على أمره، وعصى من دعاه إلى معصيته، ولم يخش إلا الله، فليعلم أن الناس سيعرفون قصده ونيته، وسيحبونه، ويعذرونه.

أما إذا أطاعهم، واتبع أهواءهم، وكان ذلك في سخط الله، فإنه والحال هذه قد أسخط الله أشد السخط، ولا ينفعه رضى الناس، وهذا واقع مع الأسف.

إن كثيراً من الناس لا يهتمون برضى الله، فإذا رضي عنه الناس قدم ذلك، مع علمه بأن رضى الناس أمر مؤقت، فقد يرضون في وقت ثم يسخطون بعد قليل إذا خالف مطلبهم، ومع علمه بأن رضى الناس لا يفيده، ولو رضوا عنه لما حصلت له مقاصده، ولا حصلت له المصالح المحبوبة.

نرى بعض الناس يتركون كثيراً من العبادات إرضاءً لزملائهم وخلطائهم ورؤسائهم، ومن أشبههم، أو يتعاطى معصية الله، إذا ـ مثلاً ـ رأوه قد رفع ثيابه إلى نصف الساق، أو إلى فوق الكعب، عابوه بذلك، فهو يرضيهم ويسبل ثيابه.

أو إذا رأوه قد وفر لحيته، عابوه، فهو يرضيهم فيحلق لحيته إرضاءً للناس.

أو إذا رأوه يحافظ على الصلوات، عابوه، ولقبوه بألقاب شنيعة، فهو يرضيهم، ويترك الصلاة، أو يترك الجماعة.

أو إذا رأوه يتنزه عن شرب الخمر، أو شرب الدخان أو نحو ذلك، عابوه، وسموه بخيلاً، أو متزمتاً أو متعصباً، أو ما أشبه ذلك، فهو يرضيهم ويوافقهم ويشرب كما يشربون.

أو إذا رأوه يبعد نفسه عن الملهيات، وعن الصور المحرمة، والأفلام الخليعة، والإصغاء إلى الأغاني ونحوها، عابوه وتنقصوه، فهو يقول: لا أصبر على عيبهم، بل أفعل كما يفعلون، فأعكف على ما يعكفون عليه من الملاهي،

وأجلس في مجالسهم، فهو يرضيهم بذلك، حتىٰ يندمج ويكون معهم، فهو بذلك قد أرضىٰ الناس بسخط الله.

وهكذا يقاس علىٰ ما تقدم؛ كل الأمور التي فيها معصية الله، وهكذا ـ أيضاً ـ في فعل الطاعات ونحوها.

فالحاصل أن الذي يفعل المعصية التي فيها سخط الله من أجل أن يماشي الناس، ويرضيهم، فهذا ضعيف اليقين.

الخصلة الثانية: وأن تحمدهم على رزق الله:

اعلم أن ما يسر الله لك من الرزق، وما أوصل إليك من سبب فهو من الله، فلا تحمد الناس علىٰ ذلك، ولا تقل: هؤلاء هم الذين رزقوني، أو هم الذين أعطوني، أو هم الذين رفعوني، أو هم الذين مكنوني، لا تحمدهم علىٰ ذلك، بل احمد الله.

لا تحمد الناس علىٰ الشيء الذي هو من الله أصلاً، ولكن قل: الله تعالىٰ هو الذي سخر قلوبهم، وهو الذي يسر هذا الرزق بواسطتهم، وإن كان عليك أن تعترف بفضل من شفع لك، أو نفعك، ولكن اعلم أن الأصل من الله؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»[1]، أي: من لا يشكر ذا الفضل وذا النعمة والمنة والشفاعة والمنفعة لم يشكر الله.

لكن لا تجعلهم هم الأصل والسبب الأكيد، بل اعتقد أن الله تعالىٰ هو الذي

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨١١)، والترمذي برقم (١٩٥٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد في المسند (٣/ ٧٤)، والترمذي برقم (١٩٥٥)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
وقال الترمذي عن حديث أبي هريرة وأبي سعيد: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤٧٧).

يسرّ لك هذا الرزق، وقل: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فمن حمد الناس على رزق الله، وأخذ يمدحهم ويقول: هم الذين أعطوني، وهم الذين فعلوا، وهم الذين نفعوا، فإن ذلك من ضعف اليقين.

الخصلة الثالثة: وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله:

إذا لم يتيسر لك الرزق فلا تذم الناس، أي: إذا لم يتيسر للمرء مصلحة من المصالح الدنيوية أرادها، فلا يذم الناس على ما لم يؤته الله، فمثلاً إذا طلب شراء سلعة، فحال بينه وبينها فلان، أو طلب وظيفة، فحال بينه وبينها شخص، أو طلب أرضاً أو حرثاً، أو نحو ذلك، ولم يتيسر له ذلك؛ لأن فلاناً منعه منها، أو نحو ذلك؛ فليعلم أن الله لم يقدر له ذلك، ولو قدره لوصل إليه.

فلا يذمهم على الرزق الذي ما أوصله الله إليه، ولا يسلط أذاه عليهم ولسانه، فيقول: فلان هو الذي حرمني هذا العمل، فلان هو الذي حرمني هذا الرزق، فلان هو الذي أخذ رزقي، فلان هو الذي حال بيني وبين هذه المصلحة، ونحو ذلك؛ بل يرضى بما قدر الله، ويعلم أن رزقه لابد أن يصل إليه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»، وفي رواية: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (١/ ٢٩٣، ٣٠٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٤)، وأبو يعلى في المسند (٤/ ٤٣٠) رقم (٢٥٥٦)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣، ٢٢٣) رقم (١١٢٤٣، ١١٥٦٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال أحمد شاكر (٢٦٦٩): إسناده صحيح.

فإذاً الاشتغال بسب الناس وعيبهم، بأنهم هم الذين حالوا بين الإنسان وبين هذا الرزق، هذا من ضعف اليقين، بل ينبغي أن يقول المرء: لو قدر الله هذا الرزق لكان، ولو كتبه لي لحصل.

وتمام الحديث يدل على هذا، وهو قوله ﷺ: «**إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره**»، أي: متى قدّر الله تعالى لك رزقاً حلالاً جَعَلَ له أسباباً ووسائل حتى يصل إليك ما كتبه لك، فقد أخبر النبي ﷺ: أن الملك ينفخ الروح في الجنين وهو في الرحم، ثم يكتب بأمر الله تعالى: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد[1]، فإذا قدر الله تعالى للعبد شيئاً من الرزق فلا يجره حرص حريص؛ سواء صاحبه أو غيره.

فقد يبذل المرء أسباباً وحيلاً وأعمالاً، ويحترف حرفاً ويتوسل بغيره في الحصول على نفع أو مال، ومع ذلك يخفق في سعيه؛ حيث أن الله تعالى لم يقدره له، رغم حرصه وشدة طلبه وبذله في ذلك الجهد الجهيد غير المفيد.

وهكذا قد يصل إلى الإنسان رزق حلال وهو لم يسع في تحصيله ولو حسده الحاسدون، وكرهوا أن يصل إليه خير أو نفع فلا يقدرون على رد ما قسمه الله تعالى، وقد قيل:

لقد علمت وما الإشراف من خلقي ... إن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إليه فيُعْيِيني تَطَلُّبُهُ ... ولو قعدت أتاني لا يُعَنِّينِي

---

(١) وذلك في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد...**» إلخ. أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٣).

ومع ذلك فالإنسان مأمور ببذل العمل وفعل الأسباب التي قدر الله بها الحصول على الرزق، مع العلم أن الله تعالى هو مسبب الأسباب، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، وقال النبي ﷺ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً**»[١]. فأخبر بأن الطير تفعل الأسباب، فهي تذهب وتجيء وتلتمس الرزق، فكذا الإنسان يفعل الأسباب مع توكله على الله تعالى في إنجاحها.

■ **قوله: [وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[٢]، رواه ابن حبان في صحيحه]:**

هكذا رواه بسنده كما في الإحسان (١/ ٥١٠) برقم (٢٧٦)، ورواه الترمذي كما في التحفة (٧/ ٩٧) في آخر الزهد عن عائشة، ولفظه: سمعت رسول الله

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٤٤)، وابن ماجة برقم (٤١٦٤)، وأحمد (١، ٣٠، ٥٢)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح؛ لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو تميم الجيشاني اسمه عبدالله بن مالك. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣١٠): صحيح على شرط مسلم، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (٢٠٥): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤١٤)، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان برقم (٢٧٦، ٢٧٧)، وابن المبارك في الزهد (١٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١١٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٤٣٦، ٥٧٣)، والبيهقي في الزهد رقم (٨٨٥). والمنذري في الترغيب (٣/ ٢٠٠)، والهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٥).
قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد جيد قوي، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٩٧٣)، وفي صحيح الترمذي (٢/ ٢٨٨)، وحسن إسناده الأرناؤوط في شرح السنة (١٤/ ٤١١)، وفي تحقيق صحيح ابن حبان برقم (٢٧٦).

ﷺ يقول: **«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس»**، ثم رواه من طريق أخرىٰ موقوفاً.

وقد أفاد هذا الحديث أن الواجب علىٰ المسلم أن يقدم رضا ربه، ويقصده بفعل ما وجب عليه، وأداء حقوق الله تعالىٰ، وترك المحرمات، والجهر بالحق، وإظهار شعائر الدين، وأن يقصد رضا الله تعالىٰ، ولو سخط عليه الناس في أول الأمر، ولو كرهوا ما جاء به، أو عابوه وغمزوه وتنقصوه؛ فإن رضا الله تعالىٰ في طاعته، فمن اهتم بأوامر الله وأعلن الحق وجهر به؛ فإن الله تعالىٰ يرضىٰ عنه، ويرضىٰ عنه الناس.

ولكن لا يلزم رضا الجميع، فإن من علم قصده ونيته وأنه لا غرض له يخصه وإنما تكلم بالحق وصدع به من غير أن يكون له هدف في نفسه كانت النهاية أن يرضوا عنه ويعذروه، ويمدحه أهل الإنصاف والعقل، ولا يضره من ذمه، أو غمزه، أو عابه بما هو بريئ منه.

أما من التمس رضا الناس، وتنزل علىٰ رغبتهم، وفعل ما يريدونه، وأفتاهم بما يهوون، فأحل لهم الحرام، أو تغاضىٰ عن أفعالهم، والتمس لهم الأعذار ليبرر مواقفهم، ويبيح لهم ما يفعلونه، أو يتعاطونه من كلمات أو جنايات أو معاملات يزعمون شدة الحاجة إليها، فإنهم قد يرضون عنه ظاهراً، ولكن الجماهير يلومونه ويسخطون فعله مع سخط الله عليه وغضبه؛ حيث أنه قدم رضا المخلوق علىٰ رضا الخالق، وصار كالعبد والعابد الذليل لغير ربه، وخاف من المخلوقين أن يسخطوا عليه، ويقطعوا صلته، أو يحتقروه ويذلوه، فقدم الخوف من غير الله علىٰ الخوف من الله تعالىٰ، فكان جزاؤه أن يسخط الله عليه، وأن

يكله الله إلى الناس، ولن يغنوا عنه من الله شيئاً.

فعرف أن الواجب على المسلم وبالأخص حامل العلم الشرعي أن يصدع بالحق ويظهر أمر الله، ويعلن الإنكار على من خالف الحق، أو ركب الحرام، أو تعامل بما حرمه الله فلا يبالي بسخط أحد متى حصل له رضا ربه تبارك وتعالى.

■ ■ ■ ■ ■

[٣٢]

باب:
قول الله تعالى:
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢].

وعن ابن عباس، قال: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، رواه البخاري.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض.

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول الله تعالى:
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

هذا الباب في التوكل، وبيان أن التوكل عبادة، فإذا كان عبادة فلا تصلح إلا لله، وصرفها لغير الله شرك.

والتوكل عبادة قلبية، أي: من عبادات القلوب، ولكن تظهر آثارها في الأعمال على الجوارح.

وتعريف التوكل: أنه التفويض والاعتماد.

أي: تفويض الأمور إلى الله، والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيباً ووكيلاً، هذا هو حقيقة التوكل.

فمعناه: أن العبد يكل أموره إلى الله، كما حكى الله عن يعقوب أنه قال: **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [يوسف: ٦٧]، وعن مؤمن آل فرعون: **﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾** [غافر: ٤٤].

وتفويض الأمر إلى الله، أي: أن ترضى بتقديره وتصريفه للأمور، فالعبد يرضى بما قضاه الله وبما قدره، فكأنه وكل الأمر إلى الله، ووكل أموره وتصرفه إلى الله، ومنه سمي الوكيل، والوكيل: هو الذي ينوب عن غيره في أمر من الأمور، لأنه وكله بهذا الأمر.

تقول: وكلت فلاناً بأن يشتري لي أو يبيع لي، وفوضته في هذا الأمر، إن رأى فيه مصلحة تصرف وإلا فلا، فكذلك العبد مع ربه، كأنه فوض إليه

التصرف في نفسه فيرضىٰ بما قدره وقضاه له، ولكن مع ذلك كله فالعبد مأمور بمباشرة الأسباب سواءً أسباباً دينية، أو أسباباً دنيوية، لأن مباشرتها لا ينافي التوكل، وفعل الأسباب لا ينافي كون العبد متوكلاً علىٰ الله.

ويظهر ذلك في اعتماده علىٰ الله في أن يُنجح الأسباب التي عملها، فمثلاً الزارع إذا زرع، وإذا ألقىٰ بذره في الأرض، فمعلوم أنه يحرث الأرض، ثم يلقي بها البذر، ثم يدفنه، ثم يسقيه، ثم يعود فيسقيه مرة ومرة إلىٰ أن يثمر، ثم بعد ذلك يحصده، ثم يذروه، ثم يعمل العمل الذي يمكن الانتفاع به بعد ذلك، لكنه واثق بأن إنباته من الله، يقول: أنا أفعل هذا السبب والله هو الذي يكمل ويتمم الأسباب.

فلو شاء الله ما أنبتت الأرض، ولو شاء الله ما وجد الماء الذي أسقي به، ولو شاء الله ما تحركت الأدوات والآلات التي أسقي بها، ولو شاء الله ما أثمر بعدما ينبت، ولكني معتمد علىٰ الله في أنه الذي ينبته، وأنه الذي يثمره، وأنه الذي ينميه إلىٰ أن يتم، معتمداً في ذلك علىٰ الله، وهذا من التوكل في مثل هذه الحال. هذا بالنسبة إلىٰ الأعمال الدنيوية.

وهكذا ـ أيضاً ـ الأعمال الدينية، فإن الإنسان يعمل الأعمال، ويتوكل علىٰ الله في أن يرزقه تمامها، فهو ـ مثلاً ـ يتطهر ويستقبل الصلاة، وكذلك في التجهد، أو في القراءة يعتمد علىٰ الله في نيته علىٰ إكمالها، وأن يتقبلها منه.

فيفعل سبباً والله تعالىٰ هو الذي يثيبه إذا علم من قبله أنه توكل عليه، وأنه صادق التوكل لكي يعينه علىٰ إتمام ذلك العمل، ثم إذا كان عمله خالصاً من قلبه تقبله منه، فيعينه مثلاً علىٰ إتمام الصيام أو يقويه عليه، ويعينه علىٰ إتمام الحج أو العمرة، ويعينه علىٰ إتمام ما تصدىٰ له من الجهاد مثلاً أو من الصدقات التي يريد

أن يتبرع بها لينتشر الخير مثلاً، ويعينه على إتمام ما تصدىٰ له من قراءة، ومن تأليف، أو من نفع عام للمسلمين، أو ما أشبه ذلك.

فإذا اعتمد على الله؛ لأنه الذي يسدد خطاه، وهو الذي يعينه كان ذلك هو معنى التوكل.

وهكذا من معاني التوكل؛ التصرف في البدن، فالإنسان مأمور أن يعالج نفسه إذا ألم به مرض، ولكن توكله على الله في هذا الباب معناه: أنه يرضىٰ بما قدر الله، ويعتمد على الله في أنه إن شاء جعل هذا العلاج نافعاً مؤثراً، وإن شاء لم يجعله كذلك.

والإنسان يعرف أن نفسه ملك لله، وأن الله هو الذي سلط عليه هذا المرض أو هذا الألم، ولكنه تعالىٰ أمره بأن يتعاطىٰ علاجاً، فهو يتعاطىٰ هذا العلاج، ولكن هل هذا العلاج مفيد ومؤثر أو غير مفيد ومؤثر؟ هذا من الله، ولكن يقول: أستعمل هذه الأدوية أو العقاقير أو الأشربة أو نحو ذلك معتمداً على الله في أن يجعلها مفيدة، فإن شاء جلب في سببها نفعاً وصحة، وإن شاء فلا.

فالحاصل أن التوكل يكون في القلب، ولا ينافي فعل الأسباب، وقد عرفنا أن الأسباب تنحصر أو تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: سبب يتعلق بالمال، وسبب يتعلق بالبدن، وسبب يتعلق بالدين، والكل مأمور أن يفعله العبد.

هذه الأسباب التي هي أفعال مأمور بأن يفعلها، ومعنىٰ توكله فيها اعتماده على الله في أن يجعلها مؤثرة.

كذلك بالنسبة إلىٰ التروك؛ فالعبد منهي عن أسباب الردىٰ لما فيها من التعرض للهلاك، لكن قد يقوىٰ توكل العبد وقلبه فيقبل عليها، ويعينه الله ويجعل ما فيها من الهلاك له نجاة، كما وقع ذلك لكثير من المتوكلين، ولكن

العبد من حيث العموم منهي عن أن يتعرض لما فيه ضرر على نفسه، أو ضرر على بني جنسه.

قلنا: إن حقيقة التوكل هي: تفويض الأمور إلى الله، والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيباً ووكيلاً، وهذا يعني: أن صرفه لغير الله شرك، ومعنى صرفه لغير الله: أن يتوكل على مخلوق.

فمثلاً الذين يفوضون أمورهم إلى الأموات، وإلى الغائبين، أو إلى الأضرحة، أو أولياء الأضرحة، ويسمونهم ـ مثلاً ـ أولياء أو سادة، أو شهداء، أو نحو ذلك، ثم يعتمدون بقلوبهم عليهم، ويقول أحدهم: تصرف لي يا ولي الله، اختر لي كذا وكذا، أنا بجوارك، اصرف عني كذا، اصرف كيد الكائد فلان، قد اعتمدت عليك، فلا يقول: اعتمدت على الله، وإنما اعتمد عليك؛ وقد فوضت أمري إليك، وهذا معناه: أنه قد توكل على غير الله.

ومثل هذا لاشك أنه شرك، ولا يدخل في ذلك وكالة الإنسان للإنسان فيما يقدر عليه؛ لأنها وكالة حسب القدرة، فيوكل المرء إنساناً يقدر أن يباشر هذا العمل الذي هو يريد توكيله فيه، فمثلاً يفوضه ويقول له: قد أنبتك، أو أنت بالنيابة عني بأن تشتري لي كذا، أو أن تبيع لي كذا، أو أن تطلب حقي من فلان، أو نحو ذلك، وهذا في وسعه وفي إمكانه، فهذه الوكالة مباحة ومعمول بها.

ولذا فإننا نجد في كتب فقهاء جميع المذاهب باباً اسمه (باب الوكالة)، ويعرِّفونها بأنها: استنابة جائز التصرف غيره فيما تدخله النيابة.

فالأمور الدنيوية عادة تدخلها النيابة، وأما الأمور الدينية فلا تدخلها إلا في بعض منها، فالعبادات لا تدخلها النيابة، فلا يصح أن تقول: وكلتك تصلي عني، ولا وكلتك تصوم عني، أو تحج عني، وأنت قادر، أما العاجز فيجوز أن

يُحج عنه لمانع، بجزء من ماله، وهكذا العبادات القولية كالأذكار، والقرآن، والأدعية، لا تدخلها الوكالة.

فالوكالة خاصة في الأمور الدنيوية، والدينية لما يعجز الإنسان عن توليه كالحج، والعبادات التي تتعلق بالمال كذبح الأضاحي، والهدي، والعقيقة ونحوها، فهذه عبادة مالية، وإن كان لها تعلق بالدين، فتدخلها النيابة، فتقول: وكلتك تذبح الأضحية، أو الهدي، أو نحو ذلك.

ولا تدخل النيابة في الأمور المختصة بالإنسان فيما بينه وبين من يختص به، وتدخل فيما سوىٰ ذلك، فتدخل في النكاح، وتدخل في الطلاق، فيجوز للمرء أن يوكل من يعقد له النكاح، أو يوكل من يعقد لابنته النكاح، ويجوز له أن يوكل من يطلق زوجته، أو من يراجعها أو ما أشبه ذلك، وكذلك يجوز أن يوكل من يقيم الحد، أو من يثبت الحدود ويتولاها، أو ما أشبهه.

فهذه الوكالة في أمور يستطيع الموكِّل أو الوكيل أن يتولاها، ولا يكون الاستناد فيها أو التوكيل فيها قادحاً في العقيدة، فلا يكون متوكلاً علىٰ مخلوق، لأن فعله لها كفعل صاحبها لها، كما أن فعل صاحبها لها لا ينافي التوكل، فكذلك فعل الوكيل لا ينافي التوكل؛ بل إنه من تمام التوكل.

وقد استحب كثير من العلماء ترك بعض العلاجات توكلاً علىٰ الله، كما في قوله ﷺ في تفسير السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ـ كما تقدم ـ: «**هم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»[1].

فذكر النبي ﷺ أنهم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلىٰ ربهم يتوكلون، كأنهم الذين يتورعون عن ترك الأشياء المحسوسة، يعني: حتىٰ

---

(١) سبق تخريجه في الباب الثاني (باب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب).

الأسباب المحسوسة يتركونها توكلاً على الله، فالعلاج مثلاً قد يكون مفيداً، ولكن تقوى قلوبهم على ترك العلاج إذا مرضوا، فلا يكتوون، ولو كان فيه الشفاء، ولا يطلبون من يرقيهم توكلاً على الله، ولو كان ذلك مفيداً.

أما الآيات التي في الباب:

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [المائدة: ٢٣]]:

هذه الآية نزلت في قصة بني إسرائيل لما حاصروا بيت المقدس زمن التيه، قال لهم موسى: ادخلوا البيت المقدَّس فإن الله كتب لكم النصر، فهابوا أن يدخلوه، فقالوا: **﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [المائدة: ٢٢، ٢٣].

ففي هذه الآية وجوب التوكل على الله وحده؛ حيث جعله شرطاً للإيمان، وعلامة ظاهرة عليه، أي: فمن لم يتوكل على الله أو توكل على غيره فليس بمؤمن، أو هو ناقص الإيمان، وذلك أن التوكل عبادة قلبية يظهر أثرها على الجوارح، بحيث لا يلتفت إلا إلى الله تعالى، ولا يعبد سواه، فيفوض إليه أمره، ويرضى بتصرفه، كما قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: **﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾** [غافر: ٤٤]، ويعتمد بقلبه على ربه، ويرضى بالله حسيباً ووكيلاً، فهذا هو حقيقة التوكل الذي يتصف به المؤمنون.

■ **قوله: [وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الآية** [الأنفال: ٢]]:

في هذه الآية وصف الله تعالى المؤمنين حقاً بخمس صفات:

الأولى: **وَجَلِ القلوب إذا ذُكِرَ الله تعالى**، أي: الخوف والإرجاف من شدة

الهيبة، واستحضار العظمة.

الثانية: زيادة الإيمان إذا تليت عليهم الآيات القرآنية، أو ذكرت لهم الآيات الكونية، فيقوىٰ الإيمان ويتضاعف بكثرة الأعمال الصالحة التي تحصل بعد سماع الآيات، ويقوىٰ ما في القلب من التصديق والتمكين فيه.

الثالثة: التوكل على الله تعالى، والاعتماد بالقلب عليه وحده، والصدود عن غيره.

الرابعة: إقام الصلاة، أي: المحافظة عليها وإكمالها كما فرضت علىٰ العباد.

الخامسة: الإنفاق مما رزقهم الله في وجوه البر، وفي أهل الصدقة.

والشاهد من الآية صدقهم في التوكل علىٰ الله وحده دون غيره.

■ **قوله**: [وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ٦٤]]:

أي: أن الله تعالىٰ كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين متىٰ توكلوا عليه، وعلقوا رجاءهم به سبحانه، ووثقوا بكفايته ونصره وتأييده، فهو ينصرهم ويقويهم، ويعينهم ويظهرهم علىٰ من عاداهم، وشرط ذلك صدق التوكل عليه، والثقة بكفايته وتوفيقه.

■ **قوله**: [وقوله: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣]]:

هذه آية سورة الطلاق، وهي قول الله تعالىٰ: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٢-٣].

الحسب: الكافي، والتوكل تقدم أنه: التفويض والاعتماد، وفيه دليل علىٰ أن صدق التوكل علىٰ الله سبب في الكفاية.

ومعنىٰ: ﴿**فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾، أي: كافية ونافعة، فيكفيه أموره، ويكفيه ما يهمه، وما يريد أو ما يهتم له من أمور حياته، ومن أمور معاشه أو معاده، وإذا كفاه الله توفرت له الخيرات، وسهلت عليه، وهانت عليه الصعوبات التي يلاقيها، فلم

يلق أية صعوبة، وتكون عليه تلك الصعوبات سهلة، ويلْتذ بالجد والنشاط كما يلْتذ غيره بالنعم والراحات.

■ **قوله: [وعن ابن عباس، قال: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾، قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، رواه البخاري(١)]:**

نزلت هذه الآية في غزوة حمراء الأسد لما رجع المسلمون إلى المدينة بعد غزوة أحد، وبهم جراح، وقد تأثروا بمن أصيب منهم وبمن قتل منهم ومن جرح، وانصرف المشركون فرحين بما حصل لهم من القتل للمسلمين، وانصرفوا إلى بلادهم وتوجهوا إليها، فأذن مؤذن بالمدينة أن الحقوا بأولئك المشركين وأدركوهم واغزوا في آثارهم، ولا يخرج معنا إلا من حضر معركة أحد.

فعند ذلك استجاب له المسلمون وخرجوا، واجتمعوا على ما بهم من آثار الجراح، وعلى ما بهم من آثار المصائب، وتوجهوا نحو العدو، وبلغوا حمراء الأسد، وفي أثناء سير المشركين تلاوموا، وقالوا: لم نَقْضِ عليهم كلهم لنستريح منهم؟ ولماذا عندما انتصرنا لم نحاصرهم حتى نقضي عليهم ونستريح منهم؟

فعزموا على أن يرجعوا إلى المدينة ليقاتلوا بقية المسلمين، فعند ذلك لما عزموا مر بهم رجل يقال له: معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكان قد رأى النبي ﷺ هو وصحابته خرجوا متوجهين فخذلهم، وقال للمشركين: إن محمداً وأصحابه قد ساروا في آثاركم، وقد خرج معهم من قد تخلف، وقال: إنهم قد قربوا وساروا ولم يبق إلا قليل، ما أظنكم ترحلون حتى تروا نواصي الخيل، فأفزعهم ما ذكر أن الرسول وصحابته قد ساروا نحوهم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٥٦٣، ٤٥٦٤)، والنسائي في الكبرى كما في التحفة (٥/ ٢٣٨).

فعند ذلك تخاذلوا ورجعوا، فرجع المشركون وألقى الله في قلوبهم الرعب، أما المسلمون فإنهم ساروا في آثار المشركين، ومر بالمشركين بعض من الركبان، وقالوا له: قل لمحمد وأصحابه، إنا قد رجعنا لنستأصل بقيتهم، فجاء ذلك الراكب، وبلغهم مقالة أبي سفيان ومن معه، وقال لهم: إن أبا سفيان وأصحابه قد أجمعوا أمرهم ليأتوكم ويستأصلوكم، فازداد الصحابة ثباتاً وإيماناً، وقوة يقين، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، ولما ساروا وعلموا أن المشركين قد رجعوا، وأنهم لن يعودوا إليهم، رجعوا وانقلبوا كما ذكر الله: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٤، ١٧٥].

فالصحابة ظلوا في سيرهم ولم ينخذلوا بقول من قال: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، أي: خافوهم؛ بل ازدادوا علماً ويقيناً وثباتاً، وقالوا: الله حسبنا وكافينا، فدل ذلك على أنه من أسباب قوتهم: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾.

فالحاصل أن توكل الصحابة لم يناف خروجهم لمقاتلة الأعداء، ولم يناف أخذهم عدتهم وخيولهم، ولم يناف محاولة ذل المشركين، كل هذه الأفعال والأسباب لم تنافِ كونهم متوكلون على الله.

لأن معنى توكلهم على الله: ثقتهم بالنصر، كأنهم قالوا: نحن نغزو ونسير في آثارهم، ونحاول أن نقتلهم، ونعتمد على الله، ونتوكل عليه بأن ينزل علينا النصر، وأن ينزل عليهم الرعب وأن يقوينا عليهم، فبذلك نكون من المتوكلين.

هذه هي حقيقة التوكل، الثقة بالله، والثقة بوعده، وكذلك بنصره والاعتماد بالقلب عليه، هكذا فعل الصحابة، وفعلها أيضاً قبلهم، أو قالها قبلهم

إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ عندما ألقي في النار، فإنه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وذكر الله أن قومه حاولوا تحريقه، ولكن الله نجاه لما حكى عنه أنه كسر أصنامهم، قال تعالى: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ـ٦٨].

فجمعوا حطباً كثيراً، وأججوا فيه ناراً ليلقوه فيها، ثم إنهم لم يقدروا على أن يقربوا من النار من حرها ومن شدة لهبها، فجعلوه في المنجنيق، وقذفوه به حتى سقط في وسطها، والمنجنيق هو: آلة تدفع من بعيد، تدفع الرصاصة الكبيرة، ونحوها.

وفي أثناء الطريق في أثناء الهوي يقولون: جاءه جبريل، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، فأمر الله النار أن تكون عليه برداً وسلاماً، وروي أن الله لما قال للنار: كوني برداً، صارت كالثلج، أو أشد برودة من الثلج امتثالاً لأمر الله، أي: طفئت وانقلبت من الحرارة إلى غاية البرودة، ثم قال: وسلاماً، أي: لا ضرر فيه على إبراهيم.

فإبراهيم وثق بالله، وقال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قالها ثقة بالله.

ومعنى قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، أي: هو الذي يكفينا وحده، ويبطل كيد الأعداء، ويردهم خائبين خاسرين.

وقوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، أي: نعم الموكول إليه الأمور، أي: وكلت أمري إليه، وفوضت أمري إليه، يتصرف لي بما هو الأفضل، وبما هو الأنسب لي؛ واختياره لي خير من اختياري لنفسي، فأنا واثق باختياره، فهو الحسيب وهو الكافي، ونعم الموكول إليه، ومن توكل عليه فنعم الوكيل.

فإبراهيم عليه السلام صَدَقَ في هذا التوكل فكفاه الله كيد الأعداء، ونصره عليهم، وهكذا يكون كل من توكل على الله.

فالعبد الصادق في توكله، إذا صدق نصره الله على الأعداء؛ ولهذا كان المؤمنون كلما تصافوا مع عدوهم، وثقوا بعهد الله وبوعده، وصدقوا النية، واعتمدوا على الله فنصرهم ورد كيد الأعداء في نحورهم، وقوّى الأولياء المؤمنين، وأنزل عليهم النصر والثبات، كل ذلك من أسباب ثقتهم بالله، واستنزالهم النصر من عنده.

وكثير من الناس لم يعتمدوا عليه، بل اعتمدوا على حولهم وقوتهم، أو اعتمدوا على أسلحتهم وعتادهم وما معهم، فوكلهم الله إلى ذلك الذي اعتمدوا عليه، فلم ينفعهم ولم ينصرهم.

وانظر إلى أقرب مثل، ماذا قال الله تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم في غزوة حنين؟! قال تعالى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦]، فلما أعجبوا بكثرتهم واعتمدوا على قوتهم، واحتقروا أعداءهم، وقالوا: لا نخشى من الأعداء الذين نقاتلهم، نحن اثنا عشر ألفاً كيف يغلبوننا؛ نحن أقوى وأكثر، واعتمدوا على هذه القوة، فلم تغن عنهم قوتهم شيئاً، ولم يصبروا على الصمود أمام الأعداء بل انهزموا، ولكن ثبّت الله أهل الإيمان، فثبّت الله رسوله، ومن معه، وصاروا يمضون قدماً، وما ثبت إلا عدد قليل، فحصل لهم النصر، فما رجع أولئك الذين انهزموا إلا والأسرى قد أسروا والأعداء مقتولون ومتفرقون، فنصرهم الله مع كونهم فئة قليلة، فدلنا على أن الاعتماد على نصر

الله لا على قوة، ولا سلاح، ولا كثرة، ولا عتاد، ولا شجاعة، ولا مرونة، ولا فراسة، إنما هو على الثقة بالله وحده.

ونحن لا نقول: إن هذه الأشياء لا ينبغي استعمالها، بل الله أمرنا بأن نستعمل من القوة ما نقدر عليه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وثبت في الحديث تفسير القوة بالرمي، فقال ﷺ: «**ألا إن القوة الرمي**»(١).

لكن لا تتخذ هي السبب، ولا يعتقد العبد أنها هي الوسيلة للنصر، فالذين - مثلاً - يقولون: إن أعداء المسلمين الآن يملكون قنابل، ويملكون الطائرات القاذفة، ويملكون من القوة ما لا يملكه المسلمون، وعندهم وعندهم، ويخافون أولئك الأعداء ويعظمونهم في نفوسهم، إنما هذا من الشيطان. ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

لكن لو كانوا صادقين في إيمانهم ومضوا مقبلين على ربهم، واثقين بنصره، فإنهم لن يخذلوا، ولن ينهزم لهم جيش إذا كانوا صادقين مستعملين ما معهم من القوة، ومع ذلك واثقين بأن النصر بالله تعالى لا بالقوة، بل بالله ثم بقوة الإيمان، ثم الأسلحة والعتاد والقوة، فهذه مكملة لا أنها أساس في القوة، أو في النصر.

فإذاً على العبد أن يكون اعتماده وتوكله على الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩١٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣٣)

باب: قول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

وعن ابن مسعود، قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»، رواه عبدالرزاق.

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف .

الثانية: تفسير آية الحجر .

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله .

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط .

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب: قول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

من العبادات التي تجب على العباد الخوف من الله، وقد تقدم باب في الخوف، ووجوب الخوف من الله، والأسباب التي تجعل العبد خائفاً من الله.

ومن العبادات عبادة الرجاء، وهي ـ أيضاً ـ حق لله لا تصلح إلا له، وأسبابها الأدلة التي تدل على سعة فضل الله وكرمه ومغفرته ونحو ذلك، وهاتان العبادتان: الخوف والرجاء، متقابلتان، ولا بد أن يجمع العبد بينهما.

وأسباب الخوف كثيرة، ومنها ـ مثلاً ـ أحاديث الوعيد التي رتب الله فيها، أو رتب النبي ﷺ فيها العقوبة على بعض الذنوب، فإذا عرفها العبد خاف خوفاً شديداً.

فالمرء عندما يسمع الأحاديث التي فيها أن الله يعاقب على الذنوب القليلة، وأنه شديد العقاب، وأنه عزيز ذو انتقام، وأنه يأخذ الظالم، فإذا أخذه لم يفلته، ويسمع الأحاديث التي فيها وعيدٌ على الظلم، ووعيد على الكذب، ووعيد على البهتان، ووعيد بالنار، ووعيد بالغضب، ووعيد بالسخط، ونحو ذلك، فكل ذلك يحمله على الخوف من الله.

كذلك يسمع الأحاديث التي فيها أن الله واسع المغفرة، وأنه عفوٌ غفور، وأنه يتجاوز عن الذنوب العظام، وأنه وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأنه لا يتعاظمه ذنب، وأنه يغفر لمن لم يشرك به شيئاً، وأنه خلق الرحمة مائة جزء، يرحم بها

عباده، فذلك مما يحمله على الرجاء لرحمة الله، ولكن ينبغي للمرء أن يجمع بين الخوف والرجاء.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]]:

هذه الآية في الترجمة للتنبيه على عظم هذا الذنب، وهو الأمن من مكر الله تعالى، ومعناه: الإصرار على الذنوب والمخالفات، وارتكاب السيئات، مع التهاون بها، وعدم المبالاة بالوعيد الشديد المرتب على المعاصي، بحيث لا يتأثر العاصي بالمواعظ، ولا يخاف من العقوبات السماوية، ويستمر على ما هو فيه من ترك الطاعات، وفعل المحرمات، دون أن يرعوي، أو يقبل نصيحة، أو يسمع سماع قبول لمن يعظه ويرشده، وكأنه آمن مطمئن، مع علمه بأن هذه الذنوب قد توعد الله تعالى عليها بوعيد شديد، وقد أوقع بمن عصاه أنواع العقوبات، وأحل بهم المثلات، كما قال تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]. وهكذا توعد الله على المعاصي في الآخرة بالوعيد الشديد.

وقد أخبر الله تعالى بأنه يمكر بمن عصاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، والمراد بمكرهم، احتيالهم وحرصهم على الإضرار برسول الله ﷺ، فالله تعالى يملي لهم، ويمهلهم، ويعطيهم من الخيرات، حتى يتمادوا في الطغيان، ويستهينوا بوعيد الله تعالى، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وذلك أن الله تعالى يبتلي بالسراء لِيُشْكَرَ، وبالضراء لِيَمْتَحِنَ قوة الإيمان، كما قال

تعالىٰ: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، أي: رجاء أن يرعووا ويخافوا من العقاب العاجل والآجل.

ثم أخبر بأنهم لما قست قلوبهم أنعم الله عليهم، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، أي: لما أعرضوا عن قبول النصح والمواعظ، وأصروا علىٰ المعاصي أعطاهم الله من أنواع الرزق، ويسر لهم أسبابه، ولكنه استدراج بهم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

قال الحسن البصري رحمه الله: من وسع عليه لم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، قال: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجاتهم ثم أخذوا.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله تعالىٰ، وما أخذ الله قوماً إلا عند سكرتهم وغرتهم وغفلتهم. ذكره ابن كثير في تفسير سورة الأنعام.

وقد أخبر الله تعالىٰ في سورة الأعراف[١] أن أهل القرىٰ كذبوا فأخذهم الله، وأنهم أمنوا مكر الله، مع قدرة الله تعالىٰ علىٰ أخذهم بياتاً، أي: في الليل، أو ضحىٰ في حال لعبهم، وأن لا يأمن مكر الله إلا الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، وذلك أن من تهاون بعذاب الله تعالىٰ، وتمادىٰ في غيه، واحتقر العقوبة السماوية أو كذب بها، فقد تنقص الرب تعالىٰ، وتهاون ببطشه وعذابه،

---

(١) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف، الآيات: ٩٦-٩٩].

أو توهم أنه قادر على أن يرد أمر الله، أو يتحفظ عن العقوبات، أو ظن أن الله لا يقدر على أخذه والانتقام منه، وكل ذلك مما ينقص التوحيد.

فالواجب على المسلم أن يخش الله، ويحذر من بطشه وانتقامه، فإنه سبحانه يمهل ولا يهمل، وفي الحديث: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»(١)، وفي الحديث أيضاً: «**إذا رأيت الله يعطي العبد وهو مقيم على المعاصي فاعلم أنه استدراج**»(٢)، يعني: قول الله تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، أي: أمهلهم وأخرهم إلى أجل، ثم بعد ذلك ينتقم الله منهم، نعوذ بالله من الاغترار بإمهاله، والتمادي على العصيان.

وقد ورد في بعض الأحاديث، أن قوماً تجرءوا على الذنوب، وأكثروا من السيئات، فقال: مكر بالقوم ورب الكعبة، مكر بهم؛ بمعنى: أن الله أمهلهم وأخرهم، ولكن ذلك على وجه المكر، ومكر الله كما يليق به.

فمن مكر الله أنه يمهل ويعطي ويؤخر، ولكنه متى أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فلم يأخذ الله قوماً إلا على غرتهم وغفلتهم وسلوتهم.

فالذين يتهاونون برؤية الله، ويعصون الله إذا خلوا، فإذا خلا أحدهم في برية أو في أقصى داره أغلق عليه الأبواب، وبارز الله بالمعاصي، وكأنه لم يستحضر أن الله يراه، فيشرب الخمور المحرمة، أو يأكل المخدرات المحرمة، ونحوها، أو يزني ويفجر، أو يقتل أو ينهب ويسرق، أو يخدع أو نحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٦٨٦). ومسلم برقم (٢٥٨٣)، عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، وابن أبي الدنيا في كتاب الشكر، ص (١٦) رقم (٣٢)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٣٣٠) رقم (٩١٣).

فهذا يعتبر قد أمن مكر الله، والأمن من مكر الله يقدح في التوحيد، لأنه متهاون بالله، متهاون بعذابه، متهاون بنقمته، كأنه يعتقد أن له منجىٰ، وأن له مفراً، وأن له مهرباً، وأنه يستطيع أن ينتصر علىٰ عذاب الله، وأنه يستطيع النجاة بنفسه، ويتهم الله بالعجز، كأن الله عاجز عن أن ينتقم منه، فيعتبر بذلك ناقص التوحيد، أو مختل التوحيد، فهذا هو معنىٰ قوله: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وسمو خاسرين لأنهم خسروا عقائدهم، وخسروا أعمالهم، وخسروا حياتهم وخسروا أبدانهم وأموالهم، وخسروا دنياهم وآخرتهم، لأنهم ما عقلوا، ولو عقلوا لما تغافلوا عن نقمة الله، وعن قدرته وقوته، بل يعتقد العبد أن الله يراه، وأنه قد حرم عليه هذه المعاصي، فإذا عرف ذلك تجنب هذه المعاصي، ولو كان خالياً.

وهذا قد يكون سرّاً، وقد يكون علناً، أي: قد يكون بعض العصاة والعياذ بالله يتهاون بالمعاصي علناً، فيظهر الفجور، ويشهد الزور، ويعلن المعاصي ونحوها، ولا يبالي بذلك، وإذا نصح مثلاً وقيل له: لا ترفع صوت الأغاني ونحوها، أو لا تعكف علىٰ الملاهي، أو ما أشبه ذلك، زاد في شره، وتطاول عليك، كأنه لم يحترم قدرة الله، ولا قوته، فَاعتُبِر بذلك ناقص العقيدة، وناقص التوحيد، حيث إنه لم يراع الله.

روي عن بعض الأعراب، أنه كان يحب امرأة ويتمنىٰ لقاءها، فقيل له: لو لقيتها في مكان خال لا يراكما إلا الله، ماذا أنت فاعل؟ فقال: لا أجعل ربي أهون الناظرين، أي: أني لا أتهاون برؤية الله، وأستحي من الناس.

■ **قوله: [وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾** [الحجر: ٥٦].

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»(١).

وعن ابن مسعود، قال: أكبر الكبائر: «الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»(٢) **، رواه عبدالرزاق]:**

في هذه الآية وهذين الحديثين ـ حديث ابن عباس، وحديث ابن مسعود ـ بيان أن اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، كلها من الكبائر، وقرنهما بالشرك بالله.

وقد سبق شرح قوله: «**الشرك بالله**»، في أول الكتاب، وأيضاً سبق شرح قوله: «**الأمن من مكر الله**» في أول الكتاب، ونأتي الآن على شرح الجمل الباقية:

أولاً: قوله: «اليأس من روح الله»:

اليأس من روح الله هو: قطع الرجاء، وقد جعله الله كفراً، في قوله: **﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾** [يوسف: ٨٧]، أي: لا يقطع رجاءه إلا القوم

(١) أخرجه البراز برقم (١٠٦) كما في كشف الأستار، وابن حاتم في التفسير كما في الدر المنثور (٢/ ١٤٧)، والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (١/ ١٠٤).
قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني ورجاله موثوقون، وحسنه السيوطي في الدر المنثور، وقال ابن كثير رحمه الله في التفسير (١/ ٤٨٥): وقد رواه البراز عن عبدالله بن إسحق العطار، عن أبي عاصم النبيل، عن شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس، ثم ساق الحديث... ، ثم قال: وفي إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً، فقد روي عن ابن مسعود نحو ذلك، كما رواه ابن جرير (٥/ ٤١)، وحسنه العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٤٧٦).

(٢) أخرجه عبدالرزاق (١٠/ ٤٥٩، ٤٦٠)، وابن جرير (٥/ ٢٦)، والطبراني في الكبير (٨٧٨٣، ٨٧٨٤).
قال ابن كثير في تفسيره: وهو صحيح بلا شك، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤): وإسناده صحيح.

الكافرون.

والروح هنا هي: الفَرَج؛ فالمعنىٰ: أن الإنسان إذا وقع في شدة، فلا يقطع رجاءه بالله، بل يبقىٰ راجياً أن يفرج الله عنه كربه، وشدته.

والرجاء عبادة من أجل العبادات، ومن أقواها، قال تعالىٰ: **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾** [الكهف: ١١٠]، أي: يأمل في ذلك ويعلق قلبه به.

فاليأس هو: قطع الرجاء، بحيث إن الإنسان ييأس، وكأنه لا يستحضر سعة فضل الله، وسعة قدرته، وكأنه إذا وقع في شدة يئس من زوالها، فإذا وقع مثلاً في فقرٍ أو سجن ظلماً، أو ما أشبه ذلك، قطع رجاءه، ولم يبق مؤملاً للنجاة، واعتقد أن ربه تعالىٰ لا يقدر علىٰ نجاته أو لا ينجيه، أو أنه لا يستحق النجاة، أو ما أشبه ذلك.

فقطعه للرجاء يعتبر ذنباً كبيراً يتهم الله تعالىٰ فيه بالعجز، ويكذّب بالنصوص التي وردت في إزالة الكروب، والشدائد والمشقات ونحوها، كقوله تعالىٰ: **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾** [الشرح: ٥، ٦]، وقوله: **﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾** [البقرة: ١٨٥].

وكذلك الحديث الذي يقول فيه النبي ﷺ: «**فاعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**»(١)، وفي الحديث يقول ﷺ: «**لن يغلب عسر يسرين**»(٢)، أي: أن الله ذكر اليسر مرتين نكرة، وذكر العسر معرّف، والمعرّف

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٧/ ٩)، والحاكم في المستدرك(٢/ ٣٢٩) موقوفاً علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه، قال: وعن علي أيضاً. وذكره الحاكم عن الحسن مرسلاً في (٢/ ٥٧٥).
وأورده البخاري في تفسير سورة الشرح، ورواه عن ابن عيينه (٤/ ١٨٩٢).
وأخرجه الإمام مالك في الموطأ عن عمر رضي الله عنه (٢/ ٤٤٦).
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (٤٧٨٧).

واحد، والمنكر متعدد، فلذلك قال: «**لن يغلب عسر يسرين**».

فالذي وقع ـ مثلاً ـ في شدة، ثم قطع رجاءه من زوالها، هذا قد اتهم الله بالعجز عن إزالة هذه الكربة ونحوها، وذلك تنقص لله تعالى، وقد قضى الله أن العسر يتبعه اليسر.

وقد ورد في بعض الآثار: «إن العسر لو دخل جحر ضب لدخل معه اليسر»[1]، وهذا يعني أن قطع الرجاء يعتبر إساءة ظن بالله تعالى، وتنقصاً له، هذا من جهة اليأس من روح الله.

وكما تقدم، فالروح هو الفرج: وهو ما يجلب المسرة والبهجة، تقول: جاءني روح، أي: ما أرتاح له، وما أفرح به، فالروح هو إزالة الشدائد والصعوبات التي يقع فيها العبد، واليأس من ذلك ذنب كبير.

والآيس: هو الذي لا طمع له في شيء من ذلك، وقد أيس منها، أي: لم يطمع، ولم يعتقد أن تناله هذه الرحمة، أو هذا الروح.

ثانياً: قوله: «القنوط من رحمة الله»:

أما القنوط فهو أشد وأعلى من اليأس، والقنوط من رحمة الله ذنب أكبر من اليأس، وقد ذكر الله عظمة هذا القنوط، لما حكى الله عن ضيف إبراهيم أنهم بشروه بغلام فاستبعد ذلك، فقالوا: ﴿**بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾ [الحجر: ٥٥، ٥٦].

أي: أني ما أنكرت ذلك قنوطاً، ولست بقانط، وإنما ذلك على وجه

---

(١) أخرجه بنحوه البزار في مسنده، كما ذكر ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٢٧).

التعجب أن يولد لي مولود، وقد بلغت هذا الكبر، كما حكى الله عن امرأته أنها قالت: ﴿أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]، إلى آخره.

فالقنوط هو: أشد اليأس، وهو يبلغ درجة ينقطع فيها رجاؤه انقطاعاً كلياً، ولكن القنوط متعلق بالرحمة، وقد يكون قنوطاً مبدئياً، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨]، أي: من بعد ما انقطع رجاؤهم من نزول المطر، فينزل الله الغيث بعد قنوطهم. فإن كثيراً من الناس إذا تأخر المطر يئسوا وقنطوا، وانقطع رجاؤهم انقطاعاً كلياً.

فالله تعالى ينزل الغيث عادة، ولو كانوا قد قنوطوا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾، فلا يجوز لهم أن يقنطوا، بل يعتقدون أن الله قادر على أن ينزل الغيث الذي هو المطر في أية وقت، ولا يقنطون، ولكن قد يستبعدون ذلك، وهذا القنوط نوع من أنواع الرحمة، وهو فضل الله الذي هو المطر ونحوه.

لكن كثيراً من الناس قد يقنط قنوطاً آخر، ويحمله هذا القنوط والعياذ بالله على الاستمرار على ما هو عليه من الكفر والمعاصي، وأنواع الضلالات، ويبقى على ذلك، وإذا نصح لم يقبل، واعتقد أنه لا تناله الرحمة، وما أشبه ذلك.

وكثيراً ما ينصح بعض الناس من الذين توغلوا في الذنوب، وأكثروا من السيئات، وأنواع الكبائر والمعاصي كالزنا أو شرب الخمر، أو أكل المال الحرام، أو قتل النفس، وما أشبه ذلك، ثم زين لهم الشيطان أن أعمالهم هذه لا تنالها الرحمة، واستمروا على ذلك.

فإذا نصح أحدهم بالتوبة، قال: أنا ذنوبي كبيرة وكثيرة، لا تنالها الرحمة، أنا قد فعلت من الذنوب ما يعظم أن يغفره الله، فالله لا يغفر مثل هذه الذنوب

الكبيرة، كيف يغفرها وأنا قد فعلت وقد فعلت؟ لا تنالني الرحمة، الآن انقطع رجائي من الرحمة، سأبقى على ما أنا عليه، وأصبر على النار، وأصبر على العذاب، وأستمر فيما أنا عليه، فأنا قد يئست من أن تنالني أو تصل إلي رحمة الله، ولو كانت ما كانت.

يقولون هذا بألسنتهم، والله أعلم هل يقولونه بقلوبهم أم لا؟ وما علموا أن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، وأنه يفرح بتوبة التائب، وما علموا أن التوبة تجبُّ ما قبلها من الذنوب وتمحوها، وما علموا ـ أيضاً ـ أن الله لا يتعاظمه ذنب، فإذا عَلِمَ من قلب صاحبه الصدق والإقبال، غفر له على ما كان منه.

فاستمرارهم على المعاصي، وبقاؤهم عليها، وقطع رجائهم من الرحمة، واستخفافهم بالله، واستخفافهم برحمة الله تعالى، هو اتهام الله تعالى أنه لا يقدر.

والله تعالى قد أخبر أنه واسع الرحمة، وأنه يرحم عباده، وأنه يفرح بإقبالهم وتوبتهم إليه، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وفي الحديث: «**إن الله كتب كتاباً فهو عنده على العرش، إن رحمتي تغلب غضبي**»[١].

فإذاً هذا الذي قطع رجاءه من رحمة الله وقنط يعتبر فعله ذنباً عظيماً؛ حيث إنه استهزأ بالله وأتى بهذا الإفك العظيم الذي هو تنقص لله واستصغار لقدره، واستصغار لرحمته، فيكون بذلك ناقص التوحيد.

هذه الثلاثة المتقدمة متقاربة في كون كلٍ منها منافياً للتوحيد، أو منافياً

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٩٤)، ومسلم برقم (٢٧٥١).

لكماله:

فالأولى: الأمن من مكر الله الذي هو: الاستخفاف بعذابه وغضبه.

والثانية: اليأس من روح الله؛ الذي هو بقطع الرجاء من إزالة الشدائد والمحن التي يقع فيها العبد.

والثالثة: القنوط من رحمة الله الذي هو أشد اليأس، وهو أن لا يبقى أهلاً للرحمة التي وسعت كل شيء فيبقى مستمراً ومصراً على الذنوب.

فكل منهم قد استخف بالله تعالى، وتنقصه، وأصبح فعله منافياً للتوحيد، أو منافياً لكماله، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■



[٣٤]

باب:
من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله؛ فيرضى ويسلم.

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت».

ولهما، عن ابن مسعود، مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة».

وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط»، حسنه الترمذي.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله

الإيمان بالله، بمعنى: التصديق بإلاهيته، والتصديق بكمال تصرفه، ومن تصرفه أقداره التي يقدرها على عباده في هذه الحياة، فمن الإيمان به الصبر عليها، فإن المؤمن يلزمه أن يصدق بكل ما بلغه عن الله تعالى، فإذا بلغه أن الله تعالى هو المتصرف في العباد فوض إليه التصرف، وإذا بلغه أن الله تعالى هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يمنع ويعطي، صدق بذلك واستسلم لذلك.

وإذا عرف أن ربه هو الذي سلبه ما أعطاه، رضي بذلك واستسلم، وإذا علم أن الله هو الذي أمرضه بعد أن كان سليماً، أو أتلف ماله بعد أن كان غنياً، أو أمات حبيبه أو ولده أو نحو ذلك؛ علم أن هذا مقدَّر فَرَضِيَ بذلك واستسلم.

فالله تعالى قد كتب قبل أن يخلق الخلق ما هو كائن إلى يوم القيامة، وقدر في أم الكتاب المقادير التي تقع، والمصائب والأمراض والموت والحياة، فقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقد كان النبي ﷺ يعد الإيمان بالقدر من جملة أركان الإيمان، فقد قال: **«وأن تؤمن بالقدر خيره وشره»**(١)، وفي رواية: **«لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بقدر الله خيره وشره، وحلوه ومره»**(٢).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجة في المقدمة، برقم (٨٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤١٣)، وقال في آخره: رواه الطبراني، وفيه عبدالأعلى بن أبي المساعد، وهو متروك، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجة رقم (١٧)، وقال: ضعيف جداً. =

وسوف يأتينا إن شاء الله في آخر هذا الكتاب، باب: ما جاء في منكري القدر، يعني: بيان من لم يؤمن بأقدار الله تعالىٰ(١).

والقصد من هذا الباب الصبر، وهو أن الإنسان يصبر على ما أصابه في هذه الحياة الدنيا من المصائب؛ فكأنه قال: باب: بيان الصبر، وحال من لا يصبر، فمن صبر فإنه مؤمن بأقدار الله، ومن لم يصبر فإنه متهم لله بسوء التصرف، أو أنه منتقد لله، كأنه يعتب على الله في تصرفه، ويقول: هذا التصرف ليس بلائق، وليس بحسن، لا يليق بالله أن يتصرف به.

وذكر الله الصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً، يمدح أهله ويأمر به، ويذكر ثوابه وما أشبه ذلك، ولو لم يكن إلا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، هذا في الثواب، أما في الأمر، ففي قوله تعالىٰ: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وجعله في آية أخرىٰ مما يستعان به على هذه الحياة، في قوله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وبشر أهله، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وبقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وما أشبه ذلك، فهذا دليل على فضل الصبر.

وقد ورد أيضاً في بعض الآثار: «الصبر نصف الإيمان»(٢)، فإذا كان الصبر

= قال الشيخ ابن جبرين: ولكن له شاهد ذكره في مجمع الزوائد للطبراني ورجاله ثقات.

(١) انظر باب رقم (٥٩).

(٢) رواه ابن الأعرابي في معجمه (٥٦/ ٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٤)، والطبراني في التفسير (٢١/ ٨٤)، وقال: حدثنا ابن حميد قال ثنا جرير عن مغيرة، قال: (الصبر نصف الصبر...)، ورواه الطبراني في التفسير أيضاً (٢١/ ٨٤) عن مغيرة عن الشعبي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾. وأورده القرطبي في تفسيره (١٤/ ٧٩) عن الشعبي. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٧)، عن الطبراني في الكبير، عن عبيد الله وقال: رجاله رجال الصحيح. =

نصف الإيمان، فهو أعظم من أن يستهان به.

وينقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام:

صبر على طاعة الله، وصبر عن معاصي الله، وصبر على أقدار الله، فالأعمال كلها داخلة في الصبر بهذا التقسيم.

الأول: الصبر على طاعة الله:

وهو صبر النفس على الأمور المأمور بها، فإن الله تعالى أمرنا بأمور، فلا بد أن نصبر نفوسنا عليها، فنصبر مثلاً على الوضوء والطهارة، ولو كان فيه مشقة لأنه مما أمر الله به، وقد يكون فيه صعوبة ومخالفة النفس التي تميل إلى الكسل وإلى حب الراحة، ولكن متى صبر الإنسان نفسه على ذلك فإنه يكون من الصابرين.

كذلك الصبر على أداء الصلوات، فقد يكون الذهاب إلى المساجد ثقيلاً على النفس، وقد تميل النفس للنوم، أو الراحة في البيت ونحوه، ولكن متى صبر الإنسان، عُدَّ من الصابرين.

كذلك الصبر على طول القيام في الصلاة، والصبر على طول الركوع

= ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٤) عن عبدالله بن مسعود، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٢٦) رقم (١١١) عن عبدالله، عن رسول الله ﷺ، والطبراني في الكبير (٩/ ١٠٤) عن عبدالله، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٤)، وقد أورده ابن الجوزي في العلل المتناهية، وقال: تفرد بروايته محمد بن خالد عن الثوري، ومحمد بن خالد (مجروح)، والنسائي يعقوب بن محمد (ليس بشيء).
وقال الألباني في الضعيفة (١/ ٥٠٦) رقم (٤٩٩): منكر.

قال الشيخ ابن جبرين: ولكنه صحيح عن بعض السلف، فقد ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم في شرح حديث: «**الطهور شطر الإيمان**»، عن ابن مسعود موقوفاً، وعن أنس مرفوعاً.

والسجود، وما أشبه ذلك، وهذا كله من الصبر على طاعة الله.

وقد ورد في بعض الأحاديث تسمية شهر رمضان بشهر الصبر؛ لأنه صبر عن بعض الشهوات المباحة والمحبوبة للنفس؛ فمن أجل ذلك يكون الصوم من الصبر.

كذلك الحج من الصبر؛ لما فيه من التكلفة.

وكذلك إيتاء الزكوات والنفقات الواجبة، والنفقات في سبيل الله من الصبر؛ لأن الإنسان يصبر نفسه عليها، وعلى إخراجها، وهذا أيضاً كله من الصبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر على معصية الله:

قد تدفع الإنسان نفسه إلى بعض المعاصي التي تحبها وتميل إليها، فإذا حبس نفسه فإنه قد صبرها، فإذا دعته نفسه أو حاولت أن تشوقه إلى سماع الأغاني ونحوها، فحبس نفسه، عدّ صابراً، وإذا تمنت نفسه أن تتطلع إلى العورات، أو إلى النساء المتبرجات ونحوهن، ولكنه صبر نفسه ومنعها، فعد من الصابرين، وكذلك إذا تمنت نفسه وحاولت أن تدفعه إلى محرم، كالزنى والخمر والكبر والسرقة وغير ذلك، وتيسرت أسبابه، ولكن منع نفسه وحبسها، فإذا فعل ذلك عد من الصابرين.

فمتى قوي الإنسان على نفسه وقهرها وتغلب عليها، عد من الصابرين، وهذا هو الصبر عن معاصي الله، فهو قهر النفس والتغلب عليها حتى لا تقع في هذه المعاصي.

الثالث: الصبر على المصائب:

وهي التي تصيب الإنسان بقضاء الله وقدره، فإذا أصابته فإن واجبه أن يصبر

عليها، فإذا صبر عليها فإنه يعد من الصابرين.

وتعريف الصبر في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: قتل فلان صبراً؛ أي: حبساً، فيمسك به إلىٰ أن يموت، ومنه قول النبي ﷺ: «**لا تصبر البهائم**»[1]؛ أي: لا تحبس وتمنع وترمىٰ محبوسة حتىٰ تموت. قال ابن حجر في الفتح (٩/ ٥٥٩): المصبورة هي التي تربط وتجعل غرضاً للرمي.

وتعريف الصبر على المصائب: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ودعوىٰ الجاهلية.

فواجب الإنسان عندما تحدث له مصيبة أن يصبر نفسه ويمنعها، وإذا اشتكىٰ فلا يشتكي إلا إلىٰ ربه، فلا يشتكي إلىٰ مخلوق، فيقول له: أصبت بكذا، وفقدت من مالي كذا، ومات لي من الولد كذا؛ كأنه يشتكي الله تعالىٰ لعباده، يقول بعضهم:

وإذا أتتك مصيبة فاصبر لها

صبر الكريم فإنه بك أرحم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما

تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

فكأنه يشكو الله إلىٰ عباد الله، ويشكو من هو أرحم به إلىٰ من لا يرحمه، ولكن واجبه عند المصيبة أن يرضىٰ ويسلم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٥١٣)، ومسلم برقم (١٩٥٦)، عن أنس رضي الله عنه، ولكن بلفظ: «نهىٰ رسول الله ﷺ أن تصبر البهائم».

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** [التغابن: ١١]، **قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله؛ فيرضى ويسلم**(١)]:

أي: يعلم أن هذه المصيبة من الله فيسلم لذلك وينقاد ويرضى، ويقول: قدّر الله وما شاء فعل، رضينا بالله وبما جاء من عند الله.

ويقول كما قال النبي ﷺ: «**إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى**»(٢)، هذا هو الرضى والتسليم.

■ **قوله: [وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»**(٣)]:

وقد ثبت ـ أيضاً ـ في حديث آخر أنه ذكر أربعاً، فقال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب، والفخر في الأحساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت**، وقال: **والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب**»(٤).

وكانت النياحة كثيرة في العرب وغيرهم، فإذا مات ميت قاموا ينعون

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٢٨/ ١٢٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره، كما في تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٣)، وأخرجه عبدالرزاق في التفسير (٣/ ٩٥)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في الدر المنثور (٨/ ١٨٣).

وأخرج نحوه البخاري معلقاً (٨/ ٦٥٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٨٤)، ومسلم برقم (٩٢٣)، ولكن بدون قوله: «شيء».

وأخرجه البخاري برقم (٧٣٧٧)، ومسلم برقم (٩٢٣)، بهذا اللفظ، وكلاهما عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٦٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٩٣٤)، عن أبي مالك الأشعري.

وينوحون ويصيحون، ويسمون نداءهم له ندباً، ويقول قائلهم: واولداه، واأبواه، واأخواه، وما أشبه ذلك، أو قد يذكرونه باسمه فيقولون: وامحمداه، واسعداه، واإبراهيماه، وما أشبه ذلك.

أو يذكرونه بأفعاله، فيقولون: وامطعماه، واساقياه، واكاسياه، وما أشبه ذلك، وكأنه هو الذي يفعل ذلك، وكأنه هو الذي يدبرهم ويكسوهم، وذلك إساءة للظن بالله تعالىٰ.

فجاء الإسلام ونسخ ذلك وجعله من خصال الكفار، وسمىٰ ذلك نياحة لأنهم ينوحون، أي: ينوح بعضهم ويصيحون بأعلىٰ أصواتهم، وسواء كانت النائحة رجلاً أو امرأة فيسمىٰ نائحة، فيقولون: قامت نائحة فلان، أي: قام نوحه.

وتوعد هذه النائحة رجلاً أو امرأة بهذا الوعيد، بقوله: «**النائحة إذا ماتت قبل أن تتوب تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب**»[1]، بمعنىٰ أنها: يلازمها العذاب إلىٰ حين البعث قبل أن تدخل في النار والعياذ بالله، فيكون ذلك العذاب لها بمنزلة الجلد.

والقطران: هو المادة المعروفة التي تشتعل فيشتد اشتعالها وحرارتها علىٰ البدن.

وقد ذكره الله من جملة عذاب النار، بقوله تعالىٰ: ﴿**سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ**﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فكذلك هذا الناتج، يجعل عليه سربال، أي: ثوب سابغ من قطران، وعليه درع من جرب، والجرب معروف: وهو هذا الذي يتأذىٰ منه الجسد ويكون فيه حكة شديدة وحرارة بليغة، فمثل هذا عقوبة عاجلة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٣٤)، عن أبي مالك الأشعري.

وقوله: «اثنتان في الناس هما به كفر»، أي: يسمى كفراً، لكونها من خصال الكفر، وإن لم تكن ناقلة عن الملة، لكنها من شعب الكفر، فشعب الكفر من الكفر، كما أن شعب الإيمان من الإيمان.

■ **قوله: [ولهما، عن ابن مسعود، مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»(١)]:**

ذكرنا أن الجاهليين، وكذلك الجهلة من العرب، ومن غيرهم؛ كانت من عاداتهم السيئة أنهم إذا مات فيهم الميت قاموا ينعون وينوحون عليه، فيضربون الخدود، ويشقون الجيب وغير ذلك، فجعل النبي ﷺ أفعالهم هذه مخرجة لهم عن تحقيق الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام، فقال ﷺ: «**ليس منا**»، وهذا وعيد كبير: أي: الذي يفعل هذا لا يكون من أتباع الرسول، بل قد تبرأ من أفعالهم هذه، فلا يحظون بشفاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولا يكونون من أتباعه حق الاتباع؛ لأنهم خالفوه؛ وذلك في أمرين:

أولاً: أنهم لم يرضوا بقضاء الله وقدره، حيث قدر عليهم هذه المصائب التي أصابتهم في أنفسهم، أو في أموالهم، أو في أهليهم، أو ما أشبه ذلك.

ثانياً: لم يحتسبوا الأجر، ففاتهم الأجر والثواب الذي رتبه الله تعالى على الصبر، وكذلك فاتهم الرضى بالقضاء والقدر؛ فبدلوا أمر الله الذي أمر به، وفعلوا ضده وهو الجزع وعدم الصبر، ففعلوا هذه الأعمال التي هي من عادتهم، فإذا مات عندهم الميت أخذوا يضربون الخدود ويشقون الجيوب، فلذلك قال ﷺ: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب**».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٩٤)، ومسلم برقم (١٠٣)، عن عبدالله بن مسعود.

وليس الأمر خاصاً بالخد، فالخد: هو صفحة الوجه، ولا يخص ضرب الوجه؛ بل لو ضرب صدره، أو ضرب فخذه، أو ضرب يده، أو ضرب عضده؛ كل ذلك يدخل إذا كان ضربه على وجه التسخط لقضاء الله وقدره.

كذلك - أيضاً - إذا أضاف إلى ذلك ما بعده، من ينتف الشعر ونحوه، أي: أن بعضهم من شدة ألم النفس، ومن عدم صبره قد ينتف الشعر، كأن تنتف المرأة شعرها، أو ينتف الرجل شعر رأسه، أو شعر لحيته، أو ما أشبه ذلك، فهذا من ضعف اليقين.

وكذلك - أيضاً - شق الثياب، لقوله: «**وشق الجيوب**»، والجيب هو: مدخل الرأس، فالفتحة التي في الثوب يدخل منها الرأس تسمى الجيب، قال الله تعالى في أمر النساء: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١].

فعادة المرأة أو الرجل إذا أصيب بمصيبة أو سمع بها مسك ثوبه من جيبه وشقه؛ لأنه أقرب شيء إليه، لكن ليس ذلك خاصاً بالجيب، فلو شق الثوب من كمه، أو من أسفله، أو من وسطه، أو أمسكه بقوة حتى شقه، دخل في هذا الوعيد.

وبالجملة فإن هذه الأفعال كلها من أفعال الجاهلية التي جاء الإسلام بنسخها والنهي عنها، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «**برئ من الصالقة والشاقة والحالقة**»(١)، **والصالقة هي**: التي ترفع صوتها عند المصيبة، **والحالقة**: التي تحلق رأسها أو تنتف شعرها، **والشاقة**: التي تشق ثوبها، وليس ذلك خاصاً بالإناث، بل إذا فعله الذكور فإنهم يدخلون في هذا الوعيد.

وكذلك قوله: «**ودعى بدعوى الجاهلية**»، أي: ليس منا من فعل ذلك، أي:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٩٦)، ومسلم برقم (١٠٤)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ليس منا من تمسك بهذه الدعاوىٰ الجاهلية، فإذا دعا الإنسان بدعوىٰ الجاهلية الذي ذكرنا، بأن قال: ـ مثلاً ـ واوالداه أو واأبواه فإنه يدخل في هذا الوعيد، وكذلك إذا قال: وامطعماه، واساقياه، أو قال: وامحمداه، واسعداه، وما أشبه ذلك فإنه داخل فيمن دعا بدعوىٰ الجاهلية.

فالواجب علىٰ المسلم في مثل هذه الأحوال أن يرضىٰ ويسلم، كما في قول علقمة الذي سبق ذكره: (**هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم**)؛ وذلك لأن الله قد قدر مقادير الخلق، وقد كتب علىٰ الإنسان ما هو واقع فيه، قال تعالىٰ: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحديد: ٢٢].

أي: إن هذا الفعل يسير علىٰ الله تعالىٰ، وكيف لا يكون يسيراً عليه، وهو عالم بالخلق قبل أن يوجدهم؟ فكونه كتب علىٰ المرء ما هو عامل، وما هو واقع فيه من قديم الزمان يسير عليه، وهذا من حكمته سبحانه وتعالىٰ أن يؤمن العباد بقدره بخيره وشره.

والواجب علىٰ المرء إذا وقع في مصيبة، أو حدث له حادث، أو مرض، أو مات له قريب، أو غير ذلك، فعليه أن يقنع بما أصابه، وأن يتذكر:

أولاً: أن هذا من تقدير الله تعالىٰ، وأن تصرفه لعباده أتم من تصرفهم لأنفسهم.

ثانياً: يعلم أن الله تعالىٰ يبتلي العباد ليظهر من يشكر ومن يجزع، وليظهر من يصبر ومن لا يصبر.

ثالثاً: يعرف أن في صبره علىٰ ذلك أجراً كبيراً، كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فالصلوات هي: الثناء على عباده ومغفرته لهم، وإعطاؤه لهم الأجر الكبير، **وأما الرحمة فهي**: أن يتغمدهم برحمته، وأن يعطيهم من فضله، **وأما الاهتداء فهو**: أن يهديهم لأتم الطريق، ذلك لأنهم استقاموا على أمره ورضوا بما قدره وقضاه.

أما إذا جزع فإنه يفوته ذلك كله، وهذا الذي يجزع ويصيح ويندب، هل يرد عليه غائباً؟ أم هل يحيي ميتاً؟ أو يشفي مريضاً؟ الجواب: لا. إنما ذلك كله من الجزع وعدم الصبر.

والحاصل: أن الجزع ونحوه ينافي كمال التوحيد؛ لأن فيه طعن في تصرف الله سبحانه وتعالى، واعتراض عليه، فعلى المسلم أن يرضى بما أصابه وما قدّره الله تعالى عليه، وأن لا يشتكي إلا إليه، حتى يحصل على الأجر والثواب العظيم الذي أعده الله للصابرين.

■ **قوله: [وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة»[1].**

وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم،

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٤٠)، وابن حبان (١/ ٢٧٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٥٤).
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ووافقه الأرناؤوط في تحقيق شرح السنة (٥/ ٢٤٥).
والحديث له شاهد عن عبدالله بن مغفل أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٨٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٤٩، ٤/ ٣٧٦)، والطبراني كما في المجمع (١٠/ ١٩١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥).
قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح، وكذا أحد إسنادي الطبراني.
وشاهد آخر عن أبي هريرة أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ١١٩٢).
وشاهد آخر عن عمار بن ياسر أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٢). وقال الهيثمي: إسناده جيد.
وشاهد آخر عن ابن عباس أخرجه الطبراني في الكبير (١١٨٤٢). =

فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط»(١) **، حسنه الترمذي]**:

هذان الحديثان رواهما الترمذي في موضع واحد عن صحابي واحد.

فقوله: «**إن الله إذا أراد بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا**»؛ المراد بالخير هنا: الخير الأخروي، أي: إذا أراد الله بالعبد خيراً أخروياً قدر له الحسنات حتى يرفع له الدرجات، ويحط عنه الخطيئات، فإنه يعجل له العقوبة في الدنيا.

والعقوبة هنا: هي العقوبة على ما اقترف من السيئات والذنوب، فالعبد ولا بد في الدنيا أن يذنب، ولا بد أن يقترف خطايا، ولا بد أن يرتكب سيئات، ولا بد أن يقصر في واجبات، وهذه الأشياء يستحق عليها عقوبة، فالمؤمن تعجل عقوبته في الدنيا.

وأما الكافر فتجمع عقوبته إلى الآخرة ليعاقب بها في النار، من أجل ذلك كان كثير من السلف يفرحون بالبلاء؛ لأنهم يعتقدونه مكفراً لما وقعوا فيه من الأخطاء، ويعتبرونه من إرادة الله الخير بالعبد.

والعقوبة الدنيوية: تارة تكون في البدن، وتارة تكون في الولد، وتارة تكون

= والحديث صححه الألباني في الصحيحة رقم (١٢٢٠).

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه برقم (٤٠٣١)، وأبو يعلي في مسنده (٧/ ٢٤٧) رقم (٤٢٥٣)، عن أنس رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد ضعفه حسين أسد في تحقيق مسند أبي يعلي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح ابن ماجه.
وله شاهد عن محمود بن لبيد أخرجه ابن ماجه برقم (٤٠٢١)، وأحمد في المسند (٥/ ٤٢٧، ٤٢٩)، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٨٣). وقال: رواته ثقات. وبه قال الهيثمي في المجمع(٢/ ٢٩١)، وابن حجر في الفتح: (١٠/ ١٠٨)، وانظر المشكاة (١/ ٤٩٣). والسلسلة الصحيحة للألباني رقم (١٤٦).

في الأهل، وتارة تكون في المال.

* **فالتي تكون في البدن**: تارة تكون بالهموم والأحزان، فيسلط الله علىٰ الإنسان الهم والحزن الذي يقلق راحته، وذلك لإرادة الخير له ليكون ذلك أقوىٰ لإيمانه إذا صبر واحتسب، فيكون ذلك مكفراً لخطاياه وسيئاته التي اقترفها إذا احتسب وصبر.

وتارة يكون الابتلاء في البدن بالألم والمرض، بأن يمرض، أو تعتاده الأمراض في رأسه، أو في عينيه، أو في جوارحه، أو في بطنه، أو ظهره، أو أعضائه، أو جلده، أو غير ذلك.

فتكون هذه الأمراض التي يبتلىٰ بها مكفرة لسيئاته إذا احتسب وصبر، وتكون من إرادة الله به خيراً، حيث عجل له العقوبة في الدنيا.

* **وكذلك إذا ابتلي العبد بالمصائب في أهله**، بأن ابتلي بفقد ولد أو والد أو أخ أو قريب أو صديق وما أشبه ذلك، فصبر واحتسب، كان ذلك أعظم لأجره، وعلامة علىٰ قوة إيمانه، وكان ذلك مكفراً لسيئاته ومكثراً لحسناته، فيكون ممن أراد الله به خيراً حيث عجل له العقوبة في الدنيا.

* **وهكذا إذا أصيب في ماله**، بأن أصيب بكساد تجارته أو بتلف في ماله؛ كحرق أو غرق أو ضياع وما أشبه ذلك، فصبر واحتسب، فإن ذلك دليل علىٰ أن الله أراد به خيراً.

وأما من جزع واشتكىٰ إلىٰ الخلق، وتنقص تصرف الله، ولم يرض بقضائه وقدره فإن هذا لا يكون ممن أراد الله به خيراً، ويكون ابتلاؤه بذلك ليظهر صبره أو جزعه.

وقوله: «**إذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافى به يوم القيامة**»: إذا

أراد الله أن تكون عقوبة العبد مؤخرة في الآخرة، وسيئاته متراكمة في الآخرة، فإنه يعجل له الحسنات، وتدخر له في الآخرة السيئات، فتجده منعماً مرفّهاً قد أعطي صحة في بدنه، وقوة في جسمه، وكمالاً في جوارحه، وكثرة في ماله، وأمناً ورخاءً وسعة رزقٍ، وتماماً أيما تمام، ولم يصب بمصائب ونحوها، فيكون ذلك ابتلاءً.

فإن الله تعالىٰ يبتلي بالخير كما يبتلي بالشر، فإذا أعطي ذلك لكنه لم يعترف بأن هذا العطاء ابتلاء وامتحان، ولم يقض حق ما أعطي، ولم يستعن بماله علىٰ طاعة ربه، ولم يصرفه في طاعته، بل صرفه في معاصيه، فإنه يكون كافراً بنعم ربه، وتكون سيئاته قد عجلت له، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فقوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾، أي: أذهبتم حسناتكم، فأنتم قد أحسنتم، وقد عملتم صدقات، وقد عملتم أنواعاً من البر، وقد عملتم أنواعاً من الصدق، وقد تعاملتم المعاملة الحسنة، فتلك الأمور الحسنة، والحسنات والطيبات تعجلتم ثوابها في الدنيا، وتوفرت لكم سيئاتكم.

وذلك من إرادة الله بعبده الشر، يمسك عنه بذنبه حتىٰ إذا وافاه فإذا سيئاته قد توافرت، وإذا حسناته قد تلاشت واضمحلت.

وأما قوله في الحديث الثاني: **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**»:

عظم البـــلاء، أي: كثرة المصائب دليل علىٰ عظم الجزاء، فالبلاء العظيم يحصل معه الجزاء العظيم، أي: الأجر والثواب، وذلك مع الاحتساب كما تقدم.

وعظم الجزاء، أي: في الآخرة، فالله يجازي الذي ابتلاه في الدنيا ابتلاء كثيراً

عظيماً، يجازيه في الآخرة جزاءً وافراً عظيماً.

فعظم الجزاء هو: عظم الأجر والثواب في الآخرة، أو يكون مع عظم البلاء، يعني: البلاء الدنيوي.

ثم قال: «**وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم**»، فإذا ابتلىٰ الله قوماً فاعلم أن ذلك دليل محبة الله لهم حيث ابتلاهم.

وقد وردت أحاديث تدل علىٰ أن أولياء الله هم المبتلون، فثبت أنه ﷺ قال: «**أشد الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه، وإلا خفف عنه**»(١). فكلما كان أشد وأقوىٰ ديانة كان البلاء عليه أكثر.

روي أن رجلاً جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: إني أحبك، فقال ﷺ: «**إن كنت صادقاً فأعد للبلاء تجفافاً؛ فإن البلاء أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منحدره**»(٢)، فإذا كان الإنسان صادقاً في حب الله وحب الرسول، فإنه لا بد أن يبتلىٰ، فإن صبر فإن ذلك دليل علىٰ قوة إيمانه، وإن جزع فذلك دليل علىٰ ضعف إيمانه.

والله تعالىٰ ذكر أنه يبتلي الأمم ليظهر من يشكر ممن يكفر، قال تعالىٰ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ**﴾ [الحج: ١١]. فالابتلاء للعبد في الدنيا من أجل أن يظهر إيمانه

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والترمذي رقم (٢٣٩٨).
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (١٤٨١): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٦٨)، عن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه، وضعفه الألباني في الضعيفة رقم (١٦٨١).
ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٧) رقم (٧٩٤٤). عن أبي ذر رضي الله عنه.

إن كان قويّاً أو ضعيفاً.

ولكن قد يقال: إن الكفار - أيضاً - قد يبتلون، نقول: إن الله تعالىٰ له الحكمة في ذلك، فبعض البلاد الكفرية ممتعة بالرفاهية، وبالعيش، وكثرة الأرزاق، وكثرة الأمطار، وكثرة الأعشاب والدواب ونحوها، فإن خدع بعض الناس وقال: هذهٓ أمريكا يأتيها الرزق والمطر صباحاً ومساءً، وهذه البلاد الفلانية كافرة وبلادها نظيفة، وأرضها كلها خضراء، فنقول له: ليس ذلك دليلاً علىٰ كرامتهم، بل إن ذلك من تعجيل طيباتهم، وإن ذلك من الابتلاء والامتحان.

وقد يكون هناك - أيضاً - بلاد كفرية في ضيق وفي فتن ومحن، ولكن ذلك من تعجيل العقوبة أيضاً، ويكون الله تعالىٰ جمع لهم بين العقوبتين لغلظ كفرهم، بأن فاتهم نعيم الدنيا ولذتها وحيوا حياة تعيسة، وفي الآخرة عذاب النار، فجمع الله لهم بين العذابين.

وكذلك بالنسبة إلىٰ أهل الإيمان هناك مؤمنون دخلوا في الإيمان فوسع الله عليهم، وجمع الله لهم بين الحسنيين؛ حسنة الدنيا ولكنهم شكروا وقاموا بحقها، وأعطوا كذلك من حسنة الآخرة التي هي الجنة.

وقوم ابتلوا بالدنيا، وكان ذلك تكفيراً لسيئاتهم وتوفيراً لحسناتهم، فلهم في الآخرة الأجر الجزيل.

فالناس في الابتلاء أربعة أقسام:

القسم الأول: مؤمنون ممتعون في الدنيا بالخير وبالرزق، ولا ينقص بذلك مرتبتهم بالآخرة.

والقسم الثاني: مؤمنون مبتلون في الدنيا بالمصائب والفقر والفاقة ونحو ذلك، وذلك من ابتلائهم، ومن إرادة الله تعالىٰ بهم خيراً.

والقسم الثالث: كافرون ممتعون في الدنيا قد قدر لهم العيش الهنيء والسعة، والأمن، وكثرة المال، فهؤلاء مما عجلت لهم طيباتهم، ولا يدل ذلك علىٰ كرامتهم.

والقسم الرابع: كفار جمع الله لهم بين الأمرين، بين ضيق الدنيا، وعذاب الآخرة، والكل فيها تحت أمر الله تعالىٰ، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■



[٣٥]

باب:
ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وعن أبي هريرة، مرفوعاً: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»، رواه مسلم.

وعن أبي سعيد، مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»، قالوا: بلى، قال: «الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيُزيِّنُ صلاته، لما يرى من نظر رجل»، رواه أحمد.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنىٰ.

الرابعة: إن من الأسباب أنه تعالىٰ خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبي ﷺ علىٰ أصحابه من الرياء.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرىٰ من نظر رجل إليه.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ما جاء في الرياء

من أنواع الشرك الرياء، والمراد به: الرياء في الأعمال، أي: مراءاة الإنسان الناس بعمله؛ سواء كان قولياً أو فعلياً، فكأنه أراد منهم مالاً، أو أراد منهم مدحاً، أو ما أشبه ذلك، فأطلق على عمله أنه رياء، وأنه مراء.

وقد يفرق بين الرياء القولي والرياء الفعلي:

فالقولي: تسميعاً وسمعةً.

والفعلي: رياءً.

فيقال: هذا يحب الرياء والسمعة.

وقد ورد التفريق بينهما في بعض الأحاديث، كقوله ﷺ: **«من سمع سمع الله به، ومن رآى رآى الله به»**(١).

وقد ورد ذم الله للذين يراءون بأعمالهم، فقال تعالى: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾** [الماعون: ٤-٦]. فتوعدهم الله بالويل مع كونهم يصلون، ولكن صلاة مع رياء وصلاة مع سهو، أي: يسهون عنها حتى تفوت، ولا يهتمون بها، وإذا صلوها فإنهم يراءون.

وكذلك - أيضاً - ذم الله الذين يراءون بالنفقات ونحوها، قال الله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾** [النساء: ٣٨]، أي: مراءاة للناس، وهذا فيمن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٩٩)، عن جندب رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (٢٩٨٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

لم يكن يحمله على النفقة طلب رضا الله ، وإنما يريد محمدة الناس ومدحهم والثناء منهم عليه ، فإذا أنفق لله سراً كانت نفقته قليلة ، وإذا أنفق علانيةً زاد في النفقة وضاعفها ؛ وذلك دليل على أنه يحب المحمدة والثناء فيكون مرائياً ، نسأل الله العافية .

وكذلك - أيضاً - ورد ذم المنافقين لمراءاتهم في الصلاة ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾[النساء : ١٤٢] ، أي : يراءونهم بصلاتهم ، كأنهم لا يصلون ، إلا من أجل أن يراهم الناس ، وأن يمدحهم الناس بهذا الفعل ، فذلك هو الرياء بالصلاة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة : ٥٤] ، فهم يراءون بنفقاتهم ، وبصلواتهم ، وما أشبه ذلك .

والرياء يعتبر شركاً ، وذلك لأن المرائي كأنه يطلب من الناس الثناء ، أو كأنه يعمل من أجل أن يمدح ويثنى عليه ، فبذلك بطل عمله ، وبطلت عباداته ، حيث لم يقصد بها الله وحده ؛ بل قصد فيها غير الله ، فكأنه يعبد غير الله في ذلك العمل ، أي : كأنه يقول بلسان الحال : لا أصلي إلا من أجل الناس يرونني ويمدحونني ، ولا أنفق ولا أتصدق إلا من أجل مدح الناس ؛ فهذا كأنه قد عبدهم ولم يعبد الله ، وأطاعهم وعظمهم ولم يطع ولم يعظم ربه ؛ هذا سبب جعل الرياء شركاً .

وقد سماه النبي ﷺ شركاً أصغر ، وشركاً خفيّاً .

فهو شرك أصغر بالنسبة إلى الأكبر الذي هو : السجود للأصنام وعبادتها من دون الله ، ولكنه كبير وعظيم ، والعقوبة عليه أنه يحبط الأعمال التي اقترن بها ،

فإذا اقترن بعمل أحبطه من أصله .

وهو شرك خفي لأن الناس ينظرون إلى أعماله في الظاهر فتكون حسنة، ولكن قلبه بعكس ذلك، فتكون أعماله في الحقيقة لغير الله، فلذلك يكون مشركاً بالله شركاً خفياً لا يطلع عليه إلا الله .

■ **قوله** : [وقول الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠]] :

أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يخبرهم بأنه بشر مثلهم، أي : واحد منهم، فهو لم يدع النبوة من نفسه، وإنما ربه هو الذي أوحى وأرسله إلى الناس كافة، ليخبرهم بأن ربهم وخالقهم إله واحد متفرد بالعبودية، لا يستحق العبادة غيره، فهو الإله الحق، وما سواه من المألوهات فباطل، فالإله الحق هو الله الواحد الأحد، الذي خلقهم ورزقهم، وأنعم عليهم، فيجب أن يفردوه بالعبادة .

وقوله : ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾، أي : من أيقن بأنه سيلقى الله غداً في الآخرة، وسوف يجد كل ما قدم من الأعمال في الآخرة، فعليه أن يجتهد في العمل الصالح، ويخلص ذلك لله تعالى، ولا يشرك فيه أحد، برياء أو سمعة، أو تمدح، أو طلب ثناء من الناس .

وقد فسر اللقاء في الآية بالرؤية، أي : من كان مؤمناً بأنه سيلقى الله تعالى ويراه، وأنه سوف يحاسبه على ما عمل في الدنيا .

وقد أخذ من الآية ما يشترط لقبول العمل، وهو الإخلاص والمتابعة، حيث نهى أن يشرك العبد أحداً من المخلوقات في عبادة ربه، أو يقصد بعض المخلوقات بأن يحسن العمل، أو يزيد فيه لمراءات البشر، أو طلب الثناء منهم،

وهذا شرط الإخلاص.

وحيث أمر الله بإصلاح العمل وإتمامه، وذلك بمتابعة النبي ﷺ في ذلك العمل وعدم الابتداع، وعدم المخالفة، وبذلك يرجىٰ قبول الأعمال، وهو معنىٰ ما روي عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ أنه قال في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه. ثم قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواب ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتىٰ يكون خالصاً صواباً.

والخالص أن يكون لله تعالىٰ وحده، والصواب أن يكون علىٰ السنة.

وقال في ذلك الصنعاني رحمه الله تعالىٰ:

فللعمل الإخلاص شرط إذا أتى

وقد وافقته سنة وكتاب

فالإخلاص أن يريد بعمله وجه الله تعالىٰ، فلا يكون فيه شيء لغير الله، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في دعائه: (اللهم اجعل عملي صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل فيه لأحد شيئاً)، والله أعلم.

وقد تكاثرت الأحاديث في ذم الرياء وبيان خطره وأنه يحبط العمل ومن ذلك:

■ **قوله: [وعن أبي هريرة، مرفوعاً: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[1]، رواه مسلم]:**

وفي رواية: «وأنا منه بريء»[2]. وفي بعض الأحاديث: إن الله يقول للذين

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجها ابن ماجه برقم (٤٢٠٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححها الألباني برقم (٣٣٨٧)، في صحيح سنن ابن ماجه.

يــراءون: «**اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم بأعمالكم، انظروا هل تجدون عندهم من جزاء أعمالكم شيئاً؟**»(١)، أي: هل يجازونكم؟ انظروا هل يعطونكم ثواباً على تلك الأعمال؟ أنتم لم تصلوا لله، ولم تنفقوا لله، إنما أنفقتم للناس، فاذهبوا إلى أولئك الناس الذين كنتم تراءونهم، واطلبوا منهم جزاء أعمالكم، وحيث أنهم في ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة فقراء مثلهم، لا يجدون عندهم جزاء، فكيف يطلبون منهم جزاء؛ فذلك دليل على حبوط الأعمال، وأنه لا ثواب فيها، حيث داخلها ما أبطلها.

■ **قوله: [وعن أبي سعيد، مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قالوا: بلى، قال: «الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيُزيِّنُ صلاته، لما يرى من نظر رجل»(٢)، رواه أحمد]:**

في هذا الحديث سمى النبي ﷺ الرياء شركاً خفياً؛ وذلك لأن الناس ينظرون إلى عمله ظاهراً حسناً، ولكن قلبه يضمر أنه لغير الله، فهو مشرك بالله شركاً خفياً، وشركاً قلبياً، لا يطلع عليه إلا ربه الذي يعلم نياته، ويعلم ما قام في ضميره، فأما الناس فلا ينظرون إلا إلى عمله الصالح، وهم لا يشعرون به، وما يضمره في قلبه، فيرون هذا الإنسان ـ مثلاً ـ يصوت بالقراءة، ويتغنى في قراءته،

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٣/ ٤٦٦) و(٤/ ٢١٥)، والترمذي برقم (٣١٥٤)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه برقم (٤٢٠٣)، ولفظه: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك في عملٍ عَمِلَهُ لله فليطلب ثوابه من عند غير الله...**».

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وابن ماجه برقم (٤٢٠٤)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٩)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
وصححه الحاكم، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٩٥): إسناده حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٦٠٤).
وله شاهد عن محمود بن لبيد أخرجه ابن خزيمة رقم (٩٣٧) وصححه، والبيهقي (٢/ ٢٩٠) رقم (٣٤٠٠)، وحسن الذهبي إسناده في المهذب (٢/ ٢٦١).

ويتدبر ويتخشع، ولا يطلعون على ما في قلبه من أنه ما قرأ إلا من أجل التمدح، وما قرأ إلا من أجل السمعة واشتهار الذكر عند الناس.

كذلك - أيضاً - يرونه - مثلاً - يتصدق، وينفق في سبيل الله، وفي وجوه الخير، فيحسنون به الظن، وهو لم ينفق إلا من أجل المدح، ومن أجل الثناء، ومن أجل الذكر الحسن، والشهرة عند الناس، فلا يطلع على هذه النية في قلبه إلا ربه؛ فمن أجل ذلك صار شركاً خفياً.

وهكذا في الأعمال الأخرى، كالطهارة والصلاة، فتجد أحدهم يرائي في الوضوء بأن يحسن وضوءه أمام الناس، وإذا كان لوحده لم يتوضأ الوضوء الكامل، وكذلك في الصلاة، فتجده ينقرها نقر الغراب إذا كان لوحده، كما جاء في بعض الأحاديث[1]، أما أمام الناس فتجده يتخشع ويطمئن فيها ونحو ذلك، فهذا كله من الرياء الذي يحبط الأعمال.

وعلامة المرائي هي: أنه إذا عمل العمل أمام الناس زاد فيه وحسنه، وإذا عمله خالياً لم يحسنه؛ بل أساء فيه والعياذ بالله.

وهناك قسم من الناس - والعياذ بالله - شرٌ منه، وهو الذي يعمل من أجل الناس، فيصلي إذا رآه الناس، فإذا لم يروه ترك الصلاة، ولا يقرأ إلا إذا كان بمسمع من الناس، فإذا لم يكن بمسمع لم يهتم بقراءة، ولا ينفق إلا إذا كان الناس ينظرون إليه، فإذا دعي إلى وجوه الخير، والناس ينظرون أنفق، وإذا عرف أو رأى وجوه الخير وهو خالٍ لم ينفق، ولم يهتم بالنفقة في هذا المشروع الخير، وما أشبهه. فمثل هذا لم يعمل إلا للناس ولم يعمل لله أصلاً، فيعاقب على فعله؛ لأنه عبد الناس، ولم يعبد الله.

---

(١) كما في حديث عبدالرحمن بن شبل الذي قال فيه: «نهى رسول الله ﷺ عن افتراش السبع، ونقرة الغراب، وأن يوطِّن الرجل المكان كما يوطن البعير».
أخرجه أبو داود برقم (٨٦٢)، والنسائي (٢/ ٢٤١) رقم (١١١١)، وابن ماجه برقم (١٤٢٩)، والدارمي برقم (١٣٢٣)، وأحمد (٤٢٨).

وقد اشتهر أن النبي ﷺ أخبر بأن الذين يراءون الناس بأعمالهم، ولا يعملون إلا للناس؛ هم أول من تسعر بهم النار، كما في حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار كما رواه أبو هريرة[1]؛ وذكر فيه: أنه يجاء بهؤلاء الثلاثة، فيقال لأحدهم: ماذا عملت؟ فيقول: جاهدت في سبيلك حتى قتلت، فيقول الله: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جريء، فقد قيل، ويؤتى بصاحب القرآن والعلم، فيقول: قد تعلمت فيك القرآن، وتعلمت فيك العلم، فيقول الله: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت ليقال: قارئ، فقد قيل، ويقال مثل ذلك للمنفق، فيقول: ما تركت وجهاً تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيه، فيقول الله: كذبت، ولكنك فعلت ذلك ليقال: فلان جواد، فقد قيل، فيؤمر بهم فيسحبون في النار على وجوههم والعياذ بالله؛ لأنهم عملوا للناس ولم يعملوا لله؟ فالذي يعمل لله هو الذي يقصد بعمله وجه الله وطاعته.

وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، أو ليرى مكانه، ويقاتل للمغنم، أي: ذلك في سبيل الله، فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[2]، أي: ما عداه فليس في سبيل الله، بل في سبل النفس والشيطان والهوى.

فهكذا يكون الرياء محبطاً للأعمال، ومبطلاً للثواب، ومسبباً لدخول النار، كما في حديث الثلاثة، ومبطلاً لما اقترن به من الأعمال، وهذا سبب تسميته شركاً. والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجه مسلم رقم (١٩٠٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٣)، ومسلم برقم (١٩٠٤)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.



[٣٦]

باب:

من الشرك: إرادة الإنسان بعلمه الدنيا

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

في الصحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أُعطي رضي، وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله: «**تعس وانتكس**».

السادسة: قوله: «**وإذا شيك فلا انتقش**».

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
من الشرك: إرادة الإنسان بعلمه الدنيا

المراد بالعمل هنا: العمل الأخروي، أي: الأعمال التي يُبتغىٰ بها ثواب الآخرة، فهذه لا يجوز للإنسان أن يريد بها حظاً دنيوياً؛ بل يفعلها إرادة لوجه الله، لا لطلب منصب، ولا لطلب مالٍ، أو طلب كسبٍ، أو ما أشبه ذلك.

والباب الذي قبله: (باب الرياء)، أخص من هذا الباب؛ لأن ذلك الباب فيمن يعمل من أجل مدح الناس وثنائهم له، أما هذا الباب: ففيمن يعمل العمل من أجل المصلحة العاجلة، من مال أو نحوه.

والمراد بالأعمال هنا: الأعمال التي يتقرب بها إلىٰ الله، ذلك لأن الله لم يأمرنا بها إلا لنخلصها له، لا لنقصد بها حظاً عاجلاً، ولا لنقصد بها مدحاً وثناءً، ولا لنحصل بها علىٰ شهرة أو جاه، وإنما نفعلها نقصد بها وجه الله من أجل الثواب الأخروي؛ هذه هي الحكمة في فرضها، ولا نبالي بمدح الناس، أو ذمهم، ولا نبالي بعطائهم، أو حرمانهم.

ومما يدل علىٰ هذا الباب حديث أبي موسىٰ - المتقدم - في المجاهد، لما سئل النبي ﷺ عن الرجل يجاهد للمغنم، ويجاهد شجاعة، ويجاهد حمية، ويجاهد أو يقاتل ليرىٰ مكانه، فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١)، فجعل من الذين يقاتلون من أجل الدنيا من يقاتل من أجل المغنم.

أي يكون قصده من القتال الحصول علىٰ الغنيمة، أي: الأجر الدنيوي،

---

(١) سبق تخريجه.

فأصبح هذا عملاً أخروياً يراد به أجر دنيوي، وهو الغنيمة التي هي عرض دنيوي.

وكذلك - أيضاً - سائر الأعمال التي تتخذ قربات كالحج، فهو عمل أخروي، وعمل طاعة وبر، ولكن قد يقصد بعض الناس منفعة دنيوية، كالذي يحج ولا يقصد من وراء حجه سوى التجارة والربح، ولم يقصد أداء الفرض، فهذا حجه ليس لله، وإنما من أجل الدنيا.

وكذلك من يأخذ أموال الناس ويحج، وهو لا يقصد الحج، وإنما يقصد أن يأخذ الأموال مع أنه غني قادر، ولكنه يطمع في المزيد، وقد رخص العلماء للفقير فحسب أن يأخذ المال من أجل تحصيل الحج، أما الغني القادر فلا.

وقد ثبت أنه ﷺ قال لرجل أوصاه: «**أن اتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً**»[1]. فإذا كان المؤذن مثلاً، أو الإمام أو العالم، إنما يتعلم هذه العلوم، أو يقوم بهذه الإمامة، أو نحوها، أو يقوم بهذا الأذان، أو بهذا العمل الأخروي، الذي هو عمل شريف من أجل منصب دنيوي، أو لأجر دنيوي، فإنه يدخل في هذا الباب؛ لأن هذه أعمال شريفة يثاب عليها، فمعلم الناس الخير يثاب على تعليمه، وكذلك الذي يؤمهم لقصد وجه الله تعالى يثاب على إمامته، وكذلك المؤذن يثاب على أذانه إذا احتسب، فيكون أخذه الأجر على ذلك من المصلين أو غيرهم يعتبر تعجيلاً للأجر وإبطالاً للعمل من أصله.

ورخصوا إذا أخذ رزقاً من بيت المال، فإنه يستعين بذلك على قيامه بالعمل؛

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٩)، وأبي داود برقم (٥٣١)، وابن ماجه برقم (٧١٤)، عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي وابن ماجه، وقال في صحيح أبي داود: صحيح دون قوله: «**واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً**».

لأنه قد يحبس نفسه، ويتفرغ لهذا العمل، فإذا أخذ رزقاً من بيت المال الذي فيه حق لكل ذي عمل من الأعمال المهمة، كالقضاة، والمعلمين، ونحوهم، فإن ذلك جائز؛ حيث إنه لم يأخذ إلا شيئاً مستحقاً، وموقوفاً على أمثاله؛ ولكن الذي يأخذ أجره من المصلين، هو الذي يكون قد تعجل نصيبه.

وقد سئل الإمام أحمد عن رجل قال لجماعة: أصلي بكم بكذا وكذا، فقال أحمد: أسأل الله العافية، ومن يصلي خلف هذا؟ يعني: أنه لم يُصَلِّ لله، إنما فرض على المصلين فرضاً، كأنه قال: اجمعوا لي من أموالكم كذا وكذا، وأنا أصلي بكم، فهذا قد عمل عملاً للدنيا، وهذا في الأعمال العامة.

ومثلها ـ أيضاً ـ الأعمال الخاصة، فإن الإنسان إذا دخل في الإيمان من أجل أن يحصل على مال، فإذا لم يحصل عليه ترك الإسلام، فهذا لم يعمل لله.

وقد وُجد كثير من الكفار الذين رُغِّبوا في الإسلام، وقيل لهم: ستحصلوا على مال أو منصب أو مصلحة دنيوية إذا دخلت في الإسلام، فإذا دخل في الإسلام ولم يعط ما وُعد به ترك الإسلام وارتد والعياذ بالله، فهذا ما عبد الله، وإنما عبد المادة وعبد الدنيا.

وهكذا الذي يحافظ على صلاة الجماعة في المسجد من أجل مصلحة دنيوية، فإذا انتهت هذه المصلحة، أو لم تحقق له أصلاً؛ ترك الصلاة مع الجماعة، فهذا ما عمل العمل إلا لأجل الدنيا، نسأل الله العافية.

وهكذا في سائر الأعمال؛ سواء كانت أعمالاً شخصية أو أعمالاً اجتماعية عامة؛ فهذا هو المراد بإرادة الإنسان بعمله الدنيا، ففرق بينه وبين الباب الأول.

والحاصل أن هذين البابين فيمن يعمل الأعمال الأخروية من أجل مصالح

عاجلة، إما مخصوصة كالأموال ونحوها، أو معنوية كالجاه والمنصب، ويعمل للشهرة بين الناس، ومتى تجنبها المسلم فإن عمله يكون خالصاً.

والله تعالى قد مدح أهل الإخلاص، ولا يكون العمل خالصاً إلا إذا سلم لله دون أن يكون فيه شائبة، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، والإخلاص: هو الصفاء، أي: خالصة أعمالهم ليس فيها أية شائبة تجعلها لغير الله.

وكان بعض الصحابة يدعو بقوله: (اللهم اجعل عملي صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً)(١).

ويجب على الإنسان أن يتفقد نفسه، هل هو مراءٍ؟ وهل هو طالب لمصالح دنيوية أم لا؟

ولكن كيف يعرف ذلك من نفسه؟!

يعرف ذلك بالفرق بين قراءته عند الناس، وقراءته وحده، فإذا كانتا سواء فهو مخلص.

وكذلك الفرق بين صلاته وحده، وصلاته عند الناس، فإذا صلى وحده خشع في صلاته، وصلى عند الناس صلاته التي يصليها منفرداً فهو مخلص.

وكذلك يتفقد قلبه إذا تصدق والناس ينظرون، أو تصدق صدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، فمتى كانت صدقته هذه وتلك سواء فإن ذلك دليل على إخلاصه.

---

(١) سبق ذكره في الباب السابق، وقال الشارح الشيخ ابن جبرين: أنه مروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فإن كان الأمر بالعكس، بأن كانت صدقته في السر قليلة، وفي العلانية كثيرة، وكذلك صلاته في السر وفي الخفية والخلوة صلاة بلا خشوع، وبلا طمأنينة، بل صلاة مع عجلة، وصلاته أمام الناس فيها خشوع وتواضع وطمأنينة وأشباه ذلك، فإن في عمله شيئاً من الخلل، فعليه أن يتفقد نفسه، وأن يحرص على إخلاص عمله، ويعمل بما أمر الله به في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، والله أعلم.

■ **قوله: [وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [هود: ١٥، ١٦]]:

استدل المؤلف رحمه الله بهذه الآية على هذا الباب، فقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾، الإرادة هنا: هي النية، أي: من كان يريد بأعماله الظاهرة ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: لا يعمل إلا للدنيا، سواء عمل بتحصيلها مباشرة، أو بواسطة عمل أخروي، ﴿وَزِينَتَهَا﴾، أي: ما عليها من المتاع، ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾، أي: نعجل لهم جزاءَ أعمالهم في الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾، أي: لا يظلمون، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾، وعدهم أنهم لما متعوا بأعمالهم في الدنيا جاءوا في الآخرة ليس لهم أعمال ولا حسنات، حيث تمتعوا بها في الدنيا، فجاءوا مفاليس، فليس لهم إلا النار، ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأعمالهم قد استوفوها في الدنيا، فأصبحت حابطة وباطلة يوم القيامة، والكلمتان: حبط وباطل بمعنى واحد.

ومثل هذه الآية قول الله تعالى في سورة الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ

الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، والمراد بالحرث: المتاع، والمراد بالإرادة: النية، أي: من كان يريد بأعماله الآخرة فإن الله تعالى يرزقه في الدنيا، ويعطيه في الآخرة الحظ الأوفر، ويضاعف له الثواب.

أما من كان يريد الدنيا ومتاعها وحرثها وما عليها فإن الله تعالى يؤتيه منها حظاً على قدر ما كتب له، وفي الآخرة ليس له حظ ولا نصيب.

وقوله: **﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾**، فظاهرها أن كل الكفار يوفون أعمالهم في الدنيا، وأنهم يمتعون ويعطون أعمالهم كلها في الدنيا، لكن كثيراً من الكفار ليس لهم أي أعمال أخروية، فلا يعطون لا في الدنيا ولا في الآخرة، فهذه الآية قد تكون مقيدة بآية سورة الإسراء، وهي قول الله تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾** [الإسراء: ١٨]، أي: أن من أراد الله أن يعجل له أجره في الدنيا عجّله له، ومن أراد حَرَمَهُ خيري الدنيا والآخرة.

فقد يوجد كثير من الكفار محرومين في الدنيا، وفي الآخرة بطريق الأولى؛ حيث إنهم كفار، فيكونون فقراء وعالة، فيصابون بالفتن والمرض، وما أشبه ذلك، وبذلك يعاقبون في الدنيا وفي الآخرة.

ومن الكفار من يمتعون في الدنيا، وتعجل لهم طيباتهم وبهجتهم وسرورهم في الدنيا ـ وهذا هو الغالب ـ، وهو معنى قوله: **﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾**، من أجل ذلك سميت الدنيا أو وصفت بأنها: «**سجن المؤمن، وجنة الكافر**»[1]، فالمؤمن فيها كأنه سجين إلى أن ينفصل منها ويذهب إلى الآخرة،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فحينئذ ينتقل من ذلك السجن.

أما الكافر، فإنه قد اتخذها دار قرار، فهي جنته التي يتنعم فيها، وليس له في الآخرة جنة.

ومن أجل ذلك ذكر الله أنه قد يعطي الكفار من متاع الدنيا ما يعطيهم، ولكن قد يمنعهم من بعض الذي يتمتعون به مخافة أن يرتد الآخرون، وأن يفعلوا كفعلهم، وألا يبقى على الأرض أحد إلا كافر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: على الكفر، ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، أي: لجعلنا سقوف بيوتهم كلها من فضة، ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي: ونجعل درجها الذي يرقون عليه من فضة، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾، أي: من فضة، ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾، أي: من فضة يتكئون عليها، ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أي: ذهباً، ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ـ٣٥].

فلو قدر أن بعض الكفار يُعطى هذا، فليعلم أن هذا كله متاع الحياة الدنيا، وثواب الآخرة عند الله تعالى هو الباقي، الذي يثيب به المؤمنين.

فعلى كل حال فإن المؤمن يحتسب ما زوي عنه من متاع الدنيا وبهجتها ولذتها، ويحتسب ذلك عند الله، ولا يفرح بنقص الشهوات والمتاع عليه، سيما إذا خشي أن تفتنه وأن تصده عما هو مخلوق له، فإن الفرح بهذه الشهوات وهذا المتاع فيه مشابهة للكفار الذين عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، والذين يوفون جزاء أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون.

أما إذا كان الإنسان يريد وجه الله بأعماله الصالحة، وحصل له مصلحة

دنيوية، وغير مقصودة، وليست هي الأساس، ولا جعلها كأنها الأصل، وأخذها ليستعين بها على حياته فإنه إن شاء الله لا يدخل في هذه الآية، كما تقدم.

■ قوله: [**في الصحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»**[1]]:

دلالة هذا الحديث على الباب من جهتين في أوله وفي آخره، والدلالة في أوله أظهر وأوضح، وذلك:

أولاً: سماه عبداً لهذه الأشياء.

وثانياً: بين معنى كونه عبداً لها.

وثالثاً: أضاف عبوديته إليها.

ورابعاً: دعا عليه بالتعس وبالانتكاس، وبعدم الخروج من المضائق والشدائد.

فقوله: «**تعس**»، افتتح بكلمة (تعس)، أي: سقط على وجهه، وهذا دعاء عليه بأن لا يوفق، وأن لا ينجح في أموره، وفي سيره، ونحو ذلك، بل ينقلب على وجهه؛ والمراد هنا: السير المعنوي في أمور حياته.

وقوله: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط**».

الدينار، والدرهم: معروفان، وهما من أنواع العملات التي يتعامل بها،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٧)، عن أنس رضي الله عنه.

والدرهم: قطعة من الفضة، **والدينار**: قطعة من الذهب، **والخميصة**: نوع من اللباس، وكذلك **الخميلة**: نوع من اللباس، وهذا مثال على أمور الدنيا، أي: أن هذه الأشياء من الأمتعة التي يقصدها الناس غالباً، ويحرصون عليها، واقتصر عليها لأنها مثال لغيرها، أو يقاس عليها متاع الدنيا.

أما كونه عبداً لهذه الأشياء، فقد فسره بقوله: «**إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط**»، أي: أنه يرضى من أجل الدرهم، ويسخط ويغضب من أجل الدرهم، وكأنه يحب من أجل الدرهم، ويبغض من أجله، ويرضى من أجله، ويغضب من أجله، ويوالي من أجله، ويعادي من أجله، وهكذا الدينار.

فهو بذلك كأنه عبد له، وعبد الشيء هو ما يتذلل له، والإنسان مأمور بأن يكون عبداً لله ومتعبداً ومتذللاً لله، فإذا تعبد لهذه الأمور من الدنيا أصبح كأنه عابد لها؛ لأن من تعبد لشيء فقد عبده، أو قد يعظمه كتعظيم الله.

ويدخل في ذلك جميع أنواع المتاع، وجميع أنواع المقاصد، كمن يحب شخصاً لا لدينه، وإنما أحبه لمصلحة جاءت من قبله، فإن هذا عبد لتلك المصلحة التي جاءته.

والمطلوب أن تحب الإنسان لتقواه وورعه وديانته، سواء أحسن إليك أو أساء، فإذا حصل لك منه إساءة فإنك لا تقاطعه بسبب هذه الإساءة إذ أنك تحبه من أجل حب الله له، وتلك الإساءة التي أصابتك بسببه قد يكون معذوراً فيها.

فالواجب عليك ألا تقاطع الرجل الصالح، وإن أساء إليك، وإنما تقاطع عدو الله والمعادي لشرعه، هذا هو الأصل في العطاء والمنع، والرضى والسخط، والولاء والبراء، والحب والبغض، وما أشبهها.

فيجب على الإنسان أن تكون هذه الأشياء لله لا من أجل الدنيا، ولا من أجل الدرهم والدينار.

ثم قوله: «تعس وانتكس»، فالتعس: هو السقوط على الوجه، والانتكاس: هو الانقلاب على الرأس، فكأنه سقط على وجهه ولم يكتف بذلك، بل انقلب على رأسه إلى أن انقلب على قفاه.

وذلك تمثيل لسقوط الإنسان في المهالك والمهاوي والمضائق التي بعد الوقوع فيها يصعب التخلص منها، أو سقوطه في الشدائد التي تعوقه والتي تؤرقه في حياته.

وقوله: «وإذا شيك فلا انتقش»، أي: إذا أصابته شوكة فلا يقدر على إخراجها بالمناقيش، والمنقاش هو: الحديدة التي لها طرفان يلتقيان ويقبضان على الشوكة في القدم، أو في اليد، أو نحو ذلك.

وهذا أيضاً تمثيل؛ أي: أنه دعا عليه بأنه إذا وقع في شدائد أو محن لم يقدر على التخلص منها، ولا شك أن هذه الدعوة النبوية ستصيبه لا محالة إما عاجلاً وإما آجلاً.

ثم دعا في آخر الحديث لمن لم يكن كذلك، فقال: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه» إلى آخر الحديث.

وطوبى: قيل إنها شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام، وقيل: إنها اسم للجنة، وقيل: المراد: الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة؛ أي: طابت حياته وطاب عيشه، وطاب مأواه ومثواه ومنقلبه، أو رزق بدخول طوبى التي هي هذه

الجنة أو التي هي هذه الشجرة.

فتكون الأعمال التي عملها هذا العبد الصالح حتى يستحق دعوة النبي ﷺ هي:

أولاً: أنه أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أي: جاهد وخرج في سبيل الله على فرسه التي هي من خالص ماله.

ثانياً: أنه في سبيل الله، أي: لم يكن في سبيل الوطن، ولا في سبيل العروبة، ولا في سبيل النفس، ولا الهوى، إنما هو في سبيل الله؛ وذلك دليل على الإخلاص.

وقد قيل للنبي ﷺ عن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل لمغنم، ويقاتل ليُرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١)، فهذا الرجل الذي دعا له بطوبى يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

ثالثاً: وصفه بأنه أشعث أغبر، أي: أنه حقير عند الناس، لكنه ليس حقيراً عند الله؛ فالناس يحتقرونه لمظهره، فإن المظهر هو الذي يدل على فضوله ويدل على عدم اهتمامه بنفسه، ولعل ذلك من باب التواضع؛ حتى لا يكون له شهرة.

وقيل: إنه أشعث أغبر لانشغاله بالقتال على العناية بنفسه، والشعث والغبرة تكون في الشعر والجلد في ظاهره، أي: أن جلده وبشرته عليها من الغبار ومن الأتربة وما أشبهها.

ورأسه متشعث، أي: منتشر الشعر، لم يتفرغ لغسله ولا لتسريحه، ولا

---

(١) سبق تخريجه.

لدهنه، ولا العناية به، فرأسه دائماً شعث، إما كما قلنا: لعدم التفرغ، وإما تعمداً من أجل التواضع حتى لا يعرف مكانه بين الناس، ولذلك كان هذا دليلاً على إخلاصه.

وقوله: «**إن كان في الحراسة كان في الحراسة**»، **والحراسة**: هي حراسة الجيش عن أن يفجأه العدو، أي: إذا وكل إليه أن يحرس، ـ مثلاً ـ المقاتلين أو يحرس الأسلحة والذخائر فإنه يقوم بذلك أتم قيام؛ لأن عمله لله، وليس للنفس فيه حظ ولا مطمع، إنما هو من أجل الله، ومن أجل ثوابه.

وكذلك قوله: «**وإن كان في الساقة كان في الساقة**»، والساقة: هي ساقة الجيش، أي: إذا أسند إليه أن يمشي في مؤخرة الناس حتى يحثهم على السير، ولا يترك أحداً يتخلف، فإنه يفعل ذلك ويحثهم ويزجرهم، ويؤزهم أزاً إلى الاندفاع وعدم التثاقل والتباطؤ مخلصاً في عمله.

فقوله: «**إن كان في الساقة كان في الساقة**»، أي: كان فيها بإخلاص، وكان فيها بلطفٍ، وبقوة وعدم توانٍ؛ وسبب ذلك عدم إرادة الدنيا، وإنما يريد ثواب الله.

ثم وصفه أخيراً بما يدل على عدم شهرته عند الناس، فقال: «**إن استأذن لم يؤذن له**»، أي: إن استأذن على أمير الجيش مثلاً، أو على أمير البلاد، فإنه لا يؤذن له؛ لأنه لا يعرف وليس مشهوراً، فمظهره يدل على تواضعه، وعلى عدم اهتمامه بنفسه، وعلى عدم اهتمامه بالناس، وإنما هو مشغول بإصلاح نفسه، ودينه، وعقيدته، وهمه إرادة وجه الله تعالى.

فإذا استأذن على الملوك، أو على الأمراء، فجاء على الأبواب فهو كما ورد

في الحديث: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»[1]، أي: قد يوجد شخص فيه هذه الصفة، ذو طمرين، أي: ثوبين خلقين، أشعث رأسه، مغبر بدنه، ومع ذلك يدفع بالأبواب، إذا دخل أو أراد الدخول دفعه الحراس والشرط وطردوه، وقالوا له: ابتعد لست من أهل هذه الأماكن.

فهكذا هذا الرجل الذي هذه أخلاقه، إذا استأذن ليدخل، أو ليتكلم مع أحد لم يؤذن له؛ لأنه لا يُعرف، وليس بمشهور، بل هو حريص على إخفاء ذكره، وعدم إشهار نفسه، ولا حاجة له بذلك ليكون عمله لله تعالى.

وكذلك قوله: «**وإن شفع لم يشفع**»، فإنه إن شفع لأحد من الجيش - مثلاً -، أو للناس، قام لطلب منفعة، أو مصلحة، أو عطاءٍ أو نحو ذلك، لم تقبل شفاعته؛ لأن عادة الملوك والأمراء إنما يشفِّعون من يعرفون.

فأما الذي لا يعرفونه فلا يقبلون شفاعته، أو إنما يشفعون من له وجاهة وله مكانة، فأما سائر الناس الذين من عوام الناس، فإنهم لا يشفعونهم، ولا يقبلون شفاعتهم، لعدم حاجتهم إليهم، وإنما يقبلون شفاعة من هو ذو وجاهة، وذو مكانة عندهم، ويرجون نصحه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «**رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**».

وأخرجه مسلم برقم(٢٨٥٣)، عن حارثة بن وهب رضي الله عنه بلفظ: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل جواظ زنيم متكبر**».

وأخرجه مسلم برقم (٢٨٥٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فيستفاد من هذا الحديث:

أولاً: أنه ﷺ دعا عليه بقوله: تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميلة.

ثانياً: أنه سماه عبداً لها.

ثالثاً: أنه ذكر هذه الأمثلة، والمراد إلحاق غيرها بها.

رابعاً: أنه فسر هذه العبودية بقوله: إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض، أي: سخط علىٰ من منعه، ولم يكن رضاه وسخطه لله.

والمؤمن حقّاً هو الذي يحب أهل الخير، ويرضىٰ عنهم؛ سواء أعطوه أو منعوه، حيث أنهم من أهل الدين والصلاح فيحبهم ويواليهم ويقترب منهم، ويعادي العصاة ولو أعطوه، ولو أكرموه وقربوه، ورفعوا من شأنه، فيعاديهم أتم عدواة، فحينئذ يكون من الذين يحبون لله، ويبغضون لله.

■ ■ ■ ■ ■

[٣٧]

باب:

من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، فقد أتخذهم أرباباً من دون الله

وقال ابن عباس: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبوبكر وعمر).

وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعلَّه إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟»، فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»، رواه أحمد والترمذي وحسنه.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية. وعبادة الأحبار: هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، فقد أتخذهم أرباباً من دون الله

من أنواع الشرك؛ شرك الطاعة، أي: طاعة المخلوق في معصية الخالق تعظيماً لذلك المخلوق، وذلك فيما إذا أطاعه المرء خائفاً من سطوته فوافقه على ذلك، ولم يكن مكرهاً، أو نزل على رغبته، فأحل الحرام، وحرم الحلال، أو عظمه بهذه الطاعة، واعتقد أنه أهل أن يطاع، ولو فيما هو معصية، فإن هذا سبب تعظيم المخلوق.

وقد يكون أكبر من الشرك؛ لأنه قد يجعله مشرعاً، وهو أكبر من أن يعبده، فيجمع بين الأمرين، فيجعله مشرعاً وحاكماً في أمره من قبل نفسه، ثم مع ذلك يعظمه بقبول ذلك الشرع الذي شرّعه، فيطيعه في المعصية، ويعصي الله، ويخالفه في الواجب، فيعصي الله، فيفعل الحرام طاعة لمخلوقٍ، ومعصية للخالق، ويرتكب المنهيات ويترك الواجبات، وما أشبه ذلك.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[1]، أياً كان هذا المخلوق، حتى ولو كان هذا المخلوق عالماً، أو أستاذاً، أو موجهاً، أو والياً وحاكماً، أو قاضياً، أو مرشداً، أو مثل ذلك، فلا يجوز له أن يأمر بمعصية، ولا

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٣١، ٤٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٤٥٦٨ ـ ٤٥٦٩). عن علي رضي الله عنه. قال أحمد شاكر (١٠٩٥): إسناده صحيح. وصححه الألباني في «الصحيحه» رقم (١٧٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

يجوز للمسلم أن يطيعه، وهو يعرف أن أمره هذا معصية، ولو لم يظهر له دليل، ولكن لم يتضح له وجاهة ما أمر به، فلا يطيعه حتى يعرف أنه لا يخالف أمره نصّاً أو شرعّاً.

ومعلوم بأن الله أمر بطاعة ولاة الأمر، ولكن في حدود، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وأولو الأمر هم: الذين لهم الأمر، كالعلماء، والقضاة، والولاة، والحكام، والأمراء ونحوهم، وقد أمر الله بطاعتهم، ولكن طاعتهم مسبوقة بطاعة الله ورسوله، فقدم طاعة الله وطاعة رسوله، ثم أتبع ذلك بطاعة أولي الأمر؛ فدل ذلك على أن طاعة الله ورسوله مقدمة على طاعة كل أحد، وهذا معنى قوله: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**».

ولما أرسل النبي ﷺ جيشاً وأمّر عليهم عبد الله بن حذافة؛ أمرهم بأن يطيعوه فامتثلوا ذلك، فغضب مرة، فأوقد ناراً وأججها، وقال لهم: ادخلوها، فَهَمَّ بعضهم أن يدخلها، ولكن فكروا، وقالوا: ما اعتنقنا الإسلام ولا دخلنا فيه إلاهرباً من النار، فكيف ندخلها؟ فعند ذلك تحاجزوا مع بعضهم البعض حتى خمدت النار، وسكن غضبه، فلما أُخبر النبي ﷺ، قال: «**ولو دخلوا لما خرجوا منها**»(١)؛ لأنهم عظموه تعظيماً زائداً يقرب أن يكونوا عاونوا في قتل أنفسهم، ثم قال ﷺ: «**إنما الطاعة في المعروف**»(٢)، وهذه كلمة جامعة شاملة.

فطاعة الولاة ونحوهم إنما تكون في المعروف لا في المنكر؛ إذ أن من أطاعهم بتحليل الحرام، أو تحريم الحلال فقد اتخذهم أرباباً كما سيأتي في الآية، وكما

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧١٤٥)، ومسلم برقم (١٨٤٠)، عن علي رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه في الحديث السابق وهو جزء منه.

سيأتي في حديث عدي بن حاتم، فإن الله تعالىٰ سماهم أرباباً، والنبي ﷺ فسر عبوديتهم بطاعتهم بتحليل الحرام، وتحريم الحلال.

■ قوله: [**وقال ابن عباس: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبوبكر وعمر)**[(١)]]:

هذا الكلام قاله فيمن يخالف في متعة الحج، فكان ابن عباس يذهب إلىٰ وجوب المتعة في الحج، فيقول: إن من قدم مكة حاجّاً، فطاف بالبيت، وسعىٰ بين الصفا والمروة فقد تحلل، شاء أم أبىٰ، أي: قد انتهىٰ من عمرته، ولو بقي علىٰ إحرامه، وقال: أنا مفرد، أو أنا قارن؛ فإنه قد حلّ شاء أم أبىٰ.

ويقول: إنه قد أخذه من أمر النبي ﷺ، حيث أمر أصحابه ـ لما طافوا وسعوا ـ من لم يكن معهم هدي أن يتحللوا ويجعلوها عمرة، ولكن نُقل له أن أبا بكر وعمر يأمران بالإفراد، وينهيان عن المتعة، فقال: هذا أمر الرسول ﷺ، فكيف نطيع أبا بكر وعمر، ونخالف أمر النبي ﷺ؟!!

فأمر الرسول يقدم علىٰ أمر كل أحد؛ فإذا رجحتم قول أبي بكر وعمر علىٰ قول النبي ﷺ فقد تعرضتم للعقوبة، وتستحقون أن تنزل عليكم الحجارة عقوبة من الله تعالىٰ؛ حيث أطعتم من ليس برسول، وعصيتم الرسول، هكذا توعدهم: (**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء**)، أي: عقوبة لكم، (**أقول: قال**

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» رقم (١ / ٣٣٧)، وأبو بكر الأثرم في «السنن» كما في «المغني شرح مختصر الخرقي» (٥ / ٩١)، وإسحاق بن راهوية كما في «المطالب العالية» (١ / ٣٦٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١ / ١٤٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢ / ١٩٦)، والضياء في «المختاره» كما في «الآداب لابن مفلح» (٢ / ٦٦)، عن سعيد بن جبير.
وله شاهد من طريق عروة أخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٣/ ٢٣٤) بإسناد حسن. وصحح إسناده أحمد شاكر في «المسند»: (٣١٢١).

رسول الله ﷺ)، يعني: هذا قوله وهذا أمره وهو التمتع، (**وتقولون: قال أبو بكر وعمر**)، أي: قالا: لا يجوز التمتع، بل يلزم الحاج الإفراد أو القران.

والمسألة فيها خلاف: فذهب الإمام أحمد إلىٰ أفضلية التمتع.

وذهب المالكية ونحوهم كالشافعية إلىٰ أنه لا يجوز التمتع، وهو فسخ الحج إلىٰ عمرة، وقالوا: إن ذلك التمتع خاص بالصحابة في ذلك الزمان.

وللمسألة فروع ليس هذا محل بسطها، إنما الكلام في أن ابن عباس توعد من يخالف أمراً صحيحاً نبويّاً، ويقدم عليه قول أي مخلوق، توعدهم بالحجارة تنزل عليهم من السماء، فكيف بمن قدم من هو دون أبي بكر وعمر، حيث يوجد بعدهم أناس يقدمون أقوال أئمتهم، مثل أتباع أبي حنيفة، وأتباع أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وكذلك أتباع زفر، وأتباع الربيع والشافعي، والمزني ونحوهم.

يقدمون أقوال هؤلاء، وقد تقول لهم: إن السنة واضحة ولا يتقبلونها، فهؤلاء متعرضون ومستحقون لما توعد به ابن عباس أولئك.

■ **قوله: [وقال الإمام أحمد: (عجبت لقوم عرفوا الإسناد، وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النور: ٦٣]، **أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعلَّه إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك**)[1]]:

والمراد بسفيان: سفيان الثوري، وهو من أهل الكوفة، والإمام أحمد من أهل بغداد، فكلاهما من أهل العراق، ولم يدرك أحمد سفيان الثوري، ولكن أدرك تلامذة له يذهبون إلىٰ رأيه، ويقلدونه ويتبعونه كإمام لهم.

---

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» رقم (٩٧).

ومعلوم أن كثيراً من أقواله إنما هي آراء استحسنها مع كونه عالماً ومحدثاً، وحافظاً كبيراً وجليلاً، ولكن قد تضطره الحال في بعض الأحيان إلىٰ القول برأيه، فإذا قلدته واتبعت رأيه وأنت تعرف أنه مخالف للحديث الفلاني فقد تعرضت لرد قول النبي ﷺ، ولتقديم قول عالم غير معصوم علىٰ قول الرسول في رسالته.

فإذا اتضح لك أن قوله موافق للسنة، فإنك تعمل بالسنة، ويكون قوله مرجحاً لفهمك، وأما إذا اتضح لك أن السنة تخالف قول هذا العالم، ولو تمذهبت بمذهبه، فيجب عليك أن تتبع السنة.

فلو قال قائل: أنا علىٰ مذهب أحمد، ثم اتضح له أن فتواه مخالفة للسنة، أو: أنا علىٰ مذهب مالك، أو الشافعي، أو أبي حنيفة أو نحو ذلك، ثم اتضح له: أن هذه المسألة التي قال بها هذا الإمام مخالفة لنص صريح، أو حديث صحيح، لم يجز له تقديم قوله علىٰ قول النبي ﷺ مخافة أن يدخل في هذه الآية، فإن فيها الوعيد الشديد.

والإمام أحمد رحمه الله رأىٰ بعض تلاميذ الإمام سفيان الذين عاصرهم يقلدون رأيه ويتبعونه، وقد تكون بعض هذه الآراء مخالفة لأحاديث صحيحة وصريحة، ولكن مع ذلك يأخذون برأي إمامهم ويقلدونه، فغضب الإمام أحمد لهذا الصنيع، وقال: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلىٰ رأي سفيان». ثم استدل بهذه الآية التي من آخر سورة النور: **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾**، أي: أمر النبي ﷺ، **﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**، ثم قال: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك.

ففسر الفتنة هنا: بالشرك، كأنه يقول: أن يقع في قلبهم تعظيم لذلك المخلوق

فيكونون بذلك من المشركين.

والشرك قد يكون في الطاعة، وهو طاعة المخلوق في معصية الخالق، وتعظيم المخلوق في تقديم قوله على قول النبي ﷺ، فيكون شركاً في التشريع، وشركاً في الطاعة، وشركاً في التعظيم، وكل هذه لا تصلح إلا لله.

وطاعة الرسول إنما هي طاعة لله، ليست تعظيم للرسول، وإنما لأنه مرسل من الله، ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

فأما المخلوق الذي قد يصيب ويخطئ فلا يجوز اتباع أقواله، أو تقديمها على قول كل أحد، والتشدد في نصرتها، والتعصب لها، وإطراح سائر الأدلة، والانتصار للمذهب؛ فإن ذلك من صفات المتعصبين الذين قد يعاقبون بمثل هذا الوعيد في هذه الآية: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فإذا ردوا بعض قول النبي ﷺ فليحذروا أن يكونوا من الزائغين أو ممن أزاغ الله قلبه، والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، والزيغ هو: الانحراف عن قول الرسول وتعظيمه، واتباع ما جاء به، إلى تعظيم قول من ليس بمعصوم، أياً كان هذا الشخص.

■ **قوله: [عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟»، فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[١]، رواه أحمد والترمذي وحسنه]:**

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٠٩٥)، وأصله عند أحمد (٤/ ٣٧٨)، وحسنه الألباني في «غاية المرام» ص٢٠، وفي صحيح سنن الترمذي (٣/ ٥٦)، رقم (٣٣٠٦)، وقد حسنه شيخ الإسلام في «الإيمان» ص٦٤

وعزاه في الشرح[١]، لابن جرير[٢]، وابن أبي حاتم[٣]، وابن المنذر[٤]، وعبد بن حميد[٥]، وابن سعد[٦]، والبيهقي[٧]، فهو حديث مشهور.

وقد ذكر فيه أنه قدم على النبي ﷺ لما أُسرت أخته فمنّ عليها النبي ﷺ فرغبته في الإسلام، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وكان رئيساً في قومه، وأبوه حاتم المشهور بالكرم، فلما قدم عاتبه النبي ﷺ على هروبه، فلما أسلم استبشر بإسلامه، فسمع النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، فأنكر أن يكونوا يعبدونهم، وظن أن العبادة هي الركوع والسجود لهم، فبين له النبي ﷺ أن العبادة هنا هي الطاعة في تغيير شرع الله، حيث يحلون لهم المحرمات، ويحرمون عليهم بعض ما أحل الله لهم، فكأنهم أرباب مطاعون، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وذلك من القول على الله تعالى بلا علم، وقد قال بعض المشايخ: إنه أكبر من الشرك، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فبدأ بالأسهل وهو الفواحش، ثم بالإثم وهو أكبر منها، ثم البغي وهو أعظم من الإثم، ثم بالشرك وهو أشد من البغي، ثم بالقول على الله بغير علم؛ فدل على أنه أكبر من الشرك لأنه اعتراض على الله تعالى في تشريعه، وتدخل في الأحكام، فالفاعل لذلك مضاد لله في حكمه، معترض عليه في شرعه

---

(١) يشير الشيخ إلى «فتح المجيد» شرح كتاب التوحيد.
(٢) انظر تفسير ابن جرير (١٠ / ٣٥٤) رقم (١٦٦٤٦، ١٦٦٤٧، ١٦٦٤٨).
(٣)، (٤)، (٥)، (٦) كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٣ / ٢٣٠).
(٧) انظر البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠ / ١١٦).

وأمره، قد رفع نفسه فوق مرتبة العبودية إلىٰ مرتبة الربوبية.

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العباد، فالأحبار من اليهود، والرهبان من النصارىٰ.

وقد كان اليهود يعظمون علماءهم، و علماؤهم مداهنون، يتنزلون علىٰ رغبة أمرائهم، فيحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال، ويغيرون لهم الشريعة، ويسقطون عنهم الحدود، وكانت العامة أيضاً يطيعونهم في ذلك، وهم يعلمون أنه خلاف الشريعة، فسماهم الله أرباباً في فعلهم معهم؛ أي: مشرعين، فالرب؛ هو المالك، فكأنهم جعلوا أحبارهم يملكون الشرع، ويملكون السيادة، ويملكون الأمر والنهي، يمكلون مع الله، والملك كله لله.

واشتهر عند أحبار اليهود أنهم كانوا يتساهلون ويداهنون من أجل مناصبهم، ويتبعون رغبة ملوكهم، فيفتونهم في إسقاط الحدود.

فعلىٰ سبيل المثال: كانت الخمور محرمة عليهم، ولكن رأوا ملوكهم قد شربوها، ورأوا الناس قد شربوها، فعند ذلك حكموا بحلها.

وكذلك الرشا كانت محرمة في دينهم، ولكن عندما رأوا الكثير يأخذون تلك الرشا فقالوا بجوازها وإباحتها لهم، فعملوا بإباحتهم وبفتواهم، أي: عمل أولئك الذين يرتشون بفتوىٰ أولئك المحلين والمبيحين، وما حملهم علىٰ هذا إلا الحفاظ علىٰ مناصبهم ورئاساتهم، فإن أحدهم يقول: إن امتنعت وتكلمت بالحق عُزلت عن منصبي ومُنعت مما يُصرف لي، وسقط جاهي ومنزلتي، لذلك اتنزل علىٰ رغبة عوام الناس وافتي بما يناسبهم وما يوافقهم، فأفتىٰ بتحريم الحلال، وتحليل الحرام، وتغيير الحكم الأصلي.

فإذا رأيت الناس مثلاً قد وقع منهم شرب الخمر، فإن كان قوياً: غُيرت العقوبة، أو لا يعاقب كل الناس، أو تخفف لكثرتها، أو تسقط للعذر، أو يقام الحد على الضعيف ويترك الشريف، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «**إنما هلك من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**»[1]، فجعل هذا سبباً في هلاكهم، والسبب أن ملوكهم يحولون بينهم وبين الشرفاء وأهل الرفعة دون أن تقطع أيديهم.

وكذلك أيضاً في حد الزنا، كان حده في كتبهم رجم الزاني المحصن حتى يموت، ولكن وقع منهم في عهد النبي ﷺ أن اثنين زنيا فجاءوا إلى النبي ﷺ، وقالوا: إن أفتانا بالتحميم اتخذناه حجة عند الله، وقلنا: هذه فتوى نبي من أنبيائك، وإن أفتانا بالرجم لم نقبله، فلم يفتهم النبي ﷺ بشيء، لا بهذا ولا بهذا، ولكن قال: هاتوا التوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فجاءوا بالتوراة ونشروها ووضع أحدهم يده على آية الرجم، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فلما رفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقال النبي ﷺ: «**كيف تركتموه وغيرتموه؟**»، قالوا: إنه كثر في أشرافنا؛ أي: الزنا، فزنى مرة واحد من أقارب الملك فلم يقم عليه الحد لشرفة، ثم زنى بعد ذلك إنسان من أطراف الناس فأرادوا أن يقيموا عليه الحد بالرجم، فحال دونه عشيرته، وقالوا: لا يقام عليه الحد حتى يقام على فلان الذي هو أخو الملك أو قريبه، قالوا: فاصطلح علماؤنا على عقوبة تكون وسطاً تقام على هذا وعلى هذا وألغينا عقوبة الرجم.

فاصطلحوا على الجلد والتحميم، أن يجلدوا جلدات خفيفة، وأن يحمموا، أي: تسود وجوههم وتطلى بشيء أسود، ويطاف بالزاني والزانية على

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٨٧)، ومسلم برقم (١٦٨٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

حمار أو بغل منكسي الرؤوس، فكانت هذه عقوبة لهما اصطلحوا عليها، وألغوا الحد الشرعي، فكان هذا من تغيير شرع ا لله، فأطاعهم في ذلك عوامهم، فجعلهم الله متخذين لهم أرباباً.

كذلك الربا قد حُرم عليهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦١]، أي: بالرشوة، فحرم الله عليهم الربا وحرم عليهم الرشا؛ ولكن كانوا مع هذا يأخذون ذلك ويبيحونه، فكأنهم غيروا شرع الله، فأحلوا الربا وقد حرمه الله، وأحلوا أخذ الرشوة، وأكل الأموال بالباطل وقد حرمها الله تعالى، فكان ذلك منهم تغييراً لشرع الله.

لذا فكل من أطاع عالماً في تغيير شرع الله، وهو يعرف أنه مغير له، أو أطاع مثلاً عابداً، أو أميراً، ويعلم أنه قد غير شرع الله؛ فإنه يعتبر أطاعه في معصية الله، ويكون داخلاً في هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وهذا هو شرك الطاعة.

■ ■ ■ ■ ■

[٣٨]

باب قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

وقوله: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتب الحجة بإسناد صحيح.

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال

اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية [النساء: ٦٠].

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله].

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١].

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

الرابعة: تفسير: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

الخامسة: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

السابعة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب: قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

هذا الباب له صلة بالباب الذي قبله، فالباب السابق فيه بيان حكم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله. أما هذا الباب ففيه بيان حكم من أراد أن يتحاكم إلىٰ غير حكم الله ورسوله.

وقد ذكر المصنف رحمه الله في هذا الباب أربع آيات وحديث.

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾** [النساء: ٦٠-٦٢]]:

هذه الآية نزلت في قوم من المنافقين يفضلون حكم الطاغوت علىٰ حكم الشرع، فأنزل الله فيهم: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾** [النساء: ٦٠]، وإذا دعوا إلىٰ حكم الله، وحكم رسوله امتنعوا، ويطلبون التحاكم إلىٰ الطواغيت: **﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾**.

والله قد أمرهم بالكفر بالطاغوت، بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والطاغوت هو: كل ما عبد من دون الله، أو كل من تجاوز حده من الناس، ومن جملتهم من نصب نفسه يحكم بغير شرع الله وبغير ما أنزل الله فهو طاغوت، فالحكم بغير ما أنزل الله حكمٌ بالطاغوت.

فالواجب على الإنسان إذا دعي إلى حكم الله أن يلبي ذلك الطلب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾، يعني: إذا قيل لهم: تعالوا إلى حكم الله، وإلى حكم رسوله، وهم يخافون أو يعرفون أن الحق عليهم، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: أعرضوا وامتنعوا، ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٨، ٤٩]، أي: إذا عرفوا أن الحق لهم جاءوا إلى الحكم الشرعي مذعنين منقادين، أما إذا كانوا يعرفون أن الحكم عليهم، أي: ضدهم، فإنهم يمتنعون؛ بل لا يقبلون بالحكم إذا حكم عليهم، ويذهبون إلى من يحكم حكماً جائراً، ولو بأخذ رشوة، فمن كان كذلك فإنه متصف بهذه الصفة؛ التي هي صفة المنافقين.

* وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: يدّعون كذباً أنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ﴿يُرِيدُونَ﴾، أي: يتمنون أو يطلبون، ويدعون: ﴿أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾؛ فقد تمكن منهم الشيطان، فهو يريد أن يوقعهم في الظلال البعيد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾، أي: تعالوا إلى الرسول ليحكم بيننا، وتعالوا إلى ما أنزل الله، وتعالوا إلى شرع الله وكلامه، لنتحاكم إليه: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾، يصدون عن

شرع الله، ويميلون إلىٰ غيره.

فمن هذا نأخذ أن كل من حكم بغير ما أنزل الله، أو تحاكم إلىٰ غير ما أنزل الله؛ فقد وافق المنافقين بهذا الوصف الذميم.

ويدخل في ذلك من يفضل حكم غير الله علىٰ حكم الله، بل من يفضل تحكيم القوانين الوضعية التي هي نجاسة أذهان وزبالة أفكار، والتي هي من وضع الإنسان القاصر، الذي يصادم بها شرع الله، الذي هو أحكم الحاكمين.

ونأخذ من هذا أيضاً أن التحاكم إلىٰ غير شرع الله كفر ونفاق وضلال بعيد، وأنه من وحي الشيطان.

فمن رضي بالتحاكم إلىٰ تلك القوانين الوضعية، وصد عن التحاكم إلىٰ الشرع السماوي؛ فإنه منافق داخل في قول الله تعالىٰ في هذه الآية: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾ [النساء: ٦٠ـ٦٣].

■ **قوله: [وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾** [البقرة: ١١]. **وقوله: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾** [الأعراف: ٥٦]]:

وهاتان الآيتان أيضاً في المنافقين، ومن إفسادهم تحاكمهم لغير الشرع، فإن تحكيم غير شرع الله تعالىٰ إفساد، فالله تعالىٰ هو الحكيم، وحكمه هو الذي يصلح به العباد والبلاد، فإذا حُكم بغير شرع الله فإن في ذلك إفساداً في الأرض.

وإذا قال الله: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ ، فمعناه: لا تشرعوا فيها شرعاً يفسد أهلها بعدما أصلحهم الله بهذا الشرع المطهر.

■ قوله: [وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]]:

فإن هذا ذم لمن يبتغي حكم الجاهلية، والمعنى: أن أهل الجاهلية عندهم عادات اتخذوها عن الآباء والأجداد، فإذا تحاكموا إليها ونفذوا هذه الأحكام فَيُعَدُّ هذا رضىً منهم.

والحكم الجاهلي أصله مشتق من الجهل، والإنسان لا يترك ما هو علم يقيني ويتبع الجهل، فإن الجهل يوقع في الضلال.

فإذا فضّل الإنسان حكم الجاهلية مع علمه بأنه ضلال؛ فإنه ضالٌ واقع في المخالفة الشرعية.

فالحاصل أن حكم الجاهلية يدخل فيه كل ما يخالف شرع الله تعالى، وأنه يلزم كل عبد أن يكون حكمه وتحاكمه إلى الله، وإلى رسوله ﷺ.

وقد أمر تعالى بالتحاكم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والرجوع إليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، أي: إلى الكتاب والسنة.

وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يجعلوك حكماً في كل ما وقع بينهم من الاختلاف، ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أي: يرضون ويسلمون، ولا يكون في أنفسهم حرجٌ ولا ضيق ولا تعنت ولا انتقاد لحكمك وقضائك، فهذا

قسم من الله ، أقسم بنفسه الشريفة أنهم لا يكونون مؤمنين حتى يكون هذا هو وصفهم .

وقد أمر الله تعالى بتقبل كل ما جاء به الرسول ﷺ في قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] .

والحاصل أن في هذه الآيات التي ذكرها المصنف ـ رحمه الله ـ بيان حال المنافقين ، وأنهم يدّعون أنهم من المؤمنين ، ولكن تظهر عليهم أعمال تدل على أنهم غير ذلك ، وأن هذا ادعاء ، وزعمٌ كاذب ، ومن أدلة ذلك أنهم لا يرضون بحكم الله ، ولا يتحاكمون إلى شرعه ، ويفضلون حكم غير الله على حكمه ، وذلك دليل على أن قلوبهم لم تدرك حقيقة الإيمان ، فهم كاذبون في الحقيقة .

■ **قوله : [عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لماجئت به»[1] ، قال النووي : حديث صحيح ، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح]:**

في هذا الحديث بيان أن المسلم يلزمه قبول كل ما جاء به الرسول ﷺ والميل إليه .

---

(١) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١ / ٢١٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١ / ١٢)، رقم (١٥)، وهو أحد أحاديث الأربعين النووية رقم (٤١)، وأورده الخطيب البغدادي في تاريخه (٤/ ٣٦٩).

قال النووي : حديث حسن صحيح ، رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح ، وأعله الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» بثلاث علل ، وضعفه الألباني في «تخريج المشكاة» (١ / ٥٩)، وضعفه الأرناؤوط في «تحقيق شرح السنة» (١ / ٢١٣).

وأورد الحافظ ابن حجر هذا الحديث في فتح الباري (١٣/ ٣٠٢)، وقال : «حديث أبي هريرة. . . . ، أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ، ورجاله ثقات .

فقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لماجئت به**»، أي: حتىٰ يكون ميله واختياره موافقاً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك أنه جاء بهذه الشريعة الغراء السمحة التي فيها صلاح المجتمعات، وصلاح العباد والبلاد، فالذي يكون هواه خارجاً عنها يكون ناقص الإيمان أو مضمحل الإيمان.

أما الذي يكون هواه متابعاً للشرع الشريف، فكلما رأىٰ من نفسه ميلاً عنه ردها إليه، ووقفها عليه؛ فهذا هو المؤمن حقّاً الذي يكون هواه متابعاً لما جاء به النبي ﷺ.

وقد يكون فيما جاء به ﷺ شيء من الشرع قد تستثقله النفوس، وقد لا تستمرئه لضعف إيمانها، لكن يلزم قبوله، سواء واءم، أو لم يوائم، سواء وافق ميل الهوىٰ، أو لم يوافقه، بل يتقبل الإنسان كل ما جاء عن الله تعالىٰ، وعن رسوله ﷺ.

أما مَنْ قبله إذا كان في مصلحته، ورفضه إذا لم يكن كذلك، فإنه بهذا يكون مخالفاً لشرع الله ولأمره.

وعلىٰ كل حالٍ فالمسلم والمؤمن حقّاً هو الذي يكون كما وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام: يكون هواه تبعاً لماجاء به النبي ﷺ، وذلك مثل قول الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾، أي: سواء كان الحكم لهم، أو الحكم عليهم: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، فهذا هو قول المؤمنين: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ [النور: ٥١]، أي: سمعاً وطاعة لله ولرسوله ولما يحكم به.

وليس هذا خاصّاً بالأمور التي يقع فيها النزاع بين الناس، بل هو عام في الأمور الشرعية، فإن الذي لا يقبل إلا ما خف عليه ويترك ما يثقل عليه فهذا ليس هواه تبعاً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

فالذي مثلاً يدين بالصيام، ويقول: إنه سهل ولا يتكرر، ويستثقل الصلاة، وينفر منها ويتركها؛ لأنها بزعمه متكررة وثقيلة، هذا لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ.

أو مثلاً يخل بشيء من العبادات مثل الطهارة ونحوها، هذا لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ.

أو يبخل بحقوق الله الواجبة من زكوات ونفقات وكفارات وما أشبهها، لكونها حقّاً ثقيلاً على النفس، هذا لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ.

أو يجد من نفسه ميلاً إلى الشهوات المحرمة فلا يقمع نفسه عنها ولا يطيع الشرع في نهيه وتحريمه لها، فهذا ليس هواه تبعاً لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام.

فالإنسان يقيس نفسه بهذا الميزان، فإذا وجد نفسه منساقة إلى الشريعة، ما يوافق هواه وما لا يوافقه، فإن هذا من علامات الإيمان، وإذا وجد نفسه تتقبل وتفرح بكل الشريعة، ولا تنفر من شيء منها، فهذا من علامات الإيمان، ومن نقص شيئاً من ذلك فقد نقص إيمانه.

■ **قوله : [وقال الشعبي : كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة ، فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد ، عرف أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق : نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه ، فنزلت : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ الآية** [النساء : ٦٠](١) .

وقيل : نزلت في رجلين اختصما ، فقال أحدهما : نترافع إلى النبي ﷺ ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف ، ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب ، فذكر له أحدهما القصة ، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ : أكذلك ؟ قال : نعم ، فضربه بالسيف فقتله(٢)] :

تدل هذه القصة على كذب المنافقين ، وهي أنه كان بين رجل يهودي ورجل منافق خصومة ، ودعوى في أمر من الأمور ، وكأن اليهودي هو المحق والحق له ، أما المنافق فإنه ظالم والحق عليه ، وقد عرف من نفسه أنه مبطل ، فلما اختلفوا في ذلك الحق وتنازعوا فيه واختصموا ، أرادوا من يحكم بينهم ، فلما كان اليهودي عارفاً أن الصواب معه طلب الحكم إلى النبي ﷺ ، مع كونه لا يعترف له بالشهادة ، فقال : نتحاكم إلى محمد ؛ لأنه عرف أن محمداً ﷺ يحكم بالحق لمن هو له ، وأنه لا يميل ولا يظلم ولا يجور ، بل يحكم بحكم الله ، لأن الله تعالى قد أمره أن يحكم بما أنزل الله عليه ، سواءً كان المتحاكمان مسلمين ، أو غير

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» عن عامر رقم (٩٨٩١ ، ٩٨٩٢ ، ٩٨٩٣) ، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٢ / ٥٨٠) ، و اسحق بن راهوية في «التفسير» بإسناد صحيح كما قال ابن حجر في «الفتح» (٥ / ٣٧) .

(٢) أخرجه الثعلبي كما في «الدر المنثور» (٢ / ٥٨٢) ، والكلبي كما في «الفتح» (٥ / ٣٧) ، عن ابن عباس ، قال ابن حجر : وهذا الإسناد وإن كان ضعيفاً لكن تقوى بطريق مجاهد أخرجه الطبري في «التفسير» رقم (٩٩٠١) ، بإسناد صحيح .

وعلقه الواحدي في أسباب النزول ص(١٠٧ ، ١٠٨) ، والبغوي في «معالم التنزيل» (٥٥٢/١) .

مسلمين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩].

وعرف أن الرسول ﷺ لا يأخذ الرشوة التي هي مال يدفع للحاكم ليجور في الحكم.

أما المنافق لما علم أنه مبطل وأن الحق عليه طلب التحاكم إلىٰ اليهود؛ لأنه إذا أعطاهم رشوة مالوا معه وأعطوه الحكم، وجلعوه هو المحق ولو لم يكن محقاً؛ فقال: نتحاكم إلىٰ اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، ولكنهم لم يتحاكموا إلىٰ الرسول ﷺ، ولا إلىٰ اليهود، ولم يرض أحدهم بقول الآخر، فذهبا إلىٰ كاهن من جهينة، والكاهن: هو الذي يدّعي علم المغيبات، ولا شك أن الكاهن طاغوت، من أجل ذلك قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، حيث لم يرضوا بحكم الله ورسوله الذي يمثله الكتاب والسنة، وترافعوا إلىٰ ذلك الطاغية الطاغوت، وهو الكاهن الذي في جهينة.

فدل ذلك علىٰ أن كلاً منهم لما عدل عن الرسول وعن الحكم الشرعي، لم يكن من المؤمنين، وأن الشيطان قد صدهم ولعب بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

فنزلت فيهم هذه الآيات التي فيها بيان أنهم زاعمون وليسوا بمحقين، وجاء فيها بيان أنهم يصدون صدوداً عن حكم الله ورسوله، وفيها بيان تمكن الشيطان منهم، وإضلاله لهم، وإبعادهم عن الحق وأهل الحق.

ولما نزلت جاءوا معتذرين، وقالوا: ما قصدنا بغضاً لك، ولا ارتداداً، إنما قصدنا الإصلاح، ما أردنا إلا الإصلاح، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا

﴿أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]، ما أردنا إلا الحسنى، وما أردنا إلا التوفيق بيننا وبينكم، وبيننا وبين اليهود، وبيننا وبين الكهنة ونحو ذلك.

وقد كذبهم الله تعالى بقوله في هذه الآية: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، يعلم الله أن ما في قلوبهم خلاف ما يقولونه بألسنتهم، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وذكروا أيضاً في سبب نزولها قصة أخرى، وهو أن رجلين من المنافقين حصل بينهما خصومة ومنازعات، فطلب أحدهما وهو محق التحاكم إلى النبي ﷺ ليحكم بينهما بالحق، لأنهم، أي: المنافقين كانوا إذا علموا أن الحق لهم جاءوا إليه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ [النور: ٤٩، ٥٠]، أي: أن يميل ويزيغ ويجور.

فهذا الذي عرف أن الحق له طلب التحاكم إلى النبي ﷺ، أما الثاني الذي عرف أن الحق عليه فقد طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف، وكان من الأعراب فتهود، ثم بقي على يهوديته، وصار شريفاً في اليهود بالمدينة، وقد سماه الله تعالى طاغوتاً: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، وهو كعب بن الأشرف.

ولكن بعدما اختلفوا فطلب هذا التحاكم إلى النبي ﷺ، وطلب الآخر التحاكم إلى كعب بن الأشرف، ترافعا اتفاقاً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الغيور على حكم الله وشرعه ودينه، فلما ترافعا إليه وقص عليه كل منهما ما قال، وقال: أنا طلبت منه أن يتحاكم إلى الرسول فامتنع، وقال: أنا لا أريد حكم الرسول، و إنما أريد حكم كعب بن الأشرف، فاعترف أمام عمر: أنه لا

يحب ولا يرغب أن يتحاكم إلىٰ النبي ﷺ، عند ذلك دخل عمر رضي الله عنه بيته وخرج شاهراً سيفه فضرب هذا المنافق فقتله، جزاءاً لعدم رضاه بحكم الله وحكم رسوله.

وهكذا جزاء كل من رغب عن شرع الله ودينه أن يعاقب بهذه العقوبة، التي هي ضرب عنقه بالسيف، وذلك دليل علىٰ أنه مرتد وكافر ومنافق، أما المؤمنون فإنهم الذين إذا دعوا إلىٰ الله ورسوله ليحكم بينهم جاءوا إليه ولم يتأخروا؛ هكذا يكون المؤمن، وتلك حال من ليس بمؤمن.

■ ■ ■ ■ ■

[٣٩]

باب:
من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وفي صحيح البخاري: قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتريدون أن يكذب الله ورسوله.

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك، فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رِقَّةً عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه.

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: الرحمن، أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، [الرعد: ٣٠].

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل :

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات .

الثانية: تفسير آية الرعد .

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع .

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ، ولو لم يتعمد المنكر .

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك ، وأنه أهلكه .

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

موضوع هذا الكتاب ـ أي: كتاب التوحيد ـ هو توحيد العبادة، ولكن يُحتاج إلى ذكر ما ينقص توحيد العبادة، ومن جملة ما ينقصه جحد أسماء الله وصفاته أو جحد بعضها، فإن ذلك يخل بتوحيد العبادة، وإن كان توحيداً مستقلاً.

وتوحيد الأسماء والصفات؛ معناه: الإيمان بأن أسماء الله ليس له شبيه فيها، وأن صفات الله ليس له شبيه فيها، وأنه واحد في صفاته، لا تشبه صفاته صفات خلقه، هذا هو توحيد الأسماء والصفات.

لكن لابد قبل ذلك من إثباتها، لابد للمسلم من أن يثبت الأسماء والصفات، وبعدما يثبتها ينفي عنها المماثلة؛ ليكون بذلك موحداً لله في صفاته، فهو ليس فيها شبيه؛ بل هو متفرد ومتوحد في صفاته، ليس في خلقه من يشابهه.

فإذا لم يؤمن الإنسان بالصفات سمي جاحداً معطلاً، وإذا أثبتها ولكن زاد في صفاتها وجعلها كصفات الخلق سمي مشبهاً ممثلاً، وذلك شرك في الصفات.

فالموحد حقّاً هو الذي يثبتها كما جاءت، وينفي عنها التشبيه، فمن نفاها اختلت عقيدته، واختل توحيده العملي.

وقد جاء الشرع وجاءت الأدلة بتأصيل الأسماء والصفات، وأمر المسلمين أن يصدقوا بها، وذكرها بأسمائها، فوصف الله نفسه بأنه عليم بكل شيء، وبأنه

سميع بصير، وبأنه قريب مجيب، وبأنه على كل شيء قدير.

فإذا آمن العبد بهذه الصفات فعليه أن يعطيها حقها، فمثلاً إذا آمن بقدرة الله خاف منه، فقال: أخاف سطوته، وأخاف عقوبته، وإذا آمن بسمعه وبصره وبقربه راقبه أشدّ المراقبة، وقال: كيف لا أراقب من يراني؟ وكيف أعصي من أنا بمرأى منه ومسمع؟ وكيف أخالف أمره، وهو قريب مني؟ فيحمله ذلك على قوة الأعمال وكثرتها، هذه فائدة الإيمان بالصفات، ويوجد غير ذلك من الفوائد.

كذلك الجحد والإنكار تعطيل، فمع أنه تعطيل لصفات الله وأسمائه؛ فإنه تعطيل للكمال لمن يستحق الكمال.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾** [الرعد: ٣٠]]:

في هذه الآية يبين الله تعالى أن المشركين لما جحدوا اسم الرحمن أطلق على فعلهم كفراً، ولم يقل: وهم ينكرون، بل قال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾؛ أي: باسم الرحمن.

فهم ينكرون الاسم وينكرون الصفة، وينكرون أن يكون الرب متسمياً بالرحمة، أو بالرحمن، أو متصفاً بالرحمة، وذلك كفر، فمن أنكر اسم الله، أو أنكر صفته فإنه قد جحد شيئاً وردت به الأدلة الصريحة.

■ **قوله: [وفي صحيح البخاري: قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتريدون أن يكذب الله ورسوله[1]]:**

هذا الأثر ردٌّ على طوائف من المتكلمين الذين غالوا في ذكر الكيفيات والهيئات، وفصلوا في ذلك؛ فإنه أوقع كثيراً منهم في الحيرة، وأوقع العوام

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٧).

منهم في التشكيك، لأنهم إذا قالوا لهم: كيف يكون كذا وكذا؟ صاروا يشغلون أذهان الناس بما لا تصل إليه أفهامهم.

فقال: «حدثوا الناس بما يعرفون»؛ فلا تخرجوا بهم عن مقتضى الأدلة، وتتوغلوا بهم، وتتسعوا في أشياء لم تصل إليها إدراكاتهم، أتريدون أن توقعوهم في التكذيب وفي الإنكار؟! فإن من توغل وأنكر صدق عليه أنه ردّ عن الله ورسوله، وذلك كفر.

■ **قوله: [وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك، فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رِقَّةً عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه**[1]]:

ذكر في هذا الأثر أن رجلاً ممن لم تتمكن معرفة الله ومعرفة صفاته في قلوبهم، انتفض حين سمع حديثاً في الصفات مستنكراً ذلك، وأحاديث الصفات مثل أحاديث الرؤية، أو أحاديث العجب، أو أحاديث المجيء لفصل القضاء، أو أحاديث إثبات اليدين، والقبض، والبسط، ونحوها.

فإذا سمع كثير من المبتدعة مثل هذه الأحاديث فإنهم يفرّون من ذلك ويستنكرونه ويستبشعونه؛ بل تجدهم ينتفضون عند سماع هذه الأحاديث، فقال ابن عباس: (ما فَرَقُ هؤلاء؟) فيكون انتفاضهم بعد الفَرَقْ، والفَرَقُ هو: الفزع والخوف؛ استنكاراً أن يثبت لله شيءٌ من ذلك، فقال: ما فَرَقُهم؟ أي: ما هذا الفَرَقْ؟ وقرأه بعضهم: ما فَرّقَ هؤلاء؟ أي: ما فَرّقوا بين ما يؤمن به مجملاً، وما يؤمن به مفصلاً، فالآيات المحكمة يجب الإيمان بها مفصلاً، والآيات المتشابهة نؤمن بها مجملة، فلا نتوغل في الكيفيات، ولا نسأل عن الماهيات ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٤٨٥).

فكما أن المسلم لا يسأل عن كيفية وماهية الذات، فكذلك لا يسأل عن كيفية وماهية الصفات، فلا يجب عليه أن يكثر من معرفة هذه المسألة ويبحث فيها، ولا أن يستنكر ويفرق، بل يؤمن بما علمه من ذلك إيماناً مجملاً، ويكون المتشابه في هذا هو الذي يخفى علينا إدراك كيفيته وكنهه وماهيته؛ لأن المحكم هو الذي نعرف ظاهره، ونعرف تفسيره، ونعرف مآله.

فالحاصل أن الذين إذا سمعوا شيئاً من الصفات فزعوا، وانتفضت أعضاءهم، وارتعدت فرائصهم، وأنكروا ذلك واستبشعوه، فهؤلاء يصدق عليهم أنهم معطلة.

أما الذين يقبلون ويتقبلون ذلك كما هو، ويقولون كما قال الراسخون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فهؤلاء لا يفزعون، ولا يخافون من شيء من ذلك.

■ **قوله: [ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: الرحمن، أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾**(١)، [الرعد: ٣٠]]:

ذكروا أنه ﷺ لما كان في صلح الحديبية قال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**»، فقالوا: لا نعرف إلا رحمن اليمامة، يعني: مسيلمة، وكان يسمي نفسه الرحمن، وقالوا: لا نعرف الرحمن، فأنزل الله تعالى في سورة الرعد: ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ [الرعد: ٣٠].

ولما سمعوه يدعوا الله، وأحياناً يقول: اللهم، وأحياناً يدعوه بالرحمن،

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/ ١٥٠)، عن مجاهد وقتادة مرسلاً.

قالوا: محمد يدعو إلاهين، وهو يقول: لا إله إلا الله، فعند ذلك أنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠][(١)].

فالله يُسمّىٰ بهذه الأسماء كلها، وهو واحد، ذاته واحدة، وله الأسماء الحسنىٰ، وتعدد أسمائه وصفاته لا يستلزم تعدد الذات، بل يؤمن العبد أن لله تعالىٰ صفات، وأنها لا تدل علىٰ التعدد كما يزعم ذلك من أنكرها.

والإيمان بالصفات وإقرارها كما هي، وإمرارها من غير تحريف لها، مما يزيد العبد إيماناً، ومما يحمله علىٰ الأعمال الصالحة، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) انظر هذه القصص وغيرها عند ابن جرير في «التفسير» (١٥/ ١٨٢) رقم (٢٠٣٩٧)، و(٢٠٣٩٨)، والقرطبي (٩/ ٣٢٦) و(١٠/ ٣٤٢)، والدر المنثور (٤/ ٦٥٠)، (٥/ ٣٤٨)، وخلق أفعال العباد للبخاري ص ٨٢ عن ابن عباس وعن مكحول.



[٤٠]

باب:

قول الله تعالى:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾

قول الله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣].

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا.

وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

وقال أبو العباس ـ بعد حديث زيد بن خالد، الذي فيه: «أن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، الحديث، وقد تقدم ـ: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يُضيفُ إنعامه إلى غيره، ويشرك به.

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها .

الثانية: معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير .

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب .

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:

قول الله تعالى:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾

من كمال التوحيد أن تضاف نعم الله إليه؛ حيث أنه هو المتفرد بالإنعام، فإن على المسلم أن يعترف بها لمسديها ومموليها.

فإذا أضافها إلى غيره فقد جعل ذلك الغير متصرفاً، وجعل له حقّاً من الشكر، وحقّاً من الجزاء، وحقّاً من العبادة؛ مع أنه وسيلة وسبب، والله تعالى هو مسبب الأسباب.

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]. قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي، وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا، وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا]:**

وقد فسرت هذه الآية بكل هذه التفاسير، بعضها ذكره المصنف كقول مجاهد: إن كفرهم لنعم الله، هو جعلها من كسبهم، ومن كدحهم، ومن عملهم، فنسوا أنها من الله وبتوفيقه وبتسديده وبعطائه.

فإذا قال أحدهم: هذا مالي ورثته عن آبائي نسي أن الله هو الذي رزقه إياه، ونسي أن الله هو الذي رزقه آباءه، وأن آباءه لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً.

فنسي أن الله تعالى هو مسبب الأسباب، ونسي مشيئة الله من أنه لو شاء أهلكه وأخذ ما في يده، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ

أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾، **الجواب**: لا، **﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾** [الزمر: ٣٨]، **الجواب**: لا.

وكذلك قول النبي ﷺ في الحديث المشهور: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك**»(١)، وهذا يقابله كفر النعمة؛ لأن الله قد ختم الآية بكفر، **﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾**.

وهذه الآية التي ذكرها المصنف وردت في سورة تسمىٰ سورة النعم، وهي سورة النحل، ذكر الله فيها كثيراً من نعمه، من أولها إلىٰ قرب آخرها، وهو يعدد فيها النعم.

فأولها خلق الإنسان من سلالة من طين، فإذا هو خصيم مبين، والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع، إلىٰ آخر الآيات، ثم يذكر الله فيها أنه سخر لنا كذا وكذا، وسخر لكم الفلك، وسخر لكم القمر، والنجوم مسخرات بأمره، وألقىٰ في الأرض رواسي أن تميد بكم.

فقوله تعالىٰ: **﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾**، أي: تُعدد عليهم هذه النعم، وهم يعرفونها و لكن ينكرونها، أي: يعلمون أن الله هو المنعم حقاً، ولكن ينكرونها، فإذا قال قائلهم: هذا مالي ورثته عن آبائي كان هذا إضافة النعم إلىٰ غير المنعم أصلاً وهو الله تعالىٰ.

وقد يدخل في ذلك أيضاً إذا أضاف النعم إلىٰ حوله وقوته، أو إلىٰ صنعته، حذقه مثل قارون الذي أخبر الله تعالىٰ عنه أنه قال: **﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾** [القصص: ٧٨]، أي: ما أوتيت هذا المال إلا علىٰ علم عندي بوجوه المكاسب، فاكتسبت وحصلت علىٰ المال بحيلي وبمعرفتني وبحذقي في الأمور، وبجدي

ونشاطي، وباجتهادي في التصرف.

ونسي أنه من الله، وأن الله يقدر أن ينتزعه منه، ولا يرده له، ولا يبقي له شيئاً، ولا يقدر أن يرد قدر الله وتصرفه.

* كذلك قول عون بن عبد الله، يقول: **(لولا فلان لم يكن كذا)**: وهذا فيه إضافة النعم إلىٰ فلان، ومنه: لولا فلان لما حصل لنا هذا الربح؛ لأن الذي أدخلنا في هذا السهم فلان، والذي باع لنا هذا برخص فلان، أو فلان الذي حَمَلنا علىٰ أن نشتري كذا، لولا فلان ما حصل لنا هذا الرزق؛ لأنه هو الذي شفع لنا، وتوسط لنا عند فلان، حتىٰ أعطانا، وما أشبه ذلك.

وينسىٰ أن ذلك من الله، والواجب عليه أن يضيفه إلىٰ الله أصلاً، ويقول: هذا من فضل الله علينا ثم بواسطة فلان، أو لولا الله ثم فلان ما حصل لنا كذا وكذا، فيبدأ بأن ذلك من الله تعالىٰ، وذلك من إضافة النعمة أصلاً إلىٰ المنعم.

* وأما قول ابن قتيبة: **(يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا)**، فإن هذا خاص بالمشركين من المتقدمين أو المتأخرين، الذين يضيفون الرزق إلىٰ غير الله، ومن الرزق مثلاً ما ينزل من السماء مطراً، وما ينبت من الأرض من النبات، فإن المشركين قد يدّعون أنه بشفاعة آلهتهم، يعني: أن آلهتهم شفعت لهم حتىٰ رزقوا بهذا الرزق، فهم يقولون: هو من عند الله أصلاً، ولكنه بشفاعة آلهتهم، ويعترفون بأن أصل الخلق والرزق من الله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾، ولكنهم يعللونه بشفاعة آلهتهم المزعومة، فهم بذلك ينكرون النعمة بهذه المقولة ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

■ **قوله: [وقال أبو العباس ـ بعد حديث زيد بن خالد، الذي فيه: «أن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، الحديث، وقد تقدم ـ: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يُضيفُ إنعامه إلى غيره، ويشرك به.**

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير]:

أبو العباس هو شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد تكلم على هذا الحديث الذي تقدم في (باب: الاستسقاء بالأنواء)، وهوحديث زيد بن خالد الذي قال فيه النبي ﷺ: **«أن من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»**.

وقوله: **«مؤمن بالكواكب»**، يعني: أنه أضاف المطر إلى الكواكب، أي: أنه ينزل بواسطة الكواكب، فأضاف النعمة إلى المخلوق وهو الكوكب أو الريح أو النجم مع أنها مسخرة مذللة مسيرة بأمر الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢]. فمن فعل ذلك، ـ أي: من أضاف النعمة إلى غير الله ـ فقد كفر بنعمة الله.

فقال شيخ الإسلام ـ معلقاً على هذا الحديث ـ: (وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به).

فلما كانت النعم من الله تعالى، كان الأصل أن تضاف إليه، فلا تضاف إلى أحد من خلقه.

فالله تعالى يذم من أضاف النعم إلى أحد من خلقه فهو بذلك يكون جاحداً للنعمة، وقديماً كان الذين يسافرون في السفن إذا نجوا من الغرق أو الأمواج جعلوا ذلك بأسباب مؤثرة، كأن يقولوا: كانت السفينة جديدة، وكانت الريح طيبة، أو كان الملاح حاذقاً، فهذا سبب نجاتنا.

وكذلك ـ أيضاً ـ الذين يستعملون مثل هذه الألفاظ في المراكب الحديثة، يقولون: ـ مثلاً ـ وصلنا بسرعة، أو نجونا من الأخطار لحذق سائقنا، أو ملاحنا في الطائرة ونحوها، أو كان الملاحون أو القائدون حذاقاً وعارفين يحسنون القيادة، ونحو ذلك؛ فيضيفون نعمة النجاة ونعمة الوصول بسرعة وبسهولة ونعمة السلامة من الأخطار إلى هؤلاء، وذلك من كفران النعم وهي كلها من الله، فهو الذي يسر لهم أسبابها.

فالواجب أن يجعل هذه الأمور تابعاً لا مؤثراً، فيقال: نجونا بسلامة الله ثم بحذق السائق، وهبطنا بتوفيق الله وسلامته وبمنته، ثم بمعرفة القائد، أو الملاح أو نحو ذلك، فإذا أعقبوا «بثم» كان ذلك جائزاً.

وقد ورد النهي عن أن تنسب الأشياء لغير الله تعالى، كأن يقال: لولا كذا لكان كذا وكذا مما هو جار على ألسنة كثير من الناس في القديم والحديث، ولكن الصحيح أن يقال: «لولا الله ثم كذا»، هكذا علّم النبي ﷺ أمته أن تقول حفاظاً منه على جناب التوحيد، وسلامة الاعتقاد، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■



[٤١]

باب:

قول الله تعالى:

﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قول الله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وعن ابن عباس، في الآية: الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتِك يا فلانه، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً؛ هذا كله به شرك. رواه ابن أبي حاتم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً.

وعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»، رواه أبو داود بسند صحيح.

وعن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوِّز أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا يقول: لولا الله وفلان.

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول الله تعالى:
﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

هذا الباب معقود لبيان الشرك في الأقوال، وأنه كما يقع الشرك في الأعمال يقع في الأقوال؛ أي: في الألفاظ والكلمات.

والشرك في الأقوال قد يكون أكبر، وقد يكون أصغر.

* **فالشرك الأكبر في الأقوال**: كدعاء غير الله؛ مثل الذين يقولون: يا حسين، يا بدوي، أو نحو ذلك، أعطنا وأغثنا وانصرنا؛ فهذا شرك في الأقوال، ولكن هو أيضاً شرك في الأفعال، وذلك لأنهم في هذا النداء، وفي هذا الدعاء يخشعون ويخضعون ويتواضعون ويتذللون، وذلك كله عبادة، فيكون شركاً في الأقوال ظاهراً، وشركاً في الأعمال باطنًا، وشركاً أيضاً في العقائد؛ حيث إنهم يعتقدون في هذه المخلوقات أنها تفيدهم وتنفعهم، أو تضر وتعطي وتمنع، فيكونون قد جمعوا بين الشرك في الاعتقاد، والشرك في الأقوال، والشرك في الأعمال.

فيكون هذا الفعل مخرجاً من الإسلام، وموجباً للخلود في النار؛ لأن فيه رفعاً للمخلوق إلىٰ منزلة الخالق، وتمليكه ما لا يملكه إلا الله؛ فإن هذه الأشياء ملك الله تعالىٰ حقّاً، ولا يملك المخلوق منها شيئاً، مهما علت مرتبته، وسما قدره.

* **وأما الشرك الأصغر في الأقوال فهو**: كالحلف بغير الله، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، أو أعوذ بالله وبك، أو لولا الله وفلان، أو لولا الله وأنت، أو لولا فلان لم يكن كذا، وغير ذلك، وتقدم أن ذلك من التنديد.

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: ٢٢]:

نهى الله تعالى أن يتخذ الناس لله أنداداً، أي: شركاء ونظراء، وأشباهاً يعبدون مع الله، أو يصرف لهم شيء من حق الله، أو يُشَبَّهُونَ بالله تعالى في شيء من خصائصه، فكل من رفع مخلوقاً فوق رتبته فقد جعله لله نداً في شيء من التعظيم أو التبجيل الذي لا يستحقه إلا الرب سبحانه.

فبعد أن أمر الله تعالى الناس عموماً بعبادته وحده؛ لأنه خالقهم وخالق من قبلهم، وهو الذي جعل لهم الأرض كفراش يتقلبون فيها، والسماء رفعها فوقهم بناء، وأنزل لهم الماء من السماء، وأخرج به الأشجار والنبات رزقاً لهم، فإذا اعترفوا بذلك كله لله وحده، فلا يجعلون له أنداداً في العبادة والمحبة كحب الله والدعاء ونحوه؛ لأن لا ند له في الملك والرزق والتصرف.

■ **قوله: [وعن ابن عباس، في الآية: الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتِكِ يا فلانه، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً؛ هذا كله به شرك، رواه ابن أبي حاتم[(١)]:**

بين ابن عباس أن مثل هذه الكلمات يتهاون بها الناس، ولكنها من أنواع الشرك، وذلك لأن فيها نوع تسوية المخلوق بالخالق فتكون رفعاً للمخلوق، وتعظيماً له، فإذا قال: لولا فلان لم يكن كذا؛ كأنه جعله سبباً مستقلاً، وجعل له تصرفاً ذاتياً؛ مع أن فلاناً وغيره ليس لهم التصرف الذاتي، ولا يستطيعون أن يتصرفوا من قبل أنفسهم؛ بل هم مصرّفون، وإن التصرف الحق لله تعالى.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» رقم (٢٣٠)، عن ابن عباس، وسنده حسن. ويشهد له ما رواه الإمام أحمد (٤/ ٤٠٣) عن أبي موسى الأشعري.

وهذه الكلمة وهي قولهم: لولا فلان لم يكن كذا تقع كثيراً على الألسن؛ وهذا فيه اعتماد على فلان، والله هو مسبب الأسباب، والواجب أن يقول: لولا الله ثم فلان، أو لولا الله أمدنا بفلان أو سخر لنا فلاناً، أو يسر لنا سبباً بواسطته، أو نجاة بوسطة فلان، وما أشبه ذلك، حتى يسند الأمر إلى الله الذي هو مسبب الأسباب، فلا يتساهل العباد بمثل هذه الكلمات.

■ **قوله: [وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[1]، رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم]:**

وثبت عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أدركه، وهو يحلف بأبيه، فقال: **«لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحف بالله أو ليصمت»**[2].

الحلف بالآباء كأن يقول: بأبي أو بأمي، أو نحو ذلك، أو يحلف بنفسه، كأن يقول: ونفسي، أو وحياتي، أو وشرفي، أو ونسبي، أو ومنصبي، أو وقبيلتي، أو ما أشبه ذلك.

والحلف بالمخلوق شرك كما في هذا الحديث: **«من حلف بغير الله؛ فقد كفر، أو أشرك»**، أو كذلك الحلف بالأمانة، فقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة في قول النبي ﷺ: **«من حلف بالأمانة فليس منا»**[3].

والسبب في ذلك أن الحلف بالمخلوق تعظيم له، فإذا حلف المرء بمخلوق فإنه

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٥٣٥)، وأبو داود برقم (٣٢٥١)، والحاكم في «المستدرك» (١ / ١٨، ٤ / ٢٩٧)، وأحمد في «المسند» (٢ / ٣٤، ٤٧، ٦٧، ٨٧، ١٢٥)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٠٠) رقم (٤٣٥٧)، والطيالسي في «المسند» رقم (١٨٩٦)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٠٨٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٦٤٦)، و مسلم برقم (١٦٤٦).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٣٢٥٣)، وأحمد في «المسند» (٥ / ٣٥٣). قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح عن بريدة رضي الله عنه.

يعظم هذا المخلوق، والتعظيم لا يصلح إلا لله، فلا يعظم المرء إلا الله، وكونه تعظيماً للمحلوف به ظاهر، فإنه لا يحلف إلا بشيء عظيم، والمحلوف له قد لا يقبل إلا حلفاً بشيء عظيم، والعظمة هذه عظمة في النفس، والعظمة أصلاً لله تعالىٰ، ومن أسمائه العظيم، فالعظمة والكبرياء والجلال له وحده؛ فهو المستحق أن يعظم، فلا يعظم بالحلف غير الله تعالىٰ، هذا هو الأصل.

أما الربّ تعالىٰ فإنه يحلف بالمخلوقات، وبما يشاء، بياناً لعظمتها، ولكونها دالة علىٰ عظمة خالقها، فالله تعالىٰ يقسم بما شاء من مخلوقاته، كقوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، إلىٰ آخره: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]، ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١]، فأقسم بهذه الأشياء.

وكقوله: ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: ١]، ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحىٰ: ١]، ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، وما أشبهه.

وكقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، هذا أيضاً قسم بهذه الأشياء.

والله تعالىٰ له أن يقسم من خلقه بما يشاء، أما المخلوق فلا يقسم بمخلوق حتىٰ لا يكون معظماً له، ولكن يقسم بالخالق ليكون ذلك التعظيم خاصّاً به[1].

وكثير من العامة يقعون في الشرك من حيث لا يشعرون، فيحكىٰ عن كثير منهم أنه يحلف بالله عدة أيمان وهو كاذب، وإذا قيل: احلف بالولي فلان لم

(١) قال الشيخ ابن جبرين: أما قول بعض الصحابة للرسول ﷺ: بأبي أنت وأمي، فهذا ليس من الحلف في شيء، إنما هو فداء، أي: فديتك يا رسول الله بأبي وأمي، والحلف يؤتىٰ به لتأكيد الأمر، يعني: يؤتىٰ به للتقوية، فإذا قلت: وحياتي فعلت كذا أو: والنبي فعلت كذا، فأنت تؤكد فعلك بهذا الحلف، أما قولك: بأبي أنت وأمي، فليس فيه تأكيد لأمر.

يتجرأ، يخشى أنه إذا حلف به انتقم منه، وعجل له العقوبة؛ لأنه حلف به وهو كاذب.

وإذا قيل له: قل بحرمة السيد البدوي، أو بحرمة السيد عبد القادر، أو بحرمة فلان الولي، أو نحوهم من المعبودات الباطلة، فإنه لا يحلف؛ بل يقر بما كان منه ويعترف ولا يتجرأ على الحلف، وهذا دليل على أنهم عظموا المخلوق أكثر من تعظيمهم للخالق، حيث لا يحلفون بالمخلوق إلا وهم صادقون.

وكذلك يحلف أحدهم بشرفه، أو بحياته، أو ما أشبه ذلك، فإذا نُهوا عن ذلك، يقول أحدهم: ليس هذا حلفاً، فنقول: إن سياقه يدل على أنه حلف، فلا تستعمله.

ويفهم بعضهم أن الحلف بغير الله جائز، وأن فيه مندوحة عن الحلف بالله؛ حتى سمعنا بعضهم يقول: إن الله نهانا عن الحلف، فقال: ﴿**وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٤]، أي: لاتحلفوا بالله، فإذا نهانا الله أن نحلف به، فإننا نحلف بغيره، هكذا يقولون.

فنقول: إن هذا كذب؛ لأن الآية معناها: لا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون، أو لا تكثروا الحلف بالله فتقعوا في الكذب وفي اليمين الغموس وأنتم لا تشعرون.

■ **قوله**: [**وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً**(١)]:

فإنه اختار الحلف بالله كاذباً؛ لأنه تعظيم لله، والكذب كبيرة من الكبائر، والحلف بالله تعظيم لله، وأما الحلف بغيره فإنه شرك، ولو اشتمل على حسنة الصدق.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٨/ ٤٦٩)، والطبرني في «الكبير» رقم (٨٩٠٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» رقم (٧٨٧١)، قال الهيثمي (٤/ ١٧٧): ورواته رواة الصحيح، وهو تابع للمنذري في «الترغيب» (٣/ ٦٠٧)، وقد رواه أبو نعيم في «الحلية» مرفوعاً (٧/ ٢٦٧).

فعندنا سيئة الشرك، وحسنة الصدق، والشرك أعظم جرماً من الكذب، ومن ثم اختار أن يفعل الكبيرة ويصبح موحداً، خير من أن يشرك بالله ويصدق.

■ **قوله: [وعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[1]، رواه أبو داود بسند صحيح]:**

تقدم أن قول الرجل: ما شاء الله وشاء فلان أنه من شرك الأقوال، وأن سبب تسميته شركاً أن الواو تقتضي المساواة، فإذا قلت: ما شاء الله وشئت فكأن مشيئتك ومشيئة الله متساوية، ومعلوم أن مشيئة الله سابقة، وأن مشيئة المخلوق لاحقة ومتعلقة بها، ولا تحصل إلا بها.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، فإذا قال المرء: ما شاء الله ثم شاء فلان، فمعناه: أن مشيئة فلان حصلت بعد مشيئة الله عز وجل، أما إذا قال: ما شاء الله وشاء فلان، فمعناه: أن الله شاء وفلان شاء، كلاهما علىٰ حدٍ سواء، مشيئتان متساويتان، فتسوية المشيئة شرك، والعطف «بثم» يقتضي التعقيب والترتيب، بخلاف الواو فإن العطف بها يقتضي المساواة، ولا يفيد الترتيب.

■ **قوله: [وعن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوزٌ أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا يقول: لولا الله وفلان[2]]:**

هكذا ذكر عن إبراهيم، وهو أحد تلامذة ابن مسعود من التابعين، ومراده

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٨٠)، ولكن بلفظ: «ما شاء الله وشاء فلان»، وأحمد في «المسند» (٥ / ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨). والطيالسي في «المسند» رقم (٤٣٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠ / ٣٤٦)، والبيهقي في «السنن» (٣ / ٢١٦)، عن حذيفة رضي الله عنه.
قال النووي في «الأذكار» (٣٠٨): إسناده صحيح. وقال الذهبي في «المهذب» (٣ / ١٩٠): إسناده صالح، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٣٧).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت رقم (٣٤٧).

بالكراهة: التحريم، فإن السلف يطلقون لفظ الكراهة ويريدون به التحريم، وذلك لما تقدم من أن العطف بالواو يقتضي المساواة، فمن قال: لولا الله وفلان لم يكن كذا، فقد جعل المخلوق فاعلاً كفعل الخالق، مع أن المخلوق لا يفعل إلا ما أقدره الله عليه، كما في الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩].

وهكذا الاستعاذة عبادة لله، فمن عاذ بالله وبالمخلوق فقد سوىٰ بنيهما، وهذا كما ذكرنا من الشرك الأصغر في الأقوال، وهو يجري كثيراً علىٰ الألسن، ولا ينتبه له إلا القليل، فيجب علىٰ من سمع من ذلك شيئاً أن ينبه من يقوله علىٰ المنع منه، وعلىٰ العطف بثم التي تقتضي الترتيب، وهوكون فعل العبد مرتبطاً بفعل الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٤٢]

باب:

ماجاء فيمن لم يقنع بالحف بالله

عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصْدُق، ومن حُلف له بالله فليرضَ، ومن لم يرضَ فليس من الله»، رواه ابن ماجه بسند حسن.

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضىٰ.

الثالثة: وعيد من لم يرض.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ماجاء فيمن لم يقنع بالحف بالله

الذي يحلف بالله عادة لا يحلف إلا على شيء مهم، وحتى يؤكد صدقه فيما قاله، فالذي يسمعه قد حلف بالله وأقسم به عليه أن يصدقه، وعليه أن يقنع به، ويقول: رضيت بالله، فنعم محلوف به.

وإذا لم يصدقه فكأنه احتقر اسم الله، واحتقر الحلف به، فالذي لا يقنع يعتبر غير قانع بالله وبأسمائه، فكأنه منتقص لحرمات ربه؛ لذلك ورد فيه هذا الوعيد الذي في هذا الحديث الذي ذكره المصنف.

■ **قوله: [عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فَلْيَصْدُقْ، ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»[1]، رواه ابن ماجه بسند حسن]:**

اشتمل هذا الحديث على أربعة جمل:

الجملة الأولى: قوله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم»:

وكانوا يحلفون بآبائهم، ويقول أحدهم: بأبي أو بأبويّ، أو بتربة أبي

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٢١٠١)، البيهقي في «الكبرى» (١٠ / ١٨١)، رقم (٢٠٥١٢).
قال ابن حجر في «الفتح» (١١ / ٥٣٥): سنده حسن. وقال البوصيري في «المصباح» (٢ / ١٣٠): هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات. وصححه الألباني في «الإرواء» رقم (٢٦٩٨).
ولها شواهد عديدة:
ما رواه ابن ماجه برقم (٢٠٩٤)، والترمذي برقم (١٥٣٣، ١٥٣٤)، والنسائي في المجتبى رقم (٣٧٦٥، ٣٧٦٦، ٣٧٦٧)، ومالك في الموطأ (٢ / ٤٨٠) رقم (١٩).

لأفعلن كذا، أو لأذهب إلى كذا، أو ليس عندي كذا، يؤكدون بالحلف بآبائهم.

فبين النبي ﷺ: أن الحلف بغير الله كالأب والأم وغيرهما شرك وكفر، كما تقدم في قوله ﷺ: **«من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**(١). فأصبح الحلف بالآباء، أو بالأمهات، أو بالنفس، أو بالشرف، أو بالأصل، أو نحو ذلك، شركاً منهياً عنه في هذا الحديث.

أما الجملة الثانية: وهي قوله ﷺ: **«من حلف بالله فَلْيَصْدُقْ»**:

فإنه أمر بالصدق في اليمين، لأن الذي يحلف بالله يعظم الله، فلا يعظمه ولا يؤكد باسمه إلا بعد أن يكون متيقناً لما قال، وصادقاً فيما نطق به، فإذا كان كاذباً فقد احتقر أسماء الله، وقد امتهن الله تعالى، وذلك ذنب كبير.

فالحلف بالله تعالى يستدعي أن يكون الحالف صادقاً فيما حلف به، لأنه مأمور بأن يَصْدُقَ الحديث حتى ولو لم يؤكده بالحلف، فإذا أكده بالحلف ازدادت مرتبة التصديق وأهميته وشدته، ومرتبة الصدق وأهميته.

وإذا حلف بالله كاذباً فإنه معرض نفسه للعذاب، سيما إذا ترتب على حلفه ذلك أَخْذٌ للمال وغير ذلك بغير حق، وقد قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [آل عمران: ٧٧].

وهذه الآية نزلت فيها قصة، وفيها أن رجلاً أراد أن يحلف، فقال مخاصمه: إنه كذاب، فقال النبي ﷺ: **«من حلف على يمين هو فيها كاذب ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»**(٢)، وقال: **«من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٦٧٦)، ومسلم برقم (١٣٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة». فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً، قال: **«وإن كان قضيباً من أراك»**[(١)]، أي: وإن كان عوداً من أراك (وهو السواك)، فإنه يسبب غضب الله تعالىٰ عليه.

أما الجملة الثالثة: فهي قوله ﷺ: **«من حُلِفَ له بالله فليرض»**:

وهي الشاهد للباب، وذلك لأن المرء إذا حُلِفَ له بالله فيجب عليه أن يقبل، وأن يرضىٰ، ويقول: رضيت بالله، ورضيت باليمين التي أكد فيها اسم الله، فإذا رضي بالله كان ذلك تعظيماً لأسماء الله وصفاته التي حلف بها الحالف، وأكد بها يمينه.

فإذا لم يرض الإنسان فإنه يكون محتقراً لأسماء الله تعالىٰ ولذلك بيّنها في الجملة التالية.

أما الجملة الرابعة: التي قال فيها ﷺ: **«ومن لم يرض فليس من الله»**:

أي: ليس من الله في شيء، أي: أن الله تعالىٰ بريء منه، وبريء من فعله، حيث سمع أسماء الله تعالىٰ تعظم فلم يرض، ولم يقنع بها، وكأنه يريد من الحالف أن يحلف بغير أسماء الله، كأن يحلف باسم ولي، أو باسم سيد، أو غير ذلك، وكأنه رأىٰ أن غير الله أحق بالتعظيم من الله، وذلك كفر والعياذ بالله.

وهذا الوعيد الذي في قوله ﷺ: **«ومن لم يرض فليس من الله»**؛ ورد فيمن لم يقبل الحلف بالله، لأنه لم يقنع بأسماء الله، ولم يقع في قلبه تعظيم لله، ولم يصدق من عظم الله، بل قد يطلب منه أن يحلف بغير الله تعظيماً للمحلوف به، لذا أصبح قدر الله في قلبه ناقصاً، وأصبح قدر المخلوق في قلبه أعظم من الخالق.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٣٧)، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

وهذا يقع كثيراً والعياذ بالله في الذين يعظمون الأولياء والأموات، حيث أن أحدهم يحلف بالله أيماناً كثيرة وهو كاذب، ولكن إذا قيل له: احلف بالولي الفلاني أو السيد الفلاني لم يجرأ على الحلف به إلا وهو صادق.

وهكذا أيضاً في السادة؛ حيث أن بعضهم لو حُلف له بالله أيماناً كثيرة لم يقبل، ويقول له: لا أتركك ولا أعفو عنك؛ حتى تحلف لي بالولي الفلاني أو بالسيد الفلاني، فيكون قدر المخلوق في قلبه أرفع من الخالق.

ولا شك أن هذا احتقار لله تعالى وتعظيم للمخلوقات، ومن عظم المخلوق أكثر من تعظيم الخالق، أو رفع المخلوق فوق قدر الخالق، استحق بذلك أن يكون من الذين يعظمون غير الله، ومن عظم غير الله حتى يكون بمنزلة الله فيه نوع من أنواع الشرك وهو شرك التعظيم؛ لأن التعظيم حق لله تعالى، فلا يعظم غير الله بما يستحقه الله.

والحاصل أن الحلف تعظيم للمحلوف به، وهذا يعني أن قبوله تعظيم للمحلوف به، فإذا قبل الحلف بالله فإنه يعتبر معظماً لله، أما إذا لم يقبل الحلف بالله فإنه يعتبر معظماً للمحلوف به.

والواجب على المسلم في هذا المقام أمور:

أولاً: عليه أن يحفظ لسانه، فلا يكثر من الحلف مخافة أن يقع في خطأ أو كذب.

ثانياً: وعليه أن يحلف بالله، ولا يحلف بغيره من المخلوقات.

ثالثاً: وإذا حلف بالله عليه أن يكون متحرياً للصدق، فلا ينطق بأسماء الله حالفاً بها إلا صادقاً وعلى يقين.

رابعاً: وإذا حُلف له بالله عليه أن يقنع، ويقول: رضيت باسم الله، ورضيت بالله، فنعم المحلوف به، فكيف لا نرضى به وهو ربنا المعظم في نفوسنا وقلوبنا؟ فإذا فعل ذلك فإنه من الذين يستحقون الجزاء الأوفى، وإذا لم يفعل ذلك فإنه يستحق العذاب الوبيل والعياذ بالله، وخرج من ذمة الله، وهذا معنى قوله ﷺ: «**ومن لم يرض فليس من الله**».

نعوذ بالله من الحرمان، ونسأله سبحانه الهداية، إنه سميع مجيب، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■



[٤٣]

باب:

قول: ما شاء الله وشئت

عن قُتَيْلَة: أن يهودياً أتى النبي ﷺ، فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت. رواه النسائي وصححه.

وله ـ أيضاً ـ عن ابن عباس: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجلعتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده».

ولابن ماجه عن الطفيل ـ أخي عائشة لأمها ـ، قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

فلما أصبحت، أخبرت بها من أخبرت. ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرت بها أحداً»، قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده».

• فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوىٰ.

الثالثة: قوله ﷺ: «**أجلعتني لله نداً**» فكيف بمن قال: مالي من ألوذ به سواك، والبيتين بعده؟.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر، لقوله: «يمنعني كذا وكذا».

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول: ما شاء الله وشئت

هذا من حماية النبي ﷺ لحمى التوحيد؛ وهو أنه علّمهم الأقوال السليمة، ونهاهم عن الأقوال المبتدعة التي توقعهم في الشرك، أو توقعهم في وسائل الشرك.

ومن ذلك الشرك بالأقوال، وإن لم يقترن به نية؛ فيسمى هذا الشرك بالأقوال، وهو من الشرك الأصغر، وأمثلته كثيرة.

وقد تقدم فيه قول ابن عباس:[1] إنه أخفى من دبيب النملة السوداء على الصفاة السوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي وتقول: لولا فلان لم يكن كذا، ولولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت.

فمن أنواع الشرك، قول: (ما شاء الله وشئت)، وقد أفرده في هذا الباب منفصلاً بأدلة، وأورد فيه هذه الأحاديث، وسبب كونه شركاً؛ لأنه جعل فيه المشيئة مستوية، أي: سوى بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق، ومعلوم أن الأصل في «الواو» أنها تقتضي المساواة، أو تقتضي الاشتراك.

فقوله: (ما شاء الله وشئت)، أي: مشيئتك ومشيئة الله على حدّ سواء، ومعلوم أن مشيئة الله أسبق، والمسلمون يقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود إلا ما شاءه، لو شاء الناس كلهم أمراً ولم يشأه الله لم

---

(١) سبق تخريجه.

يحصل ولم يقع حتى يشاءه الله.

والعباد لهم مشيئة واختيار، ولكنها مسبوقة بمشيئة الله، فلا تقع إلا بعد ما يقع مقتضى مشيئة الله، ولذلك قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وكذلك قوله: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠]، وكذلك قوله: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦].

فمشيئة الله سابقة وغالبة ومتقدمة على مشيئة العبد، فالواجب في هذا أن تعطف مشيئة العبد على مشيئة الله بـ«ثم» التي تقتضي الترتيب والتعقيب، فتقول: أعطني ما شاء الله «ثم» شئت.

■ قوله: [**عن قُتَيْلَة: أن يهودياً أتى النبي ﷺ، فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت**[1]. **رواه النسائي وصححه**]:

في هذا الحديث الذي ذكره المصنف رحمه الله، أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال له: إنكم تشركون بالله، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، يعني: تشركون بالحلف بغير الله، فتحلفون بالكعبة وهي مخلوقة، وتشركون في المشيئة، فتجعلون مشيئة الله مساوية لمشيئة محمد، أي: تعطفونها بالواو.

فعند ذلك أمرهم النبي ﷺ: أن يتركوا ذلك الشرك، وهو قولهم: ما شاء الله

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٦)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٣٧١، ٣٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٧)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ١٢٤).
والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، قال ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٣٨٩): حديث صحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٦).
ولفظ النسائي: (إنكم تندِّدون وإنكم تُشركون..).

وشئت، وأن يقتصروا على قول: ما شاء الله وحده، أو: ما شاء الله ثم شئت، هذا بالنسبة للمشيئة.

أما بالنسبة للحلف، فيقولون: ورب الكعبة، فالله هو المحلوف به، فلا يُحلف بالكعبة التي هي مخلوقة من مخلوقات الله، ولو أضيفت إلى الله وجعلت بيته، كقوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦]، فهذه الإضافة إضافة تشريف، أما الحلف فهو تعظيم كتعظيم الله.

■ **قوله: [وله ـ أيضاً ـ عن ابن عباس: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجلعتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده»**[1]]:

وفي رواية: «**أجلعتني والله نداً**»، أي: أجعلتني أنا والله ندين متساويين، فالله تعالى هو الذي له المشيئة وحده، وأنا لا مشيئة لي، أي: ليست لي مشيئة مستقلة، وليس لأحد من الخلق مشيئة مستقلة، بل مشيئتهم مرتبطة بمشيئة الله.

والنبي ﷺ خاف على أمته من أن تعطيه ما ليس من حقه حتى في المشيئة، فعندما قال له الرجل: ما شاء الله وشئت؛ لذا ردّ عليه النبي ﷺ وقال له: «**أجعلتني لله نداً؟ بل: ما شاء الله وحده**».

ويقال هذا في كل من غلى في حق الرسول ﷺ، وجعل له شيئاً من حق الله؛

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٣٤٧)، وابن ماجه رقم (٢١١٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٣٤٦، ٣٤٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٩)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٢١٧).
ولفظ الإمام أحمد: «**أجعلتني والله عدلاً؟**».
قال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (١٨٣٩): إسناده صحيح، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٩)، وقال في صحيح الأدب المفرد (٦٠١): صحيح.

سواء في الأقوال، أو في الأفعال أو في الاعتقادات، فمن ادعى أنه ﷺ يعلم الغيب فإنه قد جعله لله نداً، ومن ادعى فيه أنه يملك الاقطاع من الجنة أو نحوه، أو أنه يعلم ما لم يطلعه الله عليه، أو نحو ذلك؛ فقد جعله والله نداً، وهكذا من صرف له شيئاً من الدعاء، أوحلف به، أو دعاه مع الله أو ما أشبه ذلك، فقد جعله والله نداً.

فالرسول ﷺ صفته العبودية مع الرسالة، فصفته التي وصفه الله بها هي أنه عبد الله، وهو وصف تشريف وفخر، فنقول له: عبد الله ورسوله، وهذا من كمال توحيده ﷺ لربه عز وجل أنه يحمي أمته من مثل هذا الشرك الذي قد لا يلاحظه الكثيرون ويقعون فيه.

■ قوله: [**ولابن ماجه: عن الطفيل ـ أخي عائشة لأمها ـ، قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت، أخبرت بها من أخبرت. ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرت بها أحداً»، قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»**[(١)]:

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٢١١٨)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٧٢، ٣٩٣)، والدارمي برقم (٢٦٩٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٦٥٤)، والطبراني في «الكبير» رقم (٨٢١٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٨/ ١١٨)، رقم: (٤٦٥٥).
قال البوصيري في «المصباح» (٢/ ١٥١)، هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط مسلم، وصححه الألباني في «الصحيحة»، لشواهده برقم (١٣٨).

في هذا الحديث دليل على نهيه ﷺ عن الكلمات التي توقع في الشرك من تعظيم المخلوق، أو إشراكه في شيء من خصائص الرب تعالى، ومن ذلك قول القائل: (ما شاء الله وشاء محمد)، أو: (ما شاء الله وشئت)، فإن هذا من الشرك بالأقوال.

وقد تقدم ذكر بعض الأدلة في أول الباب، وبيان أن الواجب أن يقال: ما شاء الله وحده، أو يقال: ما شاء الله ثم شئت، أو ما شاء الله ثم شاء محمد، ولا يجوز أن يقال: ما شاء الله وشئت، أو ما شاء الله وشاء محمد، فإن العطف بالواو يقتضي التسوية بين المشيئتين، ومعلوم أن المشيئة النافذة هي مشيئة الله وحده، وأن مشيئة العباد حتى ولو كانوا أنبياء لا تحصل إلا بعد مشيئة الله، لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقد كان الصحابة في أول الأمر، يقولون: (ما شاء الله وشئت)، أو: (ما شاء الله وشاء محمد)، وقد سمعهم النبي ﷺ، ولكن لم يتجرأ على نهيهم لعدم الوحي إليه بذلك، فحدث أن الطفيل أخا عائشة لأمها رأى رؤيا في المنام، فرأى كأنه مر على نفر من اليهود، فمدحهم، وقال: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

ومعنى: أنتم القوم، أي: أنتم الأفاضل، وأنتم المتقدمون، وأنتم الفائزون بقصب السبق، وأنتم الأتقياء الأبرار، وإنما يعيبكم يا معشر اليهود أنكم تجعلون لله ولداً، وهذا شرك بالله سبحانه.

فقالوا له: أنتم كذلك أفاضل وأتقياء وبررة، ولكن فيكم عيب، وهو أنكم تجعلون مشيئة محمد مثل مشيئة الله، وهذا كله في النوم.

ثم مرّ في المنام أيضاً على نفر من النصارى، ومدحهم قائلاً لهم: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

فمدح النصارى بأنهم هم الأفاضل وهم الاتقياء ونحو ذلك، ولكن يعيبهم أنهم جعلوا المسيح ابن الله، وهذا بلاشك شرك يحبط الأعمال، حيث جعلوا لله ولداً، والله تعالى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وما اتخذ صاحبة ولا ولداً.

فردّ النصارى وقالوا: أيضاً أنتم أيها المسلمون أفاضل واتقياء وأبرار، ولكن فيكم عيب وهو أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، وهو نفس العيب الذي قاله اليهود.

فلما أصبح الطفيل حدّث بها بعض أهله، وحدّث بهذه الرؤيا أيضاً بعض الناس، وجاء إلى النبي ﷺ وحدّثه بها، فسأله فأخبره: بأنه أخبر بها بعض الناس، فقام النبي ﷺ على رؤوس الأشهاد وخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه كما كان يبدأ خطبه.

ثم ذكر هذه الرؤيا، وقال: إن طفيلاً قد رأى رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم، وإني والله لم أتجرأ أن أنهاكم إلا بعد الوحي، «**فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد**»، ولكن قولوا: «**ما شاء الله وحده**»، وفي رواية قال لهم: «**قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد**»؛ لأن «ثم» تقتضي الترتيب والتعقيب.

والحاصل أن مشيئة الرسول ﷺ حاصلة، ولكن بعد مشيئة الله تعالى، فمشيئة الله هي السابقة، فهو الفعال لما يريد، ولا يكون في الوجود إلا ما يريد، وقد دلّ على ذلك قول النبي ﷺ لابن عباس: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن**

ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[1]، وهذا يعني: أن الله لو شاء شيئاً جعل له أسباباً وحرك له مشيئة هذا الإنسان ونحوه، وإذا لم يشأ الله فلا يحصل.

وفي الأذكار النبوية أنه ﷺ كان يقول: «**ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن**»، أي: ما شاءه الله وأراده إرادة كونية فإنه يحصل ويقع ولو لم يشأ الناس، وهكذا ما لم يشأه الله فإنه لا يحصل ولا يقع ولو شاءه الناس.

فالإنسان عليه أن يعتقد عموم مشيئة الله لما في الوجود، وأن كل ما في الوجود من حركات فإنها ما حصلت إلا بمشيئة الله، فتقول: لو شاء الله ما آمن فلان، ولو شاء الله ما حصل كذا، وتقول أيضاً: هذا لم يحصل إلا بإرادة الله، فما وُلد لفلان كذا من الولد إلا بإرادة الله ومشيئته، وما رزق فلان كذا إلا بمشيئة الله وإرادته.

وهكذا كل ما يحصل في هذا الكون هو بمشيئة الله وإرادته الكونية القدرية الأزلية، التي لا مبدل ولا مغير لها، وهو العزيز الحكيم، فإذا اعتقد العبد أن كل ما في الوجود حاصل بمشيئة الله فعليه أن يحتاط وأن يتحفظ في كلماته، فلا يجعل للإنسان مشيئة مستقلة، ولا يساويه بمشية الله، حفاظاً على جناب التوحيد، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦). وأحمد في المسند (١/ ٢٩٣)، وأورده النووي في الأربعين النووية برقم (١٩)، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٢٦٦٩). وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٨٣٤)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه على رياض الصالحين ص ٧٠: إسناده صحيح. وانظر السلسلة الصحيحة رقم (٢٣٨٢)، وكتاب السنة تحقيق الألباني ص: ٣١٦. ورياض الصالحين تحقيق الألباني رقم (٦٣)، ومسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر رقم(٢٦٦٩)، (٢٧٦٣)، (٢٨٠٤).



[٤٤]

باب:
من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلِّب الليل والنهار».

وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته آذىً لله.

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».

الرابعة: أنه قد يكون سابّاً ولو لم يقصده بقلبه.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
من سب الدهر فقد آذى الله

الدهر: هو الزمان، أي: الليل والنهار، وهو: الأيام، والليالي، والأسابيع، والأشهر، والسنوات، التي جعلها الله زماناً يقطع الناس فيه أعمارهم.

ولاشك أن الدهر مخلوق، فالأيام والليالي والأشهر والسنوات مخلوقة، وأن الله هو المتصرف فيها، فما يحدث في الأيام والليالي من الأمراض، ومن المصائب، ومن النكبات والعاهات ونحوها، كل ذلك بتصريف الله وتدبيره.

فلا يجوز سب الأيام والليالي، ولا أن يسند إليها المصائب، فلا يجوز أن يقال: واخيبة الدهر، أو أفناكم الدهر، أو أضرَّ بنا الدهر، أو أفنتهم الأيام، أو نحو ذلك، فإن نسبة التصرف إلى الأيام أو الليالي أو السنوات نسبة إلى غير المتصرف، والمتصرف هو الله تعالى الذي يصرف ويقلب الليل والنهار، ويقلب الزمان.

فتارة يكون الزمان سعيداً، وتارة يكون نحساً، وذلك بتقدير الله، وتارة تكون فيه النعم والخيرات، والعيش الرغيد، وتارة يكون فيه الضيق والضنك والمصائب ونحو ذلك، وتارة يكون على هؤلاء ضد ما على أولئك، والله هو المتصرف بالعباد.

فإذا سبوا الأيام والليالي، فالسب في الحقيقة يقع على المتصرف فيها؛ فكأنهم يسبون الله؛ ولهذا قال الله تعالى: «**يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر**، وأنا

الدهر، أقلب الليل والنهار»(١).

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]]:

حكى الله تعالى عن المشركين أو عن الجاهليين: أنهم ينسبون الحركات وما في الأفلاك إلى الدهر، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾، أي: الزمان والأيام هي التي تهلكنا وتقضي علينا.

فكأنهم جعلوا الأيام هي التي تتصرف في الكون، وهل الأيام إلا طلوع الشمس وغروبها؟ إظلام الليل وإسفار النهار؟ فهذه مخلوقة، ومدبرة، والله تعالى هو الذي يأتي بها.

يقول الله تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فالله هو الذي يأتي بها من المشرق، ويذهب بها إلى المغرب، ويأتي بالليل ويذهب به، ويأتي بالنهار ويذهب به، ويطيل هذا ويقصر هذا، كما في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: مذللات تسير بأمر الله وتحت تصرفه.

فليس لأحد فيها تصرف، وليس لها بأنفسها تصرف؛ بل هي مُتصرَّف فيها، فكيف ينسب إليها إحياء أو إماتة؟ وكيف ينسب إليها خير أو شر؟

فمن فعل ذلك فقد نقص توحيده، حيث إنه جعل مع الله من يتصرف بالكون، أو أضاف إلى خلق الله، أو إلى شيء مما في الوجود غير الله شيئاً من

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

الإحياء، أو الإماتة، أو العطاء، أو المنع، أو النفع، أو الضر، أو غير ذلك من أنواع التصرف، فيكون قد نقص بذلك توحيده.

وقد يصلح أن يكون مراد المشركين هو كون الدهر هو المتصرف كليّاً، لهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ ، فأنكروا أن يكون لله شيءٌ من التصرف.

فالذي ينسب الحركات إلىٰ الطبائع، وينكر أن يكون لله شيء من التصرف هذا جاهل، ولقد كان المشركون الأولون وربما أيضاً بعض المشركين المتأخرين من هذه الأمة من ينسب إلىٰ الدهر شيئاً من التصرف، وأكثرهم يسب الدهر ويذمه إذا أصابته فيه مصائب، حتىٰ يقول بعضهم:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً

فأنت والد سوء تأكل الولدا

فهذا يخاطب الدهر، ولكن ما ذنبه إلا لأن فيه هذه المصائب، ونسي ما فيه من الخيرات طوال حياته.

فالحاصل أن الذين يسبون الدهر يقع سبهم علىٰ الله.

■ **قوله: [في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»**[1] ، **وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»**[2]]:

يقول الله تعالىٰ في هذا الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم**»، والأذىٰ هنا ليس معناه أن الله تعالىٰ يتأذىٰ التأذي الحقيقي، وإنما معناه: أنه يقع الشتم علىٰ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨٢٦)، ومسلم برقم (٢٢٤٦).
(٢) أخرجها مسلم رقم (٢٢٤٦) (٥).

الله، والسب على الله، وكأنه يعامله معاملة من يتأذى.

فقوله: «يؤذيني»، أي: يعاملني معاملة من يهدي الأذى، أو من يعمل الأذى، فيعتبر ذلك أذى لله.

والله تعالى قد حذر أو ذم المؤذين له بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأحزاب:٥٧]، فكل من عصى الله أو سبه، أو سب شيئاً من تصرفه فقد آذى الله عز وجل.

فإذا عرف المسلم أن ما في الكون كله من تصرف الله وحده، وليس للمخلوقين فيه تصرف، أضاف الأمر إليه، فإذا أصابته سراء شكر، واعترف بأن فضلها لله، وإذا أصابته ضراء صبر، وعرف أنه من الله، ورضي بذلك واستسلم، كما في قول علقمة: «الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»، وذلك لأنه يعترف أن الله لا يسلط على العباد شيئاً إلا لحكمة ولمصلحة، إما بسبب سيئات اقترفوها، أو بغير ذلك من المصالح.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ فجعل مصائبنا التي تصيبنا من الله، ولكنها تأتي عقوبة على بعض السيئات، أو تكفيراً أو محواً لبعضها، فإذا آمن العبد بذلك أرجع ذلك لله، ولم يسب شيئاً من خلقه، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٤٥]

باب:
التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في الصحيح: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله».

قال سفيان: مثل شاهان شاه.

وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه».

قوله: «أخنع»؛ يعني: أوضع.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

الثانية: أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
التسمي بقاضي القضاة ونحوه

تَدَخَّلَ الشرع في كل ما يمس التوحيد، ويمس العقيدة، وأمر بما هو كمال للتوحيد، ونهىٰ عما فيه نقص للعقيدة والتوحيد حتىٰ في الأسماء.

والأسماء التي هي أعلام لمبادئ الإنسان حتىٰ يعرف بها تَدَخَّلَ الشرع فيها، وغيّر ونهىٰ عن أسماء، إما لقبحها، وإما لتعالي أصحابها؛ ومن ذلك هذا الباب (التسمي بقاضي القضاة ونحوه)، مثل حاكم الحكام، وسلطان السلاطين، وملك الملوك، وما أشبهها.

وذلك لأن هذا في الحقيقة إنما ينطبق علىٰ الله، فالله تعالىٰ هو ملك الملوك، وملك الأملاك، وهو قاضي القضاة الذي يقضي بين عباده، وهو الحاكم بين عباده، وعباده كلهم محكومون، وهو الحاكم بينهم.

فلا يجوز أن يسمىٰ أحدهم، ولا حتىٰ رئيسهم بملك الملوك، فلو قدر مثلاً أن في هذه الدولة ملكاً، وبالعراق ملكاً، وفي خراسان ملكاً، وفي الشام ملكاً، وفي مصر ملكاً، وفي اليمن ملكاً، ثم ترأس عليهم جميعهم واحد مثلاً، فلا يجوز أن يسمىٰ ذلك ملك الملوك، ولكن يقال: هذا ملك، وهذا ملك، وهذا قد تملك عليهم جميعاً.

ولا يجوز أن يقال له: حاكم الحكام، ولا يجوز أن يقال له: سلطان السلاطين، ولو أن كلاً منهم يسمىٰ سلطان بلاده، وهذا رئيس عليهم يصدق

عليه أن يقال له: ملك، ولكن لا يقال: ملك الملوك، ويصدق عليه أن يقال: حاكم وسلطان، ولا يقال: سلطان السلاطين، وحاكم الحكام؛ وذلك لأن فيه مزاحمة لأسماء الرب وصفاته؛ ولأن فيه نوع رفع لهذا المخلوق، كأن هذا المخلوق رفع نفسه، وأعطى نفسه ما لا يستحقه من التصرف العام في هذه الممالك وفي هذه البقاع بأكملها.

مع أن تصرف الملوك محدود، لأن ملكهم مؤقت، ولأنه مخصصٌ، فمن أجل ذلك لا يجوز التسمي بهذا.

■ **قوله: [في الصحيح :عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»**(١).

قال سفيان: مثل شاهان شاه.

وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»(٢).

قوله: «أخنع»؛ يعني: أوضع]:

في هذا الحديث يقول النبي ﷺ: **«إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك»**، يعني: أوضعه، أي: جعله وضيعاً، بمعنى: أنه حقير، أي: أحقر اسم، و أذله، وأهونه، وأخبثه عند الله، والمعنى: أن هذا الشخص الذي يسمي نفسه ملك الملوك، أو ملك الأملاك فإنه حقير ووضيع عند الله.

وقوله: «تسمى» سواء تسمى هو، أو سُمي بذلك، فإذا سماه الناس بذلك ورضي فإنه يدخل في هذا الوصف الذي جاء في الحديث، فيكون حقيراً

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٢٠٥، ٦٢٠٦)، ومسلم برقم (٢١٤٣).
(٢) أخرجها مسلم رقم (٢١٤٣)، (٢١).

ووضيعاً عند الله تعالىٰ، ولو كان في أعين الناس رفيعاً، ولو كان معظماً ومبجلاً عند الناس، ولكن ذلك لا يزيده إلا ذلة وقلة عند الله، فهو رفيع عند الناس ونفسه، ووضيع عند الله تعالىٰ في دنياه وآخرته؛ لأنه زاحم الرب تعالىٰ بأخص صفاته.

فتكون هذه المزاحمة فيها رفع الإنسان إلىٰ مرتبة لا يستحقها إلا الخالق وحده، وتكون منقصة للتوحيد ومنافيه لكماله.

ثم لا فرق بين أن يكون ذلك باللغة العربية، أو بغيرها من اللغات التي تؤدي إلىٰ هذا المعنىٰ، ففي لغة الفرس مثلاً يسمون ملك الملوك بلغتهم شاهنشاه، وهذه كلمة ممنوعة لا يجوز أن يسمىٰ بها، ولو أصبحت مستعملة عند بعض الناس، فإن معناها بلغة العرب: ملك الملوك، فالذي تسمىٰ شاهنشاه يكون قد رفع نفسه، وقد أعطاها ما لا تستحقه، وهو أخص وصف لله، وهو التصرف في ملوك الدنيا، فيستحق بذلك الإهانة، أي: أنه ولا بد سوف يهينه الله إذا تسمىٰ بذلك، إما عاجلاً في الدنيا، وإما آجلاً في الآخرة، بأن يظهر ذله، وحقارته أمام الناس، لأنه رفع نفسه وزاحم الرب تعالىٰ في صفاته وخواص أفعاله.

وقد اختلف العلماء في: قاضي القضاة، وأكثر العلماء نهىٰ عنه، قالوا: لا يجوز أن يسمي (قاضي القضاة)، وذلك لأن فيه رفعاً لقدر هذا القاضي، ولو أن هناك قضاة هو الذي يقضي بينهم إذا قام بينهم خصومة أو نحو ذلك.

كالذي في بلادنا هذه قد يكون فيها من القضاة ما يبلغ الألوف، فلو عين قاضي مختص بمسائل القضاة، بحيث لا يتقاضىٰ إليه إلا قضاة قد وقع بينهم خصومة، فهذا الرئيس لا يسمىٰ: بقاضي القضاة، ولو أنه مختص بالقضاء بين

القضاء، ولكن يسمى بغير هذا مثل رئيس القضاة، أو قاض مختص للقضاة، أو القاضي الذي يفصل بين القضاة، ونحو ذلك.

ومن العلماء من يقول: إنه لا يلحق قاضي القضاة بملك الملوك، وذلك لأن القاضي مجاله خاص، وإنما يقضي في مسائل النزاع، بخلاف الملوك فإن مجال الملك أوسع، لأن الملوك يتصرفون بممالكهم في سائر أنواع التصرف من الإعطاء، والمنع، والعزل، والتولية، والغزو، والفتح، وما أشبه ذلك، بخلاف القضاء، فإن القاضي محدود العمل.

من أجل ذلك قالوا: إن القاضي يجوز تسميته: بقاضي القضاة إذا كان مجال عمله مخصصاً، ولكن الصواب ـ إن شاء الله ـ: أنه لا يجوز، وأنه يمتنع حتى لو كان هذا الرئيس خاصّاً بمسائل ومشاكل القضاة لما قد يحصل بسبب هذه التسمية من المحظورات مثل: إعجابه بنفسه، ورفعه لقدرها، واعتقاده أنه صار رفيعاً عند الناس، وأن قضاة البلاد بشرقها وغربها يتحاكمون إليه، ويرجعون إلى قوله ليفصل بينهم مع اتساع البلاد، وكثرة المحكومين، فيزدري الناس، ويحتقرهم، ويتكبر عليهم، فيؤدي ذلك إلى الشموخ بنفسه ورفعه إلى ما لا يستحقه؛ فيكون في ذلك مزاحماً للرب تعالى بأخص صفاته، وهي كمال التصرف، وكمال الملك، وكمال الكبرياء، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما عذبته**»[1].

ولا شك أن تلقيب الإنسان بالألقاب التي فيها تفخيم لشأنه، ورفع لمكانته، وإعزاز له، وفيها أيضاً مزاحمة لصفات الله تعالى الخاصة به، كل ذلك قد يكسب الإنسان ترفعاً على الناس واحتقاراً لعامهم وخاصهم، وإذا ترفع الإنسان على

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٠)، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

الناس فقد يؤدي ذلك إلىٰ أنه يملك التصرف في أشياء خاصة لا يملكها إلا الله تعالىٰ .

ومتىٰ اعتقد أنه يتصرف بشيء من خواص ملك الله تعالىٰ نقص بذلك توحيده، ونقصت عقيدته، وازداد زهوه في نفسه، وترفعه علىٰ الله، وتكبره وتجبره؛ فيكون بذلك داخلاً في المتكبرين .

ولا شك أن التكبر؛ سواء كان في الأقوال أو الأفعال محرم، وأن مآل المتكبرين إلىٰ العذاب، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]، فنسأل الله أن يرزقنا حسن العمل، والتواضع لعظمة الله وهيبته، إنه علىٰ كل شيء قدير .

■ ■ ■ ■ ■



[٤٦]

باب:
احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح : أنه كان يكنى ، أبا الحكم ، فقال له النبي ﷺ : «إن الله هو الحَكَم ، وإليه الحُكم» ، فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم ، فرضي كلا الفريقين . فقال : «ما أحسن هذا . فما لك من الولد ؟» قلت : شريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال : «فمن أكبرهم ؟» قلت : شريح . قال : «فأنت أبو شريح» ، رواه أبو داود وغيره .

■ ■ ■ ■ ■

● **فيه مسائل:**

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته، ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

قصد المؤلف من هذا الباب أن أسماء الرب تعالىٰ تختص به، ألفاظها ومعانيها، فلا يسمىٰ بها عموماً أحد من البشر، ولو كان ذلك المسمىٰ قد ينطبق عليه بعض معاني تلك الأسماء من حيث الظاهر؛ لأن تسمية المخلوق بشيء من أسماء الله تعالىٰ يوهم أن ذلك الشخص يستحق أن يوصف بما هو من خصائص الرب تعالىٰ، فلا يسمىٰ الإنسان باسم من أسماء الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: لا أحد يستحق أن يسمىٰ باسمه.

فمن أسماء الله تعالىٰ الحكم والحكيم وهو الذي يضع الأشياء مواضعها اللائقة بها، فينزه الرب أن يشاركه أحد في أسمائه وخصائصه، فإنه سبحانه لا شريك له، ولا سمي له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه، ولا يلحق به المخلوق، فيلزم تغيير الأسماء التي فيها مزاحمة الرب تعالىٰ في خصائصه؛ حماية للتوحيد، وبعداً عن رفع المخلوق إلىٰ الاتصاف بصفة الخالق.

■ **قوله: [عن أبي شريح: أنه كان يكنى أبا الحكم. فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكم»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا. فما لك من الولد؟» قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح. قال: «فأنت أبو شريح»[1]، رواه أبو داود وغيره]:**

في هذا الحديث غير النبي ﷺ كنية أبي شريح احتراماً لأسماء الله تعالىٰ، لما

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٥٥)، والنسائي (٨/ ٢٢٦، ٢٢٧)رقم (٥٤٠٢)، والبخاري في =

قال: «إن الله هو الحكم»، فلا يتسمىٰ بأبي الحكم، لأن الله هو الحكم، والله هو الذي يحكم في الأمور، ومن أسمائه العزيز والحكيم.

وهو الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وإليه الحكم، فهو الذي يحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه، وهو الذي إليه مرجع الأشياء والحكم فيها.

فمن أجل ذلك اختص بالأسماء التي تناسب هذا المعنىٰ، فمن أسماء الله تعالىٰ الحكيم.

وقوله: «وإليه الحكم»، أي: مرجع الأشياء إليه، والحكم بين العباد إليه.

فلا يجوز التسمي بأبي الحكم، أو بالحكم، أو الحكيم أو نحو ذلك؛ لأن في ذلك مزاحمة لله تعالىٰ في الأسماء الخاصة به؛ ولأن فيه شيئاً من تزكية النفس، ومدحها بشيء من خصائص الله، فالذي يتسمىٰ بالأسماء الخاصة بالله كأنه زاحم الله في صفاته، وفيما هو من صفاته.

من أجل ذلك غير النبي ﷺ كنيته، وكنّاه بأكبر أولاده، مع أنه اعتذر عن هذه التسمية، وقال: أنا لم أسم نفسي، إنما سماني قومي؛ لأنهم يتحاكمون إلي، أي: إذا اختلفوا في شيء جاءوني فحكمتُ بينهم، فرضي كلا الفريقين بحكمي، واستسلموا لي، فأنا أفصل بينهم عندما يتنازعون، وعندما يختلفون في قضية أو في دعوىٰ.

= «التاريخ» (٨/ ٢٢٧، ٢٢٨)، وفي «الأدب المفرد» (٨١١)، والبيهقي (٣/ ٤٦٦) رقم (٥٩٤٠)، وابن حبان في «الصحيح» (٢/ ٢٥٧)، الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٧٩) رقم (٤٦٤) عن هاني بن يزيد.

والحديث صححه الألباني في صحيح أبي داود وصحيح النسائي، وفي صحيح الأدب المفرد رقم (٦٢٣)، وفي السلسلة الصحيحة رقم (١٩٣٩)، وفي الإرواء رقم (٢٦١٥)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان: إسناده جيد.

وأقره النبي ﷺ على هذا، وقال: «**ما أحسن هذا**»، أي: ما أحسن صلحك بينهم، لأن هذا من باب الصلح وفك النزاع والخصومات بين بني قومه.

فيجب على الذي يعرف الحق أن يسلمه لصاحبه، فهذا من باب الصلح، ومن باب الإصلاح الذي مدحه الله، في قوله تعالى: ﴿**لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [النساء: ١١٤].

وقد حث النبي ﷺ على الصلح بين الناس، حتى أنه أباح في ذلك الكذب، فلم يرخص في شيء من الكذب إلا في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الزوجين[١]، فجعل ذلك مسبباً لإجازة ما كان منهياً عنه، وذلك لأن الإصلاح يترتب عليه مصالح كثيرة، من فك النزاع والخصومات، ورجوع الأخوة بين الناس.

لكن مع ذلك كله، و مع كونه يصلح بين الناس، ويرضون بصلحه، أو بحكمه، ليس له أن يتسمى بأبي الحكم، ولا يتكنى به، إنما الأولى أن يتكنى بأكبر أولاده.

لذلك سأله النبي ﷺ عن أولاده؟ فأخبر: بأن له من الأولاد، أي: الذكور ثلاثة، فسأله عن أكبرهم؟ فأخبره: بأن أكبرهم شريح، فقال: «**أنت أبو شريح**».

وفي هذا أن الكُنية تكون بالابن أو بالبنت، وقد تكنى كثيرٌ من الصحابة بأبنائهم، أو ببناتهم، وكذلك أيضاً يختار الأكبر؛ لأنه الأقدم والأولى.

---

(١) لحديث أم كلثوم في الصحيحين مرفوعاً: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس؛ فينمي خيراً أو يقول خيراً»، وزاد مسلم في رواية: «قالت أم كلثوم: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: تعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل لامرأته، وحديث المرأة زوجها»، صحيح مسلم رقم (٢٦٠٥).

وكذلك أقره النبي ﷺ على الإصلاح بين الناس، ولم يجعل ذلك مسوغاً لتكنيه بهذه الكنية، ولكن كناه بغير ما كان يكنى به من أبي الحكم، وصار بعد ذلك يكنى بأبي شريح.

وفي هذا تغيير أسماء الناس التي هي أعلام؛ سواءً كانت أسماء أو كنى إذا كان فيها مزاحمة لأسماء الله تعالى، أو لشيء من صفاته، وذلك احتراماً لأسماء الله، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٤٧]

باب:
من هزل بشيء فيه ذكر الله
أو القرآن أو الرسول

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ: أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسُناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القراء.

فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق؛ لأخبرن رسول الله ﷺ.

فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنا الطريق.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنِسْعَة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. ما يلتفت إليه، وما يزيده عليه.

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة أن من هزل بهذا فإنه كافر.

الثانية: أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله، وبين الغلظة على أعداء الله.

الخمسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

الـهَزْلُ: الاستهزاء والتهكم والتنقص بالأمر على وجه الإنكار، أو على وجه التنقص والسخرية، أو البحث عن عيب فيه أو نحو ذلك، ومن فعل ذلك في حق الله، كأن استهزأ بالله، أو بآياته، أو بشرعه، أو برسله؛ فاستهزأ برسول من الرسل، أو استهزأ بشيء من سننهم، أو من أفعالهم، أو من شرائعهم، أو استهزأ بالكتب السماوية، أو ببعضها، أو استهزأ بشيء مما اشتملت عليه، أو ما أشبه ذلك؛ فإنه قد كفر بمقتضى هذه الآية وهذه القصة التي سيأتي الكلام عليها.

وفي القرآن آيات كثيرة تبين أن هذا الاستهزاء من سُنن وعادات أعداء الإسلام، وأعداء الرُسل، وأعداء أتباع الرسل.

فهم دائماً وأبداً يسخرون ويستهزئون بأتباع الرسل، وينتقصونهم، ويبحثون عن كل عيب فيهم، ويصفونهم ويعيبونهم بما هم أولى به، فكفروا من أجل ذلك، ولقبوا بالألقاب السيئة، وكذلك استحقوا العذاب الوبيل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩]؛ فهؤلاء قد ضحكوا منهم من أجل عباداتهم، فإذا رأوا المصلي يصلي ضحكوا واستهزؤوا بصلاته، ومن انعكافه ومن انحنائه راكعاً وساجداً، ومن إحرامه وطول مقامه.

وكذلك - أيضاً - يستهزئون من وضوئه، ومن تطهره، ومن جلوسه في انتظار

الصلاة، ويسخرون كذلك من استعماله السواك.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، أي: يشير بعضهم إلىٰ بعض بالعين، أو باليد، أو بالأصبع ونحوه، أن انظروا إلىٰ هذا الضعيف، وهذا المسكين، وهذا المتخلف، وهذا المتزمت، وهذا المتعصب، هذا وهذا، فيرمونه بأحداقهم، ويشيرون إليه بأعينهم ويضحكون منه.

ثم قال: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]، أي: إذا خرج الكفار من مجالسهم وعادوا إلىٰ أهلهم، انقلبوا فكهين، أي: رجعوا معجبين باستهزائهم بالمؤمنين ومتلذذين بالطعن فيهم.

ثم قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]؛ فجزاء فعلهم في الدنيا أن يضحك منهم المؤمنون في الآخرة، فكان الجزاء من جنس العمل.

وكان من عادة الكفار وعادة الفساق أنهم يسخرون من أولياء الله، والله تعالىٰ سوف يذكرهم بذلك، ويقول لهم وهم في النار، بعد قولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، يقول الله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، اخسئوا في هذه النار، ولا تكلمون، ثم يذكرهم فيقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾، وهم المؤمنون، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾، أي: سخرتم منهم: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾.

ثم قال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ علىٰ ضحككم وعلىٰ استهزائكم، وجزاء مضيهم في طريقهم، وصبرهم علىٰ ما هم فيه من السخرية والبلاء ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١١١].

وذكر الله ـ أيضاً ـ أنهم يتذكرون ذلك، وهم في النار، كما في قوله تعالىٰ عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ

زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٢، ٦٣]؛ فأين أولئك الذين كنا نسخر منهم في الدنيا؟ وأين أولئك الذين نعدُّهم أشقياء؟ ونعدُّهم مبعدين؟ما رأيناهم معنا في العذاب.

فالحاصل كان جزاؤهم ـ أي: الكفار والفساق ـ أن يعذبوا جزاء الاستهزاء الذي فعلوه بعباد الله الصالحين في الدنيا.

وبكل حال فإن أهل الكفر، والنفاق، وأهل الشقاق، وأهل المعاصي، من سيماهم أنهم يسخرون من أهل الإيمان، ومن أهل التمسك، وسخريتهم هذه ليست خاصة بالمؤمنين، بل لأنهم استهزؤوا بالله سبحانه وبأوامره ونواهيه، بل ربما استهزؤوا أيضاً بأسماء الله وصفاته، وأنكروا آياته في مخلوقاته؛ فكانوا بذلك كفاراً؛ كما في هذه الآيات ونحوها.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]، أي: أنهم زينت لهم الدنيا، وزين لهم متاعها، وركنوا إليها، واطمأنوا بها، وَجَعَلُوا مع هذا الركون للدنيا والغفلة عن الآخرة أنهم يسخرون من الذين آمنوا في الدينا، فكان ذلك سبباً في عذابهم يوم القيامة.

ثم يذكرهم الله أن الذين أمنوا فوقهم يوم القيامة، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، فكان جزاء المؤمنين لما سخر منهم الكفار أنهم يرفعون يوم القيامة عليهم.

وبهذا يتبين لنا أن السخرية بالله، وبآيات الله، وبشيء من شرعه ودينه موقعة في الكفرة.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾** [التوبة: ٦٥]]:

وهذا من عادة المنافقين أنهم يسخرون من المؤمنين، وهكذا كل من رأيته أو

سمعته يسخر أو يستهزئ بشيء من صفات المؤمنين فاتهمه بأنه منافق، حتىٰ ولو كان استهزاؤه عن طريق الإشارة والغمز واللمز ونحو ذلك.

ومن أمثلة ذلك من إذا مر بهم الذي يأمر بالخير أو يدعو إليه تغامزوا بأعينهم، أو أخرجوا ألسنتهم علىٰ وجه التنقص له، أو أشاروا بأيديهم إلىٰ أنه ضعيف الحال، أو أنه قد فاته الركب كما يقولون، أو نحن أهل السبق، وأهل القدم وأهل المعرفة، أو نحن أعرف منه، وهو وهو. . . إلخ، فهذا ـ أيضاً ـ استهزاءٌ بالله وبآياته.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، أي: يعتذرون عن استهزائهم بقولهم: إنما كنا نخوض ونلعب، والله تعالىٰ هو المطلع علىٰ ما في قلوبهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، والحساب عند الله علىٰ ما في القلب لا علىٰ ما يقال بالألسن فحسب.

ثم قال: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]. فهذا تصريح في أن كلماتهم هذه وقعوا بها في الكفر، وبيان أنهم قد كانوا مؤمنين، ثم كفروا، فكأنهم كفروا بهذا الاستهزاء: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، وهذا دليل علىٰ أنه كان هناك إيمان، ولكن لما تكلموا بهذه الكلمة وقعوا فيما يرد هذا الإيمان وهو الكفر.

فالكفر هو إنكار شيء من أوامر الله تعالىٰ إنكاراً صريحاً أو إنكاراً خفيّاً، فإذا كان القلب منكراً له ظهر ذلك في الإشارات والدلالات الظاهرة، ومن ذلك تلك الاستهزاءات والسخريات، فهي دليل علىٰ الإنكار وعلىٰ الجحود والكفران.

فالذي يؤمن بالله تعالىٰ، ويعرف أنه يراقبه، لا يمكن أن يستهزئ به ولا بأسمائه ولا بصفاته، وكذلك الذي يؤمن ويصدق بأن الرسل من الله، مبعوثون

منه، وأنهم لم يأتوا إلا بشرعه؛ لا يمكن أن يستهزئ بهم، ولا يمكن أن يتنقص شيئاً مما جاءوا به؛ بل كيف يستهزئ بهم وهو يعرف ويوقن ويؤمن بأنهم صادقون مصدقون، وأن ما جاءوا به حق من عند الله وشرعه؟

وهكذا أيضاً الذي يؤمن بجميع ما شرع الله عز وجل من صلاة ووضوء وصيام وغيره؛ لا يمكن أن يستهزئ بشيء من هذه الأمور التي شرعها الله تعالى.

كيف يستهزئ بالصلاة أو بالمصلين أو بركوعهم وسجودهم من يؤمن ويوقن بقلبه أن هذه الصلاة فريضة الله، وأنها شعيرة من شعائر الإسلام، بل هي ركن من أركانه؟! وكيف يستهزئ ويسخر بالوضوء مثلاً، أو بالطهارة، أو بشيء من خواص الصلاة من يوقن ويتحقق أنها عبادة الله التي فرضها وألزم بها عباده؟!

وهكذا كيف يستهزيء بمن يترك المحرمات أو ينهى عنها، أو يفعل السنن والواجبات ويحافظ عليها؟!

لا شك أن من آمن بجميع ما شرع الله لا يمكن أن يستهزيء ويسخر بها.

هذا ويجب على المسلم أن يكون حذراً أن لا يقع في شيء من هذا وهو لا يشعر، فإذا عرف الإنسان أنه قد يصير كافراً بموجب كلمة يقولها، وقد لا يلقي لها بالاً، وقد لا يظن أن تبلغ ما بلغت، وجب عليه الحذر، فقد ورد في الحديث: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، أو قال: لا يظن أن تبلغ ما بلغت، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[(١)].

فعلى المسلم أن يتنبه لذلك، فإذا سمع من يتكلم بذلك يبين له أن هذه الكلمة خطر كبير، وأنها دليل على أن في قلبه شيئاً من الضغينة والبغض لله ولشرعه، ودليل على نفاق أو على بغض للخير دلالة ظاهرة، ولو كان بخلاف ذلك ما

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٧٧، ٦٤٧٨)، ومسلم برقم (٢٩٨٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

استطال في هذا الكلام .

ويذكِّره بأن الكلمة الواحدة قد يقع بها في الكفر ، وأنها دليل عليه ، وأنها قد تكون سبباً لعذابه ، فإذا تذكر ذلك ربما يرتدع ؛ سيما إذا أقنعته بتذكيره بما هو يدين به إذا كان يدين بالإسلام ، ويفتخر بأنه من المسلمين .

والحاصل : أن هذا الموضوع خطير ، ويجب على المسلم أن يكون حذراً في نفسه ، ومحذراً لغيره من الوقوع في هذا الشر وهذا النفاق وهو لا يشعر .

■ **قوله : [عن ابن عمر ، ومحمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ــ دخل حديث بعضهم في بعض ــ أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسُناً ، ولا أجبن عند اللقاء ، يعني : رسول الله ﷺ ، وأصحابه القراء . فقال له عوف بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ؛لأخبرن رسول الله ﷺ . فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ ، وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب ، نقطع به عنا الطريق ، قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقاً بنِسْعَة ناقة رسول الله ﷺ ، وإن الحجارة تنكب رجليه ، وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، فيقول له رسول الله ﷺ : ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ . ما يلتفت إليه ، وما يزيده عليه[1]] :**

هذه القصة عبارة عن واقعة وقعت من منافقين كانوا يتَّسِمُونَ بسمة الإيمان ،

---

(١) أورد هذه القصة ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٧) ، وابن جرير الطبري في التفسير رقم (١٦٩١١ ، ١٦٩١٢ ، ١٦٩١٤ ، ١٦٩١٥ ، ١٦٩١٦) ، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردوية كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٣٠) .

وحسن إسناده الشيخ مقبل الوادعي كما في «الصحيح المسند» من أسباب النزول ص١٢٢ ، ١٢٣ ، وقال أخرجه الطبري من طريقه (١٠/ ١٧٢) ، وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم(٤/ ٦٤) ، من حديث كعب بن مالك .

ويخرجون مع المؤمنين في جهادهم وغزوهم، ويقاتلون معهم، ولكن ليس قتالاً مخلصاً؛ بل إرجافاً وتثبيطاً، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

وهذه عادة ضعفاء الإيمان أنهم يرجفون بأهل الإيمان، ويقولون مثلاً كما في زماننا هذا: ما أنتم يا مسلمون؟ أنتم الضعفاء، وأنتم المهزومون، والأعداء قد أحاطوا بكم من كل جانب، والأعداء معهم القوة ومعهم السلطة، وبأيديهم الذخائر ويملكون الطائرات والقاذفات والدبابات ونحوها، وأنتم لا تملكون شيئاً، وأنتم مجردون من كل شيء، فإذا تعرضتم لهم اختطفوكم، واقتطعوكم، وقتلوكم، واستباحوكم، والأولى لكم أن تثبتوا في بيوتكم، وألا تجاهدوا، وألا تقاتلوا، وألا تفعلوا كذا وكذا؛ وهذا نوع من الإرجاف.

وقد ذكر الله أيضاً نوعاً من ذلك، بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧]، أي: ما زادوا المؤمنين إلا تخذيلاً، يخذلون المؤمنون إذا كانوا معهم، ويعظمون الأعداء في أنفسهم، ويقولون لنا: أنتم القليل وهم الكثير، وعدتهم أقوى من عدتكم، وأسلحتهم أقوى من أسلحتكم، وهم أكثر منكم، وهم أقوى، وهم أشد بأساً، وهكذا، فهذا نوع من التخذيل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، أي: لأسرعوا المشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، وتخللوكم بهذا الإيضاع الذي هو نوع من الإرجاف والتثبيط والتخذيل عن القتال.

فإذا كانوا كذلك فإن هذه سمة النفاق، وعلامة على بغضهم للحق، وعلى أن إيمانهم ليس بصادق، وإنما هو دعوى ادعوها، وإلا فالمؤمنون الصادقون يثبتون

علىٰ ذلك.

ومن علامة النفاق أيضاً أن أهله يستهزئون بالمؤمنين، فهم يرتدون ويكفرون بذلك الاستهزاء وذلك التنقص، وقد ذكرنا أن المنافقين كثيراً ما يتقلبون، فهم يؤمنون ثم يكفرون، ويؤمنون ثم يكفرون، واقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ [النساء: ١٣٧].

فإذا رأوا الإسلام انتصر وقوي آمنوا، ودخل الإيمان في قلوبهم، ولكن إذا ابتلوا ببلية أو بمصيبة تخاذلوا ورجعوا وكفروا، وأنكروا بقلوبهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾، أي: نصر أو فتح أو غلبة، ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

فيقولون للمؤمنين: ألم نكن معكم؟ أي: ظاهراً، ويقولون للكفار: ألم نستحوذ عليكم؟ أي: كنا ننصركم، ونحول بينكم وبينهم، ونمنعكم من المؤمنين، فهذا من كثرة التقلب.

وذكرهم الله تعالىٰ في وصف آخر، بقوله: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

ولما كان هذا هو الوصف الذي استقروا عليه ظهر ذلك منهم أحياناً، فظهر النفاق منهم في غزوة أحد، كما حكىٰ الله عنهم قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقولهم: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وظهر ذلك النفاق منهم أيضاً في غزوة الخندق، وقد ذكر الله ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ

ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الاحزاب: ١٠، ١٢]، إلىٰ آخر الآيات.

وهكذا ـ أيضاً ـ نجم النفاق في غزوة تبوك التي هي غزوة العسرة، وهي غزوة في آخر حياة النبي ﷺ، في سنة تسع، لما غزا الشام قاصداً الروم، وكان ذلك بعد أن دخل العربُ في الإسلام، وتوسعت دائرة ورقعة الإسلام، وتمكن الإسلام من أهل الجزيرة، فما بقي إلا أن النبي ﷺ يغزو البلاد الكافرة التي لم تدخل الإسلام.

فغزا الروم، وخرج معه في جيشه بعض من المنافقين، الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وتخلف آخرون أيضاً من المنافقين، وهم الذين حلفوا له عليه الصلاة والسلام لما رجع في قوله تعالىٰ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥].

والذين خرجوا معه أيضاً وقع منهم وقائع، فوقع أن طائفة منهم هموا بقتل النبي ﷺ، فتواعدوا أن يقفوا في رأس عقبة، وقالوا: إذا رقت به ناقته في رأس هذه العقبة نفَّرناها لعلها أن تلقيه، ثم إذا سقط من هذه العقبة الطويلة تردىٰ فمات فاسترحنا منه، هذا همّ لهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]، ولما فعلوا هذه الفعلة ثبته الله، وأطلعه علىٰ أناس منهم، وأسر بهم إلىٰ حذيفة بن اليمان، وأخبره ببعض منهم.

وهذه الواقعة التي ذكرها المصنف رحمه الله وقعت منهم، وهي أنهم استهزءوا بالصحابة، وبمن مع الرسول عليه الصلاة والسلام؛ حيث قالوا هذه المقالة الشنيعة، قالوا: «**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء**»، يعنون النبي ﷺ، ومن معه من الصحابة، وقد كذبوا في ذلك

كله.

* ومعنى: «**أنهم أرغب بطوناً**»: أي: ليس لهم همّ إلا الأكل في بطونهم، مع أن هذا خلاف الواقع؛ فإنهم لا يهتمون بشأن أنفسهم، إنما يأكلون العلقة من الطعام، وكثير منهم يبقى يوماً أو يومين لا يأكل الطعام؛ ، حتى أنهم لقوة إيماناهم ليصبرون الشهر والشهرين لا يوقد في بيوتهم نار، إنما هما الأسودان: التمر والماء، مع أن الله تعالى فتح عليهم وأعطاهم، ولكن ذلك لم يكن قصدهم، إنما قصد الرسول والصحابة إظهار الإسلام، وليس قصدهم التمتع بالشهوات والملذات.

* وأما قولهم: «**ولا أكذب ألسناً**»: نقول: بل إنهم أصدق الناس لهجة، وأبعد الناس عن سمات الكذب والنفاق، وأن هذه الصفة تليق بالمنافقين الذين شهد الله بكذبهم في قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ [المنافقون: ١].

والكذب جعله النبي ﷺ من علامات المنافقين، بقوله: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»(١)، فأبرز صفاتهم الكذب في الحديث، وكذلك الكذب في المعاملات.

وليس الكذب من سمات الصحابة، ولا من سمات وصفات أتباعهم والسائرين على نهجهم.

* وأما قولهم: «**ولا أجبن عند اللقاء**»: فنقول ـ أيضاً ـ: هذا من الكذب والزور، والجبن: هو الضعف والخور عند القتال، وضده الجرأة والشجاعة، ولاشك أن الصحابة رضي الله عنهم من أشجع الناس، وهم أقوى الناس قلوباً، وهم أصبر عند اللقاء، ومن أجل ذلك صبروا حتى قتل كثير منهم في المعارك،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٨٢)، ومسلم برقم (٥٨، ٥٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كما قال تعالىٰ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فصبروا وفدوا نبيهم ﷺ بأنفسهم، وهو أيضاً لم يكن جباناً، ولم يكن ضعيفاً، ولا خواراً؛ بل كان ـ أيضاً ـ شجاعاً وجريئاً ويتعرض لحومات القتال، ويدخل بنفسه في المعارك، ويصبر صبراً ثابتاً مشهوراً، كما صبر في غزوة حنين.

ففي غزوة حنين لما انصرف الكثير ثبت، وسار نحو العدو وهو راكب علىٰ بَغْلِهِ يسير حتىٰ أنزل الله تعالىٰ نصره عليهم، وهو مع هذا ينادي بأعلىٰ صوته بقوله: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[1]، وذلك دليل علىٰ أنه عليه الصلاة والسلام بعيد عن صفات الجبن، والضعف والخور، وإنما الجبن من صفات المنافقين الذين رموا المؤمنين بالجبن والهلع.

ولا شك أن الذي حملهم علىٰ هذه المقالة هو ما أضمروه في قلوبهم من النفاق والكفر والطعن في المسلمين.

والحاصل أن هؤلاء المنافقين وقع منهم هذا القول في هذه الغزوة في جلسة من الجلسات، وهم يعتقدون أن أحداً لا يراهم، ولا يطلع عليهم، وكان بينهم رجل من أجلاء الصحابة، وهو عوف بن مالك، فلما تكلموا بهذه الكلمة، وسمعها منهم أعلن كذبهم، وقال لهذا القائل: (كذبت ولكنك منافق) فأنت أولىٰ بها، وتعهد أن يخبر النبي ﷺ بما قالوا.

ولما ذهب عوف ليخبر الرسول ﷺ بكلامهم وجد القرآن قد سبقه، وقد أنزل الله عليه هذه الآيات: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٦٤)، ومسلم برقم (١٧٧٦)، عن أبي عمارة رضي الله عنه.

وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

ولما علموا أن الخبر قد بلغ النبي ﷺ جاءوا معتذرين، وجاء ذلك القائل متنصلاً متبرئاً يرجو أن يقبل عذره، ولكن الله تعالىٰ عالم بما في ضمائرهم، ولم يقبل عذرهم، فقال: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦]؛ فمنهم من أناب وتاب فتاب الله عليه، ومنهم من بقي علىٰ ضلاله وكفره إلىٰ أن أتته منيته.

فهذا المنافق جاء إلىٰ النبي ﷺ ليعتذر، وكان النبي ﷺ قد ركب ناقته، وقد ارتحل، وسار من معه، فجاء ذلك المنافق، وتعلق بنسعة ناقة النبي ﷺ، وهي الوقاية التي يجعل عليها رجليه إذا مدهما علىٰ الرحل، فتعلق بها هذا المنافق، وجعل يكلم الرسول ﷺ رافعاً رأسه، وجعلت الحجارة تنكب رجليه، أي: تصيبهما، وذلك لأنه رافع بصره ولا ينظر في طريقه، وجعل يقول: إننا في حديثنا هذا إنما نتكلم بكلام لا نريد معناه، وإنما نتحدث أحاديث الركب، نقطع بها عنا الطريق.

كأنه يقول: قلنا هذا الكلام عن غير عقيدة، إنما قلناه علىٰ وجه المزاح، وعلىٰ وجه التسلية، نتسلىٰ بمثل هذه الكلمات، وهذه المُضحكات، حتىٰ لا نشعر بكلفة، ولا بمشقة السير، ولا بطول الطريق، ولا الجهد الذي أضنىٰ بنا، وكان هذا عذره.

ولكن لما علم الله تعالىٰ أنهم ليسوا صادقين لم يقبل عذرهم، بل قال: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فأخذ النبي ﷺ يردد هذه الآية: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

فظهر أنهم يستهزئون بالله، أي: بأحكامه وبشرعه وبأمره ونهيه،

ويستهزئون بآياته، أي: بما جعله آيات ودلالات على وحدانيته، وعلى كمال قدرته، ويتسهزؤون - أيضاً - برسوله الذي أرسله رحمة للعالمين، فكانوا بذلك كفاراً، ولو كان منهم من قال هذه المقالة مازحاً غير جاد، ولكن لم يعذرهم الله.

ففي هذه القصة ومثيلاتها خطر كبير على الذين يطلقون ألسنتهم ويتكلمون بكلمات يزعمون أنهم قالوها على وجه المزاح، فيتكلمون بكلمات في أهل الخير، وفي أهل الدين والصلاح، يعيبونهم ويسمونهم بأوصاف وبمسميات، ويقولون: هؤلاء المصلون أو هؤلاء الدعاة والملتزمون الذين شغلوا أوقاتهم، وشغلوا أنفسهم وأتعبوها بهذه العبادات، ماذا استفادوا؟ وماذا أفادتهم طهارتهم؟ ماذا نفعهم تسوكهم، أو قراءتهم وترتيلهم؟ ماذا استفادوا من كذا وكذا؟ فمثل هذا أيضاً يعتبر نفاقاً وردة.

فبهذا يتبين أن الإنسان قد يخرج من الإسلام بكلمة يقولها، ويتلفظ بها، ولو كان مازحاً، وقد لا يعذر بها؛ بل توقعه في النفاق، فعلى المسلم أن يحذر ويحفظ لسانه، وعليه أن ينتبه لمثل هذه الكلمات التي تصدر كثيراً من الجهلة، وهي في الحقيقة دليل على ضعف الإيمان، وعلى أنهم لم يكونوا متحققين به، وذائقين لحلاوة الإيمان وطعمه، ولو كانوا كذلك لعرفوا أن أهل الخير وأهل الديانة والصلاح هم الذين على هدىً وحق، وهم الذين يستوجبون أن يمدحوا، لا أن تُصَبَّ عليهم الكلمات البشعة، ويتنقص ويستهزأ بشيء من عباداتهم وخصائصهم، فإذا عرف المؤمن ذلك أخذ حذره، نسأل الله أن يرزقنا الحفظ والحماية، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■



[٤٨]

باب:
ما جاء في قول الله تعالى:
﴿ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

قول الله تعالى: ﴿ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به. وقال ابن عباس: يريد من عندي.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب. وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى. فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً:

فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق -، فأعطي ناقة عُشَراء، فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. قال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل، فأعطي بقرة حاملاً، فقال بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله علي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطي شاة والداً.

فأُنْتِجَ هذان، وولّد هذا. فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري هذا، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن ،والجلد الحسن، والمال بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة!، فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، قال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ،فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: فأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله عليَّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك». أخرجاه.

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ما جاء في قول الله تعالى:
﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

من واجب المسلم الاعتراف بنعم الله، ونسبتها إليه، والبراءة من الحول والقوة، والاعتراف بأن ما به من نعمة فمن الله، وإذا لم يكن كذلك فإنه ليس شاكراً للنعمة، ولا مؤدياً لحقها.

وهو ما قصد به هذا الباب، فهذا الباب معقود لبيان وجوب الإقرار والاعتراف بالنعم التي تصيب الإنسان، ونسبتها إلى الله، وعدم نسبتها إلى الأسباب، أو إلى القوة، أو إلى القدرة، أو إلى الشرف، ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك نقص توحيده.

■ قوله: [**قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** [فصلت: ٥٠]، **قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به. وقال ابن عباس: يريد من عندي**]:

هذه الآية مثل الآيات التي في سورة هود، وهي قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾** [هود: ٩، ١٠]، فإذا أصابه ضراء، ثم زالت تلك الضراء، وأعطاه الله صحة وقوة وغنى وخيراً؛ اعتقد أن ذلك دليل على شرفه، وقال: **﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾**، فهذا دليل على كرامتي عند الله.

وهذه الآية أيضاً مثل قول الله تعالىٰ في سورة الزمر: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]، فإذا أصيب ذلك الإنسان بالمرض، أو الفقر، تذكر حاجته إلىٰ ربه عز وجل، وأخذ يتضرع ويدعو ربه، ولكنه متىٰ زالت تلك الضراء، ومتىٰ تبدلت أحواله، وجاءه خير وعافية؛ نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله أنداداً، واعتبر ذلك دليلاً علىٰ شرفه، وقال: إنما أوتيته علىٰ علم، أي: ما أوتيت هذا المال إلا علىٰ علم من الله أني أستحقه.

ففي هذه الآيات وعيد لمن كفر نعمة الله، ونسي حاجته إلىٰ ربه، وذلك أن الكثير من الناس في حالة الضراء والفقر والمرض والشدة يتضرعون إلىٰ الله، ويدعونه، وينيبون إليه، ويعترفون بحاجتهم إلىٰ الله، وأنه الذي يشكف السوء، ويزيل البأساء، ثم متىٰ أذاقه الله تعالىٰ رحمة منه بعد الضر الذي مسه، أنكر فضل الله عليه، وقال: هذا لي، وقال: ﴿مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [فصلت: ٥٠]، ومعناه ما فسره به مجاهد، أي: أنا أستحق هذا العطاء وهذه الرحمة لصلاح عملي، فلي علىٰ الله حق، وهذا فرض حق له علىٰ ربه، وليس علىٰ الله حق لأحد، وفيه إنكاره لقيام الساعة، ومن كذب بالبعث كفر.

ثم قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[فصلت: ٥٠]، وهذا تخرص وظن كاذب، فكيف تكون له عند الله الحسنىٰ مع شكِّه في قيام الساعة.

ثم أخبر تعالىٰ بأنه سوف ينبئهم بما عملوا، وأنهم قد كفروا بمثل هذه المقالة التي من ضمنها الشك في قيام الساعة، وأنه سوف يذيقهم العذاب الغليظ أي: الشيد الأليم.

فمعنىٰ قوله: ﴿هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: هذه الرحمة بسبب عملي

استحقها، أو من عندي، كما قاله ابن عباس، مع أن رحمة الله أوسع من الأعمال، فمن أدلىٰ بعمله وأنكر فضل الله عليه فقد زكىٰ نفسه، واعترض علىٰ تصرف الله تعالىٰ، وذلك مما ينافي كمال التوحيد، والله أعلم.

■ **قوله: [وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾** [القصص:٧٨]، **قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب. وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف]:**

هذه الآية نزلت في قارون، فإن قارون لما أتاه الله مالاً كثيراً انخدع بذلك، واعتبر ذلك دليلاً علىٰ فضيلته، وعلىٰ رفعة منزلته، فقال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨]، أي: ما أعطيت هذا المال، إلا لأن الله علم أني أهل له، وأني استحقه، فأنا كريم علىٰ الله، وأنا شريف علىٰ الله، وأنا لي قدر عند الله؛ فمن أجل ذلك أعطاني، ووسع لي، وفتح لي، ويسر لي، ونحو ذلك، هذا قول.

وهناك من يقول: إن معناه أوتيته علىٰ علم مني بوجوه المكاسب، فأنا عارف وأنا عالم كيف أدبر الأموال؟ وكيف أصرفها؟ وكيف تنمىٰ؟ فأعرف السلعة التي فيها ربح، وأعرف كيف أكتسب وكيف أشتري، فنتيجة لمعرفتي وحنكتي وقوتي، وإدراكي؛ حصلت علىٰ هذه الأرباح، وجمعت هذه الأموال، فلم يعترف لله بفضل، ولم يعترف بأن الله هو الذي رزقه، وهو الذي أعطاه، ونسي أن الله هو الذي يسر له وقواه، فكان لذلك منكراً لنعمة الله عليه.

فإذا قال: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: علىٰ شرف وعلىٰ فضيلة، أي: أني فاضل، وشريف، وكريم علىٰ الله، فقد مدح نفسه، وقد اعتبر نفسه مستحقاً لهذا المال،

واعتبر المال دليلاً على الشرف؛ وليس كذلك؛ فإن المال ليس دليلاً على الفضل، فليس كل من وسع له في دنياه يكون فاضلاً أو سعيداً، ونحو ذلك.

فسواء أراد القائل بقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: أنه أهل لهذا المال، أو لهذه النعمة، أو: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، بمعنى: على شرف وفضيلة، وأنه يستحق ذلك بسبب منزلته الرفيعة عند الله، أو أن المراد على معرفة بطرق الكسب، وما أشبه ذلك، كل ذلك منقص للتوحيد، أومثبت لعدم الاعتراف بنعمة الله؛ وذلك لأن الإنسان عليه أن يعترف دائماً وأبداً بفضل الله عليه، فإذا اعترف بذلك زاده الله خيراً، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولو مع ما مُتع به في الدنيا، فإنه يلقى العذاب الشديد في الآخرة.

فلا يغتر الإنسان بأهل الدنيا، فإن ذلك ليس دليلاً على شرفهم، ولا على كرامتهم، ولا على رفعة منزلتهم، فقد يغتر بعض الناس بهذا كثيراً، فإذا رأوا إنساناً مثلاً قد وسعت عليه دنياه، وقد ضحكت له الدنيا، وأقبلت عليه بزخرفها، وفتح عليه باب المشتهيات والملذات وتنعم في الحياة الدنيا، فإذا رأوه انخدعوا، وقالوا: هذا سعيد، وهذا مكتوب من السعداء، وهذا له حظ، وحظه طيب، وهذا له حظوة عند الله، فما أعطاه ولا فتح عليه إلا لأن له منزلة عند الله.

لذلك قال الله تعالى لافتاً النظر إلى ذلك: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، أي: لم نعطه ما أعطيناه لفضلة، بل هي فتنة، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء، كما جاء في الحديث[1].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٣٦)، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» رقم (١٨٨٩).

فليس فتحها على من فتحت عليه من أجل الشرف، وإنما من أجل الابتلاء، فهو ابتلاء وامتحان، فيرى أيعترفون بها لله، ويستعملونها لرضاه، أم يبسطون ويفرحون ويمرحون ويأشرون ويبطرون؟ أم يستعملونها في معاصيه، وفيما يبعدهم عنه وعن رضاه؟ فيكون ذلك ابتلاءً وامتحاناً، هذا معنى قوله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ .

فيجب على المسلم إذا فتح الله عليه ما فتح من الدنيا أن يكون متبرئاً من الحول والقوة، ويقول: أنا ليس لي سبب إلا ما يسر الله، فالله هو الذي قواني، وهو الذي فهمني، وعلمني وأعطاني، وكذلك يقول: أنا لا أستحق هذا، وإنما هو ابتلاء ابتلاني الله بما فتح علي ليظهر ما أفعله، وينبغي أن يكون خائفاً وجلاً من هذا الابتلاء، وكذلك يكون حريصاً على الاستعانة بها على طاعة الله، ولا تكون شاغلة له عما يقربه إلى الله.

هذا هو حال المسلم مع النعم مع دوام الشكر، وبذلك يكون قد نجح في اختبار الله له، وابتلائه إياه.

أما قارون فإنه لما لم يعترف بذلك، وادعى أن ذلك دليل على شرفه أو دليل على حركته ومعرفته للمكاسب ووجوهها؛ عوقب بأن خسف به وبداره الأرض، وقال الله: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨].

أي: قد أهلك الله قبله من هو أقوى منه وأكثر مالاً، ومن قد جمع مالاً أكثر من ماله؛ ومع ذلك ما رده عن إهلاكهم لما أتوا بأسباب الهلاك.

■ قوله: [وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى. فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً:

فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق -، فأعطي ناقة عُشرَاء، فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. قال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل، فأعطي بقرة حاملاً، فقال بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله علي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطي شاة والداً.

فأُنْتِجَ هذان، وولَّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري هذا، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة!، فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، قال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: فأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله عليَّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك»[1]. أخرجاه]:

هذا الحديث عبارة عن قصة وقعت في بني إسرائيل، ذكرها النبي ﷺ لأمته ليعتبروا بها، وليعرفوا نعم الله عليهم، وليعترفوا بها، وليحذروا من إنكار النعم ونسبتها إلىٰ غير المنعم بها.

وأول هؤلاء النفر الثلاثة: هو الأبرص: الذي قد ابتلي بالبرص؛ وكان جلده كله أبرص، فيه البقع البيضاء التي توجد في كثير من الناس المصابين بهذا المرض، والبرص معروف، وفيه ينبت الشعر أبيض، بدل ما كان أسود، حتىٰ ولو كان شاباً يكون شعره أبيض، ويبقىٰ علىٰ هذه الحال، وليس له علاج، وقد ذكر الله أن عيسىٰ عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص.

والثاني: هو الأقرع: الذي أصاب رأسه ذلك القرع، وهو عبارة عن مرض وقروح ووسخ يكون في الرأس يتمزق منه الشعر، وعلاجه صعب.

والثالث: هو الأعمى: الذي ذهب بصره، ومن الصعوبة ـ أيضاً ـ رد بصره.

* وقد ابتلىٰ الله تعالىٰ هؤلاء الثلاثة بالنعم ليظهر من يشكر ومن يكفر، فأرسل إليهم ملكاً، فجاء إلىٰ الأبرص، وذكر له ما يريد وما يتمنىٰ، وما هو أحب شيء إليه، فذكر أن أحب شيء إليه العافية من ذلك المرض الذي قذره

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٦٤)، كتاب «أحاديث الأنبياء»، ومسلم رقم (٢٩٦٤)، كتاب «الزهد والرقاق».

الناس به، وقد كان الناس قد قذروه، وكانوا يهربون وينفرون منه ولا يقربه أحد، فتمنى أن يشفى من ذلك البرص، وأن يعطيه الله شعراً حسناً، وجلداً حسناً، ولوناً حسناً، فمسحه ذلك الملك، فأعطي جلداً حسناً، وشعراً حسناً، ولوناً حسناً، وأصبح معافىً قد زال عنه ذلك القذر، ثم قال له الملك: وأي المال أحب إليك؟ فتمنى الإبل، فأعطي ناقة عشراء، أي: حاملاً، ودعا له بالبركة فيها.

* **وهكذا جاء إلى الأقرع**، فسأله: ماذا تحب؟ فذكر أنه يحب العافية، وزوال القذر، وحصول الشعر الحسن بدل ذلك الشعر المتقطع، فمسحه الملك فزال عنه قذره، ونبت لرأسه شعر حسن كأحسن ما يكون، وسأله: ماذا يتمنى من المال؟ فذكر أنه يتمنى البقر، فأعطاه بقرة حاملاً، ودعا له بالبركة فيها.

* **وجاء إلى الأعمى**، وسأله: ماذا يحب؟ فتمنى رد بصره، فسمحه فأبصر، فعاد بصيراً كما كان ليس بعينيه داء، فسأله: ماذا يحب من المال؟ فتمنى الغنم، فأعطي شاة والداً، معها ولدها، ودعا له بالبركة فيها.

فأصبح لهذا وادٍ، أي: شيء كثير من الإبل، ولهذا وادٍ من الغنم، ولهذا وادٍ من البقر.

والتعبير بكلمة (الوادي) إما لأنه يسيل كسيلان الوادي، أو كالسيل لكثرته، أو ما يملأ الوادي لكثرته.

وبعد أن مضت مدة ظهر منهم الأشر والبطر، وعدم الاعتراف بالنعم، وعدم أداء الحقوق، بل منع حقوق المال، عند ذلك أرسل الله إليهم ذلك الملك أو غيره.

فجاء إلى الأبرص في صورة أبرص، أي: في صورته وهيئته قبل أن يعطى

المال، وتلطف إليه، وذكر أنه: رجل مسكين يستحق الصدقة لمسكنته وحاجته وفاقته، وأنه ابن سبيل مسافر من بلاد بعيدة، وأنه قد انقطعت به الأسباب التي يتوصل بها إلىٰ مُراده، وليس له قوة ولا حيلة إلا بالله تعالىٰ ثم بك أيها الرجل الذي قد أعطاك الله هذا المال.

فعند ذلك أنكر، قال: الحقوق كثيرة، إذا أعطيتك جاءني الثاني وأعطيته، وجاءني الآخر وأعطيته، فيذهب مالي كله، فنسي نعمة الله، ونسي فضله عليه، فلم يرحم ذلك المسكين الذي ظهر له كسائل، وهو مُبْتَلٍ له مختبر، فلم يرحمه، ولم يعطف عليه، ومنع وتعلل بأن الحقوق كثيرة.

عند ذلك ذكَّره، وقال له: ألست كنت أبرص؟ ألست كنت ينفر منك الناس؟ ألست كنت فقيراً وأعطاك الله وعافاك؟ أما تذكر نعمة الله؟ ولكنه مع ذلك كله لم يتذكر، بل أنكر، ونسب فضل الله إلىٰ قوته، وقال إنما ورثت هذا المال، كابراً عن كابر، أي: ورثته عن آبائي وآبائي عن أجدادي وأجدادي عن آبائهم كابراً عن كابر، فتسلسل إلي من أب بعد أب، فأنكر أن يكون من الله ونسبه إلىٰ الوراثة.

وذلك هو الكفران بالنعم، والعياذ بالله، عند ذلك دعا عليه، ولا شك أن دعوته استجيبت، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلىٰ ما كنت، أي: ردك إلىٰ فقرك، وإلىٰ برصك، وأذهب ما أعطاك من المال، وأذهب عنك بركته، حيث لم تشكره، ولم تعترف له بفضله، ولم تؤد حقوق هذا المال.

وهكذا جاء إلى الأقرع الذي عنده ذلك البقر، ولكنه أيضاً لم يفهم، ولم يتذكر، بل قال: مثل ما قال الأول، ونسب النعمة إلىٰ نفسه، وادعىٰ أنه ورث هذا المال كابراً عن كابر، وأنكر أنه كان أقرع، وأنه كان فقيراً، وأنه كان مستقذراً

عند الناس.

وأما الأعمى فلما أتاه وذكَّره نعمة الله عليه، وذكّره أن الله رد عليه بصره، وذكّره أن الله أعطاه هذا المال، فتذكر، واعترف بأنه كان ضرير البصر، وبأنه كان فقيراً، وأن الله وحده هو الذي رد عليه بصره؛ فأبصر الناس، وبأن الله تعالىٰ وحده هو الذي أعطاه هذا المال، وهو الذي بارك فيه ونماه.

ولما تذكر نعمة الله عليه، واعترف بها، خوله في ماله، وقال: سمحت لك بأن تأخذ ما تريد فخذ من المال ما تشاء.

فأخبره بأن ذلك كان ابتلاء واختباراً، فحيث اعترفت بنعمة الله تعالىٰ، ولم تنكر، فإنك قد حظيت برضوان الله تعالىٰ، وقد رضي الله عنك، وسخط علىٰ صاحبيك اللذين كفرا نعمة الله.

فعلىٰ العبد أن يعرف مقدار نعمة الله عليه، وعليه أن يعرف أن ما به من نعمة فمن الله، لأن الكثير من الناس لا يذكرون الله إلا عند الضراء وينسونه عند السرّاء وعند الخيرات والصحة والعافية، وينسون ما كانوا فيه من الفقر والفاقة والمرض. فإذا ألمت بهم الملمات والمصائب عند ذلك رجعوا إلىٰ الله وتذكروا ودعوا الله.

أما ما داموا في رغد العيش والصحة والعافية فإنهم يتمادون في غيهم وينسون حق الله تعالىٰ عليهم، وما هكذا يكون المؤمن الذي يعرف حق الله في كل أحواله، في السرّاء والضرّاء. ففي السرّاء يكون شاكراً لنعم الله، وفي الضرّاء يكون صابراً محتسباً.

والواجب على المسلم تجاه نعم الله ما يلي:

أولاً: عليه أن يعرف أن ما هو فيه من خير فمن الله، أي: أن الله هو الذي أعطاه وامتن عليه بهذا الخير، يقول تعالىٰ: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا**

مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، أي: تنادونه وتدعونه.

وثانياً: عليه أن يستعمل هذه النعم في ما يقربه إلىٰ الله؛ سواء كانت نعم بدنية أو مالية، ويبتغي بها رضا الله تعالىٰ، ويستعين بها علىٰ طاعته.

وثالثاً: عليه أن يتذكر حاله من الفقر والفاقة والمرض ونحو ذلك قبل أن تحصل له هذه النعم، فيتذكر يوم كان فقيراً فأغناه الله، ويتذكر يوم كان مريضاً فشفاه الله، فلا ينسىٰ إخوانه الفقراء أو المرضىٰ فيعطف عليهم ويساعدهم ويحمد الله علىٰ الغنىٰ والصحة، ويعرف أن الذي أفقرهم قادر أن يفقره ويسلبه المال الذي أعطاه، ويعرف أن الذي شفاه وأعطاه الصحة قادر علىٰ أن يمرضه ثانية.

والحاصل أن من عرف نعم الله وأعطاها حقها وتذكر إخوانه وعطف عليهم كان من الذين يشكرون نعمة الله، ولا شك أن شكر النعم سبب لبقائها وزيادتها كما قال تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وعلىٰ كل حال عرفنا بذلك مقدار نعمة الله علىٰ العباد، وأن من نسب نعمة الله إلىٰ الحول أو القوة أو الذكاء أو الفطنة ونحو ذلك من الأسباب، ونسي نسبتها إلىٰ مسببها وهو الله تعالىٰ مسبب الأسباب؛ فإن ذلك يكون سبباً في سلبها، وتكون هذه عقوبة عاجلة له في الدنيا.

وإذا مُتِّع بهذه النعم التي لم يشكرها، ولم يعترف بحقها، ولم يقم لله بما يجب عليه فيها، فإنه سوف يحاسب عليها في الآخرة حساباً شديداً قد يعاقب عليه، ومن نوقش الحساب فقد عذب[1]، والله أعلم

(١) لحديث عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حوسب يوم القيامة عذب»، فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾، فقال: «ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب».
أخرجه البخاري برقم (٤٩٣٩)، ومسلم برقم (٢٨٧٦).

[٤٩]

باب:

قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبدالكعبة، وما أشبه ذلك. حاشا عبدالمطلب.

وعن ابن عباس في الآية، قال: «لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس. فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لَتُطيعُنني أو لأجعلن له قَرْنَي إيَّلٍ، فيخرج من بطنك فيشقه. ولأفعلن ولأفعلن، يخوفهما. سمِّياه عبدالحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً.

ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما. فأدركهما حب الولد، فسمَّياه عبدالحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، رواه ابن أبي حاتم.

وله بسند صحيح، عن قتادة، قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته.

وله ـ بسند صحيح ـ، عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، قال: أشفقا أن لا يكون إنساناً.

وذُكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما.

• فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول الله تعالى:
﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

هذا الباب قد ذكره المصنف رحمه الله لبيان تحريم التعبد لغير الله تعالىٰ، وذلك لأن الخلق كلهم عبيد الله، أي: أذلاء له، ومعبدون له، ومطيعون له وحده، هذا من حيث الأصل.

ومن حيث الاسم الظاهر - أيضاً - فالإنسان معبد لله، فمن أجل ذلك لا يجوز أن يعبد مخلوق لغير الله، كما ذكر ذلك ابن حزم، يقول: (اتفقوا علىٰ تحريم كل اسم معبد لغير الله).

ويوجد في هذه الأزمنة وما قبلها من يُعبّد لغير الله باسمه، كأن يُسمَّي أحدهم: عبدالرسول، أو عبدالنبي، أو عبدالكعبة، ونحو ذلك، فهذا يجب تغييره، وذلك بأن يضاف إليه لفظة (رب)، فإذا كان اسمه (عبدالرسول)، يضاف إليه كلمة (رب)، فيصير (عبد رب الرسول)، وإذا كان اسمه عبدالحسين، قيل له: غير اسمك، أو قل: عبد رب الحسين، حتىٰ تكون صادقاً، فلست عبداً للحسين؛ لأنه إذا أصبح ينادىٰ: يا عبدالحسين، فكأنه يعبد الحسين، أو كأنه مملوكاً ملكاً أصلياً للحسين، أو لعلي، أو لغيرهما من المخلوقين.

وهذا فيه تعظيم لهذا المخلوق، وجعله شريكاً لله في ملكية العباد، وكذلك فيه تذلل لهذا الإنسان؛ حيث جعل نفسه مملوكاً لغير ربه.

والله تعالىٰ هو مالك الخلق، يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢]، فإذا كان هو المالك للناس، فكيف يكون المخلوق شريكاً له

في الملكية؟ هذا هو السبب في عدم جواز تعبيد المخلوق لغير الخالق، فيقال مثلاً: عبدالرحمن، وعبدالعزيز، وعبدالرحيم، وعبدالرقيب، وعبدالمهيمن، وعبدالتواب، وعبدالغفور، ونحوها، هذه كلها أسماء الله.

وإذا أطلق شيء من الأسماء التي قد تطلق على المخلوق، فإنه يجب أن يكون منصرفاً إلى الخالق وحده؛ لأن إطلاقها على المخلوق إطلاق صفة؛ كالملك، فالملك ـ مثلاً ـ تكون صفة غير لازمة للمخلوق.

فإذا عبدنا للملك فقلنا: عبدالملك؛ فالمراد به الله تعالى الذي من أسمائه الملك، فهو الملك القدوس، مالك الملك، ملك الناس، مالك يوم الدين، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، فإذا قلنا: عبدالملك، انصرف ذلك إلى الله تعالى، أما إطلاقها على ملوك الدنيا إنما هو من باب الصفة لا من باب الاسم.

فصح أن يعبد لله تعالى بأي اسم من أسمائه التي لا تنطبق حقًا إلا عليه، وأسماؤه كثيرة، وليست منحصرة في التسعة والتسعين التي وردت[1] في الحديث، بل لا حصر لها.

ويجوز أن يعبد إلى كل ما هو اسم خاص لله، لا يشاركه فيه غيره، ويحرم أن يطلق على المخلوق شيء من أسماء الخالق إطلاقاً مستمراً.

فمثلاً يتساهل كثير من الناس فينحتون بعض الاسم المعبد، ويقتصرون على جزئه الأخير، فيقولون مثلاً في عبدالعالي، يطلقون عليه: عالي، وعبدالهادي، يطلقون على المسمى: هادي، وعبدالمحسن مثلاً، يطلقون على المسمى: محسن، وهكذا، وهذا لا يجوز، وإن كانوا لم يعرِّفوه، أي: لم يقولوا: المحسن

---

(١) سيأتي تخريج حديث: «إن لله تسعة وتسعين اسماً...»، الحديث في باب: (٥٠).

أو الهادي أو العالي، ولكن فيه نوع تشبيه، فلا يجوز أن يُسمىٰ الإنسان رحماناً ولا رحيماً اسماً مطلقاً، ولا عزيزاً ولا العزيز اسماً مطلقاً.

وهكذا ـ أيضاً ـ ما يقع من كثير من الناس من تحريف بعض الاسم، فيحرف الاسم عندما يريدون تصغيره، فيصغرون ـ مثلاً ـ عبدالرحمن، بأن يقولوا: رُحيِّم، أو دُحيِّم ونحوه، أو يصغرون عبدالعزيز، يقولون: عُزيز أو نحوه، هذا تحريف لأسماء الله. فإذا أريد التصغير فإنه يصغر اسم العبد، ولا يصغر ما يختص بالله، فيقال مثلاً: عبيد الرحمن، كما يقال: عبيد الله، وعبيدالعزيز، ونحو ذلك، فيصغر ما يختص بالمخلوق، لا ما يختص بالخالق.

أما إضافة الاسم كصفة إلىٰ الله فهذا جائز، لأن ليس فيه ما يدل علىٰ العبودية والملكية، فمثلاً يُسمي بعض العامة أبناءهم أسماء غير معبَّدة صراحة، كأن يسمي: غرم الله، أو رزق الله، أو إكرام الله، أو نور الله، أو عطية الله، أو هبة الله، فهذه الاسماء ليس فيها تعبد لله؛ لأن إضافة العبد لله تكسبه شرفاً ورفعة فكان ذلك مما يمدح به.

فكون الشخص يوصف بأنه رزق الله أو عطاء الله أو إكرام الله أو ما أشبه ذلك، فهذا ليس فيه شيء مما يقتضي الملكية، وإنما فيه شيء من المنة علىٰ والديهم وأهليهم، يعني: أنه منة من الله عليهم أو عطية من الله أو هبة من الله، أو ما أشبه ذلك، فكأن أهله يعترفون بأنه من الله فسموه عطية الله ونحوه، أما الاسم بنفسه لا يكتسب شيئاً يدل علىٰ الذل.

والإنسان يتأثر بالاسم، فينبغي أن نختار الأسماء التي فيها معنىٰ العبودية لله عز وجل، وهذه هي الأسماء الفاضلة الشريفة، كما جاء في الحديث: «أحب

الأسماء إلى الله: عبدالله وعبدالرحمن، وأصدقها: حارث وهمام»[1]. فتسميته بعبدالله أو عبدالرحمن أو بعبد العزيز أو نحو ذلك فيه ما يكسبه عبودية وذلاً لله تعالىٰ، فلأجل ذلك لا يجوز أن تضاف هذه العبودية إلىٰ مخلوق؛ بل يجب تغييره إذا كان معبداً لغير الله.

وقد كان أهل الجاهلية يسمون ويعبِّدُون لأصنامهم، ومن معبوداتهم اللآت والعزىٰ، فيسمون عبداللآت، وعبد العزي، وعبد مناة، ويسمون أيضاً عبد الكعبة، وعبد عمرو، وعبد ود، وما أشبه ذلك.

ولما جاء الإسلام نسخ تلك الأسماء وأقرَّهم أن يعبِّدُوا لله تعالىٰ وحده لا لغيره.

ومن الأسماء المشهورة في الجاهلية التسمية بعبد المطلب وقد اختلف بعضهم في جواز هذه التسمية، والصحيح أنه لا يجوز التسمية في الإسلام بعبد المطلب، ولو أن النبي ﷺ انتسب إليه، بقوله: أنا ابن عبدالمطلب، لما قال في حنين: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب**»[2]، إنما هو للتعريف، وليس ذلك لإقرار هذه التسمية في الإسلام، فإنه لما كان يُعرف بابن عبدالمطلب أخذه علىٰ وجه التعريف.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٣٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، دون قوله: «وأصدقها: حارث وهمام».
وهذه الزيادة أخرجها البخاري في الأدب المفرد رقم (٨١٤)، وأحمد (٢/ ٢٤، ١٢٨-٤/ ١٧٨، ٣٤٥))، وأبوداود برقم (٤٩٤٩) و(٤٩٥٠)، والترمذي برقم (٢٨٣٣)، عن أبي وهب الجشمي.
قال الألباني: صحيح دون قوله: «تسموا بأسماء الأنبياء»، وانظر صحيح الأدب المفرد، رقم (٦٢٥)، والسلسلة الصحيحة رقم (١٠٤٠)، والإرواء رقم (١١٧٨)، وتخريج الكلم الطيب، ص: ٢١٨.

(٢) سبق تخريجه.

كما أن كثيراً من المسلمين ظلوا ينتسبون إلىٰ آبائهم دون أن تغير أسماء آبائهم، ولو كانوا في الإسلام لغيرها النبي ﷺ؛ فقد ثبت أنه ﷺ غير أسماء أناس أسلموا، فغير اسم العاص ولم يغير اسم أبي عمرو، بل صار يُدعىٰ عمرو بن العاص، وغير اسم الحُباب، ولم يأمرهم ألا يقولوا: أبو الحباب، وغير اسم شيطان، وغير اسم غراب، وما أشبه ذلك.

فكونه انتسب إلىٰ جده عبدالمطلب، لا يدل علىٰ أنه يجوز في الإسلام اسم عبدالمطلب.

وسبب انتشار تسمية عبدالمطلب عند كثير من الناس في زماننا هذا؛ لأنه اسم جد النبي ﷺ، فهذا خطأ ولا يجوز.

ونقول لهؤلاء: وأيضاً من أجداد النبي عبد مناف وعبدالعزي ونحو ذلك، فهل نسمي بهذه الأسماء؛ لأن النبي ﷺ ينتسب إليها؟!

الجواب: لا يجوز أيضاً أن يسمي عبد مناف، ولا يجوز أن يسمي عبد العزىٰ ونحو ذلك.

والمطلب عم عبدالمطلب جاء به وهو صغير من عند أخواله بالمدينة، ولما وصل من المدينة وكان اسمه شيبة الحمد، فلما وصل رأوا عليه آثار السفر فاعتقدوه مملوكاً للمطلب، فقالوا: هذا عبدالمطلب، واشتهر بعد ذلك ونسي اسمه الذي هو شيبة.

فعلىٰ كل حال لا يجوز أن يعبد اسم لغير الله، بل يكون تعبيد المخلوقين بأسماء الله تعالىٰ، لما في ذلك من استحضار التذلل والخضوع له وحده دون غيره.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبدالكعبة، وما أشبه ذلك. حاشا عبدالمطلب(١).

وعن ابن عباس في الآية، قال: «لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس. فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنّة، لَتُطيعُنني أو لأجعلن له قَرْنَي إِيّل، فيخرج من بطنك فيشقه. ولأفعلن ولأفعلن، يخوفهما. سمّياه عبدالحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً.

ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما. فأدركهما حب الولد، فسمَّياه عبدالحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، رواه ابن أبي حاتم(٢).

وله بسند صحيح، عن قتادة، قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته(٣).

وله ـ بسند صحيح ـ، عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، قال: أشفقا أن لا يكون إنساناً.

وذُكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما(٤)]:

هذه الآية روي فيها آثار عن الصحابة، ولعلهم أخذوها عن بعض أهل

---

(١) انظر ابن حزم في مراتب الإجماع ص ١٥٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٥). والدر المنثور (٣/ ٦٢٤).
وأخرجه سعيد بن منصور (٢/ ١٣٨٧) ذكر ذلك الشيخ صالح آل الشيخ.
وأخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٤).
وانظر تفسير ابن جرير (٩/ ٩٨ ـ ١٠/ ٩٨، ٩٩).
والحديث ضعيف مرفوعاً كما أفاد ذلك الشيخ عبدالله بن جبرين وفقه الله، حيث قال: بل إن القصة لا تثبت.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير رقم (١٥٥٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٦).

الكتاب، والآية ليست صريحة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠].

فإن قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يدل علىٰ أنهم جمع، وأن المراد جنس الأبوين، أي: أن كل رجل وامرأته إذا حملت دعوا الله أن يرزقهما صالحاً، فإذا رزقهما صالحاً أشركا معه، كما أنهم في حال ركوب البحر يدعون الله ويخلصون أن ينجيهم، فإذا نجاهم أشركوا معه.

وهكذا إذا وقع المخاض بالمرأة يدعو الرجل وامرأته الله أن يرزقهما ولداً صالحاً كامل الأعضاء، فإذا رزقا ولداً صالحاً جعلا له شركاء، فتعالىٰ الله عما يشركون.

وعلىٰ هذا لا تكون في آدم وحواء، وقد استبعد ذلك كثير من العلماء، وقالوا: إن آدم عليه السلام أعقل الناس وأزكاهم، وأتمهم معرفة، وهو أبو البشر، فكيف ينخدع بإبليس مرتين؟ كيف يخرجه من الجنة ويعرف أنه عدوه الذي تسبب في إخراجه ثم يطيعه مرةً ثانية، ويجعل ولده معبداً له؟!

والوارد في هذه الآية إنما هو من تلك الإسرائيليات، **والإسرائيليات ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية أنها ثلاثة أقسام:**

قسم شهد كتابُنا بأنه باطل فهذا نرده ونكذبه.

وقسم شهد له كتابُنا بأنه حق فنكتفي بكتاب الله عنه.

وقسم لم يشهد له نص من الكتاب والسنة، فنتوقف فيه ولا نكذبه، ونقول:

﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فالحاصل أن هذه القصة لم تثبت مرفوعة، وإذا كانت موقوفة على بعض الصحابة فإنهم أخذوها من كتب بني إسرائيل، وعن قصاصهم، ولم يتثبتوا، واعتقدوا أن هذا هو تفسيرها الحق.

والصحيح في الآية كما نقل ذلك ابن كثير عن الحسن البصري: أنها في جنس بني آدم، أي: كل زوجين يرغبان إلى الله عند الحمل أن يرزقهما صالحاً، وهكذا يقع أن كثيراً منهم يرزق ولداً صالحاً، ومع ذلك لا يفي بوعده فيعود إلى شركه، ويدعو مع الله شركاء.

وأما هذه القصة التي أوردها المصنف عن ابن عباس رضي الله عنهما، والتي ذُكر فيها أن آدم عليه السلام لما نزل إلى الأرض وغشي زوجته حواء فحملت، ثم لما ظهر الحمل ما كانا يعلمان ماذا يكون، وكيف يخرج هذا الولد، فجاءهما إبليس وأخبرهما بأنه إبليس، بل قال لهما: أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لتطيعنني، أو لأجعلن له قرني إيَّلٍ[1]، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن، هكذا قال لهما.

ولكن أليس آدم وحواء يعرفان أن الشيطان لا يقدر على أن يجعل لهما قرني إيَّلٍ؟! بل كيف يقدر أن يشق بطنها ويفعل ويفعل؟!

لا شك أن إبليس لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك، وهذا يعني أن آدم وحواء لا يمكن أن يُصدِّقا الشيطان في هذه المقالة، وقد عرفا دعوته وعجزه عن ذلك، وأنه مخلوق مدبر ليس له قدرة على تغيير خلق الله تعالى.

---

(١) قال الشيخ ابن جبرين: الإيَّلِ هو ذَكَرُ الأوعال.

وكون الولد خرج ميتاً، ولم يجعل له قرني إيَّل، ولم يشق بطن حواء، كل هذا دليل على كذب الشيطان، وأنه لا يقدر على أن يفعل أي شيء من ذلك، وأما خروج الولد ميتاً فهذا مرده إلى الله، فهو الذي يحيي ويميت، وكثيراً ما يخلق الله المخلوق ثم لا يتم خلقه، كما في قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، يعني: هناك من يولد تام الخلق، وهناك من يولد ناقص الخلقة.

والحاصل أن الله هو الذي يصور الإنسان في الرحم، ويكونه ويتم خلقه، فإن شاء أتم خلقه ثم يخرج ميتاً، وإن شاء خرج تاماً حيّاً يعيش بأمر الله تعالى، وإن شاء خرج ناقص الخلقة مشوهاً في بعض أعضائه ونحو ذلك. وليس لإبليس شيء من التصرف في ذلك كله.

وبكل حال فهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]. يظهر منها أنه لما تغشاها أول مرة دعوا الله فآتاهما صالحاً استجابة لدعوتهما، وليس في الآية أنهما دعوا الله عدة مرات، وأنه لم يؤتهما صالحاً إلا بعد عدة مرات.

وكذلك ليس في هذه الآية ما يدل على القصة، بل إن القصة لا تثبت.

أما لماذا أورد المصنف رحمه الله هذه الآية؟!

فالجواب: أورد المصنف رحمه الله هذه الآية من أجل بيان النهي عن التعبيد لغير الله، أي: النهي عن أن يُجعل شيئاً من المخلوقات عبداً لغير الله.

وقد سبق أن بينا أنه لا يجوز التعبيد لغير الله اتفاقاً، ونقل ذلك ابن حزم

فقال: (اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبدالمطلب)، وبهذا نعرف أن التعبيد لا يصلح إلا لله، وبأسمائه الحسنى، كعبدالله، وعبدالرحمن، وعبدالعزيز، وعبدالرحيم، ونحو ذلك، فهذه هي أسماء الله التي يعبد لها.

وجاء في هذه القصة أنهما سميا ولدهما عبدالحارث، وهذا لا شك أنه يعتبر شركاً، حيث يقول: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وليس في الآية دليل على أن الشركة هي شركة في العبادة، إنما قال: ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾، من أجل ذلك فسرها السلف بقولهم: شركاء في الطاعة، ولم يكن في العبادة، أي: أنهما جعلا له شركاء، حيث أطاعا في ذلك أولئك الشركاء، ولم يعبدا أولئك الشركاء، إنما هم شركاء في الطاعة دون العبادة.

ومن المعلوم أن العبادة هي: الذل للمعبود، وأن الطاعة تعظيم لذلك المطاع، والتعظيم حق لله تعالى، ولهذا سمى الله الذين يطيعون غير الله في معصية الله، سماهم مشركين، وجعلهم متخذين لهم أرباباً، لقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾، إلى قوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وإنما شركهم شرك طاعة، حيث إنهم يطيعون ولاتهم وأكابرهم وعبّادهم ورهبانهم وعلماءهم الفسقة ونحوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فكان هذا شركاً.

فشرك الطاعة هو شرك في العبادة، فلو كان آدم وحواء قد وقع منهما هذا الشرك لما أقره الله، ولعاقبهما عقوبة أشد من عقوبتهما الأولى.

وقد أخبر الله تعالى آدم وحواء بعداوة الشيطان لهما، بقوله: ﴿وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ولكن لما وقع الخطأ منهما اعترفا بذنبهما

وطلبا المغفرة والرحمة من الله، فأهبطه إلى الأرض، وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، فلا يمكن أن يقع منه هذا الشرك، بل لا يمكن أن يقع منه أي نوع من أنواع الشرك، لا شرك طاعة، ولا شرك عبادة، ولا شرك فيما أعطاه الله، فالصحيح أن القصة في جنس بني آدم، وليست في التعبيد خاصة.

أما أدلة التعبيد فهي عامة؛ أي: إن الخلق كلهم عبيد الله ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٣]، وأن العباد هم الذين يملكهم المعبود ويتصرف فيهم، وليس ذلك لأحد إلا الله، فلما كان كذلك لم يصلح أن يعبد لأي مخلوق؛ بل يجب تغيير كل اسم معبد لأي لمخلوق، وجعل عبادته لرب الخلق كلهم، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■



[٥٠]

باب:
قول الله تعالى:
﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾

قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ذكر ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾؛ يشركون.

وعنه: (سمُّوا اللات من الإله، والعزَّى من العزيز).

وعن الأعمش: (يدخلون فيها ما ليس منها).

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء.

الثانية: كونها حسنى.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألحد.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾

هذا الباب عقده المصنف رحمه الله ، قيل : لمعرفة أسماء الله والعمل بها ، وقيل : للإلحاد في أسماء الله ، وهذا هو الصحيح ، أي : أنه أراد به أن الإلحاد في أسماء الله نوع من الشرك منقص للتوحيد ، ولهذا لم يذكر في الباب إلا أنواعاً مما يسمىٰ إلحاداً ، ومما يكون به الفاعل ملحداً في أسماء الله .

والإلحاد في الأصل : هو الميل ، يقال : ألحد ، أي : مال ، وقد ذكر الله أن هناك إلحاداً في آيات الله ، وأن هناك إلحاداً في أسماء الله ، وكل ملحد في أسماءه أو في آياته متعرض للوعيد .

* **فأما الإلحاد في آيات الله فدليلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [فصلت: ٤٠].

والوعيد في هذه الآية في عدة مواضع منها :

١ـ تسميتهم ملحدين ، أي : مائلين عن الصواب .

٢ـ وعيدهم بقوله : **﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾** ، فنحن عالمون بهم ، ومطلعون عليهم ، ولابد أن يكون هناك انتقام منهم .

٣ـ وعيدهم ـ أيضاً ـ بقوله : **﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾** ، وهو علىٰ وجه التهديد ، أي : لابد وأن ننتقم منكم ، فاعملوا وسوف يأتي اليوم الذي يحصل فيه

العذاب.

٤ـ قوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وهو دليل على قوله: ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾، أي: عملكم لا يخفى على الله، وإلحادكم في آياته لا يخفى عليه.

والإلحاد في آيات الله يحصل بمعرفة المراد من قوله: ﴿آيَاتِنَا﴾، فإذا قيل: ما المراد من آياته؟ قلنا: محتمل أن المراد: آيات الله الكونية، أو المراد بآياته: كلامه وهي آيات القرآن.

والإلحاد في آيات القرآن؛ قد يكون بهجر القرآن، أو بتحريف معانيه، أو ألفاظه، أو بمخالفة إرشاداته وأوامره، أو بتأويله تأويلاً يخرجه عن حقائقه، أو نحو ذلك من أنواع التحريف؛ فهذا يدخل في الإلحاد في آيات الله.

وهكذا ـ أيضاً ـ إذا قلنا: الإلحاد في آيات الله الكونية التي هي مخلوقاته العلوية والسفلية، فإنها من الآيات؛ أي: أنها دلالات على قدرة الله، ودلالات على عظمته، ودلالات على وحدانيته وإلاهيته.

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، أي: من الآيات الدالة على كمال تصرفه، ويقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ... إلى آخر الآيات﴾ [الروم: ٢٠ـ٢٥]. وكذلك قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، فإرسال الرياح ـ أيضاً ـ آية من آياته، وكذلك إثارة السحب وما أشبه ذلك، فكل ذلك دلالات على عظمته سبحانه.

فالذين لا يعتبرون بهذه الآيات ملحدون في آياته، أو الذين يصرفونها إلى غيره، ويجعلونها طبيعة وعادة، وليست مدبرة، ولا مسخرة، ولا مخلوقة لله، هؤلاء قد ألحدوا في آياته.

* وأما الإلحاد في أسماء الله فهي المقصودة في هذا الباب، وقد أورد عليها المؤلف الآية التالية، وقول ابن عباس، والأعمش عليها.

▪ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٨٠]**، ذكر ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾؛ يشركون**[1].

وعنه: (سموا اللات من الإله، والعزَّى من العزيز)[2].

وعن الأعمش: (يدخلون فيها ما ليس منها)]:

ذكر المصنف هذه الآية دليلاً على أن هناك إلحاداً في أسماء الله، والوعيد الوارد في الآية هو في قوله: ﴿وَذَرُوا﴾، أي: اتركوهم، وابتعدوا عنهم؛ فإنهم على خطأ وضلال.

وكذلك تسميتهم ملحدين، أي: مائلين، فدل على أنهم ليسوا مستقيمين، بل هم مائلون ومنحرفون في أسماء الله، وكذلك قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فلا بد من يوم يجزون فيه على سيئاتهم، وعلى الإلحاد في أسماء الله.

ولكن ما المراد بأسماء الله؟

ذكر الله في هذه الآية أنها حسنى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، فالمراد أسماؤه التي سمى بها نفسه في القرآن، وسماه بها نبيه ﷺ، وقد ورد في الحديث: «إن لله

---

(١) تفسير قوله ﴿يُلْحِدُونَ﴾: بـ: (يشركون) مروي عن قتادة، أخرجه ابن جرير (٩/ ٩١). وأخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد، كما في الدر المنثور (٣/ ١٤٩).
وقد فسر ابن عباس الإلحاد: بالتكذيب، أخرجه ابن جرير (٩/ ٩١). وابن أبي حاتم وابن المنذر، كما في الدر المنثور (٣/ ١٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/ ١٤٩)، والطبري عن مجاهد (٩/ ١٣٣).

تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»[١]، وذكرها في رواية الترمذي حيث سردها إلى أن وصل بها تسعة وتسعين[٢]، ولكن الصحيح أن سردها ليس من المرفوع، إنما هو من جمع بعض الرواة، جمعوها من القرآن فسردوها.

فالمرفوع هو ذكر فضلها، وليس هذا حصراً لأسماء الله، فأسماء الله كثيرة لا يحصرها حد.

وقد ذكر في بعض الأحاديث كثرتها، منها ما ورد في الدعاء المرفوع الذي في مسند أحمد، الذي يقول فيه: «... **أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٠)، ومسلم برقم (٢٦٧٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٠٧)، وابن ماجة برقم (٣٨٦١) بسياق آخر، وابن حبان في الصحيح (٢/ ٨٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٢) رقم (٤٤)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٧).

قال البوصيري في المصباح (٣/ ٣٠٨): إسناد طريق ابن ماجة ضعيف. وقال الترمذي: هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.

وقد ضعف الألباني حديث الترمذي، وصحح حديث ابن ماجه، وقال: صحيح دون عدّ الأسماء. وقال الأرناؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان (٨٠٨): رجاله ثقات.

وقال الشيخ عبدالله بن جبرين: ولكن الصحيح أن سردها ليس من المرفوع.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان برقم (٢٣٧٢)-موارد، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٦٠) رقم (١٨٧٧). عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه، فإنه مختلف في سماعه من أبيه، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (٣٧١٢): إسناده صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٩٩).

فدل علىٰ أن هناك أسماء استأثر الله بها في علم الغيب عنده، وأسماء علمها بعض خلقه، وأسماء سمىٰ بها نفسه، وأسماء أنزلها في كتبه، فأسماء الله كثيرة لا تنحصر في هذه التسعة والتسعين.

والله عز وجل قد علمنا أسماءه حتىٰ ندعوه بها، ونذكره بها، فنقول مثلاً: يارحمان: ارحمنا، وياعزيز: أعزنا، وياغفور: اغفر لنا، وياتواب: تب علينا.

وكذلك نتوسل بها في دعائنا، وإذا سألناه سؤلاً يتعلق بحكمته وبعلمه، نقول: إنك أنت العليم الحكيم، أو إنك أنت العليم الخبير.

وهذه الأسماء دالة علىٰ صفات، فإن اسم الرحمن دال علىٰ أنه يرحم، وأنه رحيم بعباده، واسم العزيز دال علىٰ وصفه بالعزة والقوة والغلبة، وهكذا اسم القوي.

ومن الإلحاد في أسماء الله جحد دلالاتها، فالذين يقولون: إن الله عزيز بلا عزة، أو سميع بلا سمع، أو بصير بلا بصر، أو غفور بلا مغفرة، أو ما أشبه ذلك؛ هؤلاء ملحدون قد ألحدوا في أسمائه، وهكذا الذين جعلوها مجازات، ولم يثبتوا لله أسماء حقيقية، وجعلوها لمخلوقاته، فهؤلاء ملحدون فيها.

وهكذا الذين يسمون بها المخلوقات، فيسمىٰ أحدهم: عزيزاً وكريماً ونحو ذلك؛ هؤلاء قد ألحدوا؛ حيث إنهم جعلوا الاسم العظيم الشريف الكبير للمخلوق الضعيف.

يقول الله تعالىٰ لأحدهم في النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، أي: أنت في نفسك العزيز الكريم الذي زاحم الله تعالىٰ في صفة العزة والكرم، فجزاؤك أن تنال العذاب في النار.

وهكذا الذين يتسمون بأسماء الله، فيتسمىٰ أحدهم بالرحمن، أو بالعزيز، أو غيرها من أسماء الله، لا شك أن هذا إلحاد في أسماء الله.

وهكذا ـ أيضاً ـ تسمية أسماء الله لبعض المخلوقات أو اشتقاق أسماء المخلوقات منها، كفعل الجاهلية؛ حيث اشتقوا العزىٰ من العزيز، واسم اللات من الإله، واسم مناة من المنان، وما أشبه ذلك.

فالإلحاد في الأسماء ـ إذن ـ جحد دلالتها علىٰ الصفات المشتقة منها، ومن الإلحاد جحد تسمية الله تعالىٰ بها، ومن الإلحاد تسمية المخلوق بها، وجعله شبيهاً بالخالق بهذه الصفات ونحوها.

ومن الإلحاد صرف معناها عما يراد بها، أي: عدم الاستدلال بها حقيقة علىٰ ما هو المراد منها، حيث أن المراد من أسماء الله تعالىٰ ذات الله تعالىٰ، فالرحمن لا ينطبق إلا علىٰ الذات، ويراد بها أيضاً الصفة التي اشتقت منها، فالرحمن مشتمل علىٰ الرحمة، ويراد بها أيضاً الوصف بصفات الكمال الباقية، فإن الرحمن يلزم أن يكون كريماً، وأن يكون غنياً، وأن يكون سميعاً، وأن يكون بصيراً، وما أشبه ذلك، فالذين ينكرون نوعاً منها يلزمهم إنكار الباقي، فيكونون بذلك ملحدين في أسماء الله تعالىٰ.

■ ■ ■ ■ ■

[٥١]

باب:
لا يقال: السلام على الله

في الصحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا كنَّا مع النبي ﷺ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله؛ فإن الله هو السلام».

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
لا يقال: السلام على الله

الذي يعتقد أن الله تعالىٰ بحاجة إلىٰ خلقه فقد اعتقد نقصه ـ سبحانه ـ وتنقص الله، وظن أنه يكمل بعبادة خلقه له، وقد ثبت في الحديث القدسي ما يردّ ذلك، فقد قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: **«يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي: إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»**[(١)] .

وقد أورد المصنف رحمه الله في هذا الباب هذا الحديث؛ لبيان أن السلام اسم من أسماء الله تعالىٰ فيُدعىٰ به.

■ قوله: [**في الصحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا كنّا مع النبي ﷺ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «لاتقولوا: السلام على الله؛ فإن الله هو السلام»**[(٢)]]:

لما كان الصحابة يعتقدون أن السلام شرف أطلقوه علىٰ الله، وقالوا: السلام علىٰ الله، ثم علمهم النبي ﷺ أن الله هو السلام فيدعىٰ ولا يدعىٰ له.

ونحن عندما نقول: السلام عليكم، إنما نقصد بذلك أنه اسم الله، فالمعنىٰ: اسم الله عليكم، ويكون المراد أثره، أي: أثر هذا الاسم، وهذا الأثر إنما هو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٨٣٥).

البركة والخير والتسليم والإعطاء، ونحو ذلك.

وخُص هذا الاسم لأنه مشتق من السلامة، فكأنه يقول: اسم الله السلام الذي تغمركم آثاره، ولا شك أن أسماء الله تعالىٰ يُتبرك بها؛ ولذلك يبدأ باسم الله في الأمور المهمة.

فالإنسان يسمي الله تعالىٰ إذا أراد أن يأكل، أو ينام، أو يدخل، أو يخرج، أو يلبس، أو يشرب، وما أشبه ذلك؛ فكأنه يقول: أتبرك باسم الله، أو أذكر اسم الله.

فالسلام من أسماء الله، وقد عده الله من أسمائه، بقوله تعالىٰ: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣].

وكل اسم من أسماء الله له معنىٰ، فاسم الله الذي هو السلام؛ معناه: السالم من العيوب والنقائص، أو المسلم لعباده - إذا اعتمدوا عليه، وتوكلوا عليه - من الآفات والمصائب، ونحوها.

فهو اسم دال علىٰ صفة، وهو دال علىٰ ذات الله، ولا ينطبق حقّاً إلا عليه، ويدل علىٰ صفة السلامة من العيوب والنقائص، ويتصف بتسليم الخلق الذين يعتمدون عليه، ويتوكلون عليه من الآفات والمصائب، والمحن التي قد تصيبهم إذا لم يحمهم الله تعالىٰ ويحفظهم.

فما دام كذلك فقد عرف أنه لا يُسَلَّمُ علىٰ الله؛ فلا يقال: السلام علىٰ الله، وإنما يقال: التحيات لله؛ لأن التحيات هي: التعظيمات والعبادات، وجميع أنواع القربات لله تعالىٰ، وأما السلام فإنه دعاء.

ولهذا يقال: السلام عليك أيها النبي، فالنبي ﷺ يدعىٰ له، وكذلك تقول: السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين، فتدعو لنفسك، وتدعو لعباد الله الصالحين.

ويدعو المسلم للمسلمين بقوله: السلام عليكم يا أيها المسلمون، وذلك إذا دخل مجلساً، لقوله تعالى: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، ولقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا﴾ [النور: ٦١]، وجعل الله هذا السلام هو تحية المسلمين؛ لأنه دعاء.

وكذلك يوجد معنى آخر لقولنا: السلام عليكم، وهو إذا قاله المرء مُنكَّراً، أي: قال: سلام عليكم، فإن معناه: تسليم وسلامة من كل آفة، وأكثر ما ذكرت هذه اللفظة في القرآن مُنكَّرةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، ونحو ذلك، ففي هذا أنه ذكر لفظ (سلام) منكَّراً، فيكون المعنى: تسليم وسلامة من الآفات والشرور والمصائب والفتن والمحن.

وكما ذكرت في القرآن مُنكَّرةً فقد ذكرت أيضاً معرفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم: ٣٣]، وقوله: ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧].

والإنسان بحاجة إلى أن يدعى له بهذا التسليم؛ لهذا شرعت هذه التحية بين المسلمين، فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم»[1]، وقوله: «وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[2].

فالله سبحانه وتعالى غني عن أن يدعو له العباد؛ لأنه ليس بحاجة إلى

(١) أخرجه مسلم برقم (٥٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢)، ومسلم برقم (٣٩). عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

دعائنا؛ بل هم الذين في حاجة للدعاء، لذلك شرعت التحية حتى يدعو لأنفسهم وللمسلمين.

ونقول: كيف ندعو لله؟!

هل هناك من هو أكبر منه حتى تدعو ذلك الأكبر لله تعالى؟!

وهل الله فيه نقص فتدعو له حتى يكمل ذلك النقص؟!

وهل عليه خوف فتدعو له حتى يأمن من ذلك الخوف؟؟

فمن دعى لله تعالى بقوله: السلام على الله فقد تنقصه، فيعتبر بذلك ناقص التوحيد؛ لذلك لا يقال: السلام على الله، بل يقال: التحيات لله.

هذا هو وجه كون السلام على الله باباً من أبواب التوحيد؛ بمعنى أن أهل التوحيد الكمل هم الذين يعتقدون أن الله تعالى كامل، ولا يحتاج إلى تكميل، وهم الذين ينزهون الله عن النقائص والعيوب.

ومن توهم أنه سبحانه بحاجة إلى أن يدعو له عباده، أو بحاجة إلى عبادتهم، أو بحاجة إلى أعمالهم، أو بأنه يُكمل بذلك شيئاً من ملكه أو يزيد شيئاً من قدره تعالى الله عن ذلك؛ فإن هذا الاعتقاد اعتقاد سيء يخل بالعقيدة، وينقص به التوحيد، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٥٢]

باب:
قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَقُولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكره له».

ولمسلم: «وليُعظِّم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الثانية: بيان العلة في ذلك.

الثالثة: قوله: ليعزم المسألة.

الرابعة: إعظام الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول: اللهم اغفر لي إن شئت

من المعلوم أن الإنسان بحاجة إلىٰ ربه، وأن الرب سبحانه غني عن خلقه، وأن الإنسان عليه أن يُظهر أثر تلك الحاجة، فعليه أن يظهر لربه الفقر والفاقة، وشدة الحاجة، وعدم الغنىٰ عن الله طرفة عين.

وقد ثبت أن من دعاء النبي ﷺ، قوله: «**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»[١]، فكأنه يقول: وأسألك أن تتولاني، وأسألك أن تراقبني، وتحفظني وتكلأني، ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ**﴾ [الأنبياء: ٤٢].

فالله تعالىٰ هو الذي يمن علىٰ العبد؛ وهو الذي يعطيه، ويتفضل عليه، والعبد لا تغني عنه حركاته، ولا تغني عنه أفعاله إن لم يمده الله بقوة، وإن لم يعطه فهماً وإدراكاً، فما لم يكن معه ربه لن تنفعه أعماله، ولن يستفيد من حركاته وسكناته، ولكن الله هو الذي منَّ عليه أولاً وآخراً، وأعطاه إدراكاً وعقلاً وفهماً، وأعطاه قوة، وأعطاه جوارح يباشر بها حوائجه، ونحو ذلك.

ويسر له ـ أيضاً ـ الأسباب؛ فأخرج له المياه من الأرض، وأنزلها له من السماء، وأنبت له النبات، وجعل في النبات هذه الثمار التي يتغذىٰ منها فتمت بذلك حاجته، وما بقي عليه إلا أن يعترف بفضل ربه، وأن يسأل ربه تمام نعمته عليه، وعدم تخليه طرفة عين عنه.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢)، وأبوداود برقم (٥٠٩٠). عن أبي بكرة رضي الله عنه.

■ قوله: [في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكره له»(١).

ولمسلم: «وليُعظِّم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»(٢)]:

قوله: «اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت»: يحتمل معنيين:

* المعنى الأول: قول العبد: «اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت»، أي: إن قدرت على ذلك افعله، فالذي يظن ذلك كأنه يظن بربه ظنّاً سيئاً، ويظن أن ربه يعجزه شيء، أو يتعاظمه شيء، أو يُكره على شيء.

وذلك ظن السوء الذي حكاه الله عن المنافقين في قوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، وفي قوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وفي قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالذي يظن أن ربه يعجزه شيء هذا لم يعرف ربه حق المعرفة، فالله تعالى غني كامل الغنى، وقد ذكر كمال غناه عن خلقه في الحديث القدسي، وهو قول النبي ﷺ: «قال الله تعالى: يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا... إلى أن قال: يا عبادي: إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»(٣).

بمعنى أنكم إن كفرتم فلن يضرني ذلك شيئاً، وكذلك عبادتكم لا تنفعني بل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٣٩) و(٧٤٧٧)، عن أنس رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (٢٦٧٨) و(٢٦٧٩). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٩).

(٣) سبق تخريجه في أول باب (٥٠) «باب: لا يقال: السلام على الله».

هي لكم، وقد ذكر ذلك صريحاً في قوله: «لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم ،كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»(١).

فهذا يبين أن الله غني عن عباده، وعن عبادتهم، فلا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، بل هو النافع الضار.

وفيه - أيضاً - أن العباد فقراء إلى الله، يقول في الحديث نفسه: «يا عبادي: كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي: كلكم جائع إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي: كلكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسوني أكسكم»(٢).

وحيث إن العباد فقراء إلى الله فإن عليهم أن يظهروا هذا الفقر، فإذا سأله أحد المغفرة فليعزم المسألة، فيقول: رب اغفر لي، اللهم ارحمني، اللهم أنا الفقير إليك وأنت الغني، بخلاف ما إذا سأله سؤال من يشك في قدرته، كأنه يقول: إن كنت تقدر على إجابة مسألتي فأعطني.

فيتهم الله تعالى بالعجز، ويتهم الله تعالى بالفقر، أو بالفاقة، أو بالحاجة، أو بعدم القدرة، وكل ذلك تنقص لله غاية التنقص.

فإذا قال: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، فكأنه لم يثق بأن الله قادر على كل شيء، لذا كان الواجب أن يعزم المسألة كما أخبر ﷺ في هذا الحديث: «ليعزم مسألته؛ فإن الله لا مكره له»، وفي رواية: «فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»، أي: قادر ولا يعجزه ولا يتعاظمه شيء أعطاه.

---

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) جزء من الحديث السابق.

وقد ورد ما يدل على ذلك في الحديث النبوي، وهو قول النبي ﷺ: «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه**»[1]، وفي قوله عليه السلام في الحديث المذكور: «**لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**».

فإذا كان العبد بحاجة، وربه هو الغني الحميد، فإن عليه أن يعظم الرغبة في ذلك، هذا هو المعنى الأول.

* **المعنى الثاني**: أنه إذا قال: «**اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت**»، فكأن العبد يقول: إنني لست بحاجة وضرورة إلى المغفرة والرحمة، فإن حصلت لي انتفعت بها، وإن لم تحصل لم يحصل ضرر ولا ضيم، وهذا ـ أيضاً ـ خطأ؛ وذلك لأن العبد كما ذكرنا في أشد الضرورة، وفي مسيس الحاجة إلى مغفرة ربه، وإلى رحمة ربه، وإلى رعايته وكفايته، وإلى حمايته وعصمته.

وأنه لو تخلى ربه عنه لحظة لتسلطت عليه الأعداء، ولفتكوا به من كل ناحية، ولكنه تعالى يكلأ عباده مؤمنهم وكافرهم، ويحرسهم ويرزقهم ويعطيهم ويغنيهم بفضله ونعمه؛ فمنهم من يشكر ومنهم من يكفر، فالذي يتوهم أنه يستغني عن الله قد توهم خطأ.

فعلى كلا التقديرين والمعنيين هذا القول فيه تنقص لله تعالى، ولكن التقدير الأول أشد؛ لأنه إذا قال: إن قدرت أن تغفر لي فاغفرلي، وإن قدرت أن تعطيني كذا فأعطني، فكأنه يتهم الله بأنه غير قادر، أو يشك في قدرة الله تعالى، فيكون ذلك تنقصاً، حيث اتهم الله تعالى بالعجز والفاقة وعدم القدرة.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤١١)، ومسلم برقم (٩٩٣). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما على التقدير الثاني فإن فيه الاعتزاز بالنفس، فكأنه يظن أنه إذا لم تحصل له المغفرة والرحمة لا يتضرر ولا يتألم، وإذا حصلت له انتفع بها، وإن لم تحصل فلا نقص عليه؛ وهذا خطأ؛ وذلك لأن فيه اعتزازاً بالنفس، وذكر شيء فيه الاستقلال عن رعاية الله وحمايته والعبودية له.

ولا شك أن هذا خروج عن العبودية لله، فيكون فاعل ذلك قد ترك شيئاً من العبادة لله وعبد غير الله بلا شك.

فعلى كلٍ على العباد أن يظهروا الرغبة إلى ربهم، ويستغفروه ويسألوه المغفرة والرحمة والرضوان في كل أحوالهم، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■



[٥٣]

باب:
لا يقول: عبدي وأمتي

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي.

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد؛ وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
لا يقل: عبدي وأمتي

من الآداب الدينية الأدب اللفظي، وقد علَّم النبي ﷺ أمته الآداب اللفظية كما علمهم الأفعال، وكما نهاهم عن وسائل الشرك الفعلية نهاهم عن وسائله القولية، كما نهاهم ـ أيضاً ـ عن كل شيء فيه رفع للنفس عن حدها، وإعطائها فوق مستواها، ومن ذلك ما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب، وهو النهي عن أن يقول الإنسان: عبدي وأمتي، أو ربك ونحو ذلك.

■ قوله: [**في الصحيح، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»**(1)]:

الرب: اسم من أسماء الله تعالى، فهو رب العباد.

والرب: يطلق على معنيين:

الأول: المالك، فقول أحدهم: ربُّ العالمين، أو رب الخلق، أو رب الناس، أي: مالكهم، فكلهم ملكه، فهو ربهم.

الثاني: التربية؛ بمعنى: أنه رباهم، أي: أنعم عليهم ونشأهم وعلمهم وربى أبدانهم، وربى عقولهم، والمعنيان لا يصلحان حقاً إلا لله تعالى.

ومن أجل ذلك يطلق على معرفته أنها الربوبية، فمعرفة الله بصفاته، ومعرفة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٥٥٢)، ومسلم برقم (٢٢٤٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

حقه ورزقه يسمىٰ توحيد الربوبية، فالرب سبحانه وتعالىٰ له الربوبية، ولا يجوز إطلاقها علىٰ غيره، وإن كان قد يصلح من حيث اللغة إطلاقه علىٰ مالك الشيء، كما كان مستعملاً في اللغة.

وقد ذكروا أن عبد المطلب لما جاء أبرهة، وقال له: إن جيشك أخذ إبلي، فقال: كيف تطلب مني الإبل؟ وقد جئت لأهدم البيت، فقال: أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه[1]، ومعنىٰ: (أنا رب الإبل)، أي: مالكها.

وقد ورد ـ أيضاً ـ في القرآن إطلاق الرب علىٰ المالك من الخلق، كما قال تعالىٰ في سورة يوسف: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقد فسره بعضهم بأن المراد: سيده، أي: لا أخون سيدي فإنه أحسن مثواي؛ وإن كان التفسير الثاني أن المراد: الله، أي: لا أعصي الله تعالىٰ؛ إنه ربي أحسن مثواي.

لكن ورد ـ أيضاً ـ في نفس سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، أي: عند سيدك، وقال تعالىٰ في السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ﴾ [يوسف: ٥٠]، أي: ارجع إلىٰ سيدك.

فيجوز إطلاق الرب في اللغة، ولكن أصبح الربُ عند الإطلاق وعند الاستعمال إنما يقصد به الله تعالىٰ.

والحاصل أن إطلاق لفظ الرب علىٰ غير الله تعالىٰ لا يجوز بعد انصراف الرب إلىٰ الله، ولو كان ذلك الذي أطلقت عليه مالكاً لذلك الشيء، فلا يقال: رب الدار، وإن كان مستعملاً قديماً في اللغة، للنهي عنه في هذا الحديث، ولا يقال: رب الغلام، ولا يقال: أعط ربك، ولا يقال: اذهب إلىٰ ربك، ولا يقال: هذا من ربك، ونحو ذلك.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١ـ٢/ ٥٠).

ولهذا نهىٰ عنه في هذا الحديث: «**لا يقول أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك**»، وأمره أن يعترف له أنه سيده، أي: مالكه ومولاه، وليقل: «**سيدي ومولاي**».

وقد اختلف في كلمة (السيد)، **هل تطلق على المخلوق أم لا**؟

جاء في الحديث الصحيح: أن ناساً من بني عامر انطلقوا إلىٰ النبي ﷺ، فقالوا: يا سيدنا وابن سيدنا. فقال: «**السيد الله**» قالوا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»[1].

فمن هذا أخذوا أن النبي ﷺ كره أن يطلق عليه لفظ السيادة مع كونه أهلاً لها، ولكن الصحيح إطلاق السيد علىٰ المالك؛ لأنه متسلط علىٰ مملوكه، ونحو ذلك.

ويطلق ـ أيضاً ـ علىٰ كبير القوم، كما ذكروا في قصة سعد بن معاذ؛ أنه لما جاء قال النبي ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم**»[2]، ولكن يكره إطلاق السيادة علىٰ من لا يستحقها، كالموصوف بالنفاق ونحوه، فقد ورد في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ قال: «**لا تقولوا للمنافق: سيدنا؛ فإنه إن يك سيدكم فقد أسخطتم ربكم عز وجل**»[3]، أي: إن جعلتموه سيدكم وهو منافق فقد أسخطتم ربكم عز وجل، أي: أن هذا ذنب كبير بأن يطلق علىٰ هذا العاصي سيد، وهو ليس أهلاً للسيادة.

ومن ذلك يتضح أن علىٰ المسلم أن يتحفظ في هذه الكلمة فلا يطلقها علىٰ

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٠٦)، وأحمد (٤/ ٢٤، ٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٩٤). وسيأتي تخريجه مفصلاً في باب: (ما جاء في حماية النبي ﷺ حمىٰ التوحيد، وسده طرق الشرك).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤١٢١)، ومسلم برقم (١٧٦٨).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧٦٠)، وأبو داود رقم (٤٩٧٧). عن عبدالله بن أبي بريدة عن أبيه.

وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم (٥٨٤)، وفي السلسلة الصحيحة رقم (٣٧١).

كل أحد، فكثيراً ما تطلق على فسقة، وعلى عصاة ونحو ذلك، ولا بأس أن تطلق على المتفضل وصاحب الفضل، وهي أيضاً صفة لله، كما في هذا الحديث: «السيد الله».

أما قوله: **«ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»**:

العبد هو: الذي يخضع لمعبوده، ويذل له، ويتواضع بين يديه، والعبدُ هو: الذي يعبد ربه، أو يعبد معبوده بغاية الخضوع والذل، والعبد هو: الذي يحب ويتواضع ويتذلل لمعبوده، وتلك صفة خاصة بالعباد مع ربهم تعالى.

فالعبودية أصبحت وصفاً لعباد الله مع ربهم تعالى؛ وذلك لأن العبودية تستلزم الذل والخضوع، وذلك وصف لا يستحقه بكامله إلا الله تعالى.

وقد فسرت العبادة بتفاسير، ومنها تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية: (أنها غاية الحب مع غاية الذل)، وذكر ذلك ابن القيم في نونيته في قوله:

وعبادة الرحمن غاية حبه

مع ذل عابده هما قطبان

فإذا تبين أن العبد هو: من يحب معبوده ويذل له، فإن هذا الوصف إنما ينطبق على عبودية الإنسان لله تعالى، وعبودية الإنسان لله تعالى بخلاف عبودية المخلوق للمخلوق؛ فإنه ولو صدق عليه أنه عبد، أي: مملوك، لكن هذه عبودية مؤقتة، وليست مستقرة، وليست مطردةً، لأنه إنما يملكه في أشياء، ولهذا لا يملك كل حاله.

فمن أجل ذلك نهاه أن يقول: **«عبدي أو أمتي»**، وفي بعض الروايات: **«كلكم**

عباد الله، وكل نسائكم إماء الله»[١] ، والأمة : هي المملوكة، والعبد : هو المملوك، وكل الخلق الذكور والإناث ملك لله .

فلا يصلح أن تطلق هذه الكلمات التي فيها مزاحمة للرب تعالىٰ في ملكه، فإذا كان الملك ملك الله تعالىٰ، أي : الملك المطلق ؛ فإنه لا يصلح أن يزاحم في شيء من ذلك، وإذا كان الخلق عبيداً لله فلا يصح أن يترفع عن هذه العبودية، ولا أن يدعيها أحد لنفسه .

وإذا كانت الربوبية لله تعالىٰ فلا يصلح أن يدعيها أحد، ولا يزاحم الرب فيها أحد، ولو علىٰ وجه الإعارة، أو علىٰ وجه غير مستقر ؛ وذلك من باب سد الذرائع التي لها أحكام المقاصد، ومن باب التأدب في الألفاظ ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام أدب أمته في الألفاظ ؛ كما أدبهم في الأفعال، فإذا تأدبوا وابتعدوا عن مثل هذه الألفاظ التي تخل أو تقدح في التوحيد كمل بذلك توحيدهم، والله تعالىٰ أعلم .

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجها البخاري في الأدب المفرد، كما ذكر الحافظ في الفتح (٥/ ٢١٤).



[٥٤]

باب:
لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»، رواه أبو داود، والنسائي بسند صحيح.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: حتى تروا أنكم قد كافأتموه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
لا يرد من سأل بالله

قَصَدَ المؤلف من وراء هذا الباب أن من عظم الله عظم أسمائه واحترمها، وأن من احترم أسماء الله فتوسل بأسمائه، أو سأل بها؛ فإنهُ يعطى ما سأل، أو استعاذ بأسماء الله، فإنه يعاذ.

■ **قوله: [عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه، فادعوا له حتى تُروا أنكم قد كافأتموه»[1]. رواه أبو داود، والنسائي بسند صحيح]:**

ذُكر في هذا الحديث خمس خصال:

الأولى: الاستعاذة: **«من استعاذ بالله فأعيذوه»**.

الثانية: السؤال: **«من سأل بالله فأعطوه»**.

الثالثة: إجابة الدعوة: **«من دعاكم فأجيبوه»**.

---

(١) أخرجه أبوداود برقم (١٦٧٢) و(٥١٠٨) و(٥١٠٩)، والنسائي (٥/ ٨٢)، وأحمد في المسند (١/ ٢٤٩-٢/ ٦٨، ٩٩، ١٢٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٢٢٨)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٢١٦)، والطبراني في الكبير برقم (١٣٤٦٥، ١٣٤٦٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤١٢).
والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه النووي في رياض الصالحين (٦٥٣)، وقال: رواه أبو داود والنسائي بأسانيد الصحيحين، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم (١٥٨)، وفي السلسلة الصحيحة رقم (٢٥٤).

الرابعة: المكافأة: «**من صنع إليكم معروفاً فكافئوه**».

الخامسة: المكافأة بالدعاء: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**».

والشاهد هو **الخصلتان الأوليان**، وأما البقية فإنها مشتمل عليها الحديث فأوردت تبعاً للحديث، ولا شك أن المسألتين الأولتين لهما صلة بالعقيدة وصلة بالتوحيد.

الخصلة الأولى: الاستعاذة: قال ﷺ: «**من استعاذ بالله فأعيذوه**»:

صورة الاستعاذة أن يقول إنسان: أعوذ بالله من شرِّك، أو: أعوذ بالله من اعتدائك علي، أو: أعوذ بالله منك وهكذا، فهذا قد استعاذ بالله؛ ومن ثم فعليك أن تكف عنه وأن تتوقف.

وهذا المستعيذ الذي استعاذ لا يخلو، من حالين:

إما أن يكون ظالماً، أو مظلوماً.

* **أما الحال الأولى**: فإن كان مظلوماً، وأنت معترف بأنك معتدٍ عليه وظالم له، فأقدمت على إهانته، واستهنت بالله، وبأسماء الله، ولم تعذه؛ فقد جمعت بين منكرين:

الأول: كونك أوصلت ظلماً إلى مخلوق ظلمته بغير حق.

والثاني: كونك استهنت بأسماء الله، وقد تجرأت عليه، وقد استعاذ بالله، فكأن الله لا يعيذ، وكأنه ليس بمعاذ ولا ملاذ، وكأنه أصبح في جوار الله، وأصبح في حمايته وعصمته وعهده وذمته، وأنت رغم ذلك أخفرت ذمة الله، ونقضت

عهد الله.

وذلك بلا شك تهاون بأسماء الله وتهاون بحرماتها واعتداء عليه، فكان ولا شك منقصاً للتوحيد، حيث إن الذي يسمع من يستعيذ بالله، ولا يكف عن المستعيذ كأنه يقول بلسان حاله: لا يقدر الله أن يعيذك، ولا يقدر على أن يحميك، ولست في عصمته ولا في جواره، فيكون بذلك قد تجرأ على الله وعلى من لاذ واحتمى بجناب الله.

وهو في هذه الحال لا يأمن أن يطالبه الله تعالى بعهده وبذمته، فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله، فإياكم أن تخفروا ذمة الله**»(١)، وفي بعض الروايات: «**إياكم أن يطلبكم الله بشيء من عهده؛ فإن من طلبه أدركه**»(٢). ومعنى كونه في «**ذمة الله**»، أي: في جواره.

فالذي يقول: أنا عائذ بالله من ظلمك، أو: أنا مستعيذ بالله من عدوانك، هذا قد لجأ إلى الله واستعاذ به، فالذي يتجرأ عليه لا شك أنه لم يكن لربه قدر في قلبه، ولم يقع في نفسه احترام لجوار الله، ولا لمن لاذ بجناب الله، ولا لمن استعاذ به؛ فأصبح بذلك ناقص العقيدة.

* **وأما الحال الثانية**: إذا كان المستعيذ ظالماً، وأنت تعلم علم اليقين أنه ظالم، ولكنه استعاذ وقال: أعوذ بالله من شرك، أو: أعوذ بالله منك، ففي هذه الحال

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٢٢)، وابن ماجه برقم (٣٩٤٥، ٣٩٤٦)، دون قوله: «في جماعة»، عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه.

قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٤١٥).

(٢) أخرجها مسلم برقم (٦٥٧)، عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه، ولكن بلفظ: «**من صلى الصبح فهو ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فيدركه فيكبه في نار جهنم**».

أيضاً تحترم أسماء الله وتتوقف، وتطلب من يأخذ لك حقك منه قهراً بحكم معتمد أو مستند إلىٰ شرع الله؛ لأنه يعتبر لائذاً بالله وهو غير أهل، والله تعالىٰ قد شرع العقاب للظالم والمعتدي بمثل ما اعتدىٰ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورىٰ: ٤١]، وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ولكن عليك أن تتركه حتىٰ تسلط عليه الدولة والولاية والحاكم الشرعي الذي يأخذ منه حقك قهراً.

وبهذا يتبين لنا صلة هذه الفقرة بالباب، وأن الذي يرد من استعاذ بالله قد تهاون بأسماء الله تعالىٰ، ويكون ذلك قدحاً وعيباً في معتقده، ونقصاً في توحيده.

الخصلة الثانية: السؤال: قال ﷺ: «**من سأل بالله فأعطوه**»:

صورة السؤال أن يقول: أسألك بالله كذا وكذا.

والمسئول الذي يسأل له حالات:

● **الحالة الأولى:** أن يسألك حقّاً عندك له، وأنت تعرفه، فهاهنا يجب عليك أن تعطيه حقه؛ فإذا قال مثلاً: أسألك بالله أن تعطيني حقِّي الذي أودعته عندك وأتمنتك عليه، ففي هذه الحال يجب أن تعطيه حقَّه؛ لسببين:

السبب الأول: أداء الحقوق والأمانات، والتنصل من الظلم وحقوق المخلوقين.

والسبب الثاني: كونه سألك بالله، وتوسل بأسماء الله تعالىٰ.

أما إذا منعته حقه أصبحت ظالماً من هاتين الجهتين، والجهة الثانية أشد من الأولى؛ لكونك لم تحترم أسماء الله، وامتهنت اسم الله الذي سألك به، واحتقرت السؤال به، واحتقرت حرمات أسماء الله؛ فأصبحت بهذا الفعل قد تجرأت هذه الجرأة، وهانت عليك أسماء الله هذا الهوان، ولا شك أن هذه الاستهانة تنقص التوحيد وتنافي كماله.

● **الحالة الثانية**: أن يسألك حقاً ليس له، وتعرف أنه لا حق له عندك، وتعرف أنه ظلمك باتهامك أن له عندك حقاً، فقال: أسألك بالله أن تعطيني حقِّي، وأنت تعرف أنه معتد وظالم، ففي هذه الحالة لا تعطه، وذلك لا يكون استهانة منك بأسماء الله لمن سأل به.

وعليك أن تبين للناس خطأه وظلمه وطلبه ما لا يستحقه، وأنه قد أخطأ في الأمرين؛ أخطأ حيث اتهمك بشيء ليس عندك، وأخطأ في سؤاله.

فمثل هذه الحالة لا يجوز للسائل اتخاذها ذريعة مخافة الاستهانة بها ونحو ذلك، ولكن إذا أجبته إجابة مؤقتة ووعدته حتى يتذكر ويتبين، فهذا أولى.

الحالة الثالثة: وهي التي قد تقع كثيراً، وهي سؤال السائلين الذين يسألون أموال الناس، وأنت تعرف أن السائل الذي يسأل أموال الناس قد ورد نهيه عن هذا الفعل، وأنه قد أخطأ حيث ارتكب هذا السؤال الذي هو تكفف الناس وطلبهم شيئاً من أموالهم، حيث قال النبي ﷺ: **«لأن يحتطب أحدكم على ظهره خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه»**[1]، وفي الحديث الآخر: **«لا تزال المسألة بالرجل حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٧٠)، ومسلم برقم (١٠٤٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (١٤٧١)، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٤٧٤)، ومسلم برقم (١٠٤٠)، عن حمزة بن عبدالله بن عمر عن أبيه.

فهذا بيان أنه لا يحل له سؤال الناس وهو يجد ما يُكف نفسه وما يكفيه، لكن مع ذلك إذا سأل فإن له حقاً، لا سيما إذا سأل بأسماء الله، ولكن يقال له: لا تعرض الناس للاستهانة بأسماء الله، وأنت لست بمستحق أن تسأل، وحرام عليك أن تسأل الناس ولك ما يسد فاقتك، وإذا سألت فلا تلحف في المسألة، وكن من الذي قال الله فيهم: ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وإذا سألت فاسأل الناس، ولا تتوسل بأسماء الله فتعرض أسماء الله وصفاته للاستهانة بها.

وقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أن الذي يطوف على الناس لا يطلق عليه مسكيناً؛ لقوله: «**ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس**»(١).

فيقال له: إذا اضطررت إلى السؤال واشتدت حاجتك وفاقتك، ولم تجد مجالاً إلا السؤال، فعليك أن تسأل بقدر كفايتك ثم تكف، وعليك ألا تتوسل إلا بما تظن أنه جائز، فلا تقول: أسألك بالله أن تعطيني، أو: أسألك بأسماء الله، أو: أسألك باسم الله الرحمن الرحيم أن ترحمني، أو: أسألك باسم الله السميع العليم أن تسمع مقالي وأن تعطيني.

فلا يجوز مثل هذا؛ لأنه تعريض لأيذاء المسؤول؛ فقد يكون المسؤول غير واجد، وقد لا يكون عنده فضل، بل عنده كفاية نفسه، وقد يكون المسؤول بخيلاً فلا يعطيه، فيكون قد منع من توسل بأسماء الله.

وقد ورد إعطاء السائل ما يكفيه ولو قليلاً، ولو كان مظهره على ما هو عليه

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٧٦)، ومسلم برقم (١٠٣٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

حتىٰ قال ﷺ: «**للسائل حق، وإن جاء على فرس**»[1]، أي: بناءً علىٰ أن هذا من المبالغة.

فعلىٰ كل حال هذا السائل الذي يسأل أموال الناس، إذا سأل وتوسل بأسماء الله، أو بشيء من صفاته وسأل بالله، فإن عليك أن تعطيه امتثالاً لهذا الحديث، ولو قليلاً إذا كنت واجداً، فإن لم تكن واجداً فإن معك عذرك.

فقوله: «**من سألكم بالله فأعطوه**»، أي: إذا توسل إليكم باسم من أسماء الله فأعطوه ما يسكته، ولو قليلاً، أو بقدر وجدكم علىٰ ما ذكر الله في قوله: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦].

فعرفنا بذلك أن هذه الفقرة لها صلة بالباب، وأن الذي يرد من سأل بالله قد تهاون بأسمائه؛ فيكون ذلك قدحاً أو عيباً في معتقده، ونقصاً في توحيده، وإن تفاوت ذلك الرد.

الخصلة الثالثة: إجابة الدعوة: قال ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه»:

الإجابة قد تكون خاصة كإجابة إلىٰ طعام، وقد تكون عامة كإجابة إلىٰ غرض من الأغراض، كأن يدعو إلىٰ استنصاره لنصره مثلاً علىٰ من ظلمه، أو يدعو إلىٰ تنفيذ أمر من أوامر الله، ويكون ذلك واجباً بحسبه، ومن هذا أيضاً ما يحتاج إليه لنصرة المظلوم وإعانة الإنسان علىٰ تنفيذ حق من الحقوق، لا سيما إذا

---

(١) أخرجه أبي داود برقم (١٦٦٥)، وأحمد في المسند (١/ ٢٠١)، والبخاري في التأريخ (٤/ ٢/ ٤١٦)، عن الحسين بن علي رضي الله عنه.

قال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (١٧٣٠): إسناده صحيح، وضعفه الألباني في الضعيفة رقم (١٣٧٨).

وقد روي الحديث من طرق أخرىٰ عن علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس، وأنس بن مالك، والهرماس بن زياد، وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين.

كان مثلاً يريد أن يغير منكراً فدعاك إلىٰ تغييره معه لتعينه أو نحو ذلك .

ولكن أكثر من شرح الحديث جعلوا الإجابة خاصة بالإجابة إلىٰ طعام ، وبعضهم خصه بطعام الوليمة كوليمة الزواج ونحوها ؛ لأنه ورد فيها ما يقتضي تأكيد الأمر بالإجابة حتىٰ ولو دعي وهو صائم ؛ فإما أن يأكل ليجبر نفس أخيه وصاحب الطعام ، وإما أن يدعو لهم وينصرف[1] .

وعلىٰ كلٍ فالإجابة تختلف باختلاف الأحوال ، وفي هذه الأزمة قد تكون الحالة أخف ، وذلك لكثرة الخيرات عند الناس ، ولعدم التأثر بالإجابة ونحوها ، ولعدم إساءة الظن بمن تخلف ونحو ذلك .

الخصلة الرابعة : المكافأة : قال ﷺ : **«من صنع إليكم معروفاً فكافئوه»** :

المعروف ليس خاصاً بالأمور الدنيوية ، وإن توهم ذلك أغلب الناس أو طبقوا هذا عليها ، بل هو عام في الأمور الدنيوية والدينية ، فإذا صنع إليك إنسان معروفاً بأن نفعك نفعاً في دينك أو نفعاً في دنياك فإن عليك مكافأته ، وإذا لم تجد فعليك الدعاء له .

ومثال ذلك : إذا أقرضك في وقت حاجة ، فإن عليك أن تكافئه بأن تقرضه إذا رأيته محتاجاً ونحو ذلك ، أو ترد عليه قرضه متىٰ اكتفيت واستغنيت .

كذلك إذا أهدىٰ إليك ، فإن عليك أن تكافئه بأن تهدي له ، أو مثلاً حمل معك متاعاً أو حمل لك شيئاً من الأمور ، أو ما أشبه ذلك ، فعليك مكافأته علىٰ ذلك .

---

(١) لحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : **«إذا دعي أحدكم فليجب ، فإن كان صائماً فليصل ، وإن كان مفطراً فليطعم»** . أخرجه مسلم برقم (١٤٣١) .

وفي رواية لمسلم أيضاً برقم (١٤٣٢) : **« . . . فمن لم يات الدعوة فقد عصى الله ورسوله»** .

والمكافأة إما مكافأة بالمال، وإما مكافأة بالنفع بأن تنفعه كما نفعك، ولو في مجال آخر أو ما أشبه ذلك.

الخصلة الخامسة: المكافأة بالدعاء: قال ﷺ: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»:

ذكر في بعض الأحاديث أنه ﷺ قال: «**من صُنع له معروفاً فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء**»[1]، فإن هذا دعاء له بالخير، والخير عام، وإن كان أصله قد يطلق على خير الدنيا، كقوله عن المال: ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾ [العاديات: ٨]، ولكنه يعم خير الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧]، يدخل في ذلك الحسنات والأعمال الصالحة وما أشبه ذلك.

فبكل حال إذا نفعك إنسان في أمر دنياك فإن عليك أن تنفعه بقدر ما تستطيع؛ إما ببدنك، وإما بمالك، فإن لم تجد شيئاً من المال ولم تستطع ببدنك أن تفعل، فما عليك إلا أن تعترف بإحسانه إليك وتكثر من الدعاء له، وشكره على ذلك وإظهار فضله؛ حتى يقتدي به غيره من ذوي الوجد ومن ذوي السعة ونحوهم.

أما إذا كان النفع دينياً، بأن كنت مثلاً على ضلال فنصحك، وبين لك الطريق السوي؛ فهداك الله بواسطته، فإن عليك أن تدعو له، وذلك لأنه ليس هناك مكافأة له مادام أنه مهتد، لذا عليك أن تكثر من الدعاء له، وإظهار منته وفضله عليك رجاء أن ينتفع بذلك غيره.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٣٥). عن أسامة بن زيد، قال الترمذي: هذا حديث حسن جيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٢٤٤).

لكن إن قدرت أن تنصحه بأن رأيت فيه عيباً، فبينت له حتىٰ يستقيم فتكون قد كافأته بنصيحة أخرىٰ، فيكون نَصَحَكَ عن منكر؛ فتبت منه، واستقمت، ورأيته قد ترك ذلك المنكر، ولكن فعل منكراً آخر فنصحته فاستقام، فإن هذه مكافأته.

ويدخل في ذلك أيضاً النفع بأن ينفعك مثلاً بفائدة أفادك إياها، أو نحو ذلك، وفي ذلك يقول بعضهم:

إذا أفادك إنسان بفائدة
من العلوم فلازم شكره أبداً
وقل فلان جزاه الله صالحة
أفادنيها وألقِ الكبر والحسد

فهذا الحديث جمع هذه الخصال التي فيها إرشاد للإنسان في معتقده، وإرشاد له في معاملته بين الناس، فإذا طبقه المسلم استفاد فائدة كبيرة، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٥٥]

باب:
لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»، رواه أبو داود.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

السؤال هنا بمعنى الدعاء والطلب، وأطلقوا عليه دعاءً من باب التأدب، وإلا فهو شبيه بالأمر، فقالوا: هو دعاء لأن العبد لا يأمر ربه، وإلا فقوله مثلاً: (رب اغفر لي، رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم) فكلمة (اغفر) عند إعرابها تكون فعل أمر، وكذلك (ارحم، وتجاوز)، وهكذا بقية السؤال الذي هو الدعاء فكلها أفعال أمر، ولكن من باب التأدب مع الله لا يقال: العبد يأمر ربه، بل يقال: يطلبه ويسأله ويدعوه.

■ **قوله: [عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»[1]، رواه أبو داود]:**

مناسبة هذا الحديث وهذا الباب لأبواب التوحيد أن الذي يسأل بوجه الله أموراً دنيئة لم يحترم الله، ولم يحترم وجهه، ولم يقدره حق قدره، بحيث توسل بوجهه وبصفته العلية إلى أمور دنية تافهة سافلة، فيكون بذلك قد احتقر صفة الله التي هي أشرف الصفات.

فلا يجوز أن يقول مثلاً: أسألك بوجهك دنياً أو مالاً أو زوجة أو صحة، أو شيئاً من الأمور الدنيوية العاجلة، إنما يسأل بوجه الله أشرف المطالب وأعلى

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٦٧١)، والديلمي في مسند الفردوس رقم (٧٩٨٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٩٩)، وابن مندة في الرد على الجهمية رقم (٨٨)، عن جابر رضي الله عنه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (٦٣٦٦).

المسائل وهو الجنة؛ لقوله ﷺ: «**لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**»، وذلك لأن الجنة هي أعلىٰ مقاصد العبد، وهي نهاية مطلبه، ومتىٰ حصل له دخول الجنة حصل له ما فيها من الثواب الذي أعد لأهل الجنة، فإن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، فإذا حصلت للإنسان وأدخلها فما بعدها حاصل فيها.

ويجوز أن يتوسل بوجه الله تعالىٰ إلىٰ سؤال الجنة أو سؤال وسائل الجنة، أي: الأعمال الصالحة التي تسبب دخول الجنة، وإن كان بعض الشراح قصره علىٰ سؤال الجنة، وقال: لا يجوز أن تقول: اللهم إني أسألك بوجهك قبول الأعمال، والصحيح جواز ذلك؛ لأن قبول الأعمال سبب لدخول الجنة، والتوفيق للأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة. وهكذا بقية الأسباب.

والحاصل أنه يجوز أن تقول: اللهم إني أسألك بوجهك الكريم أن تقبل أعمالي، وأسألك بوجهك الكريم أن تهدي قلبي، وأن تسدد لساني، وأن تعينني علىٰ شكرك وعلىٰ ذكرك وحسن عبادتك، وأشباه ذلك من الأعمال، فهذه الأعمال يجوز أن تتوسل إليها بوجه الله تعالىٰ؛ لأنها من الأسباب التي يدخل بها العبد الجنة.

وكذلك يجوز أن تستعيذ بوجه الله تعالىٰ من النار؛ لأن من أعيذ من النار دخل الجنة، ويجوز أن تستعيذ بوجه الله تعالىٰ من الكفر ومن الشرك ومن المعاصي ونحوها التي تكون سبباً لحرمان الجنة، فإذا قلت: أعوذ بوجهك الكريم من النار، عُرف أن من نجا من النار دخل الجنة، وإذا قلت: أعوذ بنور وجهك الكريم من الكفر ومن الشرك ومن الذنوب ومن المعاصي، وأعوذ بوجهك الكريم أن أعصيك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم، وأشباه هذا، فإنه جائز؛ لأن ذلك

كله من وسائل دخول الجنة .

وهكذا جميع الشروط ، فإذا قلت مثلاً : أعوذ بوجهك الكريم من الشيطان الرجيم، أو : أعوذ بوجهك الكريم من استيلاء الأعداء عليّ، وأنت تقصد الأعداء الذين هم أعداء لك في العقيدة وفي الديانة لا يضلوك ولا يصدوك عن الهدىٰ ونحو ذلك ؛ لأن هذا كله من وسائل دخول الجنة ، فمتىٰ أعذت من شرهم حصل لك القرناء الصالحون الذين يهدونك ويدلونك ، ومتىٰ أعذت من الشيطان حصلت لك مقارنة ملائكة الرحمة الذين يحصل بمقارنتهم الهداية والوعد بالخير وما أشبه ذلك .

فإذن السؤال بوجه الله الممنوع هو : سؤال الأمور الدنيوية ؛ وذلك لحقارتها وتفاهتها .

ومعلوم أنه يجوز للإنسان أن يسأل ربه حاجاته ، حتىٰ إن بعض السلف قال : (اسأل الله تعالىٰ كل شيء ، حتىٰ ملح طعامك) ؛ وذلك :

أولاً : أنها من حاجات الإنسان الضرورية .

ثانياً : أنه إذا سألها الله تعالىٰ كان ذلك دليلاً علىٰ عبادة ربه وعلىٰ تعظيمه له ؛ حيث عرف أنه لا يأتيه بها إلا هو ، وحيث عرف أن ربه هو الذي يُسأل ، وهو الذي يُعطي من سأل ، وحيث صدّق بوعد الله لإجابة السائلين في قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وفي قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

فحيث أن الله تعالىٰ قد وعد بإجابة السائلين ، وأمر عباده أن يسألوه وأن يكثروا من سؤاله ، فإن سؤال الله تعالىٰ كل شيء من حاجات الدنيا ومن حاجات

الدين يعتبر من العبادة؛ فإن دعاء الله تعالىٰ عبادة.

والله تعالىٰ يحب منا أن نسأله، ويغضب إذا لم نسأله، وقد ورد في الحديث: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[1]؛ ولهذا يقول بعض الشعراء:

لا تسألن بُنيّ آدم حاجة

وَسَلِ الذي أبوابه لا تُحجب

الرب يغضب إن تركت سؤاله

وبُنيّ آدم حين يُسأل يغضب

فحيث أن الله تعالىٰ أبوابه لا تحجب، وأنه يغضب علىٰ من ترك سؤاله، فإننا نسأله سبحانه كل شيء من حاجات الدنيا والدين، لكن لشرف صفة وجه الله تعالىٰ الذي هو وجه الجلال والكبرياء، يقال: إنه لا يتوسل بوجه الله إلىٰ الأمور الحقيرة.

* **وفي هذا الحديث إثبات صفة الوجه، وأن لله تعالى وجهاً يليق بجلاله، ولا نشبه صفات الله تعالىٰ بصفات أحد من خلقه.**

وقد ورد إثبات صفة الوجه في القرآن وفي السنة:

فأما في القرآن، فقد أثبت الله تعالىٰ لنفسه الوجه، ووصفه بالجلال والإكرام، بقوله تعالىٰ: ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٧]، وبقوله: ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٧٨]، فهذا الوصف يدل علىٰ أن الوجه يوصف بأنه ذو الجلال والإكرام.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤٩١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الضعيفة (١/ ٢٩)، ثم أشار إلىٰ تضعيفه ورجوعه عن هذا التحسين في الضعيفة (١/ ٥٤٢)، هامش (١).

وأما في السنة، فقول النبي ﷺ في وصف الرب تعالىٰ: **«حجابة النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهي إليه بصره من خلقه»**[(١)]، وكذلك في قوله ﷺ: **«جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»**[(٢)]، فقد أخبر أن رداء الكبرياء علىٰ وجهه.

فلما كان وجه الرب تعالىٰ موصوفاً بالجلال والإكرام، وموصوفاً بأن عليه رداء الكبرياء، وموصوفاً بالإشراق، وبأنه لو كشف الحجاب لأحرق ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه، لما كان هذا وصفه كان من تَنَقُّصِ صفة الله تعالىٰ أن تمتهن وتبتذل في الأمور الدنيوية الدنيئة.

ولهذا لا يجوز أن تسأل الله بوجهه الكريم الأمور الدنيوية، كأن تقول: اللهم إني أسألك بوجهك زوجة حسناء، أو تقول: اللهم إني أسألك مالاً كثيراً، وما أشبه ذلك من أمور الدنيا لحقارتها.

وأما الأمور التي ليست دنيوية محضة ولكن فيها ما يجعلها أخروية فإنه يسألها ويتوسل إلىٰ سؤالها بوجهه تعالىٰ، وبسائر صفاته، مع أن المطلوب أن يسأل الله تعالىٰ ويتوسل إليه تعالىٰ بسائر أسمائه الحسنىٰ، لقوله تعالىٰ: **﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾** [الأعراف: ١٨٠].

وأنت مأمور إذا سألت الله تعالىٰ أن تتوسل إليه بسائر أسمائه، فتقول: أسألك باسمك الرحمن الرحيم أن ترحمني، أو: أسألك باسمك الغفور أن تغفر لي، أو: تأتي بذلك بعد السؤال، فتقول: اللهم اغفر لي؛ فإنك أنت الغفار، أو

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٩)، عن أبي موسىٰ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٨٧٨)، ومسلم برقم (١٨٠)، عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه.

اللهم تب عليّ؛ فإنك أنت التواب، أو: اللهم ارحمني؛ فإنك أنت الرحمن الرحيم، أو ما أشبه ذلك، فيجوز أن تقدم الاسم، ويجوز أن تؤخره.

ويجوز أن تسأل المغفرة والرحمة ونحو ذلك، وتتوسل إليها بوجه الله، وذلك لأن المغفرة والرحمة من أسباب دخول الجنة.

وهكذا أيضاً تستعيذ بوجه الله تعالىٰ من العذاب الدنيوي والأخروي، وكذلك من الفتن ما ظهر منها وما بطن؛ وذلك لأن الفتن ـ بالأخص فتن الشبهات ـ من أسباب دخول النار، فكأنك تستعيذ بالله من كل ما يسبب دخول النار، فإن من نجا من النار كان من أهل الجنة.

وإذ قد عرفنا أن الباب معقود لبيان احترام أسماء الله وصفاته، وبالأخص صفة الوجه، وأنه لا يتوسل به إلىٰ الأمور الحقيرة، فكذلك ينبغي أن يسأل الإنسان ربه ويتوسل بأسماء الله الأخرىٰ وبصفاته الباقية.

وفي هذا أيضاً دليل علىٰ أن التوسل بأسماء الله وصفاته سبب لإجابة الدعاء، وأنه يعتبر كوسيلة وواسطة يستجيب الله بها، ويعتبر عبادة إذا سألته وتوسلت إليه بأسمائه وبصفاته.

وفيه دليل علىٰ أنه لا يجوز التوسل بالمخلوقين، فلا يجوز أن تقول: أسألك برسولك، أو: أسألك بعبدك ورسولك محمد، أو آدم أو نوح أو غيرهم من الأنبياء؛ وذلك لأن هذا مخلوق، والمخلوق لا يقاس بصفات الخالق، فالتوسل يكون بصفات الخالق سبحانه، ولا يُرفع المخلوق حتىٰ يصير وسيلة، وأيضاً فإن العبد ليس بينه وبين الله واسطة، فالرب تعالىٰ يسمع دعاء الداعين، ولا تخفىٰ عليه خافية من أمور عباده، فليس بحاجة إلىٰ أن يتوسل إليه بجاه فلان ولا بواسطة فلان ولا غيرهم، بل يسأله بأسمائه الحسنىٰ أو بصفاته العلا.

لكن بعض العلماء أجاز التوسل بالأعمال الصالحة فيما إذا كان الإنسان يسأل ربه نجاة من ضرر أو تحصيلاً لعمل أو نحو ذلك، فأجازوا أن يتوسل بالأعمال الصالحة التي شرعها الله ووفق الإنسان لعملها، كما توسل أهل الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة بأعمالهم التي عملوها حتى كشف الله عنهم تلك الصخرة وأزالها عنهم، فتوسل أحدهم ببره لوالديه، وتوسل الثاني بعفته عن الحرام، وتوسل الثالث بأمانته وأدائه الحقوق لأهلها[1]، فهذا كأنه يسأل الله تعالى بأنه من أهل الرحمة، حيث قد عمل من الأعمال ما يستحق بها رحمة الله.

وعلى كل حال ينبغي للإنسان أن يكثر من دعاء الله تعالى وسؤاله بأسمائه الحسنى، وأن يتوسل بأسمائه إلى مقاصده عاجلاً وآجلاً، وألا يبتذل ويمتهن وجه الله تعالى في الأمور التافهة الدنيئة لما في ذلك من احتقار هذه الصفة العلية، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) حديث أهل الغار أخرجه البخاري برقم (٢٢٧٢)، ومسلم برقم (٢٧٤٣)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.



[٥٦]

باب:
ما جاء في اللَّو

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨].

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

الثانية: النهي الصريح عن قول: (لو) إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب: ما جاء في اللَّو

استعمال كلمة (لو) يجوز إذا كان لبيان حكم، ولا يجوز إذا كان للتأسف على فائت لا يمكن تداركه.

وقد استعمل الرسول ﷺ كلمة (لو) في بعض الأحاديث لبيان حُكم، كما في قوله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة**»[١]، فهذا لبيان حكم، وليس للتأسف على فائت، وكذلك قوله ﷺ: «**لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة، ولجعلت لها بابين**»[٢]، إلى آخره، فهذا أيضاً لبيان حكم، وليس هو لتأسف على فائت.

أما الذي لا يجوز، فهو أن يتأسف على شيء لا يمكن تداركه، ثم يستعمل كلمة (لو) ندماً وأسفاً، كأنه يمكنه أن يرد ما حصل وأن يغير ما وقع، وذلك ليس بالإمكان، فإن ما وقع لا يمكن تغييره.

■ **قوله**: [وقول الله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا**﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقوله: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا**﴾ [آل عمران: ١٦٨]]:

هاتان الآيتان وقعتا في قصة المنافقين يوم أحد.

فالآية الأولى: في الذين قالوا للنبي ﷺ: لا تخرج من المدينة وقاتلهم في

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٧٨٥)، ومسلم برقم (١٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٧٨٣)، ومسلم برقم (١٣٣٣)

داخلها، فإنك تكون متحصناً ولا يستطيعون التغلب، ولما أشار عليه أكثرهم، وقالوا: بل اخرج بنا إليهم لنقاتلهم فإننا سننتصر عليهم إن شاء الله، فلما رأىٰ حرص أولئك خرج بهم إلىٰ المعركة وحصل ما حصل، فقال هؤلاء: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقالوا قبل ذلك: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

والمراد بالأمر هنا التصرف، يقولون: لو كان التصرف إلينا، ولو كانت الولاية بأيدينا لما قتلنا، ولما قتل إخواننا، ولما حصل ما حصل، ولكن رد الله عليهم:

فأولاً: ذكرهم الله بأن هذا شيء بيد الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فإذا كان الأمر كله لله فإنه هو المتصرف فيكم، وهو الذي قدر وقضىٰ، وهو الذي أمر ونهىٰ، فليس لكم شيء من الأمر ولا من التصرف.

وثانياً: بين لهم أن تحصُّنهم لا يفيد ما دام قد كتب عليهم ما كتب من القتل، فإن القتل مقدر، وأن من يقتل لابد وأن يقع به ما قدر عليه وكتب.

وقد أخبر الله أن هذا شيء قد خط في اللوح المحفوظ قبل خلق العالم، فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، فلا تأسوا علىٰ ما فات، ولا علىٰ ما وقع، ولا تقولوا: يا ليتنا فعلنا، ولو فعلنا كذا لكان كذا وكذا، ولا تفرحوا بما آتاكم فرح أشر وبطر، وتقولوا: انتفعنا بحيلتنا وبقوتنا وبإدراكنا كذا وكذا؛ بل اعلموا أن ذلك مقدر.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، يعني: لو كنتم متحصنين لكان الذين قد قدر عليهم

أنهم سيقتلون هنا لابد وأن يأتي بهم الله تعالىٰ ويخرجوا إلىٰ أماكنهم التي قدر أنهم سيقتلون فيها، ويسوقهم إلىٰ المكان الذي قدّر بأن يكون هذا مضجع فلان وهذا مقتل فلان، ولا يغني عنهم تحصنهم، وذلك كما فعلت اليهود في قوله تعالىٰ: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢]، فلم تمنعهم حصونهم عن الموت وعن القدر، وكما قال تعالىٰ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

ثم قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أي: أنه قدر هذا الأمر ليظهر صادق الإيمان من غيره، وإلا فالله قد علم أن هذا شقي وهذا سعيد.

ومثله أيضاً قوله في الآية التي بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]، أي: لو أنهم لم يخرجوا ما قتلوا، قال الله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، أي: ادفعوا عن أنفسكم الموت، فإنهم قد قتلوا بآجالهم، وأنتم سوف يأتيكم الموت، ولكن هل تقدرون علىٰ دفعه؟! والجواب: لا تستطيعون دفعه.

وهكذا أيضاً حكىٰ الله عن المنافقين أيضاً في نفس السورة فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قيل لهم: إما أن تقاتلوا، وإما أن تدفعوا عن إخوانكم، فقالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ﴾، فقد استعملوا كلمة (لو) في غير موضعها، ثم أخبر الله تعالىٰ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فقد قالوا ذلك وهم قريبون من الكفر أقرب منهم للإيمان.

ثم قال تعالى في الآية التي بعدها وهي التي أوردها المصنف رحمه الله، قال: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، فكانت هذه مقالتهم لإخوانهم، وهم قد قعدوا.

فالحاصل أن هذا ونحوه فيه انتقاد لهؤلاء الذين يتأسفون على شيء قد وقع وانقطع؛ لأنه لا حيلة فيما فات، بل الأمر بيد الله، فليس للإنسان شيء من التصرف، فالله تعالى هو الذي يتصرف في الأمور، فإذا وقع الأمر فلا تتأسف ولا تظهر الندم، بل ارض بما قضى الله تعالى وقدر، وهو الذي يختار لعباده، ولا ينافي ذلك أنك قبل أن يقع الأمر تفعل ما في استطاعتك وما في مقدرتك، ولكن بعد وقوعه اقنع بما حصل، وارض وسلم، واعلم أنه لا حيلة في تغيير شيء قد وقع، وأنه لا بد وأن يقع على هذه الصفة التي هو عليها، فإذا علمت ذلك حَمَلَكَ ذلك على أن ترضى بما حصل وتقتنع، ولا تظهر التأسف والتندم على شيء وقع.

■ **قوله: [في الصحيح، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان»[1]]:**

لم يورد المصنف رحمه الله أول الحديث اختصاراً، وأول الحديث قوله ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير»**.

المراد بالمؤمن القوي والمؤمن الضعيف القوة في ذات الله، وليس يريد قوة البدن؛ إنما هي قوة القلب، أي: الجرأة على أوامر الله، والجرأة على الأعمال الصالحة، وعلى الأمر والنهي، وعلى إقامة حقوق الله وحدوده وما أشبه ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فإن هذه هي القوة النافعة، وإن كانت قوة البدن أيضاً لها تأثير ولها فائدة، فهي تفيد مثلاً في القتال أو حمل الأثقال التي قد يحتاج إليها، وما أشبه ذلك، لكن ليس هذا هو المقصود بالحديث، فإن الأصل أن تغذية الأبدان وتنميتها وتقويتها لا تفيد، ولا تقرب عند الله تعالى؛ يقول الرسول ﷺ في الحديث: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**(١).

فإن القوة هي قوة القلب، والجرأة على تنفيذ الحقوق، وهي التي كان عليها الأئمة العلماء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، فإذا أرادوا إقامة حق من حقوق الله وإظهاره حملتهم قوة قلوبهم على أن يجرؤوا على كل ذلك، وألا يبالوا بما أمامهم من الوعيد ومن التهديد، من سجن أو حبس أو ضرب أو جلد أو قتل وما أشبه ذلك، فإنهم وإن كانت أجسادهم ضعافاً وقواهم الحسية منهوكة لكن قلوبهم قوية، فتحملهم قوة قلوبهم على الجرأة في إقامة الدين وإظهار حقوق الله وحدوده وشعائره وشرائعه.

* ثم قال ﷺ: **«وفي كلٍ خير»**: حيث يجمعهم وصف الإيمان، فإن الكل منهم مؤمن، ولكن القوي نفعه متعد، والضعيف نفعه قاصر على نفسه.

* بعد ذلك قال ﷺ: **«احرص على ما ينفعك»**: الحرص عام لكل ما ينفع الإنسان في دينه ودنياه.

وفي هذا رد على أهل التواكل وأهل العجز والتكاسل، فإنه يخبر بأن الإنسان مأمور بأن يفعل ما يستطيعه، وما في مقدرته من الأسباب التي يكون لها أثر في نفعه لنفسه أو إيصال النفع إلى غيره؛ فلذلك قال: **«احرص على ما ينفعك»**، فحرصك على ما ينفعك يدخل فيه طلبك الرزق بما تستطيعه من الوجوه

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المباحة الحلال، وعدم التعاجز والتكاسل.

ويدخل في حرصك على نفع بدنك تعاطي الشهوات المباحة بالأكل ونحوه، ويدخل فيه أيضاً حرصك على ما ينفع بدنك بالوقاية من الأسباب المؤذية والضارة، فأنت مأمور بأن تحرص على وقاية بدنك من أضرار البرد وأضرار الحر وأضرار العدو والهوام وما أشبهها من الأضرار الحسية، حتى في نفس القتال مأمور بأن تأخذ العدة، ولا تدخل الميدان بغير سلاح وعدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ولقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وأخبر الله تعالى بأنه قد سخر لداود الحديد حتى صنع الصنعة التي تلبس في الحرب، لقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، أي: تلبسونها في حالة القتال، وهي الدروع التي يتقى بها وقع السلاح؛ فإن هذه ونحوها تدخل في قوله: «احرص على ما ينفعك».

ويدخل في ذلك وبطريق الأولى ما ينفعك في الآخرة، فإنك مأمور بأن تحرص كل الحرص على ما يقربك إلى الله فإنها هي التي يبقى نفعها، فتعمل الصالحات وتفعل الخيرات وتكثر الحسنات وتتقرب إلى الله بالقربات وما أشبهها.

وكما أنك مأمور بأن تحرص على فعل كل شيء نافع فإنك مأمور بأن تبتعد عن الأشياء الضارة التي فيها ضرر حسي أو معنوي؛ فلا يجوز لك أن تلقي بنفسك من شاهق، وتقول: أنا معتمد على الله، ولا يجوز لك كذلك أن تغرق نفسك، ولا يجوز أن تتعرض للأشياء التي فيها هلاك أو مرض وما أشبه ذلك.

وكما أنك تحرص على ما ينفعك من الصلوات ومن العبادات والقراءات

والحسنات ونحوها، فإنك تحرص على ترك ما يضرك وما يشقيك ويكتب عليك شقاءً في الآخرة من السيئات والذنوب والمآثم صغيرها وكبيرها.

* وأما قوله: «**واستعن بالله**»: فإنه يفيد أن الإنسان لا يعتمد على حوله وقوته، بل يطلب من ربه أن يمده بحول منه وبقوة، فيقول: (بحولك يا رب وبقوتك أفعل، فأعني على طاعتك، وأعني على أموري التي أنا بحاجة إليها)، فأمرك بأن تستعين بالله، كما أنك تستعينه في كل قراءة في الصلاة، فتقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: على العبادة وغيرها، فكذلك أيضاً تستعين بالله على الأمور الحسية، فتقول: (يا رب أعني على هذه الصنعة، أو أعني على هذه التجارة، أو أعني على هذه الحرفة)، وما أشبه ذلك.

وقد أمرك بأن تستعين بالله حتى لا تركن إلى نفسك، ولا تعتمد على حولك وقوتك، فإن الله ذم الذين يسندون الخير والكسب والمال والتحصيل إلى قواتهم، كما أخبر الله عن قارون أنه قال: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴾ [القصص: ٧٨]، أي: على علم مني بوجوه المكاسب.

* وأما قوله: «**ولا تعجز**»: فإن في ذلك نهي للإنسان عن التكاسل عن الأمور الحسية وعن الأمور المعنوية، كما ذكرنا أن عمر رضي الله عنه رأى أناساً جالسين في المساجد ليس لهم عمل، فقال لهم: (ما أنتم؟) قالوا: نحن المتوكلون، فقال: (اخرجوا، أنتم المتواكلون؛ ولستم المتوكلين)، فالنهي عن العجز معناه: التكاسل عن طلب المعاش ونحوه، والجلوس مثلاً في المساجد.

ومعلوم أن الإنسان قد كتب الله له ما كتب، ولكن أمره مع ذلك بأن يبذل ما يستطيعه من سبب، ولا يتكاسل ويتعاجز.

ويدخل في ذلك أيضاً عدم التكاسل والتعاجز عن العبادات، فلا يخلد إلى

التكاسل عن الصلوات، ولا عن القراءات، ولا عن النفقات الخيرية، ولا عن النفع العام للمسلمين، ولا عن الأمر بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك، فكل ذلك داخل في قوله: «**ولا تعجز**».

* أما قوله: «**وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»: وهذا هو الشاهد من هذا الحديث، وهو أن الإنسان أولاً يفعل الأسباب، ولكن متى وقع شيء يكرهه فلا يتأسف على ما مضى، ولا يتندم، ولا يرجع باللوم على نفسه، ولا يقل: ليتني فعلت وليتني لم أفعل، ولا يقل: لو أني سافرت لحصل لي كذا وكذا، أو: لو أني اشتركت لحصل لي كذا، أو: لو أني حرصت لحصلت على كذا وكذا.

نقول: هذا الذي قد مضى وانقضى لا حيلة في رده، فعليك أن ترضى وتسلم، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وتسلم له؛ فلا حيلة في رده، وتقول ما أمرت به: «**قدر الله وما شاء فعل**»، أي: هذا قدر الله، فما شاءه لابد وأن يفعله، ولا حيلة في رده، كما يقول المسلمون: (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن)، أي: ما شاءه مشيئة كونية فلابد من وقوعه، وما لم يشأ لا يقع، ولا حيلة في وقوع ما لم يشأ.

فبهذا يكون الإنسان مستسلماً لما وقع بعد أن يقع، فلا تستسلم للهلاك قبل أن يقع، ولا تلق بنفسك إلى التهلكة، ولا تتعاط الأخطار، فلا تخاطر بنفسك فتقول مثلاً: سأسرع في السير ولا خوف عليَّ، فأنت مأمور بأن تتمهل ولا تسرع في سيرك بسيارتك مثلاً، ومأمور بألا تخاطر ولا تتهور بنفسك في لجة البحر مثلاً، ومأمور بأن لا تصعد الأماكن الشاهقة التي فيها خطر أن تنقلب بك ونحو ذلك، وكذلك أنت منهي عن أن تتعاطى أو تفعل الأشياء التي قد تجلب لك

مرضاً نفسياً أو حسياً أو ما أشبه ذلك .

لكن متى وقع شيء منها فارض بما قدر الله واستسلم له ، ولا تقل : لو أني لم أسرع لم يحصل كذا ، أو : لو أني أسرعت قليلاً لسلمت من هذا الخطر ، أو : لو أني تسابقت ، أو : لو أني اشتريت مع فلان السلعة الفلانية لربحت كما ربح ، أو : لو أني لم أساهم مع فلان لما خسرت هذا الخسران الكبير ، أو : لو أني لم أرافق فلاناً لما حصل لي مقاطعة فلان ، أو : لو أني . . . أو : لو أني . . . ، أو ما أشبه ذلك .

والحاصل أنك مأمور ألا تقول : لو أني فعلت ، أو : ليتني لم أفعل ، وما أشبه ذلك ، بل اقنع بما ترزق وارض بما كتب الله ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان ، ووجه ذلك أنه إذا أخذ يكرر كلمة (لو) فكأنه يلوم نفسه ، وكأنه يعترض على تصرف الله ، وكأنه يدعي أنه يمكن تغيير الواقع ، ويمكن التخلص من الشيء الذي قد يحصل ، وهذا كله اعتراض على ما قدر الله وما قضاه ، فلا حيلة في تغيير شيء من أمر الله ، والله تعالى أعلم

■ ■ ■ ■ ■



[٥٧]

باب:
النهي عن سب الريح

عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح. فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به»، صححه الترمذي.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
النهي عن سب الريح

الريح هي: هبوب الرياح التي تثور وتثير التراب ونحوه، وتكون تارة رخاءً، وتارة عواصف، وتارة بين ذلك، وهذه الريح والرياح مسخرة من الله ومسيرة، وليست بنفسها متصرفة، وليس لها اختيار، وإنما الله تعالىٰ هو الذي يرسلها.

وقد ذكر الله تعالىٰ الريح بصفة الجمع وبصفة الإفراد، وتارة يجعلها رحمة، وتارة يجعلها عذاباً، فأرسلها علىٰ عاد فأهلكتهم، وسماها ريحاً صرصراً في قوله تعالىٰ: **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾** [فصلت: ١٦]، وفي آية أخرىٰ: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾** [القمر: ١٩]، وقدرها في آية أخرىٰ بسبع في قوله تعالىٰ: **﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾** [الحاقة: ٦، ٧].

وقد يجعلها مسخرة لبعض خلقه كسليمان عليه السلام، قال تعالىٰ: **﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾** [ص: ٣٦].

وقد يجعلها أيضاً مسيرة للسفن في البحر، كقوله تعالىٰ: **﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾** [يونس: ٢٢]، فذكر أنها تارة تكون ريحاً طيبة تسير السفن كما يشاء، وتارة تكون عاصفة مثيرة للأمواج يكون الناس فيها علىٰ خطر، فسمىٰ هذه ريحاً وهذه ريحاً.

وتارة يذكرها الله بلفظ الجمع، وغالباً أنها هي التي تثير السحب، قال

تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]، فجعلها رياحاً مبشرات؛ لأنها تجيء بالمطر بعدها.

ثم ذكر في آية بعدها أنها تثير السحاب، فقال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]، أي: مثيرات للمطر وعلامة عليه، وقال تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ...﴾ [فاطر: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، أي: قدامها وقريباً منها، وبشرىٰ، أي: فيها تبشير، وفي قراءة ﴿نُشُراً﴾ أو ﴿نَشْراً﴾، أي: تنشر السحب وتثيرها.

وهذه الريح لا يقدر أحد علىٰ تغييرها، ولو اجتمع الخلق كلهم علىٰ أن يثيروها إذا سكنت ما استطاعوا، ولو اجتمعوا علىٰ أن يوقفوها إذا هاجت وتحركت ما استطاعوا أن يوقفوها أو يردوها.

وفي هذه الرياح مصالح كثيرة، فإنها تخفف الأنتان التي علىٰ وجه الأرض، فلو سكنت هذه الرياح لأنتن ما علىٰ وجه الأرض كالجيف أو الأطعمة الفاسدة أو الفضلات أو نحو ذلك، فهذه الريح تفرق ما يشم منها وتزيله وتذهب به؛ فلا يبقىٰ له رائحة مؤذية، فهذا من الحكمة العظيمة في هذه الرياح.

ومن الحكم فيها ما ذكر الله أنه يرسلها عذاباً، ويرسلها نصراً، وقد ورد ذلك أيضاً في حديث أن النبي ﷺ قال: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»[(١)]، **والصبا** هي: الريح التي تأتي من الشرق، **والدبور**: الريح التي تأتي من الغرب، فجعل النبي ﷺ الصبا سبباً في نصرته، وذلك في الرياح التي أرسلها الله تعالىٰ علىٰ الأحزاب، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٠٣٥)، ومسلم برقم (٩٠٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الاحزاب: ٩]، أرسل الله عليهم ريحاً لم تضر المسلمين، ولكنها أكفأت قدور المشركين، وقلعت خيامهم، وأقلقت راحتهم؛ فصارت نصرة للرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته، وهذا معنى قوله: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**».

وكما يرسلها الله تعالى نصرة؛ يرسلها أيضاً عذاباً، كما أرسلها على هود، فإذا سخط الله على قوم وعاقبهم أرسل عليهم الريح، فكثيراً ما تجفف الأرض، وكثيراً ما تقلع الأشجار، وكثيراً ما تحمل أتربة تدفن الحروث ونحوها، فهذه عقوبة يعاقب الله بها بعض عباده، ولا يستطيعون ردها، فعليهم أن يعتبروا أن الذي أرسلها قد أراد منهم أن ينتبهوا ويتذكروا ويعرفوا الحكمة في ذلك.

■ **قوله: [عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح. فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به»[1]، صححه الترمذي]:**

في هذا الحديث النهي عن سب الريح، وذلك لأن سبها يرجع إلى سب من

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٢٣)، والترمذي برقم (٢٢٥٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٩٣٣) و(٩٣٤) إلى (٩٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٧١٩). عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني لشواهده في صحيح الجامع رقم (٧١٩٢).

وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه أبو داود برقم (٥٠٩٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٩)، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٩٣١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وشاهد آخر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء برقم (٢٠٥٠).

وشاهد آخر من حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه الترمذي برقم (٣٤٤٩)، وحسنه، وقال الألباني: صحيح.

أرسلها، فلا يجوز سبها، ولا عيبها، ولا الدعاء عليها، ولا غير ذلك؛ لأن ذلك تصرف الله وحده.

والذي يسب الريح كأنه يعترض على الله، ويطعن في حكمته ويطعن في تصرفه؛ لأنه يسب ما لا يستحق السب من الرياح المسخرة، أو يرجع سبه إلى الرب سبحانه وتعالى، ولا شك أن هذا السب إذا رجع إلى الرب عز وجل كان ضلالاً وكفراً وطعناً في حكمة الله، وطعناً في تصرفه؛ فنهانا النبي ﷺ عن سب الرياح، وقال: «**لا تسبوا الرياح**».

وكان عليه الصلاة والسلام إذا ثارت الرياح أخذ يدعو الله بمثل هذه الأدعية، فحفظ عنه أنه كان يقول: «**اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً**»(١)؛ لأن الريح بالإفراد هي التي أهلك الله تعالى بها بعض الأقوام فأهلك بها عاداً، وكذلك رد الله بها الكفار والأحزاب الذين غزوا المدينة، فيكون فيها عذاب؛ فلذلك قال: «**اللهم اجعلها رياحاً**»؛ لأن الرياح بالجمع هي التي فيها رحمة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وهكذا حفظ أيضاً هذا الدعاء الآخر، وهو أنك إذا ثارت الرياح تدعو به فتقول: «**اللهم أني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به**»(٢).

وقوله: «**اللهم أني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به**»: إذا أرسلت مثلاً بإثارة السحب بشرى بين يدي المطر ونحو ذلك.

وقوله: «**وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به**»، إذا كان فيها

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده بإسناد ضعيف جداً، والبيهقي في الدعوات الكبير عن ابن عباس، تخريج المشكاة رقم (١٥١٩).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٨٩٩)، عن عائشة رضي الله عنها.

عذاب وهلاك، أو إذا كان فيها غرق، حيث أن السحب قد يكون فيها غرق ونحوه؛ أو الريح فيها تجفيف للأرض، ونحوه، أو فيها قلع للأشجار أو عذاب للأرواح وما أشبهها.

ومعنى الاستعاذة كأنك تقول: أعوذ بك يا رب، بمعنى: ألتجئ إليك وأتحصن بك وأحتمي بك وأستجير بك؛ فإنك أنت الملاذ وأنت المرتجى من شر هذه الريح التي أرسلتها والتي هي تصرفك.

فهذا دعاء جامع، يفيد أولاً: أن الإنسان يعترف بأن هذه الريح من الله، وليست من نفسها ثارت، وليس أحد من الخلق أثارها أو تصرف فيها.

ويفيد ثانياً: أن التصرف إلى الله، وأنه الذي يُسأل ويُستعاذ به.

وتفيد ثالثاً: النهي عن الاعتراض على خلق الله المسخر المدبر، فالاعتراض عليه اعتراض على الخالق.

فإذا عرف الإنسان مثل هذه العقيدة عرف كمال التصرف، وفوض أموره إلى الله سبحانه وتعالى، ورضي به، فاستعاذ به من شر ما في المخلوقات التي يملك الرب تعالى إرسالها، وسأله من خير ما في هذه المخلوقات، فالله هو المالك لإعطاء الخير منها وتسخيرها، واعتقد بعد ذلك أنه له وحده التدبير والأمر والنهي، واعتقد بعد ذلك أن الذين يعترضون على تصرفه وتقديره قد نقصت عقائدهم، ونقص توحيدهم؛ حيث يجعلون معه متصرفاً، ويجعلون الريح لها شيء من التصرف أو نحو ذلك.

واعتقد بعد ذلك أن الرب تعالى حكيم في أمره، وحكيم في تصرفه؛ فهو لم يرسل هذه الرياح إلا لحكمة عظيمة تعجز العقول عن إدراكها، فإذا عرفنا شيئاً من الحكم تحدثنا به، وإذا جهلنا شيئاً سلمنا الأمر إلى الله، وقلنا: هذا تصرفه وتدبيره فليس لنا الاعتراض على شيء مما قدره وقضاه، والله تعالى أعلم.



[٥٨]

باب:
قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

قول الله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظن: بأنه سبحانه لا يَنْصرُ رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسِّر: بأنَّ ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته.

ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله.

وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظنَّ غير ما يليقُ به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة

يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة. فذلك ظن الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده. فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظنَّ السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة

وإلا فإني لا أخالك ناجياً

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران .

الثانية: تفسير آية الفتح .

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر .

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه .

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

هذا الباب في ظن السوء، والظن السيئ بالله تعالىٰ يصل إلىٰ درجة الكفر ودرجة النفاق، وقد وصف الله به المنافقين، ووصف به الكفار؛ وذلك لأنهم ظنوا بالله ظناً سيئاً، وكذلك أيضاً في جهلة الأعراب الذين هم أيضاً يقربون من النفاق، فقد ظنوا بالله ظناً سيئاً.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]]:

قال الله تعالىٰ في أول هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾، وهذه هي الطائفة الأولى، وهي طائفة المؤمنين، وذلك أنه لما كانت غزوة أحد نزل نعاس علىٰ المؤمنين وغشيهم، وصار ذلك أمنة منه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، فأخبر بأنه جعل النعاس أمنة للمؤمنين يغشاهم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، وهذه هي الطائفة الثانية، وهم: المنافقون، فذكر تعالىٰ أنهم أهمتهم أنفسهم، ولم يهمهم إلا النجاة، فلم يهمهم نصر الإسلام، ولم يهمهم نصر الرسول ﷺ، فلم يهمهم إلا أن يفروا ويهربوا

وينجوا أنفسهم، ولو قتل المسلمون، ولو تغلب المشركون، ولو استولوا على البلاد والعباد، ولو اضطهد الإسلام وأهله.

فمن كان هكذا فإنه قد ظن بالله غير الحق ظن الجاهلية، أي: ظناً باطلاً، وهو الظن الذي كانوا عليه في الجاهلية، والذي ذكره الله عن جهلة الأعراب بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

فمن ظن بالله أنه لا ينصر رسله، وأنه ينصر المشركين، وأن الإسلام ينمحي ويزول مع تمسك أهله به، فإنه داخل في هذه الآية.

ويدخل في ذلك أيضاً من ظن بالله ظناً سيئاً في تصرفاته، فمن ظن بالله أنه لا يعدل في عباده، وأنه يثيب العاصين، ويعاقب المطيعين والمؤمنين، فهذا أيضاً ظن ظناً سيئاً؛ سواء ذلك في الدنيا أم في الآخرة.

فهذه الآية وهي: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، نزلت في المنافقين، فهم يقولون: لو كان الأمر إلينا ما خرجنا بأنفسنا وعرضنا إخواننا لأن يقتلوا، بل الأمر ليس بأيدينا.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، أي: هو الذي قدر هذا، فلا حيلة لكم في رد شيء قدره الله وقضاه.

فعلى كل حال من ظن بالله هذا الظن دخل في وصف المنافقين، فمن ظن أنه لا ينصر رسله، أو أنه لا ينصر دينه، فقد كذب ما أخبر الله به وما وعد به في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ولكن لابد أن يبتلي بعض عباده ابتلاء وامتحاناً ولو كان متمسكين، وذلك من

باب الاختبار ليتميز الصادق من الكاذب، وليكون ذلك مثوبة للصادقين إذا صبروا على ما أصيبوا، كما في هذه الآية: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وكما في قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، فالله يبين أن هذا من حكم تسليط الأعداء أحياناً على بلاد المسلمين.

وهكذا أيضاً يبتلي الله المسلمين إذا قصروا، فإذا كان في المسلمين شيء من التقصير يبتليهم ويسلط عليهم أعداءهم، ولو كان أولئك الأعداء كفرة، كما ورد ذلك في الحديث القدسي: «**إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني**»، فكونهم قد يقولون: نحن مسلمون فكيف انتصر علينا هؤلاء الكفار؟! وكيف صاروا يقتلوننا ويقاتلوننا في عقر دارنا؟!

نقول: إنكم لم تحققوا إسلامكم، ولم تعملوا بكتاب ربكم، ولم تتبعوا سنة نبيكم، ولم تسيروا على نهجه، ولم تصدقوه من كل قلوبكم، ولم تطبقوا شرعه، ولم تحافظوا على دينكم، ولم تحققوا التوحيد تحقيقاً كاملاً، ولم تقيموا الصلوات كما ينبغي، ولم تؤدوا الزكاة، ولم تكملوا بقية الأركان، ولم تنتهوا عن المحرمات، فلم تبتعدوا عن الإثم والفواحش والزنا والخنا وشرب الخمور والملاهي والأغاني وسائر المحرمات، ولم تستقيموا على أمر الله، ولكنكم إذا كنتم على عكس ذلك فأبشروا بنصر الله.

فالحاصل أن الذين يظنون بالله هذا الظن السيء هم ناقصو الإيمان، وقد شابهوا هؤلاء الكفار والمنافقين.

■ **قوله: [وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾** [الفتح: ٦]:

فقد أخبر الله تعالىٰ في أول الآية بأنه يعذب المنافقين، فقال تعالىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾، ولا شك أن العذاب قد يكون عاجلاً وقد يكون آجلاً، فقد يسلط عليهم عذاباً في الدنيا، إما عذاباً سماوياً أو أرضياً، أو أن يجعل بأسهم بينهم - وذلك من العذاب -، أو أن يسلط عليهم أعداءهم، ويديلهم عليهم، **وذلك إذا اتصفوا بهذه الصفات الثلاثة التي هي:**

١- النفاق: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾.

٢- الشرك: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾.

٣- ظن السوء: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾.

وظنهم السيىء هو: أنهم ظنوا أنه لا يبقىٰ إسلام، وظنوا أن الإسلام ليس بدين الحق، وتوقفوا وشكوا في صدق الرسل، أو أن دينهم دين صحيح، أو ظنوا أن دين اليهود أو النصارىٰ أحق من دينهم، أو ظنوا أو اعتقدوا أو عملوا شيئاً من أعمال الجاهلية ومن أديانهم وفضلوه علىٰ دين الإسلام، أو ظنوا أن حكم الشرع لا يناسب أزمنتهم، وأن القانون الوضعي هو المناسب، وهو الذي يصلح في هذه الأزمنة أو ما أشبه ذلك، فإن هذا كله من ظن السوء الذي يديل الله به عليهم أعداءهم ويسلطهم عليهم.

أما إذا كانوا متمسكين وتسلط عليهم الأعداء، فإن النصر والعاقبة للمتقين،

كما حصل في غزوة الأحزاب لما جاء الكفار وأحدقوا بالمدينة، فالمنافقون أخذت بهم الظنون كل مأخذ، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الاحزاب: ١٠]، فالذين ظنوا بالله الظنونا هم المنافقون الذين ظهرت منهم آثار تلك الظنون.

ثم قال الله: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الاحزاب: ١١، ١٢]، فهم يقولون: الله يعدنا والرسول يعدنا بأنا سنفتح بلاد فارس وبلاد الروم وسنملك الشام واليمن والشرق والغرب، ونحن الآن قد أحدق بنا، فهذا هو الظن السيىء؛ فلأجل ذلك قال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾.

فعلى كل حال الظن السيىء عام فيمن ظن بالله غير ما يليق به؛ سواء ظن بالله في وعده ووعيده، أو ظن بالله أنه لا يبعث العباد ولا يجازيهم على أعمالهم، فلا يثيب المطيع ولا يعاقب الكافر، أو ظن بشرعه ظناً سيئاً أنه لا يناسب ولا يليق بالحال، ولا يصلح في هذا الزمان أو ما أشبه ذلك، فكل ذلك من الظنون السيئة التي يلتحق صاحبها إما بالكافرين وإما بالمنافقين.

■ قوله: [قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظن :بأنه سبحانه لا يَنْصُرُ رسوله، وأن أمره سيضمحل، وَفُسِّر: بأنَّ ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته.

ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله.

وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظنٌّ غير ما يليقُ به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة. فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده. فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظنَّ السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة

وإلا فإني لا أخالك ناجياً]:

هذا الكلام ذكره ابن القيم في زاد المعاد[1] لما تكلم على غزوة أحد، حيث تكلم على المنافقين الذين قالوا هذه المقالة التي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ

(١) انظر زاد المعاد (٣/ ٢٢٨-٢٣٧).

الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فذكر هؤلاء الذين وصفوا بأنهم منافقون والذين يظنون بالله غير الحق الذي هو ظن السوء الذي وصف الله به المشركين والمنافقين في سورة الفتح في قوله تعالىٰ: **﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾** [الفتح: ٦].

ونقل مثل هذا الظن عن الأعراب بقوله تعالىٰ: **﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾**، أي: عن الخروج معك، **﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾**، إلىٰ قوله: **﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾** [الفتح: ١٢]، فجعل من ظنهم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلىٰ أهليهم أبداً.

لقد ظن المنافقون في غزوة أحد ظناً سيئاً، حيث إنهم ظنوا ظن الجاهلية؛ فظنوا أن المشركين سينتصرون علىٰ المسلمين، وأن المسلمين لن يبقىٰ منهم بقية، وظنوا أن الإسلام يضمحل ولا يبقىٰ عليه أحد، أو ظنوا أن هذا الدين الذي جاء به النبي ﷺ ليس بصحيح، وأنه ليس من الله، أو ظنوا أن ما جرىٰ وما حدث من المصيبة علىٰ المسلمين ليس بقضاء من الله ولا بقدر، بل إنه صدفة، أو أنه حصل بقوة وبغلبة من المشركين؛ فتغلبوا علىٰ قضاء الله وقدره، وأنه لم يكن مكتوباً قبل وجود الخلق ونحو ذلك، مع أن الله قال في نفس هذه الآية: **﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾** [آل عمران: ١٥٤]، فأخبر بأنه مكتوب علىٰ من قتل منكم أنه سيقتل، وعلىٰ من جرح أنه سيجرح، ولا محيد له ولا مفر عن القدر المحتوم.

والحاصل أننا نقول: إن من ظن هذا الظن السيء يكون قد تدخل فيما لا

يعنيه، وظن بالله ظناً سيئاً.

وقد أطال ابن القيم رحمه الله في هذه المقام في نحو ست صفحات أمثلة ممن ظن ظناً سيئاً؛ سواءً فيما يتعلق بالصفات، أو فيما يتعلق في الحكمة والقضاء والقدر، أو فيما يتعلق في الأحكام، أو فيما يتعلق في الحدود، أو ما أشبه ذلك.

● **فمن ذلك قوله**: ومن ظن أن آيات الله وكلامه الذي أنزله علىٰ رسوله ﷺ لم يؤمر الناس باتباعه؛ فقد ظن بالله ظن السوء.

● **ومن ظن** أننا أمرنا بقراءته ولا نتفقه فيه ولا نتدبر معانيه، فقد ظن بالله ظن السوء.

● **ومن ظن أن الله تعالى** لا يوصف بما ذكره في كتابه من صفات الكمال التي أثبتها لنفسه، أو أثبتها له رسوله ﷺ؛ فقد ظن بالله ظن السوء.

● **ومن ظن أن الله** ليس فوق عباده، وليس مستوياً علىٰ عرشه كما أخبر عن نفسه؛ فقد ظن بالله ظن السوء.

● **ومن ظن أن الرسول** عليه الصلاة والسلام لا يعلم معاني ما أنزل إليه، وأنه يقرؤها ولا يفقه مدلولها، فقد ظن بالله ظن السوء؛ أي: أنه ظن أن الله يخاطب الناس بما لا فائدة فيه، وبما لا يُعقل معناه، وقد أطال ابن القيم رحمه الله في ذلك.

والقصد من ذلك أن الظن الذي نحن بصدده ظن السوء هو ما يتعلق بتلك الوقعة التي هي غزوة أحد، فإنه ظن سيء، وظن أهل الجاهلية، لقوله: **﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ**

﴿فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ثم ذكر الحكمة في قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أي: أن من حكمة الله في إدالة المشركين هذه المرة أنه يختبر ويمحص من يكون إيمانه ضعيفاً، كما قال في آية أخرىٰ في نفس السورة: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

والتمحيص هو تطهيرهم من الخطايا ومن الزلات ونحوها، والابتلاء هو: اختبار من إيمانه ضعيف؛ أيثبتُ علىٰ هذا الإيمان، أم يثبت نفاقه ويبدو منه ما يخالف الإيمان الحقيقي؟! كما حصل من هؤلاء المنافقين، فإنه قد ظهر منهم عند هذا الابتلاء والامتحان ما دل المسلمين علىٰ أنهم ليسوا بمؤمنين حقّاً.

والذي ذكرت عنه هذه المقالة من المنافقين يقال له: معتِّب بن قشير، كما ذكره ابن إسحاق.

والمؤمنون كانت تخفق رؤوسهم من النعاس الذي تغشاهم حتىٰ تسقط سيوفهم من أيديهم، وذلك من الأمنة؛ لأن الله أمنهم حتىٰ لا يخافوا فأنزل عليهم ذلك النعاس، وأما هؤلاء فأصيبوا بهذا القلق والخوف.

فعلىٰ المسلم أن يكون ظنه في الله في كل واقعة ظنّاً حسناً، وأن يعتني بأمر قلبه، وينظر هل هو يعتب علىٰ القدر، وينظر هل هو يعتب علىٰ قضاء الله، فكثير من الناس ـ كما ذكر ابن القيم ـ يتعنتون في أمر المصائب والحوادث، ويقولون: وددنا هذا لم يحدث، أو ليت هذا لم يحدث، فلان لا يستحق هذا المرض، فلان لا يستحق الموت، فلان لا يفرح بنزول كذا وكذا عليه، أو ما أشبه ذلك، وكأنهم لم يؤمنوا أن ما أصابه مكتوب وليس منه مفر ولا محيد، وكأنهم لم يؤمنوا الإيمان الصحيح بأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم

يكن ليصيبه .

والواجب على الإنسان أن يؤمن بالقضاء والقدر، وألا يتعنت ولا يعترض على ما حدث من أمر الله، وأن يقول كما أمره النبي ﷺ: «قدر الله وما شاء فعل»[(١)]، أي: هذا قدره، وهذا قضاؤه، فما شاء فعله، وما أمر به فلا مخالف لأمره.

فعلى المسلم أن يكون مؤمناً بأمر الله وبقدره وبقضائه وبشرعه، ونؤمن بأنه سبحانه لا يفعل شيئاً إلا لمصلحة، ولا يقدر شيئاً إلا لحكمة، سواءً ظهرت لنا تلك الحكمة أو خفيت عنا، فإذا خفيت عنك حكمة في أمر من الأمور أو واقعة من الوقائع، أو مصيبة من المصائب، ولا تعلم الحكمة في أن الله أجراها وأوقعها، فعليك أن تستسلم للأمر استلاماً مطلقاً، وتقول: آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله.

وهذا هو الإيمان الصحيح الذي يعم التصديق بكل ما أنزل الله على رسوله، ويستتبع بعد ذلك العمل والتطبيق الذي هو ثمرة عنه، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) سبق تخريجه.



[٥٩]

باب:
ما جاء في منكري القدر

قال ابن عمر: «والذي نفسُ ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت، أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان، حتى تعلم، ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني».

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه الله بالنار».

وفي المسند، والسنن، عن ابن الديلمي، قال: أتيت أُبيٍّ بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: لو

أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيت عبدالله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح، رواه الحاكم في صحيحه.

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الاخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتىٰ يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرىٰ بالمقادير في تلك الساعة إلىٰ قيام الساعة.

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلىٰ رسول الله ﷺ فقط.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
ما جاء في منكري القدر

هذا النوع من القدر هو علم الله السابق بالمخلوقات وبأوقاتها قبل خلقها، بل قبل خلق السموات والأرض، وقبل خلق الأفلاك، ونحو ذلك.

وهذا النوع دليله صفة العلم، وقد مر بنا أن الذين أنكروه هم غلاة القدرية قديماً؛ كمعبد الجُهني، وغيلان القدري، ونحوهم من الذين أنكروا علم الله السابق بالأمور قبل أن تقع، وأنكروا أن يعلم الله الأشياء قبل أوقاتها وحدوثها، وأنكروا أن الله يعلم عدد من سيخلق، وما هو كائن، وما لم يكن.

ولا شك أن ذلك قدح في علم الله، وطعن في صفة من صفاته، والله تعالىٰ قد وصف نفسه بالعلم السابق، وأخبر بأنه بكل شيء عليم، وذلك علىٰ عمومه، فلا يخفىٰ عليه شيء؛ لقوله تعالىٰ: **﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [سبأ: ٣].

والذين ينكرون هذا النوع من العلم السابق ومن القدر ينقص بذلك توحيدهم، ويقدح في إيمانهم وفي عقيدتهم؛ وذلك لأنهم كذبوا الله في خبره، وهذا التكذيب نقص في الإيمان ونقص في العقيدة، ثم رموا ربهم تعالىٰ بالجهل وهذا تنقص، بمعنىٰ أنه جاهل بخلقه، ولا يعلم بمن سيوجد حتىٰ يوجد، وذلك غاية التنقص.

ولا شك أن من تنقص الله تعالىٰ بمثل ذلك نقص توحيده، واختلت عقيدته،

وهذا هو السبب في إدخال هذا الباب في أبواب كتاب التوحيد، وإلا فإن موضع بسطه في كتب العقائد، كما مر بنا في شرح العقيدة الواسطية[1] بيان مراتب هذا النوع، وذكرنا أنه ينقسم إلىٰ أربعة أقسام:

الأول: تقدير عام.

الثاني: تقدير عمري.

الثالث: تقدير سنوي.

رابعاً: تقدير يومي.

وذكرنا أمثلة وأدلة علىٰ كل نوع.

وهؤلاء الذين أنكروا هذا العلم كأنهم تخيلوا أن العلم بعدد الكائنات المستقبلة لا يحصل إلا بعد وجودها، ولا شك أن الذي يتخيل ذلك يدخل في فكره أنها توجد نفسها، أو أن الله لم يكن قد علم أعمارها وحدودها وآجالها وأوقاتها، ولا شك أن هذا طعن في علم الله، وطعن في صفات كماله.

أما النقص فهو في المخلوق فقط، فهو الذي لا يعلم ما في غد، ولا يعلم المستقبلات، حتىٰ الأنبياء وصفوا بأنهم لا يعلمون ما غاب عنهم، فالنبي ﷺ وغيره من الأنبياء لكونهم بشراً لا يعلمون ما في غد.

يقول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: **﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾** [الأعراف: ١٨٨]، فذكر أنه لا يعلم المستقبلات، وأنه لو علم ذلك لاستكثر من الخير؛ ولأعد للسنة المجدبة من

---

(١) انظر كتاب: التعليقات الزكية علىٰ العقيدة الواسطية، لفضيلة الشيخ العلامة الدكتور عبدالله بن جبرين من إعدادي: (٢/ ١٥٢ ـ ١٥٨).

السنة المخصبة، فلو عرف أن هناك سنة تأتيه وهي جدب لاستعد لها في السنة التي قبلها، ولعلم ما سيربح وما لا يربح وما ربحه في هذا وهذا.

إذاً فعلم الغيب لا يعلمه إلا الله، وقد اتفق المسلمون على أن الله تعالى الذي يعلم الغيب، وإذا كان يعلم الغيب فلا فرق بين علم الغيب الماضي وعلم الغيب المستقبل، كعدد من سيخلق من المخلوقات، ووقت قيام الساعة، وأعمال العباد الذين لم يوجدوا، وأعمارهم، وممتلكاتهم، وما أشبه ذلك، وكذلك سائر المخلوقات، فالله يعلم ما سيوجد من المخلوقات من حشرات ومن دواب ومن حيوانات ونحو ذلك، فالله تعالى هو خالقهم، وهو العالم بهم.

فكل ذلك داخل في صفة العلم ونفي ذلك تنقص للرب تعالى، يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والذين أنكروا صفة العلم يلزمهم أن ينكروا النصوص الصريحة في هذا، وذلك كُفر، فإن من أنكر الآيات والأحاديث الصحيحة في هذا الباب يقع في الكفر والعياذ بالله.

ولهذا قال عنهم الإمام الشافعي رحمه الله: (ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا)، أي: قولوا لهم: هل تعترفون أن الله بكل شيء عليم، وأنه عالم بخلقه؟ فإذا اعترفوا بالعلم فقولوا لهم: ما الفرق بين علم ما مضى وما بقي؟!، فإن الله تعالى عالم بكل شيء، يعلم الجهر وما يخفى، ويعلم السر وأخفى، فإذا كان يعلم ذلك؛ فإنه يعلم أيضاً من سيوجد ومن سيكون، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن كيف يكون؛ فهذا هو الإيمان بالقدر.

والأدلة على الإيمان بالقدر من القرآن كثيرة، مثل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ

﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، فأخبر بأنه يعلم ذلك، وأنه قد كتبه في أم الكتاب.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، أي: كل شيء مكتوب، حتىٰ مثقال الذرة وأصغر من الذرة وأكبر منها، وما يحصل في الوجود كله مدون ومكتوب.

وقد ذكر الله أيضاً الحكمة في إخبارنا أنه يعرف ما سوف يحصل، فقال تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: يسير وسهل علىٰ الله أن يعلم الأمور المستقبلية كما يعلم الماضية، ويسير عليه أن يكتبها أو يأمر بكتابتها، ويسير عليه أن يعلم تفاصيل ما سوف يوجد، وما سوف يحصل من المصائب التي سوف تقع، ونحو ذلك. ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، أي: لا تأسوا ولا تحزنوا علىٰ الشيء الذي فاتكم ولم تدركوه، ولا تفرحوا بالشيء الذي حصلتم عليه فرح أشر وبطر، بل اعلموا أن ذلك مقدر عليكم، وكائن قبل أن يخلق الله هذه المخلوقات، وليس لكم منه ولا محيد.

فهذه أدلة ناجعة علىٰ سعة علم الله تعالىٰ، وأنه عالم بالمستقبلات في عددها، وإذا آمن العبد بذلك وصدق به ولم يَرُدَّ شيئاً اطمئن قلبه واستقر في حياته، وإذا فقد شيئاً من الإيمان بذلك فإنه كثيراً ما يحصل له التأسف والتندم علىٰ الحياة، والحسرة علىٰ ما فات.

■ **قوله: [قال ابن عمر: «والذي نفسُ ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١)، رواه مسلم]:**

ذكر المصنف أثر ابن عمر لما سأله يحيىٰ بن يعمر، وقال: إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، فقال: (إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء، وهم مني برآء، والذي نفس ابن عمر بيده لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر)، ثم استدل بحديث جبريل المشهور، وفيه أركان الإيمان، ومنها: **«وتؤمن بالقدر خيره وشره»**.

فهذا دليل علىٰ أن إنكار القدر يحبط الأعمال، فهؤلاء لما أنكروا القدر أبطل الله أعمالهم، فلو أنفق أحد منهم ما يملك في سبيل الله ما قبل الله منه، وهو دليل علىٰ أنه قد كفر؛ لأن أعمال الكافر وصلواته ونفقاته مردودة عليه لا تقبل منه، قال تعالىٰ: **﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾** [الفرقان: ٢٣].

فيكون إنكار القدر كفراً، وسببه أن هؤلاء الذين ينكرونه يطعنون علىٰ الله تعالىٰ في خبره، وكذلك يصفونه بالجهل، وذلك تنقص وأي تنقص، فالتنقص لله والاستهزاء بصفاته التي هي صفات الكمال، وجحدها ووصفه بضدها إما تصريحاً وإما لزوماً كله كفر، والكفر يحبط الأعمال، سواءً الأعمال البدنية أو الأعمال المالية.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨).

■ **قوله: [وعن عبادة بن الصامت، أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»[1].**

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»[2].

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه الله بالنار»[3]]:

في هذا الحديث: أن عبادة رضي الله عنه لما حضره الموت، قال له ولده:

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٠٠)، والترمذي برقم(٣٣١٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥)، وأحمد في المسند (٥/ ٣١٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ١١٤)، والطيالسي في المسند رقم (٥٧٧)، والأجري في الشريعة (١٧٧، ١٨٧).
قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٨): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفي أحدهما عثمان بن أبي العاتكة وهو ضعيف، وقد وثقه دحيّم وبقية رجاله ثقات، وفي بعضهم كلام. وصححه الألباني لطرقه وشواهده في السنة لابن أبي عاصم برقم (١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧).
وله شاهد من حديث ابن عباس، أخرجه ابن أبي عاصم في السنة برقم (١٠٨). وأبو يعلىٰ في المسند ربقم (٢٣٢٩)، والدارمي في الرد علىٰ الجهمية (٧٧)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٦٨)، والبيهقي في الكبير (٩/ ٣) رقم (١٧٤٨١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٠) رقم (٣٨٤٠).
قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٠): رواه البزار ورجاله ثقات، ورواه الطبراني ورجاله ثقات.
وقال الذهبي في المستدرك: علىٰ شرط البخاري ومسلم، وقال محقق مسند أبي يعلىٰ: إسناده صحيح.
(٢) أخرجها أحمد (٥/ ٣١٧). وابن أبي عاصم رقم (١٠٧). والطبراني في الكبير رقم (١٢/ ٦٨) (١٢٥٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة رقم (١١١). والآجري في الشريعة ص (١٧٧، ١٧٨، ١٨٦، ١٨٧). ويشهد لهذه الرواية الحديث الآتي الذي أورده المصنف.

أوصني، وكان مضطجعاً، فقال: أجلسوني، فأجلسوه، فأوصى ولده بهذه الوصية، وهي الإيمان بالقدر، وأخبره بأنه لا يجد للإيمان طعمه ولذته حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وذلك هو حقيقة الإيمان بالقدر.

فإذا علم الإنسان أن الشيء الذي وقع فيه مكتوب عليه ليس له منه مفر ولا محيد اطمأن قلبه، وقال: هذا قد كتب علي قبل أن أخلق، بل قبل أن تخلق السموات بخمسين ألف سنة، أو بما شاء الله تعالى، فإذا كان كذلك وجد للأعمال لذتها، ووجد للصالحات وللحسنات وللعلوم الشرعية وللقربات لذتها.

والمراد بطعم الإيمان ولذته اللذة المعنوية، وهي لذة روحية قلبية، فالذي يرضى بما أصابه ويقنع بما رزقه الله، ولا يتأسف على فائت، ولا يفرح فرح أشر وبطر بما حصل عليه، ويعمل بقول الله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، هذا هو الذي يجد للإيمان طعماً وارتياحاً، فترتاح نفسه إذا رزق عملاً صالحاً ووفق له، وترتاح نفسه إذا وفق لتجنب السيئات والبعد عن المخالفات، أما إذا لم يؤمن بالقدر خيره وشره فإنه لا يجد لهذه الأعمال لذتها ولا حلاوتها.

ثم استدل عبادة بالحديث المشهور، وهو قول النبي ﷺ: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»**. وفي رواية: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»**.

وهذا هو التقدير العام، والتقدير أربعة أنواع: تقدير عام: وهو كتابة الله

تعالىٰ في اللوح المحفوظ كل ما هو كائن من المخلوقات ومن الأعمال ومن الحركات ونحوها، وتقدير عُمري، وتقدير سنوي، وتقدير يومي.

وهذا الحديث دليل علىٰ التقدير العام، وأن القلم جرىٰ عندما خُلق وأُمر بكتابة كل الكائنات.

وهذا دليل علىٰ أن القلم أول ما خلق الله من الأشياء، ولكن الصحيح أن العرش مخلوق قبله؛ لأنه ورد في الحديث: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء**»[1]، وعرشه ذو قوائم وأركان، فإن القلم أول المخلوقات بعد العرش، ولما خلقه الله وأمره فكتب ما هو كائن.

ثم قال عبادة رضي الله عنه: يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات على غير هذا فليس مني**»:

فبعد أن ذكر الإيمان بالقدر خيره وشره، واعتقاد أن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، أخبر بأن من مات علىٰ غير هذا الإيمان المطلوب فليس من أتباع النبي ﷺ ولا من أهل سنته، لأنه قد كذب بما جاء عنه من الأخبار الصحيحة التي تنص علىٰ أن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وأن كل ما حدث من المصائب والأمور فإن الله قد علمها وقدر زمانها، وكتب صفتها في اللوح المحفوظ، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [يونس: ٦١]، أي: مكتوب فيه مثاقيل الذر، وحوادث البر والبحر، ومن كذب بذلك فقد رد خبر الله تعالىٰ، وأنكر ما أخبر الله تعالىٰ به من تقدير كل شيء، وتحديد أوقات الحوادث وأزمنتها وكيفيتها ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤١٨)، عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

ثم إن ذلك كله لا يمنع كل إنسان من فعل الأسباب الحسية، فالمرض يستدعي العلاج، والجوع يستدعي الأكل، وحصول المال يستدعي طلبه بالتكسب ونحو ذلك، مع أن الجميع قد علمها الله تعالىٰ وقدرها كما يشاء، والله بكل شيء عليم.

ثم قال ﷺ: **«فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه الله بالنار»**:

أي: من لم يؤمن بالقدر وبكتابة الله لما هو كائن ووجود المخلوقات وتحديد أوقاتها وأعمالها وما إلىٰ ذلك، من لم يؤمن بذلك أحرقه الله بالنار، أي: أنه كافر.

■ **قوله: [وفي المسند، والسنن، عن ابن الديلمي، قال: أتيت أُبيَّ بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيت عبدالله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ[1]. حديث صحيح، رواه الحاكم في صحيحه]**:

هذا الحديث فيه أن من لم يؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومره فإنه يكون

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩). وأبو داود برقم (٤٦٩٩)، وابن ماجة في المقدمة برقم (٧٧)، وابن أبي عاصم برقم(٢٤٥)، والطبراني في الكبير(٤٩٤٠)، وابن حبان في الصحيح (١٨١٧).

وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٥٠٥) رقم (٧٢٧).

وأخرجه الطبراني في الكبير برقم(١٠٥٦٤)، من حديث عمران بن حصين، وابن مسعود، وأبي بن كعب.

قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٨): رواه الطبراني بإسنادين ورجال هذه الطرق ثابت، وصححه الألباني في السنة لابن أبي عاصم برقم (٢٤٥)، وفي المشكاة (١/ ٣٤)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان: إسناده قوي.

من أهل النار، وهذا أيضاً مثل ما ذكر في حديث عبادة.

وفيه أيضاً أن الإنسان لو أنفق ما أنفق ما قبله الله منه، ولو عمل ما عمل ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر.

وفيه أيضاً تفسير القدر بأن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وقد جاء مثل ذلك في حديث ابن عباس المشهور، والذي يقول فيه النبي ﷺ: «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ رفعت الأقلام، وجفت الصحف**»(١)، وفي رواية: «**رفعت الأقلام، وطويت الصحف**»(٢)، أي: كتبت علىٰ ما فيها، ويبست وجفت، وليس شيء يتجدد؛ بل الأمر مفروغ منه.

فيؤمن الإنسان بذلك كله ويرضىٰ ويسلم لما أصابه، ولكن مع ذلك كله يعمل؛ ولا يقول مثلاً: مكتوب في أم الكتاب أني سعيد أو شقي؛ فإني سأتكل علىٰ كتابي.

وقد قال الصحابة ذلك للنبي ﷺ، فقالوا: أفلا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟ قال: «**اعملوا؛ فكلٌ ميسر لما خلق له**»(٣)، أي: أن الإنسان مأمور أن يعمل، ولكن يقوده عمله إلىٰ ما خُلق له من خير أو شر.

والحاصل أن من فوائد الإيمان بالقدر المستخرجه من الآثار السابقة ما يلي:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٤٧) (٧).

أولاً : أنه سبب لقبول الأعمال ، والإنكار سبب لردها .

ثانياً : أن الإيمان بالقدر سبب لوجود طعم الإيمان والتلذذ بالطاعات .

ثالثاً : أن الإيمان بالقدر سبب في النجاة من النار ، والتكذيب بالقدر سبب لعذاب النار والعياذ بالله .

■ ■ ■ ■ ■

[٦٠]

باب:
ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»، أخرجاه.

لهما، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

ولهما، عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصورٍ في النار، يُجعل له بكل صورة صورها نفسٌ يعذب بها في جهنم».

ولهما، عنه مرفوعاً: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ».

ولمسلم، عن أبي الهياج، قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ «أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله، لقوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**».

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم، ، لقوله: «**فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة**».

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ما جاء في المصورين

هذا الباب في المصورين، ووجه إدخاله في كتاب التوحيد أن المصورين يزاحمون الخالق في خصائصه، لأن الخلق من خصائص الله تعالى، فقد اختص تعالى بإيجاد المخلوقات على غير مثال سبق، فالذين يقلدون خلق الله ويصورون هذه الصور على مثال ما خلق الله كأنهم يرفعون أنفسهم إلى منزلة لا يستحقونها وهي تقليد الله، والتشبه بالله في إيجاد مثل ما أوجد.

فلأجل ذلك أُدخل هذا الباب في أبواب كتاب التوحيد، ولأن من كمال التوحيد أن يكون الإنسان معظماً لله، ومن تعظيمه أن يعظم خلقه، فلا يزاحمه في خلقه، ولا يدعي المسلم ما ليس له، فهذا هو السبب في كون التصوير من منقصات التوحيد.

ثم المراد بالتصوير تقليد الخلقة الربانية، ومحاولة الإنسان أن يخلق أو يمثل مخلوقات الله.

ومن أسماء الله تعالى المصور، لقول الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، بمعنى أنه هو الذي صور هذه المخلوقات، ومن جملة مَنْ صوَّر الإنسان، قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

وقد أورد المصنف رحمه الله في هذا الباب جملة من الأحاديث لبيان حكم التصوير والمصورين.

■ **قوله: [عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»[(١)]، أخرجاه]:**

هذا الحديث رواه البخاري برقم (٥٩٥٣) من طريق عمارة، حدثنا أبو زرعة، قال: دخلت مع أبي هريرة داراً بالمدينة، فرأىٰ في أعلاها مصوراً يصور، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا حبة، وليخلقوا ذرة... إلخ**»، وظاهره أنه من كلام النبي ﷺ، والصواب أنه من رواية النبي ﷺ عن ربه، من الأحاديث القدسية.

وقد رواه البخاري في التوحيد برقم (٧٥٥٩) عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو شعيرة**».

وهو عند مسلم كرواية البخاري الثانية، وذكر أن الدار لمروان أو لسعيد بن العاص أمير المدينة زمن معاوية.

والمعنى: لا أحد أظلم ممن حاول أن يخلق مثل خلق الله تعالىٰ، فيصور صورة مماثلة لما خلق الله من الحيوانات ونحوها.

ثم قال: فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أي: لا يقدرون علىٰ ذلك، وهذا من باب التحدي والتعجيز عن خلق الذرة، وهي النملة الصغيرة، فإن خلقها من عجائب قدرة الله تعالىٰ؛ حيث ركب فيها أعضاءها من الأيدي والأرجل والسمع والبصر، وسرعة الحركة، ومعرفة ما ينفعها أو يضرها، فلو اجتمع الخلق علىٰ أن يوجدوا مثلها، أو أصغر منها كالبعوضة، لعجزوا عن ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٥٣)، ومسلم برقم (٢١١١).

ثم تحداهم بخلق حبة من بر أو شعير، وذلك على وجه التعجيز، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]، فهذه الحبة من البر ونحوه قد فلقها الله وجعل فيها هذا الوجه المتميز، فلا يقدر أحد أن يخلق حبة مثلها ذات طعم وفلق، تُبذر وتَنْبِتَ وتُثمر؛ سواء من البر أو الشعير أو الذرة أو غيرها.

ودلالة الحديث ما فيه من التهديد والوعيد الشديد بأن من حاول أو أراد مضاهاة خلق الله بهذه التصاوير فهو من أظلم الظالمين، وقد قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

■ **قوله: [ولهما، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»**(١)]:

رواه البخاري برقم (٥٩٥٤) عنها، قالت: قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت بقرام لي على سهوة لي فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه، وقال: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»، قالت: فجعلناه وسادة أو وسادتين.

ثم رواه بعده بلفظ: وعلقت درنوكاً فيه تماثيل، فأمرني أن أنزعه فنزعته.

ثم رواه برقم (٦١٠٩) عنها، قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وفي البيت قرام فيه صور، فتلون وجهه، ثم تناول الستر فهتكه، وقال: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور**».

ورواه مسلم في اللباس والزينة بعدة ألفاظ.

وفسر الحافظ في الفتح القرام بأنه: ستر فيه رقم ونقش، وقيل: ثوب من

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٥٤)، ومسلم برقم (٢١٠٦) (٩٢).

صوف ملون يفرش في الهودج أو يغطى به، وفسر السهوة بأنها: صفة من جانب البيت، وقيل: الكوة، وقيل: الرف... إلخ.

وفي رواية: وقد علقت درنوكاً على بابي؛ وفسر الدرنوك بأنه: ثوب غليظ له خمل إذا فرش فهو بساند، وإذا علق فهو ستر، والتماثيل هي: التصاوير، كما في بعض الروايات، وهو يعم ما كان شاخصاً مجسداً أو نقشاً أو دهاناً، أو نسجاً في ثوب.

ومعلوم أن تلك التماثيل في ذلك القرام كانت نقوشاً فيه، وليست مجسدة، ولذلك هتكه، أي: نزعه من السهوة، أو أمرها فنزعته، ثم شققته فجعلته وسادة أو وسادتين.

وقوله: **«أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»**: أي: يشبهون ما يصنعونه بما يصنعه الله من المخلوقات، والمضاهاة: المماثلة، فتوعدهم لهذا القصد، وهو تشبههم بالله في الخلق، ومحاولتهم أن يخلقوا كخلق الله، وذلك أن الخلق والإيجاد من الله تعالى وحده، قال الله تعالى: **﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾** [النحل: ١٧]، فعاب آلتهم بأنها لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة لله تعالى، كما في قوله تعالى: **﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾** [الأعراف: ١٩١].

ولما ذكر بعض مخلوقاته تعالى قال بعدها: **﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾** [لقمان: ١١]، فمن حاول أن يخلق مثل خلق الله فإنه يعجز، ولو بخلق ذرة، أو ذباب، أو بعوضة، ولذلك توعد الذين يضاهئون بخلق الله تعالى بأنهم أشد الناس عذاب.

وقد ثبت أيضاً في الصحيح عن ابن مسعود، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون**»، قال الحافظ في الفتح: وقد استشكل كون المصور أشد الناس عذاباً، مع قوله تعالىٰ: ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: ٤٦]، فإنه يقتضي أن يكون المصور أشد عذاباً من آل فرعون.

وأجاب الطبري بأن المراد هنا: من يصور ما يعبد من دون الله قاصداً، وهو عارف بذلك، فإنه يكفر بذلك، فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون، وأما من لا يقصد ذلك فإنه يكون عاصياً بتصويره فقط.

وأجاب غيره بأن الرواية بإثبات (من)، أي: «**إن من أشد النلس**» ثابتة، وبحذفها محمولة عليها، وإذا كان من يفعل التصوير من أشد الناس عذاباً كان مشتركاً مع غيره إلخ.

ولا شك أن هذا وعيد شديد علىٰ التصوير، ولا يلزم أن يكون عذابه المطلق في الآخرة أشد من المشركين والكفار المعاندين الذين توعدهم الله بالخلود في النار والعذاب الأليم، فلعل المراد أشد العصاة عذاباً، إذا قيل إن التصوير المطلق لا يبلغ مرتبة الكفر والشرك.

وذكر القرطبي في المفهم أن قوله: «**أشد الناس**»، لا يراد بهم كل الناس؛ بل بعضهم، وهم من يشارك في المعنىٰ المتوعد عليه بالعذاب. . . ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشد عذاباً ممن يصورها لغير العبادة، وخص بعضهم الوعيد الشديد بمن صور قاصداً أن يضاهي بخلق الله فإنه يكفر بذلك، أما ما عداة فيحرم ويأثم دون إثم المضاهي، والله أعلم.

■ **قوله**: [ولهما، عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصوِّرٍ في النار، يُجعل له بكل صورة صورها نفسٌ يعذب بها في جهنم»[1]]:

هذا الحديث رواه مسلم في اللباس والزينة عن سعيد بن أبي الحسن، قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني رجل أصور هذه الصور فأفتني فيها... قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل مصور في النار يَجْعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم**»، وقال: إن كنت لابد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له.

ورواه البخاري برقم (٢٢٢٥) في البيوع من طريق سعيد بن أبي الحسن، وهو أخو الحسن البصري، بمعنى الحديث الذي بعده، لا بهذا اللفظ، ولم أجده في البخاري بلفظ: «**كل مصور في النار**».

وقد رواه البخاري ومسلم من طريق النظر بن أنس بقصة الرجل الذي يصنع التصاوير، وبلفظ: «**من صور صورة كلف أن ينفخ الروح... إلخ**».

ثم إن رواية مسلم صريحة في الوعيد بالنار للمصور، والمراد نار الآخرة كما هو الظاهر من الإطلاق، قال النووي في شرح مسلم: (وأما قوله: يَجْعل له: فهو بفتح الياء، والفاعل هو الله تعالى، أضمر للعلم به.

قال القاضي في رواية ابن عباس: يحتمل أن الصورة التي صورها هي تعذبه بعد أن يجعل فيها روح...، ويحتمل أن يجعل له بعدد كل صورة ومكانها شخص يعذبه به... إلخ.

ولا شك أن هذا وعيد شديد للمصور، ولكن التصوير لأجل العبادة أعظم، وكذا الصور التي لها ظل أشد تحريماً من المنقوشة، مع اشتراك الجميع في أنها تصاوير.

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه برقم (٢٢٢٥)، ومسلم رقم (٢١١٠) (٩٩).

■ **قوله: [ولهما، عنه مرفوعاً: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»[١]]:**

هذا الحديث رواه البخاري برقم (٢٢٢٥) عن ابن عباس، بلفظ: «**من صور صورة في الدنيا فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبداً**»، ثم رواه برقم (٥٩٦٣) عنه بنحوه.

وكذا رواه مسلم في كتاب اللباس والزينة، باب: «تحريم تصوير صورة الحيوان»، بلفظ: «**من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ**».

وروواه البخاري برقم (٢١٠٥) عن عائشة أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير... فقال رسول الله ﷺ: «**إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون، فيقال لهم: أحييوا ما خلقتم**»، وقال: «**إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة**»، ثم رواه بنحوه برقم (٥٩٥٧، ٥٩٦١) عنها، وفيه قصة النمرقة.

وكذا رواه مسلم في باب: «تحريم التصوير من كتاب الزينة» من طرق عن نافع، عن القاسم عنها.

وروواه البخاري برقم (٥٩٥١) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**».

وكذا رواه مسلم في باب تحريم التصوير عن ابن عمر رضي الله عنهما، فهو حديث مشهور، رواه في الصحيحين هؤلاء الثلاثة من أكابر الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٦٣)، ومسلم برقم (٢١١٠) (١٠٠).

وهو دليل على تحريم التصوير، وما يترتب على المصورين من العقوبة والعذاب في الآخرة، فالمعنى: أنه يستمر في العذاب، ويقال له: لا ينقطع عذابك حتى تنفخ الروح في هذه الصور التي صورتها، والقصد طول زمان العذاب معه، وإظهار عجزه عما كان تعاطاه، ومبالغة في توبيخه، وبيان قبح فعله.

وقوله: «ليس بنافخ»، أي: لا يمكنه ذلك، فيكون معذباً دائماً.

وقوله: «**يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»: هو أمر تعجيز، وهذا وعيد شديد، لأنه لا يمكنه نفخ الروح فيما صور، ولا إحياؤه، فيفهم منه أن عذابه مستمر إلى غير نهاية، وقد تأوله بعضهم بحمله على المستحيل لذلك مع علمه بالتحريم، وقيل: إن ذلك فيمن صور ما يعبد مع الله، وقيل: إنه فيمن قصد مضاهاة خلق الله، وحمله بعضهم على الصور المجسمة، وفي ذلك نظر.

وقد استدل بذلك على جواز تصوير ما لا روح فيه من الشجر والجبال، والأبنية والصناعات اليدوية ونحو ذلك مما لا روح فيه، لقول ابن عباس لذلك السائل: ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر... إلخ، وقد منع ذلك بعض العلماء نظراً إلى عموم قوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»، وحمل الحديث على من قصد مضاهاة خلق الله، والله أعلم.

■ **قوله: [ولمسلم، عن أبي الهياج، قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ «أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[1]]:**

هذا الحديث رواه مسلم في الجنائز، وكذا رواه أبوداود، والترمذي، والنسائي، في كتاب الجنائز من سننهم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٦٩)، بلفظ: «**أن لا تدع تمثالاً إلا ...**».

ورواه الإمام أحمد في المسند برقم (٧٤١، ١٠٦٤) عن أبي الهياج بنحوه.

وقد رواه الإمام أحمد برقم (٦٥٧) عن أبي محمد الهذلي، عن علي، قال: كان رسول الله ﷺ في جنازة، فقال: «**أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثناً إلا كسره، ولا قبراً إلا سواه ،ولا صورة إلا لطخها**»، فذكر الحديث، وفيه: «**من عاد لصنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**. . .» إلخ، ثم رواه بعده بنحوه، وفيه: «**إلا طلخها**»، وكذا رواه برقم (١١٧٠) بلفظ: «**ولا صورة إلا طلخها...**» إلخ، وكأنه من المقلوب.

والأمر بالطمس واللطخ يقتضي لزوم محو الصور، وإزالة أثر التصوير، ولعل ذلك يحصل بمحو الوجه والرأس، وسائر ما تتميز به، ويعرف أنها صورة حيوان، ويعم ذلك المجسم وغيره، ولهذا قال النووي رحمه الله في شرح مسلم: قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم، وهو من الكبائر، لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث، وسواء صنعه بما يمتهن أو بغيره، فصنعته حرام بكل حال، لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالىٰ، وسواء ما كان في ثوب، أو بساط، أو درهم، أو دينار، أو فلس، أو إناء، أو حائط أو غيرها.

وأما تصوير صورة الشجر ورحال الإبل وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام، هذا حكم نفس التصوير.

وأما اتخاذ المصور فيه صورة حيوان، فإن كان معلقاً على حائط أو ثوباً ملبوساً أو عمامة أو نحو ذلك مما لا يعد ممتهناً فهو حرام، وإن كان في بساط يداس، ومخدة ووسادة ونحوها مما يمتهن، فليس بحرام، . . . ولا فرق في هذا كله بين ما له ظل وما لا ظل له. انتهىٰ.

وقد كثر كلام مشايخنا في هذه الأزمنة في التصوير الفوتوغرافي، والتصوير بالكاميرا، ونحو ذلك مما تجدد وانتشر وتمكن، وعمت به البلوىٰ، وعد من الضروريات، فمنعه المشايخ المتقدمون، ورخص فيه الكثير من المعاصرين.

وهكذا التصوير المتحرك، والذي يعرض في أفلام الفيديو ونحوه، وإن كان الأمر يعود إلىٰ آثاره ومصالحه ومفاسده، فالأولىٰ أن يعطىٰ حكم ما يؤل إليه، فيرخص في المفيد لما فيه من المنفعة المقصودة، وكذا المباح الذي لا مضرة فيه، ويمنع ما فيه مضرة أو مفسدة راجحة، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٦١]

باب:
ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»، أخرجاه.

وعن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشترى إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»، رواه الطبراني بسند صحيح.

وفي الصحيح، عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم -قال عمران: فلا أدري، أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً-، ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن».

وفيه، عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار.

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في كثرة الحلف

هذا الباب عقده المصنف رحمه الله للنهي عن كثرة الحلف، وقد تقدم لنا في الأبواب السابقة النهي عن الحلف بغير الله، وأن الحلف بغير الله شرك، لقوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[(١)].

أما هذا الباب فهو معقود للنهي عن كثرة الحلف بالله.

ومعلوم أن الحلف بالشيء تعظيم له، ولهذا السبب جاء النهي عن الحلف بغير الله؛ لأنه تعظيم للمحلوف به، كما كان المشركون يقولون: واللات والعزى، وكما يقول أهل زماننا: والنبي، والكعبة، ونحو ذلك، فإن هذا كله تعظيم لهذه المخلوقات، وتعظيمها لهذا الحد يعتبر شركاً، فالذي يحلف بالله هو معظم لله، ولكن يخشى عليه مع كثرة الحلف أن يفجر ويكذب؛ لأن الذي يحلف بالله يؤكد بيمينه صدقه فإذا كذب فكأنه لم يحترم أسماء الله حيث استعملها كاذباً، ولم يكن لربه قدر في قلبه.

ولاشك أن عدم احترام أسماء الله يؤدي إلى نقص العقيدة ونقص التوحيد، وهذا هو السبب في إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد.

■ **قوله**: [**وقول الله تعالى**: ﴿**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾ [المائدة: ٨٩]]:

هذه الآية صريحة واضحة في النهي عن كثرة الحلف بالله، وهناك آية أخرى أصرح منها، وهي قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٤].

---

(١) سبق تخريجه، ص:

واليمين هي: الحلف بالله تعالى، أو باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته، كعزة الله، وكلام الله تعالى.

والمعنى: تحفَّظُوا في الأيمان، ولا تجعلوا الحلف بالله ديدنكم ودأبكم، ولا تكثروا من الحلف الذي يعرض الحالف للحنث، وعدم الوفاء باليمين، أو للاستهانة بالأيمان، والجرأة على الحلف مما يهون أمرها في القلوب فيستخف بأسماء الله، وتذهب هيبتها في القلب، فلا يبالي أن يبذل اليمين على الأمور التافهة من غير احترام لربه، وذلك مما ينقص التوحيد.

وقد يكون المعنى: احفظوا أيمانكم عن الحنث، أو عن ترك الكفارة التي ذكر نوعها في هذه الآية.

■ **قوله: [عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»**[1]**، أخرجاه]:**

في هذا الحديث النهي عن الحلف عند البيع، حيث أخبر أن ذلك قد يسبب نفاق السلع ورواجها، حيث أن الغالب من الناس أنهم يصدقون ذلك الحالف، ويعتقدون صحة ما قال، عملاً بقول النبي ﷺ: «**من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله**»[2]، رواه ابن ماجه، قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٠٨٧). ومسلم برقم (١٦٠٦). ولكن رواية البخاري: «ممحقة للبركة»، ورواية مسلم: (ممحقة للربح)، أما اللفظ الذي ذكره المصنف فهو عند النسائي وأحمد.

(٢) أخرجه ابن ماجة برقم (٢١٠١)، وأورده المنذري في الترغيب (٣/ ٦٠٦)، عن ابن عمر رضي الله عنهما. قال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٥٤٤): سنده حسن، وقال محقق سنن ابن ماجه محمد فؤاد عبدالباقي: في الزوائد: رجال إسناده ثقات. وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة رقم (١٧٠٨).

فأخبر ﷺ أن الحلف الكثير قد يحصل به رواج السلع، وكثرة البيع بربح، واشتهارها، حيث يحصل منه المدح والإطراء لها، والمبالغة في وصفها، مع التأكيد بالحلف على الثمن بأنها تساوي كذا وكذا، أو أنها مشتراة بكذا، أو الحلف بأنها من انتاج كذا، ونحو ذلك مما يحمل عليه الطمع في زيادة الربح، فيصدق العامة، ويقبلون على الشراء منه، ولكن عاقبته نزع البركة في كسبه، ونهايته الخسران المبين غالباً، فقد يحصل عليه تلف للمال، بحرق أو غرق أو ضياع، وقد يسلط الله عليه من يأخذ ماله بنهب أو غصب أو اختلاس أو خيانة أو سرقة، وقد تفسد بضائعه وتكسد، وينتشر بين الناس كذبه وتزويره وفجوره، فيبوء بالفشل والحرمان.

ولا شك أن نزع البركة من المال يسبب الخسران المبين، وأن المعاصي ومنها الكذب والفجور سبب لغضب الله تعالى، ثم عقوبته بإتلاف المال ظاهراً أو باطناً.

وقد شوهد الكثير يكثرون الحلف وأكثره كذب، أو بتأويل بعيد، ثم تنزع البركة من أرزاقهم، حيث يملكون الأموال الطائلة، ولكن قلوبهم فقيرة، فإن الغنى غنى القلب، وكثيراً ما يتسلطون على الأموال فيسرفون فيها، ويصرفونها في الباطل، وذلك من محق الكسب.

■ **قوله: [وعن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشترى إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»(١)، رواه الطبراني بسند صحيح]:**

هذا من أحاديث الوعيد التي تجرى على ظاهرها ليكون أبلغ في الزجر، وفيه عظم هذه الذنوب، والتحذير منها، حيث رتب عليها هذا الوعيد الشديد.

فأولاً: نفي كلام الله لهم، فهو يحجبهم ويبعدهم عنه، ويخزيهم بهذا الإبعاد، وعدم التكليم، وفي هذا دليل على أنه يكلم عباده الصالحين، وأن كلامه لهم نعيم ولذة لهم يجدون فيه السرور والحبور، وأن ترك تكليم العصاة عذاب عليهم وضرر.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى يكلم المؤمنين فقال: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»(٢)، متفق عليه. وقد أثبت الله تعالى لنفسه صفة الكلام، فأخبر بأنه كلم موسى تكليماً، وأخبر بأن من كلامه القرآن والكتب المنزلة، وأنه يكلم المؤمنين في الجنة، ويكلم الكفار بقوله لهم: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وذلك كلام سخط لا كلام رضى.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٦١١١)، والصغير برقم (٨٢١). والأوسط كما في الترغيب والترهيب (٢/ ٥٨٧).
قال المنذري: ورواته محتج بهم في الصحيح، وكذا قال الهيثمي (٤/ ٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٦٧).
وله شاهد عند مسلم برقم (١٠٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وشاهد آخر عند النسائي برقم (٢٥٧٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٩)، ومسلم برقم (١٠١٦)-(٦٧)، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

ثم من عقيدة أهل السنة والجماعة وصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، ومن ذلك إثبات صفات الكلام، فإنه من صفات الكمال، ونفيه نقص ينزه الرب عنه، فهو سبحانه متكلم ويتكلم إذا شاء، وليس كلامه مخلوقاً كما يقوله المعتزلة، وليس كلامه هو المعنى الذي يقوم بذاته كما تقوله الأشاعرة، بل كلامه يسمعه الملك، وتسمعه السموات، وترجف له، ويكلم من شاء من رسله بما يشاء، ويبعد من يشاء ويحرمهم التلذذ بسماع كلامه تعذيباً لهم، وكلامه يليق به كسائر صفاته.

وثانياً: أخبر **بأنه لا يزكيهم**، أي: لا يطهرهم من الذنوب، ولا يغفرها لهم، مع إصرارهم على هذه الذنوب التي هي من أكبر الكبائر، وقد يراد بالتزكية المدح والثناء عليهم، كما قال تعالى: ﴿**بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٩]، أي: يرفع ذكرهم، ويعلي مكانتهم.

وثالثاً: **العذاب الأليم**: والأصل أنه عذاب النار، وهو أشد العذاب، وقد يعم عذاب الدنيا، وعذاب البرزخ، وعذاب الموقف وما بعده.

وقوله: «**أشيمط زان**»: أي: شيخ كبير السن، كما ورد في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»(١)، رواه مسلم.

والأشيمط ذكر مصغراً تحقيراً له وإهانة، وهو الذي شمطه الشيب، أي: اختلط بياضه بسواده، ويطلق على الأشيب الذي أبيض جميع شعره، وإنما خص الأشيب لأنه إذا زنى وقد ضعفت دواعي الشهوة معه دل ذلك على خبث طويته،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٧).

فإن كبير السن يضعف ميله إلىٰ النساء غالباً، وتقل شهوته، ويستطيع أن يملك نفسه، بخلاف الشباب فإن الدواعي معه قوية، قد لا يستطيع التغلب عليها إلا بإعانة الله تعالىٰ، فمتىٰ حصل الزنا من الكبير كان مستغرباً، فيكون ذنبه أكبر، وإن كان الزنا محرماً من الكبير والصغير.

وقوله: «**وعائل مستكبر**»، العائل هو: الفقير قليل ذات اليد، وإذا تكبر علىٰ الله وعلىٰ العباد كان ذنبه أكبر من الغني إذا حصل منه الكبر، فإن المال والثروة، والجاه والشهرة من دواعي التكبر، بخلاف الفقر والضعف، فمتىٰ تكبر الفقير كان ذنبه أكبر، مع أن الكبر حرام مطلقاً من الغني والفقير، وفيه وعيد شديد، كقوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[١].

وقوله: «**ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**»: فهو كثير الحلف، بحيث يتساهل بكثرة الأيمان، فيحلف عند كل بيع، وعند كل شراء، والغالب أنه يقع منه كذب أو تأويل، أو مبالغة، فيكون قد حنث في هذه اليمين.

ولا شك أن كثرة الحلف دليل علىٰ الاستخفاف بأسماء الله، وعدم الاكتراث بحرمتها، حيث يبذل الحلف علىٰ أمور تافهة، لا أهمية لها، وذلك احتقاراً لأسماء الله وصفاته، فيكون منقصاً للتوحيد، أو منافياً لكماله، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٩)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

■ **قوله: [وفي الصحيح، عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري، أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً -، ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»[1].**

وفيه، عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار[2]]:

هذان الحديثان - حديث عمران بن حصين، وابن مسعود - يتعلقان بكثرة الحلف من جهة أن الشهادة والنذر لهما تعلق بالحلف وبالعهد.

قوله ﷺ: «خير أمتي قرني»، وفي رواية: «خير الناس قرني»، وفي رواية: «**القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، يدل على أن قرن الصحابة أفضل القرون، ثم بعده قرن التابعين، فهو دونه في الفضل، ولكنه خير من القرن الثالث، وهو قرن تابع التابعين، والقرن الثالث شريك أيضاً في الخيرية، ولكنه دون القرنين اللذين قبله، أما ما بعد القرون الثلاثة فإنه قد كثر الاختلاف، وكثرت البدع.

وهذا واقع ومحسوس، فإن قرن الصحابة لم يقع فيه شيء من البدع يكون لها انتشار، وإن كان قد وقع فيه بدع ولكنها لم تتمكن.

فأول بدعة وقعت فيه بدعة الغلاة الذين غلوا في علي رضي الله عنه وادعوا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥)، بلفظ: «خيركم»، وأخرجه مسلم برقم (٢٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨)، ومسلم برقم (٢٥٣٣)-(٢١٠، ٢١١).

فيه الألوهية، وأرادوا بذلك إفساد الدين على المسلمين، ولكنه أحرقهم.

ووقع بعد ذلك أو قبله بدعة الخوارج الذين كفروا علياً، واعتقدوا أنه ارتد، واستحلوا قتله، وقاتلوه وقاتلهم، وقتل منهم خلقاً، ولكن هؤلاء الخوارج قلة وذلة، ولم يتمكنوا، وإن كان حصل منهم إفساد ومفاسد.

ثم حصلت أيضاً بدعة أخرى، وهي بدعة إنكار القدر، ولكن خروجها في القرن الأول إنما هو في أفراد ولم تتمكن، ثم هؤلاء الأفراد لم ينكروا إلا نوعاً منه فقط.

فالحاصل أنه قد وجد مبادئ بدع في القرن الأول إلا أنها لم تتمكن.

أما القرن الثاني، فقد وجدت فيه بعض البدع كالقدرية التي تمكنت، ثم ظهرت أيضاً بدعة الجهمية والمعتزلة بإنكار الصفات، ولكن مع ذلك وجد من يقاومها ويرد عليها، فكان هناك علماء وعباد وحملة علم وقادة وسادة يقومون بهذا الدور، ثم انقضى ذلك القرن قبل أن تتمكن هذه البدع.

أما في القرن الثالث فقد تمكنت فيه تمكناً قوياً، بحيث اعتقد كثيراً منها بعض الخلفاء، وامتحن كثيراً من العلماء على ذلك، ولكن وجد من جابهها وردها وصمد لها، وبعد ذلك قويت السنة وانتشرت.

أما بعد القرون الثلاثة، فإن بدعة الجهمية والمعتزلة سادت وتمكنت، وقلّ من يخالفها، وصارت من السنة، بحيث إن الأغلب لا يعرفون سواها، وكان فيهم علماء محدثون وأئمة، ولكنهم انخدعوا بتلك الشبهات التي يدلي بها أولئك المعتزلة وورثتهم.

فالحاصل أن هذا إخبار من النبي ﷺ، وهو مطابق للواقع.

بعد ذلك أخبر الرسول ﷺ بحال مَنْ بَعْدِ القرون الثلاثة، فوصفهم بهذه الصفات:

الصفة الأولى: «يشهدون ولا يستشهدون»:

أي: يتساهلون بالشهادة؛ فليس للشهادة في قلوبهم قدر، ولا شك أن الشهادة إنما تكون على اليقين؛ لقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿**وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا**﴾ [يوسف: ٨١].

وأخبر الله بأن أهل الشهادة إنما يكونون من العدول، قال تعالى: ﴿**وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ**﴾ [الطلاق: ٢]، فلا بد من العدالة، فهؤلاء إما أنهم يأتون ويقولون: نحن نشهد لك يا فلان، ولم يطلبوا، وإما أنهم يشهدون وهم لم يحضروا ما شهدوا به، والناس يعرفون أنهم غير ثقات؛ فلا تقبل شهادتهم لظهور الطعن فيهم، ولظهور ما يقدح في شهادتهم.

فيدل هذا على أن الاستخفاف بأمر الشهادة من قلة الديانة، وقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لرجل: «**أترى الشمس؟**» قال: نعم، قال: «**على مثلها فاشهد أو دع**»[(١)]، أي: لا تشهد إلا بعدما تتحقق الأمر كتحققك أن هذه هي الشمس.

فالذي يشهد حمية أو محاباة، أو يشهد لأجل مصلحة دنيوية أو أجرة أو نحو ذلك هو على خطر كبير، وذلك لأن الشهادة يترتب عليها انتزاع حق من إنسان وإعطاؤه لآخر؛ فيكون الشاهد هو المتسبب لأخذ شيء لمن لا يستحقه،

---

(١) **قال الشيخ ابن جبرين**: رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٨)، والبيهقي (١٠/ ١٥٦)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٧٠)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٢١٣)، بمعناه، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨)، بلفظه، وصححه الحاكم وخالفه الذهبي، وضعفه العقيلي وغيره.

وهو المتسبب كذلك في ظلم المظلوم وأخذ شيء منه بغير استحقاق.

ولا شك أن شهادة الزور من أعظم الذنوب، قال الله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي: لا يشهدون زوراً، وثبت أنه عليه الصلاة والسلام عدها من الكبائر لما قال: **«ألا أخبركم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** وكان متكئاً ـ أي: على حائط ونحوه ـ فجلس، ثم قال: **ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور»**، فما زال يرددها حتى قالوا: ليته سكت[1]، فيدل ذلك على عظم ذنب شهادة الزور، وقد روي أن النبي ﷺ قال في شاهد الزور: **«أنه لا تزول قدما شاهد الزور حتى يعرض على النار»**[2]، والعياذ بالله.

الصفة الثانية: «يخونون ولا يؤتمنون»:

الخيانة من صفة المنافقين، فقد وصف النبي ﷺ المنافق بقوله: **«وإذا اؤتمن خان»**[3]، أي: تأمنه على مال فيخونك، وتأمنه على سر فيفشي سرك، فإذا عرفهم الناس أنهم لا يوفون تجنبوهم ولم يأتمنوهم على مال ولا على دين ولا على أسرار ولا على أمر من الأمور، لأن الخيانة ضد الأمانة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥٤)، عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٣٧٣)، وأورده المنذري في الترغيب (٣/ ٢٢٢) برقم (٣٤١٣).
ولفظ ابن ماجة: **«لن تزول قدما شاهد الزور حتى يوجب النار»**.
قال محقق سنن ابن ماجة محمد فؤاد عبدالباقي: في الزوائد: في إسناده محمد بن الفرات، متفق على ضعفه. وكذبه الإمام أحمد، وقال المنذري في الترغيب: رواه ابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ورواه الطبراني في الأوسط. وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٠٠): فيه من لا أعرفه.
قال الشيخ ابن جبرين: رواه ابن ماجة وفيه ضعف. وقد أورده الشيخ بصيغة التمريض.

(٣) سبق تخريجه.

الصفة الثالثة: «وينذرون ولا يوفون»:

النذر هو: الحلف على أمر من الأمور، سواء لله أو لغير الله، فمنه نذر الطاعة كأن يقول: لله علي أن أتصدق بكذا، ولا يوفي.

وقد يكون مثلاً مصراً على ذنب، فينذر أن يتركه ولا يوفي بنذره، كأن يكون مصراً على شرب الدخان، فيقول: لله علي أن أترك الدخان، ثم لا يتركه، أو مصراً على شرب الخمر، أو مصراً على حلق اللحية، أو إطالة الشارب، أو نحو ذلك، فيقول: لله علي أو أعاهد الله ألا أعود إلى هذا الذنب، ثم يعود، فهذا نذر ولم يوف؛ فيكون داخلاً في هؤلاء الذين ينذرون ولا يوفون.

الصفة الرابعة: «أنه يظهر فيهم السمن»:

فالمراد أنهم يكون همهم شهواتهم وبطونهم ومآكلهم، فيكثر أحدهم من إعطاء نفسه متطلباتها من المشتهيات التي يريدها، فما يتمنى شيئاً إلا ويتحصل عليه، فيأكل من المآكل الشهية ومن المشروبات ونحوها حتى تعظم جثته، وينتفخ بطنه، ويركبه اللحم والشحم، ويظهر فيه السمن، فيكون سميناً، أي: كبير الجثة كبير البطن كثير الشحم، وليس ذلك بخصلة محبوبة، بل المؤمنون وأهل الخير هم الذين لا ينعمون أنفسهم، ولا يتبعون شهوات أنفسهم.

هذه هي خصال هؤلاء، والشاهد منها أنهم يكثرون النذر والحلف ولا يوفون إذا حلفوا أو نذروا، وأنهم يتسرعون بأمر الشهادة.

* وقوله في حديث ابن مسعود: «**تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**»:

أي: أنه يتسرع في الشهادة، فيشهد قبل أن يستشهد، ويتسرع في الحلف، فيحلف قبل أن يستحلف، وإذا حضر حلف وشهد، يكاد أن يحلف قبل أن

يشهد، ويحلف على الشهادة، ويشهد على الحلف، وذلك من الاستخفاف باليمين، ومن قلة الاحترام للشهادة، ففي هذا ونحوه دليل على خفة ديانتهم حيث تهاونوا بأمر الشهادة؛ فشهدوا قبل أن يستشهدوا.

* أما قول إبراهيم النخعي: **«كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»**:

فالمراد بالعهد: الميثاق، وهو المعاهدة على الشيء، فمن عاهد على أمر من الأمور فإنه بمنزلة الميثاق ويؤمر بأن يفي به، قال تعالى: **﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾** [الإسراء: ٣٤]، وكذلك المعاقدات، قال تعالى: **﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾** [المائدة: ١]، وقد أمر الله تعالى بأن يوفي الإنسان بما عاهد، قال تعالى: **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾** [النحل: ٩١].

فقد أخبر إبراهيم النخعي أن أهل زمانه كانوا يؤدبون الصبيان على الشهادة، ويقولون لهم: لا تشهدوا إلا عن يقين، ولا تعاهدوا إلا عن يقين بالوفاء، وهؤلاء هم الصحابة، فقد كان مشايخ ابن مسعود وعلي ومن في زمنهما ممن أدركهم إبرهيم النخعي يضربون تلاميذهم على الشهادة والعهد وهم صغار، ضرب تأديب وتعليم، حتى يتثبتوا في الشهادة فيشهدون بعد تحقق، ويعاهدون ويوفون.

فعرفنا بذلك أن آثار كثرة الحلف وكثرة النذر وكثرة المعاهدة، ونحو ذلك توقع الإنسان في الإثم والحنث من حيث لا يشعر، وتوقعه في الاستخفاف بالأيمان والاستخفاف بأسماء الله تعالى وقلة احترامها، ومتى قل احترام المسلم لأسماء الله ولصفاته قلت ديانته وخفت أمانته.

■ ■ ■ ■ ■

[٦٢]

باب:
ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله

وقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١]:

وعن بريدة، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. فقال: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا، ولا تَغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم: أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم: أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فاسألهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري: أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟»، رواه مسلم.

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين . .

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.

الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله».

الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله

هذا الباب في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ.

والذمة هي: العهد، ولأجل ذلك استدل بهذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

والعهد هو أن يقول: لك عهد الله أو أعاهدك بالله أو أعاهد الله لك أن لا أفعل معك كذا.

والعهد إذا استهان به العبد فإنه يعتبر محتقراً لذمة الله وعهده وميثاقه، ومتهاوناً بأمره. ولاشك أن التهاون بذلك سبب في احتقار عقوبة الله وعظمته، وذلك منقص للتوحيد ومخل بالعقيدة، فلأجل ذلك أدخل هذا الباب في جملة أبواب التوحيد.

وقد اختلف العلماء في جواز الحلف بالنبي ﷺ، والصحيح أنه لا يجوز؛ لقوله ﷺ: **«لا تحلفوا بآبائكم، ولا بالأصنام، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون»**(١)، وكذلك ثبت عنه أنه قال: **«من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**(٢).

فإذن لا يجوز الحلف بالنبي ﷺ، لا باسمه العلم كأن يقول: حلفت بمحمد

---

(١) سبق تخريجه بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٧-٢/ ٦٩، ٨٧، ١٢٥)، وأبو داود برقم (٣٢٥١)، والترمذي برقم (١٥٣٥).

قال الترمذي: حسن، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣٢٩): إسناده صحيح، وصححه الألباني في الإرواء رقم (٢٥٦١).

أو أحلف بمحمد، ولا بصفته، ولا يجوز أن يعطف على اسم الله، فلا يقول: حلفت بالله وبالنبي، أو حلفت بالله وبمحمد؛ لأن العطف يقتضي المساواة، وهكذا أيضاً لا يعطف بـ (ثم)، فلا يقول: حلفت بالله ثم بمحمد؛ لأنه يكون حلفاً بمحمد أو بالنبي، وذلك حلف بغير الله.

وقوله: [باب: ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله]:

أخذاً من الحديث الذي سيأتي في هذا الباب، والذمة المراد بها: العهد، والنبي ﷺ له عهد، كما أنك أنت لك عهد، أي: لك ذمة.

فالذمة هنا هي: العهد، والنبي ﷺ كغيره من المخلوقين له ذمة، وللإنسان - أي إنسان - ذمة؛ فإذن ليس المراد هنا بالذمة الحلف ولا اليمين، ولكن المراد بها عهد الأنسان، فذمة الله تعالى بمعنى: عهده، وذمة النبي ﷺ بمعنى: عهده، فلا يكون ذلك مقتضياً للمساواة بين الذمتين.

وقد كان النبي ﷺ يعاهد، فقد ثبت أنه عاهد المشركين في الحديبية، وأعطاهم ذمته وذمة أصحابه، وهكذا أيضاً المعاهدات التي بينه وبين سائر القبائل أو الدول أو الأمم الأخرى تدل على أنه أعطاهم ذمته وعاهدهم عهده.

أما نحن فليس لنا أن نجعل لأحد ذمة النبي ﷺ حتى لا نخفرها، أي: لا ننقض العهد الذي فيه ذمة النبي ﷺ، كما أنك لا يجوز لك أيضاً أن تجعل ذمة غيرك، بل اجعل لمن تعاهده ذمتك، ولا تتجرأ على غائب فتجعل ذمته، فلا تقول: لك عهد أبي أو لك عهد أميري وذمته وميثاقه أو رئيسي، فلا تعاهد إلا بنفسك، فتقول: لك عهدي أو ميثاقي، فلا تتجرأ أن تعاهد بعهد أحد غيرك إلا إذا فوضت وأعطاك تفويضاً صريحاً، أو أنابك مثلاً رئيسك أو أميرك أو مسئول عنك أو أنت وكيل عنه، فلك حينئذ أن تعاهد عنه وتجعل الذمة ذمته.

وبكل حال فإن الإنسان متىٰ عاهد بنفسه عن ذمته عهده وميثاقه فإن عليه الوفاء بما يستطيعه، وكذلك إذا عاهد بالوكالة عن غيره فإن عليه أن يفي، وإن علىٰ الموكِّل الذي بُذلت ذمته وعهده أن يفي ولا يخون؛ لأن العهد مسئول، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، ولهذه الآية الصريحة: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

فعليك الوفاء بالعهد الذي بينك وبين من تعاهده؛ لأنه قد وثق بك واطمأن إلىٰ معاهدتك، فلا يجوز للإنسان بعد بذل العهد أن يخون أو يخفر ذمته ويأتي بما ينقض به شريعة الله تعالىٰ ويخالف ما أمر به.

إذن الأصل في المعاهدات إما أن تكون بين الله وبين العبد علىٰ فعل الطاعة وترك المعصية، فهذه هي المؤكدة، وإما أن تكون بين اثنين أو بين قبيلتين علىٰ الوفاء وعدم الخيانة وعدم الاعتداء من أحد علىٰ أحد، فهذه أيضاً يجب الوفاء بها وعدم الخيانة وعدم نقضها؛ وذلك لما فيها من بذل الذمة.

والأصل في الذمة أنها ضمير الإنسان وعقيدته وقلبه، وذلك لأنه إذا التزم بذلك فقد وعد وعداً، ووعد الحر دين عليه، فهو عندما عاهد كأن بينه وبين صاحبه مرابطة وموافقة علىٰ فعل هذا الشيء، فنقضه لذلك يعتبر خيانة، ويتجرأ الإنسان علىٰ أن يفعل المعاصي التي بينه وبين الله، كما فعلها بينه وبين الإنسان.

فعلىٰ المسلم الوفاء بالوعد وبالذمة وبالمعاهدات حتىٰ مع الكفرة ومع الفسقة ومع الخارجين عن الإسلام، وذلك لأن الوفاء صفة مدح جاء بها الإسلام، والعقل أقرها، والكفرة يتمدحون بهذا الوفاء في الإنجازات وفي المواعيد وفي الأمانات وفي الحقوق وما أشبه ذلك، فلما أقرها الشرع واستحسنها العقل دل علىٰ أن خلافها من منقصات الإسلام، ومما ينافي كمال التوحيد.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]]:

العهد هو: الميثاق، بأن يعطي الإنسان عهداً، أي: إلزاماً، كأن يقول: أعاهد الله على ألا أعود إلى كذا، أعاهد الله على ألا أترك صلاة، أو ألا أشرب خمراً أو دخاناً، أو على ألا أزني أو أفجر أو أكذب، أو ما أشبه ذلك، فهذه معاهدة ومواثقة بين العبد وبين ربه، ولابد من سؤاله إذا لم يف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، أي: كان ولا بد أن يسأل عنه.

والمعاهدة إما أن تكون بين الله وبين العبد، كأن يعاهده ألا يعصيه، أو أن يطيعه ونحو ذلك، وقد تكون المعاهدة بين اثنين، كأن يقول: لك عهد الله علي، أو أعاهدك بالله ألا أخونك، أو ألا أخلف وعدك، أو ألا أجور عليك في أمر، أو لا أحيف مع غيرك عليك، أو أعاهدك بالله أو لك عهد الله أن أنصح لك أو أطيعك أو ما أشبه ذلك، فهذا عهد الله بين اثنين، وهو آكد من اليمين، وذلك لأن الله تعالى عطفه على اليمين، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾، بدأ به، ثم قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، والأيمان أن يقول: أحلف لك بالله، أو حلفت بالله ألا أفعل كذا.

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى عباده أن يوفوا بالعهود والمواثيق، ويعم ذلك المعاهد لله تعالى، والمعاهدة بأسمائه، وقد دل على الوفاء بها كثير من الأدلة، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وهو عام في كل معاهدة بين اثنين، وكذا معاهدة العبد لربه، كقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والعهد هو الذمة، فمن عاهد بالله لزمه الوفاء احتراماً لأسماء الله وتعظيماً لله، ويعم ذلك من عاهد قوماً بقوله: لكم عهد الله وميثاقه

أن لا أفعل كذا وكذا، ويعم من قال: لكم ذمة الله أن لا أعتدي عليكم، فيلزم الوفاء بذمة الله، وعدم الغدر والكذب الذي هو من صفات المنافقين، فالمنافق إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وقد ورد في الحديث عن ابن عمر مرفوعاً: «**يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان**»(١)، متفق عليه.

ولا شك أن كل عبد قد عاهد ربه أن لا يشرك به، ولا يعصيه، ولا يرتكب إثماً أو يفعل ذنباً، فعليه الوفاء بهذا العهد، وهكذا لا يعتدي على من لهم عهد وذمة من المسلمين وغيرهم، فقد ورد في الحديث قوله ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم**»(٢)، رواه مسلم.

وروى البخاري عن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة**»(٣)، والمعاهد: هو من له عهد وأمان من المشركين وأهل الكتاب، بحيث يأمن في بلاد الإسلام على نفسه وماله بسبب العهد الذي عقده له الإمام العام أو نائبه.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾، أي: لا تحنثوا وتخالفوا ما حلفتم عليه من الأيمان المؤكدة التي تلتزمون فيها فعلاً أو تركاً، وذلك عندما

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٨٦، ٣١٨٧)، عن عبدالله بن عمر وعن أنس رضي عنهم، ومسلم برقم (١٧٣٥)، عن أنس رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٣١٨٨)، ومسلم برقم(١٧٣٥)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم برقم (١٧٣٦)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم برقم (١٧٣٧)، عن أنس رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (١٧٣٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٦٥٦)-(٢٦٢)، عن جندب بن جنادة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣١٦٦)، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

يحلفون أيماناً مغلظة على الوفاء بالبيعة أو أداء الحق، أو البعد عن الغدر والخيانة، فتلك الأيمان ونحوها يجب الوفاء بها، ويحرم نقضها والخلف في ما احتوت عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾، وذلك أن الحلف بأسماء الله تعالى أو بصفاته يستلزم مراقبته وتوكيله، وهو كفيل على العباد، وعلى هذا يجب مراقبته، وعدم الاستهانة بأسمائه وصفاته، متى جعل ربه عليه كفيلاً ورقيباً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، من الوفاء أو الغدر، ونقض الأيمان، والله أعلم.

■ **قوله: [وعن بريدة، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. فقال: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا، ولا تَغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم: أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم: أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا، فاسألهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله**

فـلا تنزلـهم، ولكـن أنزلهم علىٰ حكمك، فـإنك لا تدري: أتصـيب فيـهم حكـم الله أم لا؟»(١)، رواه مسلم]:

هذا الحديث حديث جامع كامل لما يوصىٰ به أمير الجيش وأمير الغزو، وفيه أن النبي ﷺ كان يؤمِّر علىٰ كل سرية أميراً، ويأمرهم أن يطيعوه، ويأمره أن يعدل فيـهم، وأن يرفق بهم، وألا يشق عليـهم، ولا يكلفـهم، ويلتـمس راحتـهم ورفقهم.

*** وفي هذا الحـديث كـان ﷺ يوصي أمير الجيش أو السرية بجملة وصـايا، ومن ذلك:**

الوصية الأولى: تقوى الله في خاصته:

لأن من اتقىٰ الله راقبه، وأن تقوىٰ الله سبب لطاعته، وطاعته سبب للعمل بكل ما أمر به، فتقوىٰ الله شاملة عامة لكل ما فيه مصلحة وما فيه عبادة.

الوصية الثانية: أن يعمل بمن معه من المسلمين ـ أي جيشه ـ خيراً:

فيقـول مثلاً: ارفق بهم، ولا تكلفـهم ما لا يطيـقون، ولا تـشق عليـهم في السيـر ولا تلق بهم في عـدو يفـوقهـم عـدداً وعـدة فـيـؤول ذلك إلىٰ ضعـفـهم، والتمس راحتهم وما فيه مصلحة عامة وليس فيه ضرر.

الوصية الثالثة: أن يغزو باسم الله:

فهو يبين لهم أن مسيرهم هذا غزو، والغزو هو السفر لأجل الجهاد في سبيل الله، وقتال المشركين، قال تعالىٰ: ﴿**وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى**﴾ [آل عمران: ١٥٦]، ولأجل ذلك تسمىٰ الوقائع التي وقعت للنبي ﷺ غزوات

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٣١).

ومغازي.

وقوله: «**اغزوا باسم الله**»، أي: مستعنين باسم الله، متقوين باسم الله، وكلمة باسم الله تأتي للاستعانة، أي: استعينوا باسمه، والاسم هنا للجنس، سواء الله أو غيره من أسمائه، كأنه يقول لهم: أكثروا من الاستعانة باسم الله، وقولوا: اللهم أعنا، اللهم إنا نستعين بك، باسمك نستعين، وبأسمائك الحسنىٰ نتقوىٰ ونستنصر علىٰ الأعداء.

الوصية الرابعة: أن يغزوا بهم في سبيل الله:

لأن هذا الغزو ليس في سبيل النفس، وليس في سبيل الهوىٰ، وليس في سبيل الدنيا، وسبيل الله هو الطريق الموصل إلىٰ رضاه، فالسبيل في الأصل الطريق الذي يسير فيه الناس، قال تعالىٰ: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ**﴾ [المائدة: ١٦]، وقال: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي: طريقتي، وكل هذه سبل معنوية، فسبيل الله الطريق التي توصل إلىٰ رضاه، وهي تقطع بالأعمال، وليست تقطع بالسير علىٰ الرواحل ونحوها، إنما الناس يسيرون عليها بأعمالهم وبأقوالهم.

فإذا قال الإنسان: أنفقت هذه النفقة في سبيل الله، فالمراد حتىٰ أصل إلىٰ رضا الله، وكذا من يقول: صليت في سبيل الله، أو تكلمت بهذه الكلمة في سبيل الله، أو غزوت في سبيل الله، أو قرأت في سبيل الله، أو صمت في سبيل الله، أو نصحت أو دعوت إلىٰ سبيل الله، فكل شيء يوصل إلىٰ رضاه فهو في سبيله.

لكن اشتهر أن سبيل الله هي الغزو، قال ﷺ: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»(١)، والمراد غزو الكفار وقتالهم؛ لأن الذي يفعل ذلك يبذل نفسه وهي أغلىٰ ما يملك في سبيل الله، أي: فيما يقرب إليه، ويبذل ماله ويبذل وسعه ويبذل قصارىٰ جهده، فأطلق عليه سبيل الله.

الوصية الخامسة: أن يقاتلوا من كفر بالله:

المراد أن قتالكم ليس قتالاً في سبيل الشيطان؛ لأنكم تقاتلون الكفار، فهؤلاء الذين كفروا بالله تعالىٰ هم الذين يحاربون؛ لأنهم أعداء الله وأنتم أولياؤه، فكما أنهم أعداء الله فهم أعداء لمن والىٰ الله، فإذن هم أعداؤكم كما هم أعداء الله، فقاتلوهم لأنهم كفروا بالله، حتىٰ ولو لم يظهروا لكم العداوة، حتىٰ ولو لم يقاتلوكم.

وهذا دليل علىٰ القتال لأجل الكفر، لا لأجل الدفاع، وقد اشتهر في زماننا هذا أناس من الذين يدعون العلم، ويقولون: (إن الكفار لا يُقَاتَلُونَ إلا دفاعًا، وإذا تركونا تركناهم، وإذا سالموا سالمنا، وإذا لم يبدأوا بالقتال لم نبدأ، ونحن إنما نقاتلهم دفاعاً عن الأنفس)، ولكن هذا يخالف هذا النص الصريح، قال الله تعالىٰ: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ**﴾ [التوبة: ١٢٣]، فهذا نص صريح بأنهم يقاتلون لكفرهم، والنبي ﷺ في هذا الحديث يقول: «**قاتلوا من كفر بالله**»، ولم يقل قاتلوا من قاتلكم، أو قاتلوا دفاعاً عن أنفسكم، أو قاتلوا دفاعاً عن بلادكم، أو من اعتدىٰ عليكم، بل قال: «**قاتلوا من كفر بالله**».

* **بعد ذلك أوصاهم ﷺ بوصايا أخرى تدل على أن المقاتلين عليهم العدل حتى مع**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٩٢)، وأخرجه مسلم برقم (١٨٨٠)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الأعداء، ومن ذلك:

أولاً: قوله ﷺ: «اغزوا»:

تأكيداً لما سبق.

ثانياً: قوله ﷺ: «ولا تغلوا»:

الغلول هو: إخفاء شيء من الغنيمة قبل قسمتها، فإذا غنم المقاتلون غنيمة فإنها مشتركة بينهم، فيخرج خمسها لله ولرسوله ﷺ وَمَنْ ذَكَرَ الله، والبقية تقسم بين الغانمين؛ للراجل سهم، وللفارس سهمان أو ثلاثة كما ذكروا ذلك في الجهاد.

ثالثاً: قوله ﷺ: «ولا تغدروا»:

الغدر هو: الخلف في الميثاق، أو نقض الميثاق، أو نقض المعاهدة، أي: من كان بينك وبينهم معاهدة فإياك أن تنقض العهد، فذلك الغدر، والغدر حرام؛ قال النبي ﷺ: «**يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان بن فلان**»[(١)].

والغدر معناه: أنك قد تصطلح أنت وأهل هذه البلدة على عهد، فتقول: أمهلونا، لا تقاتلونا ولا نقاتلكم مدة سنة أو مدة عشرة سنين أو مدة شهر حتى يأتينا وفدنا أو يأتيكم وفدكم أو نحو ذلك، فتصطلحون معهم على ترك القتال، فحين ذاك إياكم أن تغدروا، فلا تقاتلوا أحداً منهم.

وكذلك إذا أمّنتم أحداً فإياكم أن تخونوا فتقتلوه، أي: إذا دخل واحد من الكفار إلى بلادكم بأمان فإياكم أن تقتلوه، فإن ذلك يجلب لكم سمعة سيئة، فمن استسلم فإن الله تعالى أمركم بالأمان له، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ**

---

(١) سبق تخريجه.

اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فأمرك بأن تجيره ليدخل البلد، ويسمع كلام الله، حتىٰ ولو كان كافراً، وإذا دخل فلا يتعرض له أحد بأذىٰ ولا بقتل ولا بضرب، بل يعامل بما يليق به كسائر الكفار الذين يقيمون في البلاد الإسلامية، فإن لهم عهد، ولهم ذمة؛ فلا يغدر بهم، وهذا يناسب الترجمة، فإن الغدر هو نقض للعهد.

رابعاً: قوله ﷺ: «ولا تمثلوا»:

التمثيل هو: تشويه خلقة القتيل من الأعداء، وذلك لأن بعض الأعداء عندما يتقاتلون هم وأعداؤهم فيقتلون منهم قتلىٰ، فمتىٰ جاؤا إلىٰ القتلىٰ ـ بعدما يستولون علىٰ المعركة ـ يمثلون بهم، فيبقرون بطن القتيل، ويجدعون أنفه، ويشقون شقي فمه، ويطمسون عينيه، ويشوهون خلقه ووجهه، ويقطعون ذَكَرَهُ، أو ما أشبه ذلك، فالحاصل أنهم يكونون قد مثلوا به، أي: فعلوا به مثلة سيئة، والنبي ﷺ نهىٰ عن المثلة، فقال: «**لا تمثلوا**».

وقد ذُكِرَ أن المشركين لما قتلوا من الصحابة في وقعة أحد من قتلوا جاء النساء إلىٰ بعض القتلىٰ فمثلوا بهم، ومنهم حمزة رضي الله عنه، حيث شقت هند بنت عتبة بطنه ـ لأنه كان قتل أباها ـ، وأخرجت كبده ومضغت منها شيئاً ثم لفظته، فقال أبو سفيان: إنكم ستجدون مُثْلَةً ـ يعني: في القتلىٰ ـ لم آمر بها ولم أنهها، ولم تسؤني ولم تُفرحني، يعني: أنني ما سعيت في هذه المثلة. فهذا دليل علىٰ أن بعض الأعداء يمثلون بالقتلىٰ لشفاء غيظٍ في نفوسهم.

فالحاصل أن النبي ﷺ نهىٰ عن التمثيل بالقتلىٰ، فقال: «**ولا تمثلوا**»، أي: اتركوهم كما قتلوا، وعلىٰ ما أصابهم من الجراح ليجهزهم أولياؤهم وليدفنوهم

- إن كانوا مسلمين - بجراحهم.

خامساً: قوله ﷺ: «ولا تقتلوا وليداً»:

فإنها وصية بترك قتل الصبيان الذين لا يقاتلون لصغر السن، فإنهم لا ضرر منهم على المسلمين؛ ولأنهم يُسْتَرَقُّونَ ويملكهم الغانمون كالسبي، ويتربون مع المسلمين، والغالب أنهم يسلمون؛ حيث ينشئون بين أظهر المسلمين ولا يعرفون عن دين آبائهم شيئاً، فلا حاجة إلى قتلهم.

وهكذا ورد النهي عن قتل النساء، فإنهن يصبحن سبياً وغنيمة يقتسمها المقاتلون بعد إخراج الخمس، لكن إذا قاتلت المرأة بأي نوع من السلاح فإنها تقتل دفاعاً.

وهكذا ورد النهي عن قتال الشيوخ والمسنين الذين لا رأي لهم لعدم الخوف من قبلهم.

فهذه الوصايا ونحوها كان النبي ﷺ يوصي بها كل أمير يؤمِّره على سرية أو جيش، وفيها نصح للأمراء، وهي تمثل العدل والإنصاف حتى مع الأعداء، فإن العادل هو الذي يعدل مع عدوه كما يعدل مع وليه.

*** بعد ذلك أوصى ﷺ أمير الجيش بثلاث خصال يجب أن يُعمل بها عند لقاء الكفار والمشركين قبل قتالهم، لقوله ﷺ: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال»**، ثم قال: **«فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم»**: أي: إذا أجابوك إلى إحدى هذه الخصال فإن الواجب عليك أن: تكف عنهم، وتقبل منهم، ولا تقاتلهم.

وهذه الخصال هي:

الخصلة الأولى: قوله ﷺ: «**ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم**»:

وهذا أول شيء أمرهم به النبي ﷺ قبل أن يقاتلوا، وهو أن يدعوا من يقاتلونهم حتى تبلغهم دعوة الإسلام، فيدعونهم إلى الإسلام، فيقولون لهم مثلاً: نحن نقاتلكم لأجل التوحيد، وندعوكم إلى أن تدخلوا في الإسلام، فليس لنا في قتلكم حاجة، وإنما نريد الخير لكم، فإن قبلتم الإسلام، ودخلتم فيه طائعين، والتزمتم بأحكامه، فأنتم إخواننا تنضمون لنا، وتكونون منا ونحن منكم، وتقاتلون من نقاتله ونقاتل أعداءكم الذين هم أعداء الجميع، وهم الكفار.

وقد كان النبي ﷺ يأمر بالدعوة إلى الإسلام قبل القتال، كما ثبت في حديث علي الذي تقدم في أول الكتاب لما قال له: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**»(١)، وكذلك لما أرسل معاذاً قال له: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»(٢)، إلى آخر الحديث، فأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم.

فإذا أسلموا، ودخلوا في الإسلام، دعاهم إلى ما يكمل إسلامهم، وهو الهجرة، فقال: «**ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين**»، أي: يأمرهم أن يهاجروا ويتحولوا من دار الكفر وينتقلوا إلى دار الإيمان، وكان ذلك قبل أن ينتشر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

الإسلام، وقبل أن تكون المدن كلها بلاد إسلام، أما بعد فتح مكة فإن النبي ﷺ أقر أهلها بها، وقال: «**لا هجرة بعد الفتح**»[١]، فلم يكلفهم أن يهاجروا، وأرسل إليهم من يعلمهم ويفقههم.

فإذا كان الذين أسلموا في بلاد يغلب عليها الكفر ويغمرها الجهل، وجب عليهم أن يهاجروا لأسباب، **منها**: أن يتفقهوا في الدين ويعرفوا كيف يتعبدون؛ حتى لا يبقوا على جهل وضلال، **ومنها**: أن يسلموا من أذى المشركين؛ لأن المشركين لابد أن يؤذوهم في الأبدان وفي الأديان غالباً، فيسلموا من فتنتهم وإلقاء الشبه عليهم، وردهم إلى ما كانوا عليه من الكفر.

ثم قال ﷺ: «**فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**»: أي: إذا لم يهاجروا وبقوا في بلادهم وفي نواحيهم فإنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يقاتلوا في سبيل الله.

فقد كان هناك أعراب من المسلمين في البوادي وكان حكم الشرع جارياً عليهم، بحيث إنهم يُقتل قاتلهم، ويُقطع سارقهم، ويُرجم زانيهم، ويُؤدب عاصيهم، وتجري عليهم أحكام العقود كعقود النكاح ونحوها، ويُلزمون بالنكاح الشرعي والطلاق الشرعي وما أشبه ذلك، ويُلزمون بالأحكام كلها من العِدَدِ ومن مستتبعات الرضاع والنفقات ومواريث الإسلام والوصايا والمبايعات وما أشبهها.

كذلك هؤلاء إذا أسلموا وبقوا في بلادهم ولم يهاجروا لا يكون لهم في

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٧٧)، ومسلم برقم (١٨٦٤)، عن عائشة رضي الله عنها.

الغنيمة والفيء شيء إلا إذا شاركوا المقاتلين، فيكون الفيء والغنيمة الزائد منها للمهاجرين الذين تركوا بلادهم وأموالهم ورضوا بالفقر والفاقة، فجعل الله الفيء لهم، كما ذكر الله ذلك في سورة الحشر، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ٨-١٠]، فهو يُقَسَّمُ على هؤلاء، وكذلك الغنيمة للمجاهدين، ولا يُعطى هؤلاء شيئاً من الخمس إلا أن يجاهدوا.

الخصلة الثانية: قوله ﷺ: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم»:

أي: إذا لم يسلموا فيدعوهم إلى بذل الجزية عن يد وهم صاغرون، حيث يُقرُّ الكافر على دينه، ولكن يبذل جزية مالية كل سنة قدرها على الغني أربعة وعشرون ديناراً وعلى المتوسط نصف ذلك، وعلى الفقير نصفه، ولا جزية على المرأة، ولا فقير يعجز عنها، ونحو ذلك.

فإذا التزموا أن يدخلوا في ولاية المسلمين، وتجرى عليهم أحكام الإسلام في النفس والمال والعرض، وتقام عليهم الحدود فيما يعتقدون تحريمه دون ما يعتقدون حله، والتزموا بالجزية، والتزموا بالصغار، فإنهم حينذاك يُكف عنهم، أي: أنهم إذا أجابوا إلى ذلك قبل منهم وكف عن قتلهم.

الخصلة الثالثة: قوله ﷺ: «فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»:

فإذا امتنعوا من الإسلام مع الهجرة، أو إسلام بدون هجرة، ومن بذل الجزية

والصغار، فاستعن بالله وقاتلهم، أي: ابدأهم بالقتال المشروع بعد انذارهم وإعلامهم بحل دمائهم إذا أصروا على الكفر، وأبوا الدخول في الإسلام، وامتنعوا من الجزية، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فقتالهم وقتلهم فرض كفاية حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية.

وقد استدل بهذا الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى على أخذ الجزية من جميع الكفار، كالوثنيين والبوذيين والدهريين؛ فإن قوله: «**فإذا لقيت عدوك من المشركين...**» إلخ، يعم جميع الكفار من العرب والعجم والروم والبربر وغيرهم، مع أن جمهور العلماء يرون أن الجزية لا تؤخذ إلا من المجوس واليهود والنصارى ومن تبعهم، ولكل مجتهد نصيب.

بعد هذه الخصال التي أمره أن يأتي بها أخبره أنه قد ينزل بحصن فيسأله أهل ذلك الحصن أن يجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فمنعه من ذلك، فقال ﷺ: «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك**».

فإذا قالوا لك: نحن في ذمة الله فاجعل لنا ذمة الله وذمة نبيه، فقل لهم: لا، بل أجعل لكم ذمتي، أي: عهدي، وذمة أصحابي ألا نخونكم.

ويعلل النبي ﷺ النهي فيقول: «**فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**».

والإخفار هو: نقض العهد، أي: أنكم إذا نقضتم عهدكم الذي هو ذمتكم فذلك خفيف بالنسبة إلى كونكم تهاونتم بذمة الله وبذمة نبيه؛ فذلك تنقص لله وتنقص للنبي ﷺ.

فلا يجوز لكم ما دمتم تخافون ألا توفوا، وتخشون أن يكون هناك بعض الجهلة منكم يعتدون بعد العهد وبعد الذمة، فلا تجعلوا لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعلوا لهم ذممكم وذمم أصحابكم.

ثم قال ﷺ: «**وإذا حاصرت أهل حصين فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا**»: وذلك لأن الإنسان لا يحيط بأحكام الله، إنما يجتهد بنظره، فيقول: أحكم فيكم بنظري فأجتهد، وأحكم فيكم بما أراه حقاً، وبما أعلم أنه أقرب للصواب، ولا أجزم بأنه عين حكم الله المنزل من عند الله، وإنما أتحرىٰ أقرب شيء إلىٰ حكم الله، فأحكم به، ولا أنسبه إلىٰ الله مخافة أن أنسب إليه ما ليس بحكمه، وهذا من باب تعظيم حرمات الله وتعظيم أحكامه.

ومعنى ذلك: أن الحاكم ليس له أن يجزم في قضية أن هذا حكم الله، كما يتهاون كثير من القضاة ونحوهم إذا حكم بين اثنين، ويقول: هذا حكم الله، وهذا شرع الله، وإنما عليه أن يقول: هذا الذي وصل إليه علمي، وأما كوني أجزم بأنه وحي منزل من الله فليس عندي دليل قاطع، فإني أتوقف في ذلك، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■



[٦٣]

باب:
ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك» رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله .

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله .

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك .

الرابعة: فيه شاهد لقوله : «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة**...» إلخ .

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه .

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في الإقسام على الله

الإقسام بمعنىٰ: الحلف، والمُقْسِم علىٰ إنسان كأنه يلزمه بالشيء، ويحتم عليه أن يفعل، وغالباً أن المُقْسِم يكون له سلطة علىٰ المُقْسَم عليه، فيقسم الرجل علىٰ ولده، فيقول: أقسمت عليك يا ولدي أن تذهب إلىٰ كذا، أو حلفت عليك أن تذهب إلىٰ كذا، وهكذا أيضاً يقسم علىٰ أخيه ونحوهم.

وقد ورد أن من حقوق المسلم علىٰ المسلم إبرار المُقْسِم، فإذا أقسم عليك أخوك فمن حقه عليك أن تبر قسمه، ولا تعرضه لأن يحنث في يمينه وتلجئه إلىٰ الكفارة، بل أطعه وبر ما أقسم به، كأن يحلف عليك أن يضيفك مثلاً، أو يحلف عليك أن يجلسك في هذا البيت أو في هذا المكان، أو يقسم عليك أن تقبل هذه الهدية أو هذه العطية وما أشبه ذلك، فإذا حلف فمن حقه عليك أن تبر قسمه إن لم يكن عليك ضرر، فإن من حقه عليك أن توفي بيمينه.

ولا يجب إبرار القسم إذا كان علىٰ المُقْسَم عليه ضرر، فإذا أقسم عليك أن تقيم هذا اليوم وعليك ضرر، وتعرف أنه لا فائدة في هذه الإقامة، فلك ألا توفي بما أقسم عليك به، أو مثلاً عرفت أنه سيتضرر إذا أقسم عليك أن يكرمك ويضيفك هذا اليوم، وعرفت أنه فقير، وسوف يستدين ويتكلف، فلك أن تمتنع، فكونه يتحمل كفارة حلفه وهي إطعام عشرة مساكين أهون من أن يتكلف مصاريف الضيافة ونحو ذلك.

وعلىٰ كل حال إبرار القسم من حقوق المسلم علىٰ أخيه، إذا لم يكن هناك ضرر.

والإنسان إما أن يقسم علىٰ ولده ونحوه، ففي هذه الحالة يجب علىٰ المُقْسَم عليه أن يبر.

وأما أن يقسم علىٰ من هو مثله كأخيه أو صديقه، ففي هذه الحال يندب أن يوفي بقسمه وأن يبره إذا لم يترتب ضرر علىٰ هذا الوفاء.

وإما أن يقسم علىٰ من هو أكبر منه وأرفع، فلا يلزم، كأن يقسم مثلاً علىٰ أمير من الأمراء أن يعطيه، أو علىٰ ملك من الملوك أن يسافر أو أن يغزو أو أن يقيم أو نحو ذلك، فليس له ذلك، لأنه لا يقدر أن يتصرف فيمن هو أكبر منه.

وهذه كلها إقسامات بين المخلوق والمخلوق، والباب معقود للإقسام علىٰ الله، ولا شك أنه إقسام علىٰ رب الأرباب، وإقسام علىٰ مالك الملك، فيكون إلزاماً ن العبد الضعيف للرب العظيم، وكيف يلزم العبد الضعيف المملوك المخلوق رب الأرباب ويقسم عليه بأن يفعل كذا أو بألا يفعل كذا؟

فهو إما أنه جعل الرب كالمخلوقين الذين إذا أقسمت عليهم أطاعوك واستجابوا، أو فرض نفسه أعلىٰ من الله، كأنه جعل له تصرفاً في ملك الله، فيكون ذلك تدخلاً في ملك الله وفيما هو من خصائصه، وتلك جرأة كبيرة علىٰ الله تعالىٰ، فيكون منقصاً للتوحيد وهذا هو معنىٰ الإقسام علىٰ الله.

■ قوله: [**عن جندب بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك» رواه مسلم**(١)]:

هذا الحديث ذكر فيه أن رجلاً **أقسم على الله قسماً بالفعل الماضي**، لقوله: «**والله لا يغفر الله لفلان**»، كأنه يتحجر على الله، وكأن المغفرة بيده، فيلزم الله بأن يغفر لفلان، ويمنع الله ألا يغفر لفلان، وذلك يكون تدخلاً في ملك الله، والملك خاص به، قال تعالى: ﴿**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ**﴾ [التغابن: ١]، فيكون ذلك جرأة على الله؛ فلما كان كذلك عوقب هذا المُقْسِمِ على الله بإحباط عمله، وبغفران الله تعالى لذلك المذنب.

■ قوله: [**وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته**(٢)]:

في هذا الحديث ـ وهو حديث أبي هريرة ـ أن رجلاً مر على إنسان وهو يعمل ذنباً، فنهاه، ثم مر عليه يوماً آخر، فنهاه، فعند ذلك قال: «**والله لا يغفر الله لك**»، وكان ذلك الناهي رجلاً غيوراً صالحاً، ولكن معه جهل، وجهله أداه إلى أن يحلف على الله وأن يُقسم عليه أن يفعل وأن لا يفعل، قال أبو هريرة: «**قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته**»، أي: تكلم بكلمة أحبطت عمله، حيث أن الله أحبط عمله، وذلك دليل على أن الكلمة الواحدة قد يحبط بها العمل، وهذا مصداق قول النبي ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت،**

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢١).

(٢) أورده البغوي في شرح السنة برقم (٤١٨٧)، وأبوداود برقم (٤٩٠١)، وأحمد (٢/ ٣٢٣، ٣٦٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح، وحسنه الأرناؤوط في تخريجه لشرح السنة.

يهوي بها في النار كذا وكذا»[(١)] .

عرفنا بذلك أن الكلمة التي تكلم بها هي كونه تجرأ على ملك الله، وحلف أن الله لا يغفر له، وظن أن الله سيتنزل على رغبته، وعلى قوله، فأصبح بهذه الكلمة قد أُحبط عمله وأوبقه.

*** وقد وردت أحاديث تدل على جواز الإقسام على الله، وقد رويت أيضاً حكايات عن بعض الزهاد والعباد أنهم أقسموا على الله فأجابهم.**

فمن هذه الأحاديث قول النبي ﷺ: **«رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»**[(٢)]، ومعناه: أنه قد يوجد إنسان ضعيف فقير مسكين، ثيابه خلقة بالية ـ والطمر هو: الثوب الخلق ـ يدفعه الناس ويردونه، ولا يمكنونه من الدخول في داخل بيوتهم، ولكن مع ذلك له قدر عند الله، بحيث إنه لو أقسم عليه لأبره قسمه، أي: أنه لو قال: أقسمت عليك يا رب أن تغيثنا، لفعل، أو أقسمت عليك يا رب أن تغيثني أو تغيث فلاناً أو أن تنصر فلاناً أو نحو ذلك، فإن الله يبر قسمه، وذلك مدح له مع احتقار الناس له، وكأنه قال: لا تحتقروا كثيراً من الضعفاء؛ فإن الله تعالى يحبهم، ولهم قدر، وبحيث إنه يجيب دعوتهم، ويبر قسمهم.

وليس في الحديث أنهم يقسمون على الله، وإنما فيه أن من فضلهم أنه لو قدر أن أحداً منهم طلب من الله طلباً بإلحاح لأجابه الله تعالى لفضلهم ولشرفهم.

كذلك أيضاً روي عن بعض السلف أنه دعا الله دعاءً فيه شبه إلزام، فأجاب الله دعوته، فبعض الصحابة لما قاتلوا الفرس أو بعض المشركين، قال: (قد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وجعلتني أول قتيل)، فأجاب الله دعوته.

لكن هذا محمول على حسن الظن، كأنه عرف قول الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن عبدي بي ما شاء**»[1]، فليس في هذا تحجر على الله، وليس فيه إلزام وفرض قوة على الله، كالحديث الذي فيه الحلف أن الله لا يغفر لفلان، فلأجل ذلك فُرِّقَ بين أن يكون ذلك عن حسن ظن، أو عن فرضية وإظهار قوة منزلة عند الله ليست للعبد.

فعرفنا بذلك أن الإقسام على الله الذي هو إلزام يعتبر منقصاً للتوحيد وقادحاً في العقيدة؛ حيث إن فيه رفع النفس عن مستواها، وفيه تحجر على الله تعالى، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٣/ ٤٩١)، (٤/ ١٠٦)، وأخرجه أيضاً البخاري برقم (٦٥٠٢)، ومسلم برقم (٢٦٧٥)، بلفظ: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي...**»، عن أبي هريرة رضي الله عنه.



[٦٤]

باب:
لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ نُهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال؛ فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، سبحان الله!»، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد...»، وذكر الحديث، رواه أبو داود.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: نستشفع بالله عليك.

الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».

الرابعة: التنبيه على تفسير: «سبحان الله».

الخامسة: أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
لا يستشفع بالله على خلقه

في هذا الباب تعظيم الرب سبحانه وتعالىٰ، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، فإن الشافع إنما يشفع عند من هو فوقه، فالله تعالىٰ هو رب العالمين، ومالك الملك، ذو الجلال والإكرام، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، فيملك الضر والنفع، والعطاء والملك، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع، فلا يطلب منه أن يشفع إلىٰ أحد من خلقه ولو كان من الأنبياء والرسل.

فلا يقال: يا ربنا اشفع لنا عند محمد، أو عند علي، أو عند جبرائيل، أو ميكائيل... إلخ، فإن في ذلك تنقص لله تعالىٰ؛ حيث يطلب أن يشفع عند المخلوقين الذين هم ملكه وعبيده؛ ليطلب منهم نفع أحد، أو إزالة ضر، أو تخفيف مصيبة، فما لا يملكه المخلوقون، فلذلك ينكر علىٰ من طلب الله تعالىٰ أن يطلب من أحد المخلوقين نفعاً أو ضراً، وإنما المخلوق هو الذي يشفع عند الله تعالىٰ بعد إذنه للشافع في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

■ **قوله: [عن جبير بن مُطعِم، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ نُهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال؛ فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، سبحان الله!»، فما زال يُسبِّح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم**

من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد...»[١]**، وذكر الحديث، رواه أبو داود]:**

ذكر في هذه القصة أن هذا الأعرابي جاء والنبي ﷺ يخطب خطبة جمعة، فوقف أمامه، وتوسل بهذه الأسباب:

أولها: قوله: **(نُهكت الأنفس)**: أي: تعبت وضعفت وهزلت من الجدب، ومن القحط، ومن تأخر المطر، حتى أَمحلت البلاد، فحصل الجوع للأنفس، فنهكت وضعفت من التعب والنصب.

ثانيها: قوله: **(وجاع العيال)**: ومن المعلوم أن الوالد قد يقدم طعامه لولده، فيؤثره بالطعام، فإذا جاع الأبناء فقد جاع الآباء بطريق الأولى، فلما أمحلت البلاد ويبست الأرض لم يجدوا ما يأكلون، فأصبحوا جياعاً.

ثالثها: قوله: **(وهلكت الأموال)**: وقد يقصد بالأموال الدواب التي هي بهيمة الأنعام؛ لأنها التي يملكها أغلب العرب في ذلك الوقت، فهلكت البهائم بسبب الجدب، وتوالي السنين، وتأخر المطر، وجفاف الأرض.

وقد يراد بالأموال هنا الأشجار ونحوها، فعندما تأخر المطر وغارت المياه هلكت الأشجار ويبست، فلم يتمكن من استغلال الأرض، ولم يتمكن من غرس الأشجار واستواء آخر الثمار مما صار سبباً في حصول الجوع.

وقد يراد بالأموال أيضاً التجارات فيكون المعنى أنهم لم يتمكنوا من ترويج

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٢٦)، والبخاري في الكبير (٢/ ٢٢٤)، والدارمي في الرد على الجهمية (٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٥، ٥٧٦)، والطبراني في الكبير رقم (١٥٤٧)، والبيهقي في الأسماء (٤١٧، ٤١٨)، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.
وصححه ابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٩٥)، وابن كثير في التاريخ (١/ ٨)، وضعفه الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٥٧٥، ٥٧٦)، وفي ضعيف أبي داود، وضعفه الأرناؤوط في شرح السنة (١/ ١٧٦).

البضائع والتجارات؛ وذلك لأن وسائل نقلهم وهي الإبل قد هزلت، وقد صارت المفازات طويلة وأرضها مجدبة.

فالحاصل أنه لما ذكر هذه الأسباب طلب من النبي ﷺ أن يستسقي لهم، أي: يطلب لهم من الله تعالىٰ أن يسقيهم المطر.

ثم ذكر أيضاً كلمتين إحداهما جائزة، والأخرىٰ ممنوعة، فقال: (**فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله**).

فالأولى: قوله: (**نستشفع بك على الله**)، أي: نتوسل بك ونتوسط بك إلىٰ الله، فنطلب منك أن تشفع لنا عند الله أن يغيثنا، والمراد هنا: الوساطة في الدعاء، أي: نتوسل بدعائك، حيث إنك رسول الله وخيرته وصفوته من بريته، فإذا دعوت الله وسألته لنا أجابك: فنحن نجعلك واسطتنا وشفيعنا؛ أي: نطلب منك أن تكون شفيعاً لنا عند الله تعالىٰ؛ حتىٰ يزيل ما نحن فيه من الكرب.

والثانية: قوله: (**نستشفع بالله عليك**): أي: نطلب من الله أن يشفع عندك، وهذه الجملة هي التي أنكرها رسول الله ﷺ، وشنع علىٰ هذا الأعرابي الذي قالها، وغضب منه أشد الغضب، وأخذ يسبح الله تعظيماً له عن هذه المقالة، وذلك لأنها تتضمن أن الرب تعالىٰ أنقص من النبي ﷺ، وأنزل منه قدراً.

وذلك لأن الشافع إنما يشفع عند من هو أعلىٰ منه، فإنما يحتاج إلىٰ الشفيع عند من هو رفيع القدر، فأنت مثلاً في الدنيا تستشفع بالخادم علىٰ المخدوم، ولا تعكس، فلا تأتي إلىٰ المخدوم الذي هو المالك، وتقول له: اشفع لي عند خادمك، فإنه أنزل منه قدراً، كذلك أيضاً تستشفع بالوزير عند الملك، ولا تعكس؛ لأن الملك أرفع قدراً من الوزير، فالوزير يشفع عنده، فيأتي إليه ويقول: أنا أشفع عندك أيها الملك لفلان الذي هو أحد رعيتك، والذي هو

بحاجة إلى كذا وكذا، فهذه شفاعة من النازل للعالي، أي: من الوزير عند الملك.

وأما كون الملك يشفع عند الوزير، فإن ذلك تنقص له، فلا تأتي إلى الملك وتقول له: اشفع لي عند وزيرك أو اشفع لي عند أميرك أو عند خادمك أو عند ولدك؛ فإن في هذا تنقص وحط من منزلته.

فإذا كان هذا في جنس المخلوقين بعضهم مع بعض رغم أنهم كلهم بشر، فكيف يكون الرب تعالى شافعاً عند أحد من خلقه؟! لذلك قال: «**إن شأن الله أعظم**»، وكأنه استجهل ذلك الأعرابي الذي لم يقدر الله حق قدره، ولم يعرف ربه حق معرفته، ولم يستحضر عظمة الله وجلاله وعلوه وارتفاعه فوق خلقه، وإحاطته بجميع المخلوقات، وعلمه بجميع الكائنات، بل خفي كل ذلك على هذا الأعرابي؛ فتكلم بذلك كأنه يطلب من الله تعالى العلي الأعلى أن يشفع عند المخلوقين، حيث قال: (**نستشفع بالله عليك**)؛ فقال النبي ﷺ: «**إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه**»، أي: لا يستشفع بالخالق على المخلوق.

ولا شك أن الذي يفعل ذلك كأنه يتنقص الرب تعالى، وكأنه ينزل من قدره، وكأنه يرفع بعض خلقه فوقه، حيث جعل المخلوق مشفوعاً عنده، وجعل الخالق شافعاً، ولا شك أن هذا هو التنقص الذي أنكره النبي ﷺ وبالغ في إنكاره.

فلأجل ذلك نحن نقول: إن كل ما فيه تنقص لله تعالى، وكل ما فيه احتقار لصفة من صفاته، ولفعل من أفعاله، وَجَعْلِ صفة المخلوق مماثلة له أو زائدة عليه؛ فإن ذلك من الشرك، أو مما ينافي كمال التوحيد وينقص ثوابه.

[٦٥]

باب:
ما جاء في حماية النبي ﷺ
حمى التوحيد وسده طرق الشرك

عن عبدالله بن الشِّخِّير، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينَّكم الشيطان»، رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أنس، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس؛ قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبدالله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»، رواه النسائي بسند جيد.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: «أنت سيدنا».

الثالثة: قوله: **«لا يستجرينكم الشيطان»**، مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في حماية النبي ﷺ
حمى التوحيد وسده طرق الشرك

هذا الباب مثل الباب السابق، وهو باب: (ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده كل طرق الشرك)، أي: حماية المصطفى جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.

فيتعلق البابان بأنه ﷺ نهى أن يغلو الناس فيه، أو يغلو في قبره بعد موته، فنهى عن غلوهم في قبره بقوله: «**لا تتخذوا قبري عيداً**»[1]، وبقوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**»[2]، ونهى عن الغلو في ذاته.

■ قوله: [**عن عبدالله بن الشِّخِّير، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينَّكم الشيطان»**[3]، **رواه أبو داود بسند جيد.**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أبوداود برقم (٤٨٠٦). وأحمد في المسند (٤/ ٢٤، ٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٢١١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٢٤٥، ٢٤٧)، والبيهقي في الأسماء (ص٢٢).

قال ابن مفلح في الأدب (٣/ ٤٦٤): إسناده جيد، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥/ ١٧٩): رجاله ثقات وقد صححه غير واحد، وصححه صاحب عون المعبود (٤/ ٤٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٩٤)، في صحيح الأدب المفرد برقم (١٥٥). وفي إصلاح المساجد (١٣٩).

وعن أنس، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس؛ قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبدالله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»، رواه النسائي بسند جيد[1]]:

في هذين الحديثين ـ حديث عبدالله بن الشِّخِّير، وحديث أنس الذي بعده ـ قال هؤلاء الوفد للرسول ﷺ: يا سيدنا، وابن سيدنا، أو يا خيرنا، وابن خيرنا، أو أنت سيدنا، أو أنت أفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً.

قالوا له هذه المقالات، ولا شك أنه يستحقها ﷺ؛ فهو سيد الخلق، وهو أفضلهم، وهو أعظمهم طولاً، وهو صاحب الفضائل العديدة، ولكن مع ذلك نهاهم عن مثل هذه الكلمات؛ لأنهم حديثو عهد بالجاهلية، فخاف أن يعتقدوا فيه ما يعتقده أهل الجاهلية الذين يعتقدون في آلهتهم ما لا يصلح أن يصرف إلا لله، فهم يصفون آلهتهم ومعبوداتهم بالسيادة وبالرفعة وبالمقام العالي؛ فعبدوها مع الله نتيجة تلك الأوصاف.

فلما خاف الرسول أن يغلوا فيه بسبب قرب عهدهم بالجاهلية نهاهم عن ذلك، فلما قالوا له: أنت سيدنا، قال: «**السيد الله**»، أي: أن السيادة حق لله تعالى، فلا تصفوني بها، وأنا لا أستحقها مع الله، ولا أساوي الله في استحقاقها، كذلك لما قالوا له: أنت أفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، أو يا خيرنا وابن خيرنا، نهاهم أيضاً عن ذلك.

---

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠)، وأحمد في المسند (٣/ ١٥٣، ٢٤١، ٢٤٩). وابن حبان في الصحيح (٨/ ٤٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٥٢). عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
قال ابن عبدالهادي في الصارم المنكي (ص ٢٤٦): إسناده صحيح على شرط مسلم.

ولما نهاهم عن ذلك أمرهم ﷺ أن يقولوا بما كانوا يقولونه سابقاً، فقال: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم**»، أي: اقتصروا على قولكم السابق، وهو أن تصفوني بالعبودية والرسالة، فإن ميزته عليه الصلاة والسلام أنه رسول من عند الله؛ لذلك قال: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**».

وقوله ﷺ في حديث أنس الثاني: «**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله**»، أي: أن الله تعالى وصفه بالعبودية ووصفه بالرسالة، فوصفه بالعبودية في قوله: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا**﴾ [البقرة: ٢٣]، ووصفه بالرسالة في قوله: ﴿**وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وبقوله: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فهذه هي ميزته.

أما الذين يتجرؤن على وصفه بهذه الأوصاف فإنهم يُخشى أن يغلوا فيه حيث يصفونه بما لا يستحقه، فلو أرخي لهم العنان وسمح لهم بالأوصاف التي قالوها لم يؤمن بعد ذلك أن يزيدوا، فيقولوا: يا رفيع المقام، أو ياعالم ما لا نعلم، أو ما أشبه ذلك، فيصفونه بشيء من صفات الله؛ فيقعون في الغلو وفي الإطراء الذي نهى عنه ﷺ.

فقد نهى رسول الله ﷺ عن إطرائه فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[1]، وقد وقع كثيرون في هذا الإطراء لما تجاوزوا ما حدد لهم، فقد حدد لهم أن يقتصروا على وصفه بالعبودية والرسالة، فوصفوه بعلم الغيب، ووصفوه بالتصرف في الكون، ووصفوه بملكية ما في الدنيا وما في الآخرة، وما أشبه ذلك، وكل ذلك مما نهى عنه، فأوقعهم هذا الغلو والإطراء في أن أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

---

(١) سبق تخريجه.

فهذا الباب معقود لبيان الواجب في حقه، وتقدير الباب: بيان أنه لا يجوز وصف النبي ﷺ بالصفات التي فيها غلو وإطراء؛ مخافة أن يزيد الأمر بالواصف إلى أن يعطيه شيئاً من حق الله تعالى.

وبالجملة فالرسول عليه الصلاة والسلام حرص على حماية التوحيد حتى في حقه وبما يتعلق به؛ فخاف أن يغلوا فيه ويعطوه شيئاً من حق الله إذا كثر وصفهم له بمثل هذه الأوصاف؛ فحمى التوحيد، وسد طرق الشرك ومنافذه في حقه، وفي حق غيره بطريق الأولى.

ويقال بعد ذلك: إذا كان عليه الصلاة والسلام نهى أن يقال له: يا سيدنا، فكيف تبذل السيادة لأسافل الناس؟! وكيف تبذل السيادة لأراذلهم وللفسقة ونحوهم؟! فقد ثبت أنه ﷺ قال: «**لا تقولوا للمنافق: سيداً؛ فإنه إن يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم**»(١).

ومع ذلك فإنه ﷺ سيد بمعنى السيادة التي هي الشرف والرفعة والفضل، والتي من لوازمها رفعة المقام والشرف على غيره، وهذا حاصل له، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(٢)، وثبت أنه قال للحسن: «**إن ابني هذا**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢)، والترمذي برقم (٣٦١٥)، وابن ماجه برقم (٤٣٠٨)، واللفظ له، عن أبي سعيد رضي الله عنه، وصححه الألباني.
وله شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه مسلم برقم (٢٢٧٨) بلفظ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة..**».
وأحمد (٢/ ٥٤٠)، وأبي داود برقم (٤٦٧٣)، وصححه الألباني.
وشاهد آخر من حديث ابن عباس، أخرجه أحمد (١/ ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩٥)، وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٢٥٤٦، ٢٦٩٢).

سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين»[١]، ولما جاءهم سعد بن معاذ قال لهم: «قوموا إلى سيدكم»[٢]، وقال للأنصار: «من سيدكم يا بني سعدة؟»، فقالوا: فلان، فقال: «بل سيدكم عمرو بن الجموح»[٣]، فالمراد بالسيد هنا: الشريف في قومه، والفاضل فيهم، والمقدم والرئيس الذي له الرئاسة عليهم.

فهو ﷺ كره أن يوصف بهذه السيادة من باب التواضع، ومخافة أن يتجرؤوا إلى إعطائه شيئاً من حق الله سبحانه وتعالى، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٤٦)، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤١٢١)، ومسلم برقم (١٧٦٨)، عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم (٢٩٦)، عن جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم (٢٢٧). وأفاد أن الحديث في الروض النضير (٤٨٤).

[٦٦]

باب:
ما جاء في قول الله تعالى:
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

عن ابن مسعود، قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثَّرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧]. متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع»، أخرجاه.

ولمسلم، عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وروي عن ابن عباس، قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم».

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس».

قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض».

وعن ابن مسعود، قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء. والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»، أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبدالله.

ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبدالله.

قاله الحافظ الذهبي، قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبدالمطلب، قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»، أخرجه أبوداود وغيره.

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ ولم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين وأن السماوات في اليد اليمنىٰ والأرضين في الأخرىٰ.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: «**كخردلة في كف أحدكم**».

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلىٰ السماء.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلىٰ الكرسي.

الحادية العاشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلىٰ سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات بين أسفله وأعلاه مسيرة خمسمائة سنة، والله أعلم.

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء في قول الله تعالى:
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

المراد من هذا الباب بيان أن كل من عظم مخلوقاً وجعل له شيئاً من حق الله فقد احتقر الرب عز وجل، وقد تنقصه غاية التنقص، ولم يقدره حق قدره، وذلك للفرق الكبير الشاسع، والبون البعيد بين الخالق والمخلوق، فالمخلوق الذي يعظمه المشركون؛ سواء أكان آدمياً أو شجراً أو صخراً يعظمونه ويصرفون له شيئاً من العبادة لا يقاس ولا يقارب بشيء من خصائص الله ولا من صفاته.

ويتبين من هذا الباب أن المشركين ما قدروا الله حق قدره، ولا أعطوه حقه، ولا عظموه حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته، ويتبين أن كل من عصىٰ الله واستخف بنظره إليه فإنه ما عرفه حق معرفته، وإذا عرفه فما قدره حق قدره، ولا عبده حق عبادته؛ حيث صرف عبادته التي هي خالص حقه إلىٰ مخلوق ضعيف مهين حقير غاية الحقارة؛ لا يقارب أن يقاس بشيء من خصائص الله ولا من صفاته.

فيتبين من هذه الآية ومن هذه الأحاديث التي في هذا الباب تعظيم حق الله علىٰ عباده، فإذا عرف العباد وصف الله تعالىٰ بهذا الوصف، وعرفوا أنه الذي يتصرف في الكون، وأنه الذي يتصرف في خلقه بقبضهم كما يشاء، وهم ليسوا بشيء، وينادي أمام خلقه فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه، إذا عرفنا ذلك علمنا أن الخلق كلهم في غاية الحقارة بالنسبة إلىٰ عظمته تعالىٰ.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]]:

هذه الآية تصور عظمة الرب وجلاله وكبرياءه، وحقارة جميع المخلوقات العلوية والسفلية بالنسبة إلىٰ عظمة الله تعالىٰ، وأن المشركين ما عرفوا ربهم حق معرفته، ولا استحضروا جلاله وكبرياءه، حيث رفعوا بعض المخلوقات الضعيفة المهينة، وأعطوها شيئاً من حق الله من العبادة، والتعظيم، والتصرف، وظنوا فيها النفع والنصر، والعطاء والمنع، فما قدروا الله حق قدره، فإنه سبحانه يقبض الأرض جميعاً يوم القيامة، ويطوي السماء كلها بيمينه، وتكون هذه المخلوقات مع عظمتها صغيرة حقيرة تحت قبضته وتصرفه، فكيف يصرف حقه من العبادة لمن يسمون بالأولياء، والسادة، والأقطاب، والأوتاد، ونحوهم ممن هم خلق من خلق الله، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية كثيراً من الأحاديث التي تتضمن أن الله تعالىٰ يقبض السموات والأرض وجميع المخلوقات يوم القيامة، وذلك دليل علىٰ ضعف الإيمان عند المشركين والقبوريين، حيث لم يتصوروا ما دلت عليه هذه الآية، وما اشتملت عليه الأحاديث الكثيرة التي تتضمن أن الله تعالىٰ هو الكبير المتعال، المحيط بجميع المخلوقات، وهو مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، وهو رب العالمين ومدبرهم، والمتصرف فيهم، وجميع المخلوقات خاضعة لعظمته، ذليلة صغيرة حقيرة أمام جلاله، وهو المتصرف فيها، فمن رفع المخلوق إلىٰ رتبة الخالق، وجعل له شيئاً من خالص حق الله تعالىٰ، فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، حيث سواه بخلقه، أو رفع المخلوق الضعيف إلىٰ رتبة الخالق، ولهذا ختم هذه الآية بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فنزه نفسه ورفع قدره عن شرك المشركين وتنديدهم، تعالىٰ الله وتقدس عما يقول

الظالمون علواً كبيراً.

وفي هذه الآية إثبات صفة اليد لله تعالىٰ، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾. وقد أثبت الله لنفسه صفة اليد في أماكن أخرىٰ من القرآن، فقال رداً علىٰ اليهود الذين قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، رد عليهم فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: مبسوطتان بالعطاء وبالنفقة، فهو ينفق ويعطي كما يشاء، فأثبت لنفسه اليدين وبسطهما بالعطاء.

وأخبر تعالىٰ بأنه خلق آدم بيديه، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

■ **قوله: [عن ابن مسعود، قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثَّرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧]. متفق عليه.**

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع»، أخرجاه[(١)]]:

دل هذا الحديث علىٰ أن اليهود عندهم علم ورثوه من أنبيائهم، وأنه حق

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨١١)، (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣). ومسلم برقم (٢٧٨٦)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

موافق لكتاب الله تعالىٰ، فهذا اليهودي ذكر هذا الكلام عند النبي ﷺ فضحك تصديقاً له، وقرأ هذه الآية التي فيها شاهد لكلام هذا الحبر، فإن فيها أن الأرض جميعها قبضة الله تعالىٰ يوم القيامة، بما فيها من الشجر، والماء، والثرىٰ، والجبال، والحيوانات، وأن السموات مطويات بيمينه كما يشاء، وأنه يهز هذه المخلوقات كلها، ويقول: أنا الملك أنا الله.

وهذا دليل عظمة الخالق تعالىٰ وكبريائه، وصغر المخلوقات في قبضته، وضعف تصور المشركين من القبوريين والوثنيين، حيث رفعوا المخلوقات إلىٰ رتبة الخالق، فطلبوا من أفراد البشر ما لا يملكه إلا الرب العظيم، وأعطوهم من الطلب والتعظيم ما لا يستحقه سوىٰ الخالق، مع علمهم بأنهم بشر مخلوقون، مسبوقون بعدم، وأتىٰ عليهم الموت، والجوع، والضعف، فلم يدفعوا عن أنفسهم، فلذلك يعترفون بضلالهم وهم في النار، كما قال تعالىٰ: ﴿**قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء: ٩٦].

والحبر هو العالم من اليهود، وفيه دليل علىٰ أن عندهم علم مما في كتب الأنبياء لم يدخله التغيير والتبديل، حيث أقر النبي ﷺ هذا الحبر علىٰ ما ذكره عن كتبهم، وصدقه بما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وفيه إثبات الأصابع لله تعالىٰ كما يليق به، ولا تشبه ما يختص بالمخلوقين، وقد قال النبي ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن**»[1]، رواه مسلم.

وفيه إثبات كثرة الأرضين، وقد يؤخذ ذلك من تأكيد الأرض في الآية

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٤)، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

بقوله: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾، أي: مجموع جنس الأرض وما عليها.

ثم إن الحبر فصل بعض ما عليها، حيث ذكر الشجر، والجبال، والماء، والثرىٰ، ثم بعد التفصيل أجمل لسائر الخلق، فيعم العلوي والسفلي.

وقد صدقه النبي ﷺ، وقرأ هذه الآية كدليل علىٰ صحة ما قال، والآية مكية، ولكنها تعتبر شاهداً لصحة ما ذكر هذا الحبر.

وفيها وفي القصة إثبات صفة اليد، وصفة اليمين، وهذا الإثبات مما نقر به ولا نتأوله، ولا نكيف هذه الصفة، أو نمثلها بما يختص بالمخلوقين، فإن الله تعالىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وقد كثرت الأدلة في ذكر صفة اليد واليمين، كقوله ﷺ: «**يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة**»[١]، متفق عليه، وتأولها النفاة بتأويلات بعيدة متكلفة، وذلك بناء منهم علىٰ أن إثبات اليدين يلزم منه التشبيه، وهو وهم بعيد، وفهم قاصر.

فالواجب إثبات اليدين كما أثبتها الله لنفسه، من غير تشبيه ولا تمثيل، فقد أثبت الله القبض والطي والأخذ ونحوها، وكلها حقيقة لا تحتمل التأويل.

وقد ورد ذكر اليد في عدة مواضع، ولعدة معان، ولكن الجميع يدور حول اليد، وما يحصل بها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤١٩)، ومسلم برقم (٩٧٣)ـ(٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

■ **قوله: [ولمسلم، عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[(١)]]:**

وهذا الحديث أيضاً دليل على عظمة الباري سبحانه، وعلى حقارة المخلوقات كلها بالنسبة إلى عظمته، وهذا القبض والأخذ يكون يوم القيامة، لقول الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فقد رواه البخاري عن ابن عمر بلفظ: «**إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك**»، وهكذا بقية الأحاديث التي ذكرها الشارح ههنا وغيرها، وكلها تدل على عظمة الباري وجلاله وكبريائه، وصغر المخلوقات بالنسبة إلى عظمته، وأن جميع الخلق يوم القيامة يخضعون لعظمته وجلاله وكبريائه، ولو كانوا في الدنيا من الجبارين والمتكبرين الذين يتكبرون على الله تعالى، ويبطشون جبارين في خلق الله، وقد توعد الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقد ذكر الله من أسمائه تعالى (الجبار المتكبر).

فمن تكبر على الله وضعه وأذله وأهانه عاجلاً أو آجلاً، ومن تجبر وعتا وطغى في العباد أذله الله وأهانه.

ثم في هذا الحديث إثبات اليمين والشمال لله تعالى، وقد قال النبي ﷺ: «**المقسطون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين**»[(٢)]، رواه

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٨٨)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم أيضاً برقم(٢٧٨٧). عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٧)، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

مسلم. وقال القرطبي في المفهم: جاءت هذه الرواية باطلاق لفظ الشمال على يد الله تعالى على المقابلة المتعارفة في حقنا، وفي أكثر الروايات وقع التحرز عن إطلاقها على الله، حتى قال: «وكلتا يديه يمين»، لئلا يتوهم نقص في صفته سبحانه وتعالى، لأن الشمال في حقنا أضعف من اليمين. أ. هـ.

يعني: أن ذكر الشمال جاء لأجل المقابلة لليمين، وأن لله تعالى يدان كما ذكر، وكلتاهما يمين مباركة، واليمين هو: الخير وكثرة البركة، والله أعلم.

■ **قوله: [وروي عن ابن عباس، قال: «ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»**[1]]:

هذا الأثر يدل على عظمة الباري وجلاله وكبريائه سبحانه وتعالى، حيث أخبر أن السموات السبع والأرضين السبع في قبضة الرحمن تعالى صغيرة، كأنها حبة خردل في يد أحد العباد، والخردل شجر معروف، وحبه في غاية الصغر، وكثيراً ما يضرب الله المثل بحبة الخردل لصغر حجمها، كقوله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وفي هذا الأثر إثبات عدد الأرضين، وأنها سبع، وإن كنا لم نشاهد إلا الأرض التي عليها جنس البشر، وإثبات اسم الكف، والمراد به اليد، وهو دليل على حقيقة اليد، خلافاً لمن فسرها بالنعمة أو القدرة، وتكلف في صرف الأحاديث عن مدلولها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (٢٤/ ٢٥).
قال الشيخ سليمان بن عبدالله كما في إبطال التنديد ص (٣٢٠): وهذا الإسناد في نقدي صحيح.

■ **قوله: [وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس»[(١)]]:**

تفيد هذه أن الإنسان خلق في هذا الكون العظيم الذي لا يحد ولا يقاس، ولا يعرف مدىٰ هذا الكون ولا مدىٰ منتهاه، فإذا تفكر الإنسان وتدبر وتعقل عرف أن هذا الكون مع تباعده لابد له من مالك، ولا بد له من متصرف، وأن الرب العظيم الذي يتصرف في هذا الكون والذي أوجد ما فيه من الكائنات وخلق ما فيه من الذرات وسائر المخلوقات أنه وحده الذي يستحق أن يعبد، ويركع له ويسجد، ويعظم حق التعظيم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فأخبر في هذه الآية بأن كرسيه وسع السموات والأرض، فأنت أيها المخلوق علىٰ أرض واحدة من سبع أراضين، هذه الأرض ترىٰ سعتها وترىٰ تباعدها واتساعها لمن عليها من المخلوقات، وما فيها من البراري والبحار والقفار والأشجار والصخور والجبال والأودية والشعاب والنباتات والأنهار والآبار، أرض واحدة عليها هذا الخلق العظيم، وهناك مثلها سبع أراضين، لا نعلم أين هي، ولا نعلم ما عليهن، ولكن لا نشك أن عليهن ملكاً عظيماً كذلك، وأن الذي خلقهن وسخرهن هو خالق الكون سبحانه.

كذلك السموات السبع، قد أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنهن سبع شداد، ومع ذلك أخبر بما فيهن من الملائكة ومن المخلوقات التي لا نعلم عددهم، ولا يعلم عددهم إلا الله الخالق وحده.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣/ ٧، ٨).
قال الشيخ سليمان بن عبدالله كما في إبطال التنديد ص (٣٢٠): «رواه أصبغ بن الفَرَجْ بهذا الطريق واللفظ، وهو مرسل، وعبدالرحمن بن زيد ضعيف».
وقال الشيخ ابن جبرين: هذا الحديث مرسل ولكن له شواهد.

فإذا تصورنا عظم مخلوقات الله؛ ومنها هذه السموات السبع التي بهذه العظمة، ومع ذلك فإن هذه السبع إذا نسبت إلى الكرسي كانت كدراهم سبعة ألقيت في ترس، كما ورد في هذا الحديث الذي رواه ابن جرير، وإن كان مرسلاً لكن له شواهد، يقول: «**ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**».

والترس هو: المجن الذي يلبسه المقاتل على رأسه، وهذا المجن عبارة عن مغفر من حديد يقاس على الرأس، ويدخل فيه الرأس حتى يقيه السلاح في القتال، والدراهم هي قطع من الفضة صغيرة جداً بمنزلة الظفر أو نحوه.

والمعنى: أن هذه الدراهم السبعة لو ألقيت في هذا الترس لشغلت مكاناً ضئيلاً جداً، فكذلك الكرسي أمره عظيم، فالسموات حقيرة أمام هذا الكرسي الذي وسع السموات.

بهذا نعرف عظمة هذا الكرسي الذي وسع هذه السموات السبع.

■ **قوله: [قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحَلْقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»**[1]]:

ذكرنا أن السماوات والأرضين صغيرة أو حقيرة بالنسبة إلى الكرسي، وهذا

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٧٧)، وابن أبي شيبة في كتاب العرش برقم (٥٨)، وأبو الشيخ في العظمة برقم (٢٠٦، ٢١٨، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٥٩)، وابن مردوية في التفسير كما في الدر المنثور (٢/ ١٧)، وهو في جامع البيان لابن جرير عند تفسير آية الكرسي رقم (٥٧٩٤)، ونقله ابن كثير (١/ ٣٠٩، ٣١٠) عند تفسير آية الكرسي بإسناده وأقره، ثم ذكره بإسناد ابن مردوية مطولاً، عن أبي ذر رضي الله عنه.
وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٥١٠).
قال ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤١١): صححه ابن حبان وله شاهد عن مجاهد، أخرجه سعيد بن منصور في التفسير بسند صحيح، وأخرجه عبدالله بن أحمد في السنة رقم (٥٩١)، وصححه الألباني في مختصر العلو ص (١٣٠).

الكرسي الذي هذه عظمته فهو صغير وحقير أيضاً إلىٰ العرش، فالكرسي كالمرقاة بين يدي العرش، أي مرقاة أو درجة، وقيل: الكرسي هو موضع القدمين، فهذا الكرسي الذي هذه عظمته صغير وحقير بالنسبة إلىٰ العرش، وهذا العرش الذي اختصه الله بأن استوىٰ عليه كما يليق به لا يقدر قدره إلا الله.

وقد ذكر الله العرش في كتابه العزيز، وذكر شيئاً مما يدل علىٰ عظمته، قال تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقال: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، فالعرش خصه الله بأن استوىٰ عليه كما يشاء، والكرسي مقدمة بين يدي العرش، وهو صغير بالنسبة إلىٰ العرش.

لهذا قال ﷺ في هذا الحديث: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**»، والفلاة هي الصحراء الواسعة المترامية الأطراف، والصحراء هي الأرض المتسعة التي لا يقطعها البصر، فما ظنك بحلقة حديد ألقيت فيها، ماذا تشغل من هذه الفلاة؟! لا شك أنها تضيع بها، وكأنها لا شيء، فكذلك الكرسي الذي اتسع لهذه السموات بأكملها ولهذه الأرضين، وصارت صغيرة بالنسبة إليه، هو أيضاً صغير وقليل وحقير بالنسبة إلىٰ العرش.

وإذا كانت هذه هي عظمة العرش، فإن عظمة رب العرش أعظم وأجل، فهو أولىٰ بأن يعظم ويجل، فالعرش مخلوق من سائر مخلوقاته، والمخلوقات لا تقاس بالخالق تعالىٰ، ولا ينبغي أن يتوهم فيها شيء من خصائص الخالق تعالىٰ.

■ قوله: [وعن ابن مسعود، قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء. والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»، أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبدالله.

ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبدالله[(١)].

قاله الحافظ الذهبي، قال: وله طرق[(٢)].

وعن العباس بن عبدالمطلب، قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»[(٣)]، أخرجه أبوداود وغيره]:

في هذه الأحاديث - حديث ابن مسعود، وحديث العباس - بيان عظمة السموات والأرض، فقد أخبر في هذه الأحاديث بأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، فالسائر إذا سار شهراً قطع مسافة بعيدة، فكيف إذا سار

---

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (٢٦)، وفي النقض على المريسي (ص٧٣، ٩٠، ١٠٥)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ١٠٥، ١٠٦، ١٧٦، ٣٧٧)، والذهبي في العلو ص٦٤، والبيهقي في الأسماء والصفات، (ص٤٠١)، والطبراني في الكبير (٨٩٨٧)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (٢٠٣)، ٢٧٩)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد رقم (٦٥٩).
وصححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص ١٠٠)، والذهبي في العلو، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٦): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر العلو للذهبي (ص٦٤).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٢٣، ٤٧٢٤، ٤٧٢٥)، والترمذي برقم (٣٣٢٠)، وابن ماجه برقم (١٩٣)، وأحمد (١/ ٢٠٦، ٢٠٧)، وضعفه الألباني في تخريج السنة رقم (٥٧٧)، وفي سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه.

سنة؟! وكيف إذا سار عشرون سنة؟! وكيف إذا سار مائة سنة؟! بل كيف بمسيره خمسمائة سنة؟! فلا شك أن المسافة طويلة طويلة.

وقيل: إنها مسيرة خمسمائة سنة بالسير المعتاد، الذي هو سير الأقدام وسير الأثقال؛ لأنه الذي كان مألوفاً ومعروفاً في ذلك الوقت الذي تكلم به النبي ﷺ، وقيل: إنها بمسيرة الطير، ولكن هذا لا يناسب؛ لأن الطير لا يقال له: سائر.

فبكل حال لو قدرنا أنها مسيرة خمسمائة سنة على الأقدام لكانت مسافة بعيدة جداً.

ثم بين في هذه الأحاديث أن مسافة ما بين كل سماءين خمسمائة سنة، وكذا مسافة كثفها، أي: غلظها؛ فإن كل سماء لها جرم عظيم، فغلظها لو انحرق فإنه لا يقطعه السائر على السير المعتاد إلا إذا سار خمسمائة سنة متواصلة.

وهكذا المسافة بين السماء الدنيا والسماء الثانية مسيرة خمسمائة سنة، وهكذا مسيرة غلظ السماء الثانية، وهكذا كل سمائين بينهما مسيرة خمسمائة، وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة؛ فيكون المجموع سبعة آلاف سنة.

والأرض أيضاً كذلك، فإذا قدرنا أن الأرض مسيرتها خمسمائة سنة، وقدرنا أن الأرض الأخرى كذلك، فيكون الجميع أربعة عشر ألف سنة.

ثم ذكر في هذه الأحاديث أن فوق السموات بحراً من أعلاه إلى أسفله كما بين سماء إلى سماء.

وفي بعض الروايات: «**أن عليه ثمانية أوعال** - أي: ملائكة على صور أوعال - **ما بين أظلافهن إلى ركبهن كما بين السماء والأرض**»[1]، فهؤلاء الملائكة المذكورون في الحديث السابق يحملون على ظهورهم العرش الذي هذه عظمته، فالله تعالى أعانهم على حمله كما يشاء، ولم يحملوه إلا بالتسبيح وبقدرة الله تعالى وإقداره لهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجة برقم (١٩٣)، وضعفه الألباني في سنن ابن ماجة رقم (٣٤).

وقد روي في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ قال: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من الملائكة ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة**»[(١)]، أو كما في الحديث، وذكر أن أحدهم رجلاه تحت تخوم الأراضي السبع، ومنكبه في أعلى السموات، أي: فوق السموات.

فهؤلاء من جملة خلق الله تعالى، فهذه مسافات طويلة لا يقدر قدرها إلا الله تعالى الخالق لهذه المخلوقات.

ولهؤلاء الخلق عالم بهم لا تخفى عليه منهم خافية، فهو على عرشه، وهو مع ذلك يعلم ما هم عليه؛ ولهذا قال في الحديث: «**والله تعالى فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم**»، أي: يعلم أحوالكم، ويطلع على ضمائركم.

فالواجب على المسلم أن يؤمن بذلك، والإيمان بذلك له فوائد، **ومن هذه الفوائد**:

أولاً: أنه من جملة ما يعتقده المسلم، ويلزم باعتقاده الإيمان بعظمة هذه المخلوقات وسعتها.

ثانياً: أن هذه المخلوقات لم تخلق نفسها، فهي مع عظمتها لابد لها من خالق مدبر.

ثالثاً: أن هذا الخالق الذي هذه عظمته هو المستحق لأن يعبد.

رابعاً: أن الذي يستحضر عظمة هذا الخالق، لا تحدثه نفسه بمعصيته، ولا بالخروج عن طاعته.

وهذا الباب الذي خُتم به الكتاب وذيل بهذه الأحاديث يستدل بها المؤلف على أن الخالق العظيم الذي هذه عظمته، وهذه عظمة مخلوقاته التي خلقها كيف يليق أن يسوى به أحد من خلقه؟! وكيف تجعلون المخلوق الضعيف شريكاً

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٢٧)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢/ ٤٢٥) رقم (١٧٣٠)، عن جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٥١).

للخالق العظيم في عبادته؟!

فالمشركون ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته، ولو استحضروا عظمته بما في هذه الآثار وبما في هذه الأدلة لما قاسوا به هؤلاء الأموات المقبورين، فهم يجعلون بعض المخلوقين يملك الملك ويدبر الأمر ويتصرف في الكون، ويصفونه بصفات لا تليق إلا بالخالق تعالى، فيقولون: فلان سيدنا أو ولي الله هو الذي يدبر هذه البلاد، فلا يدخل فيها ذرة إلا بعدما يأذن، وهو يعلم الكائنات، ويدبر الأمور، ويتصرف في كذا وكذا، ويعلم ما توسوس به الأنفس، ويحيي ويميت، وما أشبه ذلك.

ألم يعلموا أنه مخلوق أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟

ألم يكن نطفة؟

ألم يكن علقة؟

أليس في حال حياته يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟

أليس في حال حياته يدخل الكنف ويحتاج إلى التخلي؟

أليس قد مات وفارقت روحه جسده؟

أليس قد دفن في التراب؟

أليس قد وارته هذه الأضرحة؟

فكيف يقاس هذا بالخالق الذي هو نموذج من عظمته؟!

لا شك أن الذين فعلوا ذلك ما قدروا الله حق قدره، وإلا لما انصرفوا إلى غيره، ولما عبدوا سواه، ولما أعطوا أحداً من خلقه شيئاً من حقه.

والله تعالى أعلم، وصل الله على محمد، وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً.

■ ■ ■ ■ ■

الفهرس

الموضـــــوع | الصفحة